منتدى مكتبة الاسكندرية

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ٦

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

في قبو

قصة أليمة

ذكريات شتاء

مشاعر صيف

التمساح

Bibliotheca Alexandrina
0098633

دار ابن رشد

الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد السادس

دوستويفسكي: الاعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الاولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

- في قبوى
- قصّة أليمة
- ذكريات شتاء عن مشاعر صيف
- التمساح

جميع الحقوق محفوظة

تقـــديم

يضم هذا المجلد السادس من أعمال دوستويفسكى الادبية الكاملة اربعة أعمال هى «فى قبوى» ، «قصة اليمة» ، «ذكريات شتاء عن مشاعر صيف» و «التمساح» •

فى قبوى*

١٨٦٤

يقول الكسندر سولوفييف عن هذا العمل من أعمال دوستويفسكى: « ان هـــذا الكتاب الغريب هو من أعمـــق آثار دوســـتويفســكى ، ان لم يكن أكملها على الاطلاق من ناحية الشكل» ، فأما أن الكتاب غريب فان الشــعور بالغرابة هو ما تمتلىء به نفس القارىء أثنــاء قراءته ، اذ يحس أنه ازاء لون من ألوان الكتابة والتعبير لا عهد له بمثلهما من قبل ، لا فى أعمال دوستويفسكى التى سبقته ولا فى أعماله التى ستعقبه ، ولا فيما قرأ من أدب سبق دوستويفسكى • وربمـا أحس القارىء فى بعض ما يقرأ من أدب حديث ببعض ما يحسه عند قراءة هذا الكتاب من الشعور بالغرابة ، ولا عجب والحالة هذه أن نرى مدارس أدبية معـــاصرة كثيرة تدعى أبوة دوستويفسكى لها أو بنوتها لدوستويفسكى ، كما نرى مدارس فكرية تنمى نفسها اليه وكمـا نرى مذاهب علمية ونظريات سيكولوجية تصل أسبابها بأسبابه ، وذلك كله ما حمـل كثيرا من الكتاب والمفكرين والنقاد الذين تعاقبوا بعد دوستويفسكى على أن يعدوه « معاصرا » فى كل وقت •

وأما عن العمق الذى يشير اليه ســولوفييف فليس ينفرد به هذا المؤلف من مؤلفات دوســـتويفسكى • ان العمق ، العمق النفسى والعمق الفكرى ، هو ما تتميز به أعمال دوستويفســكى جملة ، وان كانت هذه الاعمال متفاوتة فى قيمتها سواء من ناحية العمق أو من ناحية كمال البناء الفنى •

وأما ان هـــذا الكتاب ربما كان أكمل أعمـــال دوستويفسكى على

الاطلاق من ناحية الشكل ، أى من ناحية الصياغة والبنـاء والأداء ، فهذا رأى للاستاذ سولوفييف قد يؤيده بعضهم وقد يرفضه بعضهم ، ولكن مما لا شك فيه أن كل من قرأ أعمال دوستويفسكى الادبية الكبرى ، مثل «الاخوة كارامازوف» و «الجريمة والعقاب» ، و «الأهبل» و «الجن» وغيرها قد تبلغ نفسه من الامتلاء بالشعور بالكمال الشكلى فى تلك الاعمال الى الحد الذى يتساءل معه : فما الذى يعوز « الاخوة كارامازوف » مثلا من كمال البناء ؟

ومهما يكن من أمر فقد كتب دوستويفسكى هذا الكتاب (فى قبوى) متعجلا كل التعجل ، فى فترة قاتمة مظلمة من فترات حياته قضى أكثرها بمدينة «تفير» ساهرا على زوجته المحتضرة ٠

وقد ظهر القسم الاول من هذا الكتاب فى مجلة «العصر» ، عدد كانون الثانى (يناير) ١٨٦٤ ؛ وفى ٢٠ آذار (مارس) كتب دوستويفسكى الى أخيه ميشيل قائلا ان صياغة هذا النص أصعب مما كان يتخيل ٠ ولكنه أضاف الى ذلك قائلا ان القصة جيدة حتما ، وان العنصر الشعرى فيها لابد أن يلطف سائرها وان ينقذه ٠ وفى ١٢ نيسان (أبريل) كتب الى أخيه من مدينة تفير يقول ان القصة تكتسب أبعادا لم يكن يتوقعها ٠ وماتت زوجته فى ١٥ نيسان (أبريل) فانقطع عن الكتابة ، ثم استأنف العمل فى أواخر ذلك الشهر نفسه بسـان بطرسبرج ، فكان من الممكن أن يظهر القسم الثانى من النص فى عدد نيسان (أبريل) من المجـلة ، ولكن ذلك العدد نفسه صدر متأخرا جدا ، فلم يظهر القسم الثانى من هذا العمل الا فى آخر شهر ايار (مايو) ٠

يعرض علينا دوستويفسكى فى هذه القصة ، ان صـح أن يوصف هذا الكتاب بانه قصة ، يعرض علينا شخصية سلبية ، انسانا يزخر قلبه مرارة ، ويفيض احتقارا للنـاس ولنفسه ٠ ويصفه دوستويفسكى بأنه واحد من ممثلى جيل يمضى وينقضى ٠ والحق أن بطل القصة أشبه بحالم رومانسى تبـددت أوهامه وزالت عن عينيه الغشـاوة وتحرر من الفتنة والسحر : انه صـورة كاريكاتورية لبطل الشاعر بايرون ٠ غير ان فى شخصية هذه القصة أكثر من ذلك: ان نزعة البطل الفردية الجامحة تذكرنا بكيركجارد ونيتشه ، فنحن هنا نتصل بتيار بأسره من الفـكر الأوروبى التشاؤمى الذى عرفه القرن التـاسع عشر ٠ على أن البطل حين ينبرى

بحماسة وحرارة لمهاجمة نظريات المنفعة والنظريات المادية التى راجت فى زمانه رواجا كبيرا ، انما ينطق بلسان دوستويفسكى نفسه ٠

فأما القسم الاول من الكتاب فليس الا نوعا من حديث الانسان مع نفسه ، أو هو نوع من الاعتراف ٠ هكذا يعرف البطل بنفسه قائلا : «أنا رجل مريض ٠٠ أنا انسان خبيث ٠ لست أملك شيئا مما يجذب أو يفتن»٠ ان البطل موظف متقاعد يعيش فى عزلة كاملة مطلقة ٠ وهو يحس بأنه مصاب بمرض فرط الادراك أو الوعى أو الشعور ، فهو مسرف فى تأمل ذاته وتحليل مشاعره والنظر الى باطنه ، وهو لعجزه عن العمل يعادى من يعملون ، وهو يحس ، على وجه العموم ، بأنه أذكى من الناس الذين يلقاهم أو يختلف اليهم ، لكنه لصحو ذهنه يشبه نفسه بفأرة مفرطة فى الوعى تنسحب فى أكثر الاحيان الى جحرها وتعتصم به ٠ وان حقدا شديدا ثابتا يسكن نفس هذا الانسان ٠ انه يرى أن الانسان الفعال يفعل أو يتوقف عن الفعل متى اصطدم بالمستحيل ، أو بمايسميه البطل «جدارا من حجر»٠ فما هو هذا الجدار ؟ هو قوانين العلم ، القوانين التى تجبرنا على أن نسلم بأن «٢ × ٢ = ٤» ، وأن نستخرج كل النتائج التى تترتب على هذا الواقع٠ ولكن البطل لا يقبل هذا الواقع بل يرفضه ٠ ان هذا الواقع لا يحلو له ولا يرضيه ٠ انه يؤثر حرية الشعور على هذه القوانين ، بل ويؤثرها على راحته ، ولا يعدم أن يجد شيئا من لذة فى شعوره بسوئه وخبثه وكسله ٠

ويتمرد البطل على مذاهب المنفعة والمذاهب المادية ، ويسفهها ٠ فهو يرى أن من الغباء والبلاهة أن يظن أن الانسان لا يجترح الشر الا لأنه يجهل مصلحته الحقيقية ، وأن الانسان المتنور انما يرى فى الخير منفعته، فلا بد أن يفعل الخير حتما ٠ ولا يصعب على البطل أن يبين أن البشر ، فى كثير من الظروف ، يهملون منفعتهم الحقيقية ، ويسيرون فى طريق تناقض مصلحتهم ، وهى طريق تكون فى كثير من الاحيان شاقة عسيرة ، فضلا عن أنها باطلة مستحيلة ، حتى لقد يؤثرون الاضرار التى تنشأ عن سيرهم فى هذه الطريق ، لان حماقتهم عجيبة شاذة لا حدود لها ٠ وهب العلم استطاع يوما أن يبدل المجتمع وأن ينظم الاعمال الانسانية على قواعد محسوبة ، وأن ينشىء حكمة عاقلة ، فسيظل يوجد انسان يهتف قائلا : الا فلنقلب هذه الحكمة كلها بركلة من ارجلنا أيها السادة ! الا فلترسل

الى الشيطان جميـــع هــذه اللوغارتمات لنحيا بعد ذلك على ما يشاء لنا هوانا • وسيجد هذا الانسان بشرا يقلدونه • ذلك أن حرية الانسان فى التصرف بنفسه هى مايحتاج اليه الانسان ، مهما يكن هذا الاستقلال باهظ التكاليف !

هكذا نرى أن دوستويفسكى يعالج هنا مشكلة خطيرة ماتنفك تلاحقه وتحاصر فكره : مشكلة ارادة الاستقلال ، مشكلة هذا الظمأ الشديد الى الاستقلال ، وهو ظمأ يؤدى بالافراد فى أكثر الاحيان الى طريق الشر أكثر مما يؤدى بهم الى طريق الخير ، ويوشك أن يكون تمردا على قوانين الخليقة نفسها • ولكن بطل «القبو» يرى فى هذه الارادة نفسها ماهية الشخصية الانسانية • فالانسان مخـلوق غريب الاطوار عامة الى أقصى حد ، حتى ليمكن ان يعرف بأنه الحيوان الذى يتميز بالعقوق خاصة • فهو اذا وصل الى السعادة لا يلبث أن يندفع فى شذوذ ما ، فاذا هو يدمر نفسه بنفسه، واذا هو يهوى الى قاع العذاب لا لهدف الا أن تكون له الكلمة الاخيرة وأن يكون له القول الفصل ، وأن يبرهن لنفسه على أنه انسان ، لا «مسمار فى آلة » • ويترتب على ذلك أن المخلوق الانسانى لن يتنازل يوما عن الالم ، ولن يعدل يوما عن العذاب ، لان الالم والعذاب اســاس وعيه ومصدر شعوره • هذا ما يؤمن به ذلك المفكر المعتزل «فى قبوه» ، معبرا عن أعمق التشاؤم ، ساخراً من « قصر الكريســتال » الذى يرمز الى « الجمهورية السعيدة » ، مؤثرا أن يعيش فى تلك العطالة الواعية الشاعرة ، فى ذلك القبو النفسى الذى يتخبط فيه ، والذى يحرص فيه على أن يظل وحيدا ، وان كان يشـــعر بحاجة الى من يحدثهم ويخاطبهم بخياله عارضا عليهم ما يعن له من افكار ، وما يدور فى رأسه من خواطر مستسرة خفية •

واذا كان هـــذا القسم الاول من الـكتاب يشـبه أن يكون بحثا سيكولوجيا وفلسفيا ، فان القسم الثانى يعرض علينا شخوصا حية كان لها أثر فى حياة البطل • ان الجزء الثانى هو اعتراف أيضا ، ولكن فى صـــورة أخرى • ولعله يفوق فى صـــدقه اعترافات روسو ، كما يقول سولوفييف : ان صـاحب هـذا الاعتراف لا يراعى نفسه فى شىء ، فهو يعرى ذاته ويكشف عن حقاراته • فاذا قرأت ما يقوله عن نفسه تذكرت كلمة باسكال الذى يقول ان القلب الانسانى «ملىء بالقاذورات» •

ان البطل يستحضر فى القسم الثانى ذكريات أحداث وقعت له حين كان

فى الرابعة والعشرين من عمره • لقد كان منذ ذلك الحين كثير الصمت متجهم الطبع يتحاشى الناس ولا يخالط زملاءه فى المكتب الا قليلا ، وكان يكره زملاءه هؤلاء أو يحتقرهم ، رغم أنه ينزلهم فى منزلة فوق منزلته • وكانت حياته تتقلب بين تعاطى المجون تارة والاسترسال فى الاحلام تارة أخرى ، منتقلا من النقيض الى النقيض دفعة واحدة ، فهو اما بطل واما مخلوق شقى، ولا وسط بين هذين الطرفين الأقصيين• وفى ذات صباح يزور رفيقا قديما من رفاقه فى المدرسة اسمه سيمونوف ، فيجد عنده رفيقين قديمين كانا يتحاشيانه • وكان الثلاثة يتناقشون فى مشروع حفلة عشاء يقيمونها وداعا لرفيقهم الرابع الضابط زفركوف • واستطاع البطل أن يحشر نفسه فى هذه الدعوة ، وارتضى أن يدفع نصيبه من تكاليفها رغم فقره • ولكن المادبة لم تكن الا اذلالا له يستمر ساعات طويلة : استغرب زفركوف حضوره ، وطفق الجميع يتكلمون فى صخب شديد ناسين وجوده، فهم لا يخاطبونه بكلمة واحدة ، ويغضب البطل فيحمل الكأس محاولا أن يشرب نخب زفركوف مع شىء من الاساءة اليه فيأبى زفركوف أن يبالى حتى بهذه الوقاحة تصدر عنه • ويذهب المولمون بعد المادبة الى بيت من بيوت الدعارة • وصاحبنا لا يملك المال فهو اذن لا يستطيع أن يتبعهم ، ولكنه يحرص على أن يتبعهم فيقترض مالا من سيمونوف ويهرع مقتفيا أثرهم آملا أن يجثوا على ركبهم امامه التماسا لصداقته ، أو أن يصفع زفركوف • وتتناهبه عواطف متناقضة ومشاعر متضاربة • حتى اذا وصل الى «هناك» ، كان صحبه قد انصرفوا • فاذا هو وحيد • وهذه امرأة تظهر• وهذا هو ينظر الى نفسه فى المرآة ، فيرى وجهه مشعثا منفرا ، فيقول مخاطبا نفسه : سيان ••• بل ان ذلك ليسعدنى ••• نعم انه ليسعدنى أن أبدو لها منفرا كريها • هذه متعة لى •

وفى الفجر يأخذ يسائلها ، فيحدثها بلذة سادية عن الدفن الذى ينتظر المومسات ، والامراض التى تتربص بهن ، والمصير الحزين الذى يرقبهن • ويطرى الحياة العائلية والحب الزوجى ، ليبرز بذلك مزيدا من الابراز حقارة الحمأة التى سقطت فيها هذه المرأة التى ضاجعها • وهاهو ذا يتحمس وينتشى بأقواله ، والمرأة تلزم الصمت زمنا طويلا ثم اذا هى ازاء هذه البلاغة كلها تجهش باكية على حين فجاة ، وتغرق فى دموعها • وتمد اليه بعد ذلك رسالة حب بعث بها اليها طالب يجهل وضعها • ان ليزا تريد أن تترك هذا المكان وأن تعود الى حياة شريفة ••

وما ان يرجع بطل تلك الليلة الشقية الى بيته حتى يكون قد ندم على ما استرسل فيه من عاطفية رخوة • فهو يخشى أن تجيء اليه ليزا تنشد عونه بعد أن تسرع فأعطاها عنوانه • انه لم يشأ الا أن يقلد ذلك الشخص الذى تحدث عنه شعر نكراسوف ، ذلك الشخص الراغب فى انقاذ فتاة ضائعة • ولكن صاحبنا يشعر بأنه عاجز عن القيام بدور الاحسان هذا • فلما وصلت الفتاة المسكينة الى منزله ، انتابته نوبة عصبية واخذ يلقى عليها خطابا فيه اساءة واهانة ، ويذكر لها أنه لم يشأ فى الليلة السابقة الا أن يذلها لأن كان هو نفسه انسانا مذلا ، وأنه لم تساوره أية رغبة صادقة فى انقاذها ، وانما هو أراد أن يمارس سلطته ويجرب قوته فى لحظة تسلية ، ثم هو يقر لها أخيرا بدناءته ، ويعترف بأنه ليس الا مخلوقا شقيا • انه يريد أن يكره ليزا ، وأن يطردها • ولكن ليزا تدرك ما لا تستطيع أن تدركه الا امرأة حين تحب فعلا : لقد أدركت ليزا أن أمامها رجلا تعيسا ، فتبقى الى جانبه ، ولكنه هو عاجز عن الندم ، عاجز عن الحب • وهو لا يجد عناء فى الاعتراف بذلك • انه يخاف من الحب خوفه من «الحياة الحية» ، وانه ليؤثر الاعتزال فى قبوه • وتتركه ليزا أخيرا ، ويحاول البطل أن يلحق بها ضارعا اليها أن تغفر له ، ولكنه لا يستطيع أن يدركها • والثلج يهطل فى الخارج • ويعود البطل الى بيته مثقل القلب بالندم ، مثقل الضمير بالعذاب • ولكنه ما يلبث أن يهدأ حين يتصور أن الاهانة التى ألحقها بليزا ستحسن اليها كثيرا ، لان الالم يطهر النفس ويسمو بالروح ، ومن الخير أن تحمل ليزا معها هذه الاهانة الاليمة الى الأبد •

ان دوستويفسكى يستهزىء هنا بأحلام شبابه • هو يسخر من شعر نكراسوف الذى استشهد به بكثير من الحماسة فى روايته « قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها » • وهو يسخر من كل نظرية نفعية فى اقامة الأخلاق ، وهو يدين الفكرة القائلة بالانانية العاقلة أساسا لقيام مجتمع سليم ، بل هو يرى أن بناء مجتمع كامل على أساس مبادىء منطقية أمر مستحيل ، لأن الطبيعة الانسانية تعارض ذلك ، ولا شيء يغلب هذه الطبيعة الانسانية الا الايمان •

الايمان : هذه هى النتيجة التى أراد دوستويفسكى أن ينتهى اليها مفيضا فى الكلام عليها • ولكن الرقابة لم تتح له ذلك • وذلك ما يشتكى

منه في رسالة بعث بها الى أخيه ميشيل: «ربما كان الاستغناء عن نشر الفصل السابق على الاخير برمته (وهو أهم الفصول لأنه يتضمن الفكرة الرئيسية) خيرا من عرضه على هذا النحو جملا مفككة متناقضة ! ان هؤلاء الرقباء الخنازير قد أجازوا نشر الفقرات التي استهزىء فيها بكل شيء حتى لقد يشتمل ظاهرها على زندقة وتجديف ، فلما انتهيت من كل ذلك الى ضرورة الايمان بالمسيح أوقفوني عن الكلام ! » • ان دوستويفسكي يشير هنا الى الفصل الخامس من القسم الثاني ، وهو فصل لا يتألف في الواقع الا من نحو صفحتين ، ومن المؤسف أن الفصل في نصه الاصلي قد ضاع ولم يصل الينا منه شيء ، لان دوستويفسكي لم ينشره في الطبعات التالية بعد أن أصبح في امكانه أن يفعل ذلك • لعل دوستويفسكي قد قدر أن عليه أن يشرح، بمزيد من العمق والافاضة ، الازمة الروحية التي يعانيها انسان القبو هذا، وأن يجسد فيه فجر توبة وبشارة انبعاث • وذلك ما سيفعله الكاتب في روايته « الجريمة والعقاب » التي نرى بطلها انسانا معتزلا كذلك ، يحسب نفسه من زهوه وصلفه أنه مختلف عن سائر الناس، ويلتقي بمومس يفيض قلبها حبا وتضحية وتفانيا •

ان مؤلفات دوستوتفيسيكي ، رغم تنوعها الظاهر ، يربط بعضها ببعض خيط لا يكاد يرى •

قصة اليمة

١٨٦٢

ظهرت هذه القصة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٦٢ ؛ وهي تهكم لاذع على البيروقراطية الروسية أثناء الاصلاحات الكبرى في عهد الكسندر الثاني • لقد وجد في ذلك الزمان جيل من رجال جدد ، رجال مثاليين يدعون الى الاصلاحات اللبرالية صادقين • ولكن دوستويفسكي يصف لنا في هذه القصة ، بتهكم لاذع ، التمزق المضحك الذي يعتمل في نفوس أمثال هؤلاء الرجال ، ويكشف عن النقص في عزيمة البوروقراطيين الذين ينتمون الى هذا النظام الجديد ، ويتخذ دوستويفسكي من الموظف الكبير ، « الجنرال المدني » ، برالنسكي ،

نمـــوذجا لهؤلاء • ان برالنسكى رجل طمـوح يتحمس لتيـــار النهضة الاجتماعية الذى كان يهز نفوس الناس فى ذلك العصر ، فهو يعد نفسه لبراليا ، وهو يتـكلم بفصاحة وبلاغة عن الآراء الجديدة ، وهو يدعو الى النزعة الانسانية ، وهو ينادى بحسن معاملة المرءوسين ، قائلا لزميليه اللذين جرى بينه وبينهما الحديث فى منزل أحدهما : اذا كنت أنا انسانا فسوف يؤمن بى الناس ويصدقوننى ، فاذا آمنوا بى وصدقونى وثقـوا بالاصلاحات التى أنادى بها وادعو اليها ، ومن شأن هذا كله أن يحمل جميع الناس اخيرا على أن يتحابوا ويتعانقوا • ولكن هذه الآراء لا تلقى صدى عند زميليه العجوزين « الرجعيين » • ويترك برالنسكى السـهرة مساء بعد ان اسرف فى شرب الشمبانيا • وعندئذ تقع له «القصة الأليمة» : انه لم يجد حوذى عربته على الباب ، فاضطر أن يعود سيرا على قدميه ، وهاهو ذا يسمع موسيقى صـادرة من أحد المنـــازل ، فيسأل شرطيا عن هذه الموسيقى ، فيعلم من الشرطى أن موظفا صغيرا اسمه بسلدونيموف يزف الى عروسه • ويتذكر برالنسكى أن هذا الاسم العجيب هو اسم أحـــد مرءوســيه ، فاذا هو يقـــرر ، بتأثير الشـــمبانيا ، أن يدخـل منزل بسلدونيموف ، وأن يشـــارك فى الاحتفال بزفاف مرءوســه ، لأن ذلك سيكون بادرة كريمة نبيلة من جانبه تدل على تواضعه وبساطته ، وتجى برهانا على « نزعته الانسانية » ، وتجلب له سمعة طيبة فيقول عنه الناس انه قاس من حيث هو رئيس ، ولكنه ملاك من حيث هو انسان ويتردد برالنسكى قليلا ، ولكنه مايلبث أن يدخل • أثار دخوله ذهولا عاما شاملا فى أول الأمـــر • ثم أجلس فى مكان الشرف ، حتى لقـــد قدمت اليه شمبانيا • ولكن العريس لا يبدو عليه الارتياح والسرور • وها هى ذى البادرة النبيلة التى اراد لهـــا برالنسكى أن تكون دليلا على كرم نفسه ، هاهى ذى تنتهى الى عاقبة وخيمة : لقد أسرف فى الشراب ، فاخذ يتلعثم لسانه فى الكلام على النزعة لانسانية ، وأخذ الشباب من الحضور يتهكمون عليه ويستهزئون به ، حتى ليتجرأ عليه « صـــحفى » فيصرخ فى وجهه واصفا اياه بأنه « رجعى » • فيشعر هذا الرئيس اللبرالى الذى أراد أن يبرهن على تواضعه وأن يشد أزر العريسين وأن يبث العزيمة فى نفسيهما، يشعر بأنه أصبح هزأة وأضحوكة ، وأنه أذل ، وأن شأنه قد هان فى نظر الحضور • وها هو ذا يسقط مغشـــيا عليه من فرط السكر لانه لم يألف أن يسرف هذا الاسراف فى الشراب يوما من الأيام •

ويرقد الموظف الكبير على سرير الزفاف لاستحالة نقله الى منزله ، وتعتنى به أم بسلدونيموف ، المـــرأة الروســـية الطيبة التى يصـــفها دوستويفســـكي وصفا فيه كثير من التعاطف والمودة • ويقضى برالنسكى ليلة من عذاب ، ثم يمضى فى الصباح الى مسكنه وهو أشبه بخرقة بالية ، فيمكث فيه أسبوعا كاملا لا يجرؤ أن يبارحه من شدة شعوره بالخزى والعار ، حتى لقد فكر فى الاستقالة من منصبه والاعتصام بدير من الأديرة راهبا منقطعاً عن الحياة •• ومع ذلك يعود الى مكتبه فى نهاية الأسبوع ، فيجد الأمور تجرى فيه مجراها العادى المألوف ، ويسره أن يعرف هنالك أن بسلدونيموف يريد أن ينتقل الى دائرة أخرى • وتنتهى القصة بتهكم لاذع : فحين يعلم برالنسكى بقرار مرءوسه المسكين ، لا يخطر بباله لا أن يعتذر اليه ولا أن يصلح له ما أفسده من أمره ، بل يقتصر على أن يأمر بابلاغه « أنه لا يريد به شرا ، وأنه مستعد لنسيان كل شيء » • ويهدأ باله وتسكن نفســه ويطمئن روعه حين يقــول لنفسه : لا شيء ينفع الا الشدة ، الا الشدة •

ان ليبراليته لم تكن الا نزوة عابرة ، وبدوة طارئة ، وهيهات أن تصمد نزوة أو بدوة حين تصطدم بالواقع •

ذكريات شتاء عن مشاعر صيف

١٨٦٣

فى شهر حزيران (يونية) سنة ١٨٦٢ قــام دوستويفسكى بأول رحلة له الى الخارج ليستريح من عمله المرهق محررا لمجلة « الزمان » • فمر بألمانيا ووصل الى باريس فلم يمكث فيها الا عشرة أيام ثم سافر الى لندن ، فلبث بها أسبوعين ، وهنالك تعرف بالفوضوى باكونين ، وتعرف بالمهاجر هرتسن محـــرر جريدة « الناقوس » التى كان يجدها المرء فى روسيا حتى على مكتب الكسندر الثانى • وقد كتب هرتسن يقول بعد مقابلته مع دوستويفسكى : « هو انســـان ساذج خجول مضطرب بعض الشيء ، لـــكنه لطيف جدا ، وهو واثق بالشـــعب الروسى ثقة زاخرة بالحماسة » •

ومن لندن عاد دوستويفسكي الى باريس فقضى فيها اسبوعين آخرين ثم تركها الى جنيف مارا بمدينة بال ۰ وفى جنيف التقى بصديقه نيقولا ستراخوف ، فزار الصديقان ايطاليا معا ۰ وقد كتب ستراخوف بعد ذلك يقول : « لا الطبيعة ولا المباني ولا آثار الفن كانت تعنيه ، فانما كان ينصرف انتباهه كله الى الناس » ۰ ان هذا الغائص العظيم الى اعماق النفوس يلتفت انتباهه كله الى الجماهير والى البشر فى الشوارع وفى المسارح وفى المقاهي ۰ انه يحاول أن يفهم سيكولوجية كل شعب أثناء هذه الرحلة الخاطفة التى استغرقت نحو شهرين ۰

وفى شتاء ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣ نشر دوستويفسكي فى مجلته هذه « الذكريات » التي لا يتحدث فيها عن رحلته الا قليلا ، وانما هو يستخدم هذه الرحلة ليعرض آراءه فى تاريخ روسيا وفى وضعها ، وليتهكم على البلاد التى مر بها ، ليتهكم على ألمانيا وانجلترا ، وعلى فرنسا خاصة ، ثم لا يذكر ايطاليا او سويسرا بخير أو شر ۰

فبعد أن ينقل الينا بعض انطباعاته عن ألمانيا فى الفصل الأول ، وهى انطباعات سيئة ، يستهل الفصل الثاني بجملة قالها فونفيزين سنة ١٧٨٧ ، وهى أن «الفرنسى محروم من العقل ، ولو أوتى عقلا لعد ذلك أكبر شقاء يصيبه» ۰ ولكنه بدلا من أن يحدثنا عن فرنسا يأخذ يتذكر روسيا القرن الثامن عشر ، وسادتها الذين يرتدون الزى الفرنسى والذين يختلفون عن سواد الشعب اختلافا كبيرا ، ثم يقول مع ذلك ان أولئك كانوا أقرب الى الفلاح من مثقفى القرن التاسع عشر رغم كل شيء ۰ وبعد هذين الفصلين « النافلين » الزائدين اللذين ينصرف فيهما الكلام الى روسيا ومشكلاتها الراهنة فىذلك الزمان، ينتقل أخيرا الى الكلام عن فرنسا نابليون الثالث فيصفها وصفا فيه سخرية لاذعة ۰ ويرى بعضهم أن حقد الكاتب على الفرنسيين والانجليز هو الذى أملى عليه هذه السخرية اللاذعة ، لأن حرب القرم لم يكن قد انقضى عليها الا سبع سنين ۰

يظهر دوستويفسكي دهشته من كثرة عدد الجواسيس فى فرنسا ، ومن الافراط فى مراقبة الأجانب نزلاء الفنادق ۰ ويتهكم على البورجوازى ويصفه وصفا زاخرا بالسخرية ، ويهزأ بوطنية الفرنسيين قائلا انك لن تستطيع أن تنتزع من عقل الفرنسى ، أى من عقل الباريسى (لأن جميع الفرنسيين فى الواقع باريسيون) اعتقاده بأنه أول انسان على وجه

الارض ، رغم أن الفرنسي من جهة أخرى لا يعرف من الارض ، باستثناء باريس ، الا قليلا جدا ، ولا يحرص أى حرص على أن يعرفها •

ويسخر دوستويفسكي من فصاحة البيان وبلاغة اللسان لدى الفرنسيين ، ويرى التعبير عن ذلك فى « الهيئة التشريعية » التى لا تضم الا ستة نواب معارضين ، ويؤتي اليها بالامير بونابارت الذى يسمح لنفسه أحيانا بانتقاد الحكومة • ويسخر من البورجوازى ، من حبه للتملك ، من حاجته الى « التقلب على العشب » ، الى أن يملك منزلا له ، الى أن يرى البحر مرة فى حياته • ويسخر خاصة من الحياة العائلية التى لم يعرفها دوستويفسكي ، والحق يقال ، الا من خلال مسرحيات سكريب وأوجييه وبونسار ، والتى تصور الثلاثى الأبدى : الزوج والزوجة وعشيق الزوجة •

فاذا تكلم عن انجلترا هاله مايراه فيهما من ازدحام الناس وسرعة الحياة فكأنه يرى يوم الحشر • لئن كره دوستويفسكي سان بطرسبرج ، لقد كره لندن مزيدا من الكره : سكك حديدية فوق المنازل (وتحتها قريبا) ، فوضى هى النظام البورجوازى فى ذروته ، نهر التاميز المتسمم، الهواء المشبع بالفحم ، الميادين والحدائق الرائعة مع الأحياء الكالحة المتجهمة مثل حى هوايتشابل ، المزدحم بسكانه الهمج الساغبين الذين يوشكون أن يكونوا عراة ، « المدينة » بملايينها وحركتها وتجارتها • ان هذا كله يبدو لدوستويفسكي كأنه معبد الاله بعل • وهناك صورتان تخطفان البصر خاصة : صورة النزهات فى هايماركت حيث يلقى المرء مئات من البغايا ، وصورة ليلة الأحد حيث يرى ألوف العمال يسكرون ويعربدون بينما أولادهم يتسكعون فى الشوارع •

والكهنة الانجليز لا يعيشون الا للأغنياء ولا يزورون الفقراء • هذه بلاد لا تؤمن بالله ، هذه بلاد يختنق فيها الانسان تحت وطأة المال والحساب • ويتنبأ دستويفسكي لهذا التقدم البورجوازى بأنه الى أفول وزوال بعد أن بلغ ذروته •

ان الانتقادات اللاذعة التى يوجهها دوستويفسكي الى الرأسمالية الانجليزية تذكر بانتقادات كارل ماركس الذى لم يقرأه دوستويفسكي فى يوم من الأيام • ان دوستويفسكي يثور على الرأسمالية وعلى الروح البورجوازية ثورة ماركس عليهما • وهو يرى أن الاشتراكية الحقة

لا يمكن أن تقوم فى الغرب ، لأن الغربى فردى ، فهو لا يقبل أن يضحى بشىء من حـــريته الشخصية فى سبيل الجمـــاعة • ومن المعـــروف أن لدوستويفسكى مثلا أعلى فى الاشتراكية قائما على التضحية الارادية والايمان الروحى ، وحب الآخرين، والاخوة الانسانية ، والتساند والوفاق البشرى• وقد عبر عن هذا مجملا فى هذه « الذكريات » •

وهو يرى أن الشعب الروسى مفطور على هذه المعـــانى التى يتطلبها قيام الاشتراكية • أكان هذا نبوءة نبى ؟ ولكن نبوءات دوستويفسكى فى الشئون السياسية لم تصدق كثيرا على وجه العموم • ان هذا الفنان الذى غاص الى أعماق النفس الانسانية وسبر أغوارها ، لم يكن فى أكثر الأحيان مفكرا سياسيا صادق الحدس صادق النبوءة !

التمســـاح

١٨٦٥

ان هذه الحكاية المضحكة هى آخر عمل يحس فيه القـــارىء بتأثير جوجول فى دوستويفسكى • انها تذكر بقصة جوجول عن مغامرة «الأنف» العجيبة • وهذا مايعترف به دوستويفسكى نفسه على كل حال • فكمـــا تخيل جوجول فى سبيل الاضحاك أنفا يتخذ وجه انسان ، كذلك تساءل دوستويفسكى ، حين رأى تمساحا جىء به الى مدينة سان بطرسبرج : ماعسى يفعله انسان يبلعه هذا الحيوان حيا ؟ وهكذا ألف دوستويفسكى حكاية مضحكة هى حكاية « التمساح » هذه التى تشتمل مع ذلك على نقد للأفكار التى كانت رائجة حوالى عام ١٨٦٠ • ان بطل القصة ، وهو موظف ليبرالى ، يحس بارتيـــاح فى جوف التمســـاح • فهو يستطيع أن يضع هنالك نظرية اقتصادية جديدة ، وأن يلقى محاضرات عن التاريخ الطبيعى فى صالون زوجته الذى يؤخذ اليه التمساح • والموظف الكبير تيموتى سيميونتش الذى تلجـــأ اليه زوجة الرجل مروعة مزعورة ، يجيبها بأن التمساح لا يمكن أن يبقر بطنه ، لأن صاحبه اجنبى ، ولأن روسيا محتاجة الى رءوس أموال أجنبية • غير ان جريدتين لهما اتجاه لبرالى تشوهان الوقائع تشويها كاملا : فجريدة « الورقة » تذكر أن رجلا شرها ينتمى الى المجتمع الراقى قد بلع تمساحا • وجريدة « الشعرة » تسلم بأن الرجل

مقيم حقا فى جوف التمساح ، ولكنها ترثى لحال التمساح ، وتمضى الى حد الكلام عن « معاملة همجية للحيوانات الأهلية » ٠

ان هذه الحكاية الخفيفة ماكانت لتحظى بكبير اهتمام لولا أنها اتخذت ذريعة للتشهير بدوستويفسكي تشهيرا أثر فى نفسه تأثيرا كبيرا ٠ فان الجريدة اليسارية « الصوت » التى سماها دوستويفسكي فى قصته « الشعرة »(مستفيدا من التشابه اللفظى بين الكلمتين الروسليتين Volos بمعنى الشعرة و Golos بمعنى الصوت) قد نشرت على سبيل الانتقام مقالة تتهم فيها دوستويفسكي بأنه يستهزىء من الفيلسوف تشرنيشفسكي فان الموظف اللبرالى الذى بلعه التمساح فى هذه القصة يبدو كأنه رمز الى ذلك الفيلسوف الثورى الشهير الذى سجن فى العام الماضى ، وسبق أن عرف النفى الى سيبيريا ٠ والحق أن دوستويفسكي لم يكن قد خطر بباله شىء من هذا قط ٠ لذلك نشر فى «يوميات كاتب» (عدد كانون الثانى يناير ١٨٧٣) مقالة عنيفة صاخبة يحتج فيها احتجاجا شديدا على هذا التجنى عليه ، والح فى تلك المقالة الحاحا خاصا على ما يحمله لخصمه السياسى من اعتبار واحترام ، حتى لقد كتب يقول : « كيف يمكن أن يفترض أحد أننى ، أنا الذى عانيت النفى وعرفت سجن الاشغال الشاقة، أستطيع أن أبتهج بحبس انسان شقى آخر ، واننى فوق ذلك قد كتبت فى هذا الموضوع قصة مضحكة ؟ » ٠

فى قبــوى
١٨٦٤

« فى قبوى »   ZAPISKI IZ POOPOLIA

نشرت فى مجلة « القصة » ، الأعداد : ١ ، ٢ ، ٤ ٠ من سنة ١٨٦٤ ٠

هذه « ذكريات » وصاحبها • والذكريات نفسها من صنع الخيال • على ن بشرا كخالق هذه الصفحات يمكن ان يوجدوا بيننا ، بل ويجب أن يوجدوا بيننا ، بسبب الظروف التى تحكم تكون مجتمعنا • لقد أردت أن أظهر الناس ، بقوة تفوق ما ألفنا من قوة ، على طبع من الطباع التى تعيش فى زماننا هذا • هو واحد من ممثلى الجيل الذى يبقى بعد زواله هو نفسه • فأما الجزء الذى عنوانه « القبو » ، ففيه يقدم الشخص نفسه ، ويفصح عن اقتناعاته ، ويبدو أنه يوضح أسباب مجيئه ، أسباب ولادته الاجبارية فى مجتمعنا • وأما الجزء الثانى فهو « الذكريات » الحقيقية لبعض أحداث حياة هذا الرجل •

فيدور دوستويفسكى

١

أنا رجل مريض ... انا انسان خبيث. لست أملك شيئاً مما يجذب أو يفتن . أحسب أننى اعانى مرضاً فى الكبد . على أننى لا أفهم من مرضى شيئاً على الاطلاق ، ولا أعرف على وجه الدقة أين وجعى . وأنا لا أداوى نفسى ، ولا داويت نفسى فى يوم من الأيام ، رغم أننى احترم الطب والأطباء . وانى من جهة أخرى أؤمن بالخرافات الى أقصى حد ، أو قولوا اننى أومن بها الى الحد الذى يكفى لاحترام الطب (اننى أملك من الثقافة ما يكفى لأن لا أكون من المؤمنين بالخرافات، ولكننى أؤمن بها مع ذلك) . لا ، لا ! لئن كنت لا أداوى نفسى ، ان مرد ذلك الى خبث وشر ! لا شك أنكم لا تتنازلون الى حيث تفهمون هذا ، ولكننى أنا أفهمه .

لن أقدر طبعاً أن أقول لكم من ذا الذى قد أضايقه بما فى نفسى من خبث وشر . ولكننى أعلم علم اليقين أننى لن أزعج الأطباء ، ما دمت لا أستشيرهم . وأنا أدرك أكثر مما يدرك أى انسان آخر أننى اذ أتصرف هذا التصرف لا أوذى الا نفسى ولا ألحق ضرراً بأحد غيرى . ومع ذلك فمن خبث وشر انما أمتنع عن أن أداوى مرضى . اننى مصاب بداء فى الكبد . ألا فليوجعنى هذا العضو مزيداً من الوجع !

وأنا أعيش على هـذا النحو منذ زمن طويل ، منذ زهـاء عشرين عاماً . انني الآن فى الأربعين من عمـرى . كنت موظفاً . ولكننى لست موظفاً فى هذا الأوان . ولقـد كنت موظفـاً شريراً . كنت فظاً . وكان يسرنى ويبهجنى أننى كذلك . كنت لا أرتشى . فكان لا بد أن أعوّض خسارتى هذه بتلك الفظاظة . (هذه مزحة رديئة ، ولكننى لن أشطبها . لقد كتبتها ظناً منى بأنها ستكون لاذعة قارصة . وحين أرى الآن أننى لم أشأ الا أن أجبر نفسى على شىء بشع ، فاننى أدعها ـ أدع تلك الكلمة ـ عامداً) . حين كان المراجعون يقتربون من مكتبى ليسألونى عن أمر من الأمور ، كنت أصرف بأسنانى ، وأشعر بلذة لا حدود لها اذا أنا أفلحت فى أن أذل أحـدهم . وكنت أفلح فى ذلك دائمـاً على وجه التقريب . كانوا فى أكثر الأحيـان أناسـاً خجلين وجلين : هم نوع معـروف من الملتمسين المتوسلين . غير أن بين المتغطرسين منهم رجـلاً كنت أكرهه أكثر مما أكره سائرهم . انه ضابط فى الجيش . كان هذا الرجل لايريد أن يرضخ وأن يذعن بحال من الأحوال ، وكان يحدث بسـيفه قرقعة لا تليق . وقد ظللت فى حرب معه بسبب هذا السلاح مدة ثمانية عشر شهراً . وانتصرت أخيراً : فهذا هو السيف فى مكانه لا يقرقع . وهذا كله قد جرى فى أيام شبابى على كل حال. ولكن هل تعرفون أيها السادة ماذا كان المظهر الأسـاسى من مظاهر خبثى وشرى ؟ أن أبشـع وجه من وجوه ذلك الخبث وذلك الشر هو أننى فى اللحظة التى ينفجر فيها حنقى المسعور ، كنت أشعر شعوراً مخزياً بأن نفسى ليس فيها شىء من خبث أو شر ، وأن غضبى ذاته لا وجـود له ، وأننى لا أزيد على التلذذ بترويع عصافير .

يسيل الزبد من فمى غضباً ، ولكن يكفى أن تعطونى لعبةً ، أو أن تقدموا الىّ فنجاناً من الشاى بالسكر ، حتى تهدأ نفسى ، بل وحتى ترق

نفسي وتحنو • على أن هذا لا يمنعني من أن أقضم أصابعي حنقاً بعد ذلك ، وأن أعاني الأرق أشهراً من شعوري بالخزي والعار • ذلك من عاداتي وأخلاقي •

لا ! لقد كذبت حين زعمت أنني موظف شرير • وذلك كذب مرده الى غضبي • كل ما هنالك أنني كنت أتسلى مع أولئك المراجعين وذلك الضابط ، ولكنني لم أستطع في يوم من الأيام أن أجعل نفسي شريراً حقاً • سرعان ما كنت أحس بوجود عناصر كثيرة في نفسي تحول بيني وبين أن أكون شريراً• كنت أشعر بهذه العناصر تزدحم غفيرةً في كياني• وكنت أعلم أنها تتحرك في نفسي منذ الأبد محاولة أن تظهر الى الخارج ، ولكنني لا أسمح لها بذلك قط ، وأتعمد أن أمنعها من الافلات • انها تعذبني الى حد الشعور بالخزي ، الى حد التشنج • آه ••• لشد ما تضجرني ! ما أكثر ما تورثني من متاعب وهموم !

ولكن ألا يتراءى لكم ، أيها السادة ، أنني نادم على شيء لا أدري ما هو ، وانني استفزكم لسبب لا أعرفه ؟ لا شك في أنكم تقدرون ذلك ••• على كل حال ، سيان عندي أن تظنوا هذا وأن لا تظنوه •••

لم أستطع أن أصبح أي شيء ، لم أستطع أن أصبح حتى شريراً • لا خبيثاً ولا طيباً ، لا دنيئاً ولا شريفاً ، لا بطلاً ولا حشرة • وأنا اليوم ، في هذا الركن الصغير ، أختم حياتي ، محاولاً أن أواسي نفسي بعزاء لا طائل فيه ، قائلاً ان الرجل الذكي لا يفلح قط في أن يصبح شيئاً ، وان الغبي وحده يصل الى ذلك • نعم ، وا أسفاه ! ان انسان القرن التاسع عشر يجب أن لا تكون له عزيمة ، ان انسان القرن التاسع عشر مكره على أن لا يكون له طبع قوي • أما الانسان الذي له شيء من ذلك ، أما الانسان الفعّال ، فهو في جوهره محدود لا قيمة له • ان الأربعين التي عشتها قد رسخت هذا الاقتناع في نفسي • ذلك أن عمري

أربعون عاماً ؟ والأربعون أليست الحياة كلها ؟ أليست هي الشيخوخة منذ الآن ؟ انه لما ينافي اللباقة ويجافي الأخلاق ويهبط بالمرء الى حضيض الصغار أن يعيش أكثر من أربعين عاماً • من ذا الذي يعيش أكثر من أربعين عاماً ؟ هلا أجبتم بصراحة ! سأقول لكم أنا : ان الحمقى والأوغاد هم الذين يعيشون أكثر من أربعين عاماً • لأجهرن بذلك لجميع أولئك العجائز ، لجميع أولئك الشيوخ المحترمين ، لجميع تلك الرءوس التي اشتعلت شيباً ، فصارت كالفضة لوناً وتطيبت بالعطور • لأجهرن بذلك صائحاً أمام العالم كله • ان من حقي أن أقول هذا الكلام ، لأنني سأحيا أنا حتى السنة الستين من العمر ! حتى السنة السبعين ! سأصل الى الثمانين ! انتظروا ! لأسترد أنفاسي !•••

أتظنون ، أيها السادة ، أنني أريد أن أضحككم ؟ في هذا تخطئون أيضاً • أنا لست رجلاً مرحاً فكهاً ، كما أبدو لكم ، أو كما يمكن أن تظنوا • ولكن اذا خطر ببالكم ، متى ضقتم ذرعاً بهذه الثرثرة (واني لأحس أنكم ضقتم بها ذرعاً) ، اذا خطر ببالكم أن تسألوني : من أنت حقاً ؟ لأجبتكم : انني معاون في مدرسة • وقد التمست لنفسي عملاً لأنه كان عليَّ أن أقيم أودي (تلك كانت غايتي الوحيدة) ، فلما ورثت في العام الماضي عن رجل يمت اليَّ بقربى بعيدة ، ستة آلاف روبل ، أسرعت أستقيل من وظيفتي ، واستقررت في ركني • كنت أقيم في هذا الركن منذ زمن طويل ، وما زلت مقيماً فيه الى الآن • غرفتي دميمة ، قذرة ، تقع في آخر المدينة • خادمتي امرأة قروية ، عجوز تبلغ من الرداءة حد الخبث والشر ، وهي فوق ذلك كريهة الرائحة دائماً • يقولون لي ان مناخ بطرسبرج مضر بصحتي ، وان الحياة في العاصمة باهظة النفقات بالقياس الى مواردي التي لا يكاد يكون لها وجود • انني أعلم ذلك ، أعلمه أكثر من جميع أولئك الناصحين

الذين يملكون خبرة ثرية ، وحكمة عظيمة . ولكنني أبقى في بطرسبرج، ولن أترك بطرسبرج في يوم من الأيام . ولن أسافر قط ، لأن ... وما قيمة أن أسافر أو أن لا أسافر !...

على كل حال ، ما هو الشيء الذي يجد المرء في الحديث عنه أكبر متعة ؟

الجواب : أن يتحدث عن نفسه .

حسناً . سأتحدث اذن عن نفسي .

٢

أُحِبُّ الآن أن أعلمكم ، أيها السادة ، سواء أأردتم أن تسمعونى أم لا ، لماذا لم أستطع أن أصبح حتى حشرة . لأقولنّ لكم جاهراً صريحاً اننى حاولت مراراً أن أجعل من نفسى حشرة . ولكننى لم أستطع أن أكون جديراً بهذا . أحلف لكم بمغلظ الأيمان أيها السادة أن الاسراف فى ادراك الأشياء والشعور بها مرض ، مرض حقيقى ، مرض كامل . ان ادراكاً عادياً هو ، من أجل حاجات الانسان، أكثر من كاف . ان نصف الادراك أو ربع الادراك الذى هو نصيب المخلوق المثقف فى قرننا التاسع عشر هذا الشقى ، أكثرُ من كافٍ ، ولا سيما اذا كان هذا المخلوق قد أوتى سوء الحظ ، فأقام فى مدينة بطرسبرج . على سبيل المثال : يكفى كفايةً تامة ذلك الجزء من الادراك الذى يعيش به رجال العمل أولئك الذين يعدون أناساً كاملين . أراهن على أنكم تظنون فىّ التباهى والتبجح والمفاخرة ، وتتخيلون أننى أعمد الى الفكاهة على حساب رجال العمل ، وأنها فكاهة رديئة كريهة ، وأننى أتصرف تصرف صاحبى الضابط ذاك الذى كان يقرقع سيفه . ولكن من ذا الذى يمكن أن يتباهى أيها السادة بأمراضه ، وأن يتخذها سبيلاً الى التفاخر ؟

ماذا أقول ؟ ان جميع الناس يفعلون ذلك • ان النـاس يزدهون بأمراضهم ؛ وأنا أزدهى بأمراضى أكثر من اى انسـان آخـر ، أعترف بذلك • على أننى مقتنع اقتنـاعاً جازماً بأن زيادة الوعى ليست وحـدها مرضاً ، بل بأن كل وعى مرض • أؤكد هنا • ولكن فلندع ذلك الآن• قولوا لى : لماذا يتفق لى ، كأنما على عمد ، فى الدقيقـة التى أكون فيها أقدر ما أكون على ادراك الفروق المرهفة ، على ادراك « كل ما هو جميل ورائع » ـ ألم يكن الناس يتكلمون هـكذا فى الماضى ـ لماذا يتفق لى فى تلك الدقيقة نفسها ، فى تلك اللحظة نفسها ، لا أن تخطر ببالى أعمال مخالفة للأدب فحسب ، بل أن أقترف هـذه الأعمـال أيضـاً ؟ جملة القول : ان جميع الناس يجترحون تلك الأعمال ، ولكنها انما توافيننى أنا حين أدرك أن علىّ أن لا أقوم بها •••

فعلى قدر ادراكى للخير ، على قدر ادراكى « لكل ما هو جميـل رائع » * ، يكون غوصى فى الوحل ، وتكون قدرتى على أن أضيّـع نفسى فيه تضييعاً كاملاً • ولقد كان الطابع الأسـاسى لهذه الحالة أنها لا تبدو عرضية طارئة • فكأنها حالتى العادية الطبيعية ، وكأنها ليست مرضاً أو آفة ، لذلك فقدت كل رغبة فى محاربة هذه الآفة ، وأوشكت أخيراً أن أعتقد (ولعلنى اعتقدت بذلك حقاً) أن هـذه الحالة هى حالتى العـادية الطبيعية السوية فعلاً • ولكن ما أكثر الآلام التى عانيتها فى تلك المعركة أول الأمر ! وكنت لا أقدّر أن الآخرين لا يمكن أن يعيشوا ما كنت أشعر به ، لذلك أخفيت هذه الخصلة الخاصة من خصالى طوال حياتى ، أخفيتها سراً من الأسرار • كنت أشعر بالخزى والعار (ولعلنى ما زلت أشعر بذلك حتى اليوم) ، وكنت أغلو فى كل شىء غلواً يبلغ من الشدة أننى كنت أحس بنوع من لذة خفية ، شاذة ، دنيئة ، متى عـدت الى ركنى الصغير ، فى ذات ليلة قذرة من ليالى بطرسبرج ، مقتنعاً فى ضميرى بأننى

ارتكبت في ذلك اليوم ، مرةً أخرى ، عملاً حقيراً ••• وأنَّ تدارك هذا الماضي مستحيل • وكنت في قرارة نفسي ، في دخيلة سريرتي ، أتعذب عذاباً وأتمزق تمزقاً يبلغان من القسوة أن مرارتي تستحيل أخيراً الى عذوبة مخزية لعينة ، ثم تستحيل بعد ذلك الى لذة ، نعم الى لذة ، الى متعة ! ألح على هذا • وانما أنا أتكلم عن هذا الأمر لأعرف هل يشعر الآخرون بلذات من هذا النوع ! سأشرح لكم : لقد كانت اللذة ، في هذه الحالة ، تنشأ عن ادراكي الواضح ، المسرف في الوضوح ، لمذلتي ••• كانت تنشأ عن احساسي بأنني بلغت حداً أقصى ، فأنا أقول لنفسي : ان وضعك كريه ، ولكن لا يمكن أن يتغير • لم يبق لك من مخرج • لن تصبح رجلاً آخر ؛ فحتى لو أوتيت الزمن اللازم لتغيير نفسك ، ولو أوتيت الايمان الكافي بضرورة التغيير ، فانك أنت نفسك لن تريد هذا ، وهبك أردته ، فلن تفعل شيئاً ، لأن الانسان ربما كان لا يستطيع أن يغير نفسه • ولكن النقطة الأهم ـ وتلك غاية الغايات حقاً ـ هي أن ذلك كله انما يتم وفقاً لقوانين طبيعية أساسية من قوانين الادراك الواسع ، ووفقاً للمطالة المشتقة من تلك القوانين ، والمترتبة عليها • والنتيجة هي أنك لن تعجز عن تبديل نفسك فحسب ، بل ستكون كذلك عاجزاً عجزاً مطلقاً عن العمل والرد • ان الادراك الواسع يقول لي مثلاً : « طبعاً ، أنت انسان دنيء وغد » ، كما لو كان يواسي انساناً منحطاً أن يعرف أنه منحط ••• ولكن كفى ! ••• ما أكثر هذه الثرثرات التي لا تفسر شيئاً ! ••• كيف نفسر تلك اللذة فعلاً ؟ بماذا نعللها ؟ سأوضح لكم الأمر ، سأمضي الى النهاية ••• فانما أنا أمسكت القلم لهذا الغرض •••

اليكم هذا المثال : أنا امرؤ أتصف بكثير من حب النفس • أنا كثير الشك ، سريع التأذي ، كأحدب ، أو كقزم • ومع هذا تمر بي ساعات لو حدث لي فيها أن أُصفع فلربما أسعدني ذلك كثيراً • انني أتكلم

جاداً لا هازلاً : ان في وسعي أن أكتشف في هذا نوعاً من اللذة ، هي لذة اليأس طبعاً . ان اليأس يشتمل على أقوى اللذات ، ولا سيما حين تدرك ادراكاً واضحاً أنه لا مخرج منه . وهل هناك ، في حالة الصفعة ، ما هو أدعى الى الانسحاق من هذا الشعور بأن المرء قد جُعل في مأزق لا مخرج له منه ؟ وكيف عالجتُ الأمر ، فأنا المسئول عن كل شيء أخيراً. وأكثر من ذلك أنني مسئول دون أن أكون قد قارفت أي خطيئة . لأن الأمور قد جرت وفقاً لقوانين الطبيعة . أنا مسئول أولاً لأنني أذكى من جميع من حولي (لقد عددت نفسي دائما أوفر ذكاء من أفراد بيئتي ، وصدِّقوني اذا قلت لكم انني كنت أشعر من ذلك بخجل في بعض الأحيان ، لذلك ظللت طول حياتي أنظر الى الناس نظرة مواربة ، ولم أستطع يوماً أن أحدِّق اليهم وأتفرس فيهم) . وأنا مسئول أخيراً ، لأنني اذا كان لي شيء من السماحة فعلاً ، فان شعوري بأن هذه السماحة لا جدوى منها ولا نفع فيها لا بد أن يفاقم ألمي . اذ فيم تكون هذه السماحة قد أفادتني : انها لم تفدني لا في العفو والمغفرة ، لأن الذي أهانني انما يكون قد ضربني وفقاً لقوانين الطبيعة ، والمرء لا يغفر لقوانين الطبيعة ؟ لا ولا أفادتني في النسيان ، لأن كون الاهانة أمراً طبيعياً لا يمنعها أن تبقى اهانة . وهبني أردت أن لا أكون سمحاً كريماً ، هبني أردت أن انتقم من الشخص الذي أهانني ، فانني لن أستطيع أن انتقم من أحد ، لأنني لن أعزم أمري على ذلك حتماً ولو شئت . أما لماذا لن أعزم أمري ، فسأقول لكم في هذا الشأن كلمتين .

٣

كيفَ تجرى الأمور لدى أولئك الذين يقــدرون أن ينتقموا ، وأن يدافعوا عن أنفسهم بوجه عام ؟ حين تســـتحوذ روح الانتقـام على أنفســـهم ، فليس يبقى فيهم مجال لغير هذه الرغبة • انهم يهجمون الى أمام قُدُماً ، خافضين قرونهم كثيرانٍ مهتاجة ، ثم لا يقفون عن الركض الا حين يعترضهم جدار • يجب أن نقـول فى هذه المناسبة ان هؤلاء الســادة ، أعنى هؤلاء الناس البســطاء المنطلقين على السجية ، أعنى رجال العمل ، يمَّحون أمام الجدار ، ويذعنون صادقين كل الصدق. ليس الجدار فى نظرهم ما هو فى نظرنا نحن الذين نفكر فلا نعمــل : ليس الجــدار فى نظرهم حجة وعــذراً وتعلة • ليس فى نظرهم حجة مناسبة لأن ينكصوا على أعقابهم ، وهى حجة لا نصدقها نحن على وجه العموم ، ولكننا نستغلها فرحين • لا ••• هم ان أذعنوا فانما يذعنون راضين • الجدار فى نظرهم تهدئة • هو لهم حل أخلاقى ، نهائى ، وربما صح أن أقول انه حل غيبى • على أننا سنعود الى الكلام عن هذا الجدار •

ان ذلك الرجل البسيط المنطلق على السجية هو فى نظرى الانسان السوى الذى فكرت فيه الطبيعة أمنا الحنون ، حين تلطفت فجعلتنا نولد

على الأرض • انني أحسد ذلك الانسان • لست أنكر أنه غبي • ولكن ما أدراكم ؟ لعل الانسان السوى يجب أن يكون غبياً • بل لعل هذا جميل جداً • ومما يسوغ هذا الافتراض عندى مزيداً من التسويغ أننا اذا نظرنا الى نقيض الانسان السوى ، أى الى الانسان المرهف الوعى والادراك ، الانسان الذى لم يخرج من حضن الطبيعة ، بل من امبيق (قد يكون هذا من الصوفية والغيبية أيها السادة ، ولكننى ميال أيضاً الى هذا التصور) ، وجدنا هذا الانسان الخارج من امبيق يبلغ من الامحاء أحياناً أمام نقيضه ويبلغ من الرضـــوخ له أنه رغم كل رهافة وعيه وادراكه يصل هو نفسه الى أن يعد نفسه فأرة صغيرة لا أكثر •قد يكون فأرة تنعم بقدر كبير من حسن البصيرة ، ولكن ذلك لا ينفى أنه فأرة لا انسان ، أما الآخر فهو انسان حقاً• يترتب على ذلك أن ••• الخ الخ• ولكن أنكى ما فى الأمر أنه هو نفسه فأرة صغيرة ! ما من أحد يطالبه بهذا الاعتراف • وذلك شيء هام جداً •

فلننظر قليلاً فى هذا الفأر الصغير فاعلاً • لنفرض أنه أهين هو أيضاً (انه يشعر فى جميع الأحيان تقريباً أنه مهان) ، وأنه يطمع فى الانتقام • من الجائز أن يجمِّع فى نفسه غضباً أشد أيضاً من غضب « رجل الطبيعة والحقيقة » • ومن الجائز أن تكون الرغبة الحقيرة الدنيئة لديه فى أن يردَّ الشر بالشر لمن أهانه رغبة عنيفة تأكله أكلاً ، وربما كانت هذه الرغبة لديه أعنف منها لدى « رجل الطبيعة والحقيقة » *، لأن هذا الأخير ، بما يتصف به من غباء طبيعى ، يعد انتقامه عملاً عادلاً كل العدل ، فى حين أن الفأر الصغير لا يمكن أن يسلِّم بعدالة هذا العمل ، لأنه يملك وعياً أبصر • ولكن ها نحن أولاء وصلنا أخيراً الى الفعل نفسه ، الى الانتقام • ان الفأر الشقى قد استطاع ، الى جانب الدناءة الأولى ، أن يجمع حوله ، على صورة شكوك وترددات ، دناءات أخرى

كثيرة ، وأن يضمّ الى المسألة الأولى مسائل أخرى لا يمكن حلّها بحال من الأحوال ، وتبلغ من الكثرة أنه ، مهما يفعل ، يكون قد أنشأ من حوله ركاماً قذراً عفناً من الاضطراب ، وأحاط نفسه بمستنقع من وحل هو تردداته وشكوكه وبلبلته وجميع البصاق الذى يمطره به رجال العمل الذى يعيشون من حوله ويحكمون عليه وينصحون له ويضحكون منه ملء حلوقهم وأشداقهم .

ولا يبقى له عندئذ ، بطبيعة الحال ، الا أن يترك كل شيء متظاهراً بالاحتقار ، والا أن يغيب فى جحره مجللاً بالخزى والعار . وهناك ، فى قبوه القذر العفن ، لا يملك صاحبنا الفأر الصغير ، المهان المصعوق المهزأ ، الا أن يغطس على مهل فى حنقه البارد ، المسموم الذى لا ينفد ولا يغيض . سوف يظل على مدى أربعين عاماً يتذكر الاهانة التى تحمّلها ، يتذكرها بأخزى تفاصيلها ، مضيفاً الى هذه التفاصيل فى كل مرة تفاصيل أخرى أشد خزياً منها ، مستثيراً نفسه فى خبث وشر ، مؤججاً نار خياله مزيداً من التأجيج . ولسوف يشعر هو نفسه من ذلك بالخجل ، ولكنه سيظل يتذكر جميع التفاصيل ، ويستعرض جميع الظروف واحداً واحداً ، ويتخيل ظروفاً جديدة بحجة أنها كان يمكن أن تقع ، ولن يغفر شيئاً البتة .

وربما حاول أن ينتقم ، ولكنه يحاول ذلك خلسةً ، يحاوله قليلاً قليلاً ، يحاوله خفيةً ، دون أن يشق أية ثقة لا بحقه فى الانتقام ولا بنجاحه فى الانتقام ، مدركاً ادراكاً قوياً أن المحاولات التى يقوم بها من أجل أن ينتقم ستجلب له هو من العذاب والألم أكثر مما ستجلب منهما للشخص الذى يحاول أن ينتقم منه والذى قد لا يشعر بمحاولاته هذه ولا يلاحظها . وسيظل صاحبنا يتذكر هذا كله حتى حين يرقد على

فراش الموت ، مضيفاً اليه ما تراكم على المبلغ من فوائد مركبه ، وعندئذ ... ولكن هذا نفسه، أعنى هذا الخليط الكريه البارد برودة الجليد، هذا الخليط من اليأس والأمل، هذا الانقبار المقصود المتعمد ، هذا الاندفان أثناء الحياة، هذا الشعور بعدم وجود أى حل ـ وهو شعور واضح ولكن صاحبنا يشك فيه دائماً ـ هذه العقدة المؤلفة من رغبات لم يكتب لهـا التحقق فارتدت الى نفس صاحبها ، ومن قرارات محمومة عنيفة اتخذها الرجل على أنها قرارات أبدية لا نكول عنها ولكنه لم يلبث أن ندم على اتخاذها ، أقول ان هذا كله هو بعينه عصارة تلك اللذة الغـريبة التى أشرت اليها منذ قليل ؛ وهى لذة تبلغ من الرهافة والدقة فى بعض الأحيان ، وتبلغ من الغيـاب عن الوعى والهرب من الادراك أن النـاس العاديين ـ أو حتى أولئك الذين يملكون أعصاباً متينة قوية ـ لا يفهمون منها شيئاً البتة . وربما أضفتم الى ذلك سـاخرين : « بل أن أولئـك الذين لم يُصفعوا فى يوم من الأيام لا يفهمون منها شيئاً البتة أيضاً » . وهكذا تُسمعوننى، فى رفق وكياسة وأدب ، أننى قد صُفعت فى يوم من الأيام ، وأننى أتكلم عن سابق خبرة ومعرفة . أراهن على أن هذا قد جال فى خاطركم ودار فى خلدكم . ولكن اطمئنوا يا سادتى : اننى لم أُصفع قط ؛ ثم ان ماقد يجول فى خاطركم ويدور فى خلدكم بهذا الصدد لا يعنينى ولا يهمنى بحـال من الأحـوال . ولعلنى أنا الذى آسف على أننى لم أوزع على الناس الا قدراً قليلاً جداً من الصفعات أثنـاء حيـاتى . ولكن كفى ! لا أريد كلمة واحدة حول هذا الموضوع ، مهما يكن شائقاً لكم !

وهأنا ذا أتابع الكلام ، بهدوء ، عن الناس الذين يملكون أعصاباً متينة قوية ، فلا يتذوقون بعض اللذات المرهفة . ان هؤلاء السادة ، رغم أنهم يجـأرون كالثيران فى بعض الأحـوال ، ورغم أن هذا يشرّفهم كثـيراً ، فهم كما سـبق أن قلت يذعنـون أمام المسـتحيل ويرضخون

ويتّمحون ! واذا قلنا المستحيل فقد قلنا جداراً من حجر ! ولكن ما هو هذا الجدار ؟ هو القوانين الطبيعية بداهةً ، هو ثمرات العلوم الدقيقة ، ونتائج الرياضيات ، فاذا بُرهن لكم مثلاً على أنكم من سلالة القرود *، لم يكن يجديكم أن تصعروا وجوهكم ، وكان عليكم أن تقبلوا هذا وأن تسلموا به . واذا بُرهن لكم على أن قطرةً واحدةً من شحمكم أنتم يجب أن تكون أغلى عندكم وأعزّ على أنفسكم وآثر فى قلوبكم من مائة ألف من البشر أقرانكم ، وأن هذا بعينه هو ما تؤدى اليه جميع الفضائل، وجميع الواجبات ، وجميع ما الى ذلك من خيالات وأوهام ، لم يكن لكم حيلة فى دفع هذه الحقيقة وجحود هذه الواقعة ، وانما كان عليكم أن تسلّموا بذلك لأن ٢ × ٢ = ٤ ، فذلك من الرياضيات . حاولوا قليلاً أن تناقشوا !

لسوف يهتفون عندئذ قائلين : « عفواً ، انكم لا تستطيعون أن تحتجوا : ان ٢ × ٢ = ٤ ؟ والطبيعة لا تحفل بدعاواكم ولا تكترث لمزاعمكم . انها لا تهتم برغباتكم ، وليس يعنيها كثيراً أن لا توافقكم قوانينها ، فأنتم مضطرون أن تقبلوها كما هى ، وأن تقبلوا كل ما ينحدر منها ويترتب عليها . ان الجدار جدار ... » ، الخ الخ ! ولكن فيم تعنينى قوانين الطبيعة والرياضيات يارب ، اذا كانت هذه القوانين وهذه المعادلة « ٢ × ٢ = ٤ » ، لا ترضينى ولاتعجبنى ؟ صحيح أننى لن أستطيع أن أحطم هذا الجدار بجبينى اذا كانت قواى لا تكفى لهذا العمل . ولكنى أرفض أن أذل أمام هذا الحاجز لمجرد أنه جدار من صخر وأن قواى غير كافية !

لكأن هذا الجدار يمكن أن يمدنى بهدوء ويزودنى بطمأنينة ، لكأن المرء يستطيع أن يتصالح مع المستحيل لمجرد أن هذا المستحيل قائم على حقيقة أن « ٢ × ٢ = ٤ » . آه ... ذلك أبطل الأباطيل ! ...

وانه لأشق من ذلك وآلم من ذلك كثيراً أن تفهم كل شيء وأن تعي جميع الاستحالات ، وأن تدرك جميع جدران الصخر ، ثم تأبى أن تذل أمام أية استحالة من هذه الاستحالات ، أمام أي ســـور من تلك الأسوار اذا لم يعجبك ذلك ؛ وأن تصل بالاستدلال المنطقي الصارم الى نتـائج موئســة فيما يتعلق بذلك الموضــوع الأبدي وهو نصــيبك أنت في المسئولية عن جدار الصخر هذا رغم أن من الواضح الى حد البداهة أنك لا شــأن لك به ولا دخل لك فيه ؛ وأن تنتهي تبعــاً لذلك الى أن تنطس في عطالتك صامتاً ، ولكن صارفاً بأسنانك من اللذة ، مقدراً مع ذلك أنك لا تملك حتى أن تثور وتتمرد على أي شخص ، اذ ليس هناك أحد على وجه الاجمال ، ولن يكون هناك أحد ، فما ذلك الا مهزلة ، ما ذلك الا خدعة ، ما ذلك الا هراء ، ولست تعرف شيئاً ولست تعرف أحداً ، ولكنك ، رغم جميع تلك الخدع ، ورغم كل ذلك الجهل ، تتألم وتتعذب ، وكلما قلّ فهمك ازداد ألمك وازداد عذابك .

٤

سوف تصيحون ضاحكين : « ها ! ها ! ها ! اذا كان الأمر كذلك ، فلتجدنّ شيئاً من لذة حتى فى وجع الأسنان » . فأقول لكم :

ــ طبعاً ! ان فى وجع الأسنان لذة : لقد عانيت وجع الأسنان شهراً بكامله ، فأنا أعرف ماذا أقول . ان الانسان لا يتوجع صامتاً حين يكون فى أسنانه مرض . انه يئن . ولكن أنينه تعوزه الصراحة . ان فى الأنين شيئاً من المكر . والأمر كله انما يكمن هنا . ان الأنين يعبّر عن لذة الشخص الذى يتألم . فلو لم يشعر المريض بشىء من اللذة ، لكف عن التوجع والشكوى . ذلكم مثال ممتاز يا سادتى ، وسأوضحه .

ان الأنين يعبر أولاً عن ادراككم الذليل لكون ألمكم لا جدوى منه ولا طائل تحته البتة ، ولكونه مشروعاً من وجهة نظر الطبيعة ، التى تبصقون عليها طبعاً ولكنها تؤلمكم مع ذلك هادئةً بغير احساس ولا تأثر . والأنين يعبّر ثانياً عن أنكم تفهمون أن العدو غير موجود ، ولكن الألم موجود مع ذلك ، وأنكم رغم جميع من يسمون فاجنهايم * ، انما أنتم عبيد أسنانكم ، فاذا حلا لانسان أن يوقف أوجاع أسنانكم توقفت أوجاع أسنانكم ، أما اذا قرر غير ذلك تركها توجعكم ثلاثة أشهر أخرى ؟ واذا رفضتم الرضوخ وأصررتم على الاحتجاج لم يكن لكم من سبيل الى

العـزاء الا أن تصـفعوا وجوهكم أو أن تحطمـوا قبضـات أيديكم على الحائط. ان هذه الاساءات والاهانات التي تسيل الدماء ، وهذه السخريات الصـادرة لا أدرى عمَّن ، هي بعينها التي تولد ذلك الاحساس بالمتعة الذى يبلغ أحياناً مبلغ اللذة القصوى .

يا سادتي ، أرجوكم أن تصيخوا بأسماعكم مرةً الى أنات رجـل مثقف من القرن التاسع عشر يعاني ألم الأسنان منذ يومين أو ثلاثة أيام، وذلك حين يأخذ يئن لا كما كان يئن في اليوم الأول ، أي لا لأنه موجع فحسب ، لا كما يئن فلاح جافي الطبع غليظ القلب ، بل كما يئن انسان مثقف لمسته الحضارة الأوروبية ، كما يئن انسان « انفصل عن الأرض التي ولد فيها وانفصل عن مبادىء قومه » ، على لغة أهل هذا الزمان . ان أنات هذا الرجل تصدر عنه خبيثة حانقة لا تنقطع في نهار ولا في ليل. هو يعلم حق العلم مع ذلك أنهـا لا تعـود عليـه بأى نفع . وهو يعلم أكثر مما يعلم أى انســان آخـر أنه يثير مَنْ حوله ويغضبهم ويحنقهم ويعذبهم ويعذب نفســه دون أن يجنى من ذلك أى نفع . هو يعلم أن الناس والأسرة الذين يتوجع أمامهم أصبحوا لا يشعرون الا بالاشمئزاز من شكواه ، وأنهم أصبحوا لا يصدقونها ، وأنهم يفهمون أن في وسـعه أن يئن بطريقة أخرى ، أن يئن أنيناً أقرب الى البساطة ، أنيناً لا تصاحبه هذه التدحرجات ، ولا ترافقه هذه الأوضاع المصطنعة كلها ، وأنه يغالى ويبالغ مكراً ودهاءً وخبثاً ... أرأيتم ؟ الا ان هذه المذلة البصيرة هي التي تثوى فيها اللذة . فكأن الرجل يقول : « آ ... أنا أزعجكم ، أنا أمزق قلوبكم ، أنا أحـرم أهـل الدار كلهم من النوم ! أحسن ... لا تناموا ! اعلموا أن في أسناني ألماً ! لم أبق في نظركم ذلك البطل الذى كنت أدعى أنني هو . ما أنا الآن الا رجل ردىء ، ما أنا الآن الا انسان طالح ! أحسن ! بل انه ليسعدني أن تكتشفوني أخيراً . هل تشق أناتي

على أنفسكم ، هل تضـايقكم وتزعجكم ؟ لا ضير ... اليكم اذن مزيداً منها ! » .

ايها السادة ، أما زلتم لا تفهمون ؟ نعم ، فمن أجل أن تستطيعوا ادراك لطائف هذه اللذة الحسية ، لا بد أن يكون وعيكم قد بلغ درجة كبيرة من العمق . أتضحكون ؟ يسعدنى هذا كثيراً . ان أمازيحى أيها السادة رديئـة حتماً ، فهى مضطربة متشـابكة ، وهى سـيئة الوقع فى الأسـماع . ومرد ذلك كله الى اننى لا أعتبر نفسى ، لا أقدرها قـدراً كبيراً . ولكن هل فى وسع انسان يعرف نفسـه ، أن يعتبر نفسـه ولو قليلاً ؟

٥

هل في وسع انسان تعلق باكتشاف نوع من اللذة في الشعور بمذلة نفسه ، هل في وسع هذا الانسان حقاً أن يظل يحس باحترام نفسه ؟ ان ما أقوله الآن لا تمليه عليّ ندامة تافهة ، أو توبة سخيفة ، فأنا على وجه العموم أكره أن أقول : « اغفر لي يا بابا ، فلن أعود الى هذا قط ! » ، لا لأنني عاجز عن النطق بهذه الكلمات ، بل ربما كان عكس ذلك هو الصحيح ، أي لانني قادر على ذلك أكثر مما يجب •

ولقد كنت ، بما يشبه العمد ، أقحم نفسي في أمور لا شأن لي بها البتة ، ثم اذا أنا ـ وهذا أنكى وأدهى ـ أرقُ واعترف وأبكي وأتوب ، فانتهي الى خداع نفسي آخر الأمر طبعاً ، ولكن دون تظاهر كاذب ، لأن قلبي هو الذي كان يدبر لي هذه المكائد القذرة •

وليس يسعُ المرءَ في هذه الحالة أن يؤاخذ قوانين الطبيعة ، رغم أن هذه القوانين قد سببت لي مضايقات كثيرة أثناء حياتي • انه ليشق على نفسي أن أتذكر هذا كله ، ولقد كان شاقاً في حينه أيضاً على كل حال• دقيقةً أخرى وأدرك حانقاً ان ذلك كله لم يكن الا كذباً ، لم يكن الا كذباً ذميماً ، لم يكن الا تمثيلاً منحطاً ـ أعني تلك الندامة والتوبة ، ذلك الحنان والترقق ، تلك الأيمان المغلظة على أن أحيا حياة جديدة •

فاذا سألتمونى لماذا كنت أعذب نفسى هذا التعذيب ، لماذا كنت أمزّق نفسى ذلك التمزيق ، قلت لأننى كان يضجرنى كثيراً أن أبقى مكتوف اليدين • فلهذا انما كنت أسترسل فى اصطناع تلك الأوضاع الكاذبة • أؤكد لكم أن الأمر كان كذلك • ارصدوا أنفسكم جيداً أيها السادة ، تلاحظوا أن الأمور تجرى على هذا النحو بعينه • كنت أتخيل مغامرات ، وأخلق حياة وهمية لأعيش على هذا النحو أو ذاك • كم من مرة ، مثلاً ، اتفق لى أن أهين نفسى عامداً لغير ما سبب : أنت تعلم حق العلم أنه ليس هناك ما يوجب أن تغضب ، وأنك تستثير غضبك وتستفز حنقك عامداً ، ولكنك تبلغ من استثارة غضبك واستفزاز حنقك أنك تفلح أخيراً فى الوصول الى حالة الغضب صادقاً كل الصدق •

كنت أحب هذه الحكايات وأميل الى هذه المشكلات دائماً ، فبلغت من ذلك حداً فقدت معه كل سيطرة على نفسى آخر الأمر • وقد أردت أن أجبر نفسى ، مرةً أو مرتين ، على أن أصبح عاشقاً • حتى لقد تألمت وتعذبت ، أؤكد لكم ذلك أيها السادة • ان المرء لا يصدّق ألمه فى قرارة نفسه ، حتى ليكاد يضحك منه ويستهزىء به ، ولكنه يتألم مع ذلك ، تألماً واقعياً جداً ••• يشعر بنار الغيرة ، تثور ثائرته ، يطيش صوابه ، يخرج عن طوره ••• وليس لهذا كله من سبب الا الضجر أيها السادة • ان العطالة تسحقنا سحقاً • والعطالة هى الثمرة الشرعية ، الثمرة الطبيعية للوعى : فمن كان واعياً كتف يديه عالماً بما يفعل • لقد سبق أن تكلمت عن هذا • وأعود الآن فأكرر ثم أكرر بالحاح : ان جميع الرجال البسطاء الصادقين ، ان جميع الرجال الفعالين انما هم فعالون لأنهم غلاظ الفكر ليسوا على شىء من تفوق العقل •

كيف السبيل الى شرح هذا ؟ اليكم الشرح : انهم بسبب ضيق فكرهم يحسبون الأسباب الثانوية المباشرة أسباباً أولى ، فيتخيلون بسهولة

وسرعة ، أكثر من الآخرين ، انهم وجدوا العلل الراسخة الوطيدة الأساسية التى يقوم عليها نشاطهم ، فيهدأون ويطمئنون • وهذا الشىء الرئيسى •ذلك أنه لا بد للمرء حتى يستطيع أن يعمل وينشط ، لا بد له من أن يصل أولاً الى طمأنينة تامة ، وأن لا يحتفظ بأى شك • ولكن أنَّى لى أن أصل الى طمأنينة الفكر هذه ؟ أين عسانى أجد المبادىء الأساسية التى أستطيع أن أبنى عليها ؟ أين هى قاعدتى ؟ أين أستطيع أن أنشدها ومن أين آتى بها ؟

انتى أمارس التفكير • معنى هذا أن كل علة تستتبع عندى على الفور علةً أخرى بعدها ، علةً أعمق من الأولى ، علةً أساسية أكثر من الأولى ، وهكذا دواليك الى غير نهاية • ذلكم هو جوهر التفكير ، ذلكم هو جوهر كل وعى • ها نحن نجد أنفسنا مرةً أخرى أمام قوانين الطبيعة • والنتيجة ؟ هى نفسها دائماً ، تذكرونها ! لقد حدثكم منذ قليل عن الانتقام • (لا شك أنكم لم تدركوا الأمر ادراكاً جيداً) • يقال : ان الانسان ينتقم ، لأنه يعد ذلك عدلاً • فهو اذن قد وجد المبدأ الأساسى الذى كان ينشده : العدل • وهو يشعر اذن بطمأنينة كاملة ، فينتقم هادئاً كل الهدوء ، وهو يظفر بالانتقام ظفراً تاماً ، لاقتناعه بأنه يقوم بعمل عادل شريف • ولكننى ، أنا ، لا أرى فى ذلك لا عدلاً ولا خيراً • فاذا حاولت اذن أن أنتقم كان ذلك من جانبى شراً محضاً • صحيح أن الغضب الحانق قد ينتصر على جميع هذه الترددات ، وقد يستطيع أن ينوب مناب تلك العلة الأساسية ، لا لشىء الا لأنه لا يمكن أن يعد هو تلك العلة الأساسية • ولكن ما حيلتى اذا لم أكن شريراً بقدر كاف؟ (لقد أشرت الى هذا منذ البداية) •

ان غضبى يخضع لنوع من التحليل الكيميائى ، بسبب تلك القوانين اللعينة نفسها ، أعنى قوانين الوعى • فما ان أميِّز الموضوع الذى ينصب

عليه كرهي حتى يتبدد هذا الموضوع ، فاذا البواعث تزول ، واذا المسئول يختفي ، واذا الاهانة لا تبقى اهانة ، وانما تصير ضربة من ضربات القدر ، تصير الى شيء يشبه وجع الأسنان، تصير الى شيء ليس ذنباً اجترحه أحد . ولا يبقى لي من عزاء حينذاك الا أن أحطم قبضتي يديَّ على الحائط . فلأنني استحال عليَّ أن أجد العلل الأولى ، أعدل اذن عن الانتقام باحتقار مصطنع وازدراء مفتعل. آه ... ليت الانسان يستطيع أن ينقاد لعاطفته انقياداً أعمى ، دون أي تفكير ، دون بحث عن أية علة ، مبعداً عن نفسه كل وعي ، ولو الى حين ! اذن لاختلف الأمر عندئذ اختلافاً كبيراً . أحبَّ أو أبغضْ ، العنْ أو عبدْ ، ولكن لا تبق مكتوف اليدين ! وغداة غدٍ ـ هذه آخر مهلة ـ ستحتقر نفسك لأنك خدعتها ومكرت بها عامداً بها عامداً . والنتيجة أخيراً : فقاعة صابون ، عطالة .

آه يا سادتي ! لعلني لا أعد نفسي على جانب عظيم من الذكاء الخارق الا لأنني طوال حياتي لم أستطع أن أبدأ شيئاً ولا أن أنهي شيئاً. فما أنا اذن الا ثرثار لا يؤذي ، انسان ثقيل مكدر ، مثلنا جميعاً . ولكن ماحيلتي أيها السادة اذا كان القدر الوحيد الذي كُتب على كل انسان ذكي هو أن يثرثر ، أي أن يصب ماءً في غربال !

٦

أوّاه! ليتنى لم أكن الا كسولاً ! لشد ما كنت سأحترم نفسى عندئذ ! لأننى كنت سأرى أننى قادر على أن أكون كسولاً فى أقل تقدير ، أن تكون لى على الأقل مزية محددة معينة أنا منها على يقين .

سؤال : من أنت ؟ جواب : كسول ! ما كان أحلى أن أرانى أسمى هكذا ! أنا اذن معرَّف تعريفاً ايجابياً . أنا اذن يمكن أن أوصف بنعت ، أن يقال عنى شىء ... « كسول ! » ـ هذا لقب ، هذه وظيفة ، هذه يا سادتى مهنة ! لا تضحكوا ! الأمر كذلك . كان سيحق لى عندئذ أن أكون عضواً فى أول نادٍ بالعالم ، وكنت سأقضى وقتى كله فى احترام نفسى . لقد عرفت سيداً كان كل عجبه وزهوه طوال حياته هو أنه ذواقة يحب خمور بوردو ويحسن معرفتها . كان يعد هذه المزية فضيلة ثمينة جداً ، وكان لا يساوره أى شك فى نفسه . فمات وضميره ليس مطمئناً فحسب ، بل ومنتصراً أيضاً ، ولقد كان على حق . كنت سأختار لنفسى رسالة : كنت سأصبح كسولاً وأكولاً ، لا أكولاً عامياً بل أكولاً محباً للمباهج ، مهتما « بكل ما هو جميل ورائع » . ما رأيكم ؟ اننى أفكر فى هذا منذ زمن طويل . ان « الجمال والروعة » يثقلان على كاهلى كثيراً منذ أصبحت فى الأربعين من العمر . منذ أصبحت فى الأربعين من العمر ، أما قبل ذلك فكان يمكن أن يختلف الأمر كل الاختلاف !

كنت سأهتدى فوراً الى صورة من صور النشاط تلائم طبعى : مثلاً ، أشرب نخب جميع الأشياء « الجميلة الرائعة » . كنت سأنتهز كل فرصة من أجل أن أشرب نخب « الجمال والروعة » ، بعد أن أسكب دمعةً في كأسى . وكنت سأجعل جميع الأشياء « جميلة ورائعة » . كنت سأكشف «الجمال والروعة» حتى فى القذارات التى لا يُجحد أنها أقذر القذارات طراً . كنت سأنثر عبرات لا تقل غزارة عن تلك التى تتساقط من اسفنجة . فاذا رسم أحد الرسامين ، مثلاً ، لوحةً جديرة بالرسام جى * ، سارعت أشرب نخب هذا الرسام ، لأننى أحب كل ما هو « جميل ورائع » . واذا نظم أحد الشعراء قصيدة عنوانها « كما يروق لكل انسان » * ، سارعت أشرب نخب كل انسان ، لأننى أحب « الجمال والروعة » . وسيجلب هذا لى احترام جميع الناس . وسأطالب به ، هذا الاحترام . وسألاحق بغضبى وسخطى كل من يمنعه عنى . أحيا فى هدوء وطمأنينة ، وأموت فى عظمة وأبهة . أليس هذا فاتناً ؟ أليس هذا أخاذاً ؟ وكنت سأربى كرشاً يبلغ من الضخامة وأنفاً يبلغ من السمنة ، ووجهاً تبلغ ذقنه من السعة ، أن كل انسان سيهتف حين يرانى قائلاً : « هذا انسان له وجود واقعى حقاً ، هذا انسان ايجابى ! » . لكم ما شئتم ، ولكن لا شك فى أنه يحلو للمرء أن يسمع الناس يقولون عنه مثل هذه الأشياء فى عصرنا هذا الذى جوهره السلبية الى أقصى حد .

٧

ولكن ما هذا الا أحلام ذهبية .

آ ... قولوا لى : من ذلك الذى أعلن أول من أعلن ، من ذلك الذى نادى أول من نادى بأن الانسان لا يرتكب أفعالاً دنيئة الا لأنه لا يدرك مصالحه نفسها ، فاذا أثرنا عقله وبصرّناه بمصالحه الحقيقية ، مصالحه السليمة ، سارع يكف عن القيام بأعمال دنيئة ، وأصبح على الفور انساناً خيّراً طيباً شريفاً ، لأنه وقد استنار بالعلم وأدرك مصالحه الحقيقية ، سيجد فى الخير منفعته نفسها ؟ واذا كان المرء لا يعمل ضد منفعته عامداً ، فسيكون اذن مضطراً الى فعل الخير اضطراراً ؟ قولوا لى : من ذلك الذى نادى بذلك أول من نادى ؟ أوه ! ألا انه لطفل ، طفل لا أكثر ، طفل ساذج غر ! ...

هل اتفق للانسان ، فى يوم من الأيام ، خلال هذه الألوف من السنين ، أن لا يعمل الا وفقاً لمصلحته ؟ فما قولكم اذن بتلك الملايين من الوقائع التى تشهد بأن البشر ، مع ادراكهم لمصلحتهم ، ينبذون هذه المصلحة الى المحل الثانى ، ويسيرون فى طريق آخر مختلف كل الاختلاف ، طريق ملىء بالمصادفات زاخر بالمخاطرات ؟ وهم رغم هذا غير مضطرين الى ذلك اضطراراً ولا هم مجبرون عليه اجباراً ، وانما يبدو انهم يريدون عامدين أن يتنكبوا الطريق الذى يُدَلّون عليه ، وأن

يرسموا بحريتهم ، على ما يشاء هواهم وتحب نزواتهم ، طريقاً آخر مليئاً بالمصاعب ، طريقاً عجيباً مستحيلاً غامضاً لا يكاد يُعرف أو يُدرَك . ان هذا يدل على أن هذه الحرية هي في نظرهم أكثر فتنة وجاذبية من مصالحهم ! ما المصلحة ؟ هلاً حددتم لى تحديداً دقيقاً ما هي مصلحة الانسان ؟ وما قولكم اذا وُجد يوماً أن المصلحة الانسانية في بعض الحالات يجب أن لا تقوم على تمنى خير من الخيرات ، بل على تشدان شر من الشرور ؟ اذا صح هذا وأمكن أن تعرض حالة كهذه الحالة ، فقد انهار اذن كل شيء . ما رأيكم ؟ هل يمكن أن تعرض حالة كهذه ؟

أتضحكون ؟ اضحكوا أيها السادة ، ولكن أجيبوا ! هل أُحصيت المصالح الانسانية احصاءً دقيقاً ؟ أليس هناك مصالح لا تدخل في أي تصنيف من التصنيفات التي تضعونها ، ولا يمكن أن تجد لها فيها مكاناً ؟ ذلك أنكم ، فيما أعلم أيها السادة ، قد وضعتم سجل المصالح الانسانية على أساس الأرقام الوسطية التي تقدمها الاحصاءات والمعادلات « الاقتصادية العلمية » ، فقلتم ان المصالح الانسانية هي الثراء ، وراحة البال ، والحرية ، وهلم جرا . فاذا نبذ أحد الناس هذا ، عامداً عانداً ، كان ينبغي أن يعد في نظركم (وفي نظرى أنا أيضاً على كل حال) امرءاً جاهلاً أو مجنوناً ، أليس كذلك ؟ ولكن هذا هو الأمر الذي يثير الاستغراب والدهشة حقاً : لماذا يُغفل جميع هؤلاء الاحصائيين والحكماء ومحبي البشر ، لماذا يغفلون في حساباتهم للمصالح الانسانية ، لماذا يغفلون عنصراً من العناصر ويسقطونه من هذه الحسابات دائماً ؟ انهم لا يريدون حتى ادخاله في معادلاتهم ، وبذلك تجيء النتائج التي ينتهون اليها كاذبة غير صادقة . وليس هذا بالأمر الصعب مع ذلك . فلماذا لا نكمل القائمة ، لماذا لا ندخل فيها ذلك العنصر ؟ الحق أن الصعوبة ناشئة عن أن هذا العنصر الخاص جداً لا يمكن أن يجد له مكاناً في أي تصنيف ، ولا أن يُسجَّل في أية قائمة . اليكم

مثالا على ذلك : لى صـــديق ••• ها ••• تذكرت ••• انكم تعرفونه أيضاً • فهو صديق جميع الناس •

حين يتهيأ هذا السيد لأن يعمل ، فانه يبدأ بأن يشرح لكم شرحاً واضحاً جداً ، بعبارات جميلة كبيرة ، كيف يجب عليـه أن يعمل حتى يجيء عمله مطابقاً للعقل والحقيقـة • ليس هذا فحسب : انه سـيناقش بحرارة ، وبحماسة ، المنافع والمصـالح الانسـانية ، الواقعيـة السـوية السـليمة ؟ وسيتهكّم على عماوة الأغبيـاء الحمقى الذين لا يفهمـون لا مصالحهم الحقيقية ولا القيمة الحقيقية للفضيلة • ولكن ما أن ينقض ربع ساعة ، ربع ساعة على وجه الدقة والتمام ، حتى نراه يقوم بعمل سخيف من الأعمال أو يرتكب حماقة من الحماقات ، دون أى سبب يحض على ذلك غير اندفاع داخلى أقوى من جميع اعتبارات المصلحة والمنفعة ؟ فاذا هو اذن يعمل على نقيض جميع القواعد التى كان قد ذكرها ، على نقيض العقل ، على نقيض مصالحه ، على نقيض كل شيء ••• أحب أن أنبهكم من جهة أخرى الى أن صديقى شخصـية جماعية ، فمن الصعب والحالة هذه أن ندينه وحده • والى هذا انما أردت أن أصل أيها السادة ! أليس هناك شيءٌ هو فى نظرنا جميعـاً أعز وأغلى وأثمن من أعز مصـالحنا وأغلاها وأثمنها ؟ أليس هنـاك شيء كهذا حقـاً ؟ بتعبير آخـر (حتى لا نخالف المنطق) : أليس هناك منفعةٌ (تلك التى يُغفلونها من الحساب كما قلنـا منذ قليل) هى فى نظرنا أهم من سـائر المنـافع ، وأثمن منها جميعاً ، منفعةٌ يرضى الانســان فى سـبيلها ،اذا لزم الأمر ،أن يعمل على نقيض جميع القـواعد ، أى على نقيض العقل ، مضحيـاً من أجلها بشرفه وراحته وهدوئه وسعادته ، أى مضحياً فى سبيلها بالأشياء الجميلة المفيدة ، لا يحمله على ذلك الا نشدان شيء واحد هو أعز عنده من سائر الأشياء ، وهو فى نظره المنفعة العليا والمصلحة القصوى •

قد تقولون لى : « نعم ، ولكن الأمر ما يزال أمر منفعة ومصلحة ».. عفوكم ! يجب أن نشرح القضية . اننا لا نستطيع أن نخرج من المسألة وأن نحل المشكلة بجناس لفظى . ان ما يتميز به ذلك الشىء هو أنه يهدّم جميع التصنيفات ويقلب جميع المذاهب التى بناها أصدقاء الجنس البشرى فى سبيل سعادة الانسان ؟ اى انه عائق وحاجز . ولكن قبل أن اسمى لكم ذلك الشىء أريد أن أخاطر شخصياً ، فأوكد بجرأة وجسارة أن جميع هذه المذاهب الجميلة ، وجميع تلك النظريات التى تطمع فى أن تشرح للانسانية مصالحها الحقيقية بغية أن تصبح الانسانية على الفور فاضلة نبيلة فيما تبذل من جهود لبلوغ تلك المصالح المزعومة، أقول ان ذلك كله ليس الا استدلالات منطقية ، نعم استدلالات منطقية صرفة ! وما مثل الاعتقاد بأن تجديد النوع الانسانى يمكن تحقيقه عن طريق تبصير النوع الانسانى بمصالحه الحقيقية ، الا كمثل الاعتقاد مع «باكل»* بأن المدنية تلطف طبع الانسان فاذا هو يصبح أقل تعطشاً الى الدماء وأقل ميلاً الى الحرب شيئاً بعد شىء . ان الانسان يحب المذاهب المبنية والاستدلالات المنطقية حباً يبلغ من القوة أنه مستعد لأن يقلب الحقيقة عامداً ، مستعد لأن يغمض عينيه ويسد أذنيه أمام الحقيقة ، لا لشىء الا أن يسوّغ الاستدلال المنطقى الذى يقوم به .

وانما ضربت هذا المثل لأنه مقنع . انظروا حولكم ! ان الدم يسيل غزيراً ، بل يسيل فى فرح كأنه شمبانيا . انظروا الى قرننا التاسع عشر هذا الذى عاش فيه « باكل » ! انظروا الى نابوليون ، نابوليون الآخر ، الكبير، وانظروا الى نابوليون اليوم ! انظروا الىأمريكا الشمالية واتحادها الذى قام الى الأبد* ! انظروا الى شلفز فيج ـ هولشتاين الكاريكاتورى*.. ما الذى تلطفه المدنية فينا ؟ ان المدنية لا تزيد على أن تنمى فينا تنوع الاحساسات ... ولا شىء غير ذلك . وبفضل نمو هذا التنوع ، قد يحدث

أن ينتهي الانسان الى أن يكتشف في الدم نوعاً من اللذة ؟ حتى لقد حدث هذا منذ الآن •

هل سبق أن لفت نظركم أن أرهف المتعطشين الى الدماء انما كانوا في جميع الأحيان سادةً متمدنين جداً لا يقاس بهم أمثال آتيلا وأمثال ستنكا رازين * جميعاً ؟ ولئن كان هؤلاء السادة لا يبرزون بروز الآخرين ، فلأن عددهم كبير ، ولأننا نصادفهم كثيراً ، ولأننا اعتدنا رؤيتهم وألفناهم • ولكن اذا لم تكن المدنية قد جعلت الانسان أشد تعطشاً الى الدم ، فمما لا شك فيه أنها جعلت تعطشه الى الدم أخبث وأجبن • ففي قديم الزمان كان الانسان يرى أن من حقه أن يسفك دماً ، فكان اذا سفك دم من يشاء من الناس ، يفعل ذلك هادىء البال مرتاح الضمير • أما اليوم فنحن نسفك الدماء مثلما كان يسفكها الأقدمون بل أكثر منهم ، رغم أننا نعد سفك الدم عملاً سيئاً • فهل هذا أفضل ؟ افصلوا في الأمر بأنفسكم ! يقال ان كليوباتره (اغفروا لي هذا المثال المستمد من التاريخ الروماني) كانت تتسلى بغرس ابر في صدور العبيد ، وكانت تجد لذة كبيرة حين تسمعهم يصرخون وحين تراهم يتلوون • ستقولون لي ان ذلك كان يحدث في عصر همجي بعض الشيء ، وان عصرنا هذا همجي هو أيضاً ، لأن الناس ما يزالون يغرسون ابراً في الأجساد ، وان الانسان رغم انه أصبح في هذا الزمان يدرك الأمور ادراكاً أوضح من ادراكه لها في الزمان القديم ، لم يستطع بعد أن يألف اتباع قواعد العقل والعلم ؟ ولكنكم واثقون بأنه سيألف هذا متى تحرر تحرراً تاماً من بعض الميول السيئة ، ومتى استطاع العقل والعلم أن يعيدا تربية الطبيعة الانسانية وأن يوجهاها في طريق الرشاد • أنتم واثقون بأن الانسان سيكف يومئذ عن خداع نفسه عمداً ، وسيستحيل عليه يومئذ أن يريد معارضة مصالحه السليمة بارادته •

بل هناك ما هو أكثر من ذلك : فان العلم ـ فيما تقولون ـ سيعلم الانسان يومئذ (وفى رأيى أن هذا هو منذ الآن ترف زائد) أنه لم يملك فى يوم من الايام لا ارادة ولا نزوات ، وأن ليس مَثَلُه على وجه الاجمال الا كمثل اصبع بيانو أو دواسة أرغن ، فهو يفعل ما يفعل لا وفقاً لارادته بل وفقاً لقوانين الطبيعة ، فيكفى اذن أن نكتشف هذه القوانين ، ولا يمكن أن يعد الانسان عندئذ مسئولاً عن أفعاله ، وستصبح الحياة سهلة عليه الى أقصى حدود السهولة . لأن جميع الأفعال الانسانية سيمكن حسابها حساباً رياضياً على أساس تلك القوانين ، كما فعل العلماء ذلك فى اللوغارتمات ، بدقة تبلغ جزءاً من مائة ألف جزء ؛ وستسجل فى تقاويم ، أو ستؤلف فيها كتب ضخمة من نوع معاجمنا الموسوعية ، كتبٌ يُحسب فيها كل شيء ويتنبأ فيها بكل شيء على نحو يبلغ من الاتقان أنه لا تبقى بعد ذلك مغامرات ، بل ولا تبقى أفعال .

وعندئذ ـ أنتم تتكلمون الآن ـ سنرى قيام علاقات اقتصادية جديدة تحدَّد هى أيضاً بدقة رياضية ، فاذا بجميع المشكلات تزول فوراً ، لسبب بسيط هو أن جميع الحلول تكون قد اكتُشفت . وعندئذ سيبنى قصر كبير من الكرستال * . عندئذ سنرى « طائر النار » بيننا ... اننا لا نستطيع طبعاً أن نضمن (أنا الآن أتكلم) أن ذلك لن يكون مملاً املالاً رهيباً (ما عسانا نفعل اذا كان كل شيء محسوباً ومحدداً من قبل) . ولكن جميع الناس سيكونون فى مقابل ذلك على جانب عظيم من الحكمة . آه من الملل ! آه من الضجر ! بئس السأم ناصحاً ! ان السأم هو الذى يحملنا على أن نغرس فى اللحم ابراً من ذهب ... ولكن هذا ليس أفدح ما فى الأمر . ان ما هو أخطر من ذلك (ما زلت أتكلم أنا) هو أننا نجد سعادة عظمى فى أن يكون بين أيدينا ابر : ان الانسان غبى ، غبى غباءً فظيعاً ، بل قولوا انه ليس غبياً بقدر ما هو عاق ، حتى ليستحيل

أن نعثر على من هو أشد عقوقاً من الانسان . لذلك لن يدهشنى البتة أن أرى حينئذ سيداً من السادة خالياً من الأناقة والكياسة « رجعيّ » الوجه ساخر الهيئة ، يهب واقفاً وسط تلك السعادة والهناءة ، واضعاً قبضتى يديه على خاصرتيه ، قائلاً : هيه أيها السادة ، ألا رمينا فى التراب ، بركلة واحدة ، كل هذه السعادة العاقلة ، لا لشىء الا أن نرسل هذه اللوغارتمات جميعها الى الشيطان ، وأن نستطيع استئناف حياتنا على ما يشاء لنا خيالنا وهوانا ؟ وهذا كله لن يكون شيئاً ذا بال . وانما أفظع ما فى الأمر أن ذلك الرجل سيجد حتماً مؤيدين ومريدين . هكذا خُلق الانسان . ومردُّ ذلك كله الى شىء صغير غاية الصغر ، شىء يمكن اهماله اهمالاً تاماً فيما يبدو : مرد ذلك كله الى أن الانسان ، أياً كان ، يتطلع فى كل زمان ومكان الى أن يعمل وفقاً لارادته لا وفقاً لأوامر العقل والمصلحة . وارادتكم يمكنها بل و « يجب عليها » أحياناً (هذه الفكرة فكرتى أنا شخصياً) أن تناقض مصالحكم . فارادتى الحرة ، ومشيئتى الطليقة ، وتزوتى مهما تكن مجنونة ، وبدوات خيالى مهما تكن مهتاجة محمومة ، ذلكم هو بعينه الشىء الذى يغفلونه ويسقطونه من الحساب ، تلكم هى المصلحة التى هى أغلى وأثمن من سائر المصالح ، والتى لا يمكن أن تجد لها مكاناً فى تصنيفاتكم ، والتى تحطم جميع المذاهب وجميع النظريات ألف جزء .

من أين استمد حكماؤنا هذا الرأى القائل بأن الانسان فى حاجة الى تلك الارادة السوية الفاضلة التى لا أدرى ما هى ؟ لماذا تخيلوا أن الانسان يصبو الى ارادة عاقلة نافعة ؟ ان الانسان لا يتوق الا الى ارادة « مستقلة » ، مهما يكن ثمنها ومهما تكن عواقبها . ولكن لا يدرى الا الشيطان ما قيمة تلك الارادة ...

٨

إنكم تقاطعوننى قائلين : « ها ! ها ! ها ! ولكن الارادة لا وجود لها . فقد استطاع العلم منذ الآن أن يشرّح الانسان تشريحاً يبلغ من العمق أننا أصبحنا نعلم أن الارادة وما يسمى بحرية الاختيار ليسا الا ... » .

— عفوكم يا سادة ! لقد كنت أستعد أنا نفسي لأن أبدأ بهذا الكلام. حتى لقد شعرت بخوف ، أعترف لكم بذلك : لقد هممت أن اهتف قائلاً ان الارادة رهن بما لا يدرى الا الشيطان ما هو ... وأن هذا ربما كان حظاً موفقاً كل التوفيق ، ولكننى فكرت فى العلم ، فعضضت على لسانى ، وفى تلك اللحظة انما قاطعتمونى . فاذا استطعنا فى الواقع أن نكتشف معادلة جميع رغباتنا ، وجميع نزواتنا ، أى اذا استطعنا أن نكتشف المصدر الذى تنبع منه ، والقوانين التى تحكم ظهورها وتطورها ، واذا عرفنا كيف تتكاثر وتتوالد ، وما هى الأهداف التى تسعى اليها فى هذه الحالات أو تلك ، الخ ، كان من الجائز أن يكف الانسان عندئذ فوراً عن أن يريد . وليس هذا جائزاً فحسب ، بل هو محقق مؤكد أيضاً . فأية لذة يمكن أن يجدها الانسان فى أن لا يريد الا وفقاً لجداول حساب ؟ بل ليس هذا كل شيء أيضاً : ان الانسان سيسقط عندئذ تواً الى صف مسمار فى آلة . ما عسى يكون انسان بلا رغبة ولا ارادة ، ان لم يكن

مسماراً فى آلة أو شيئاً من هذا القبيل ؟ ما رأيكم ؟ لننظر فى الاحتمالات الممكنة : أيمكن أن يحدث هذا أم لا ؟

ستقولون :

– هِمْ ... ان رغباتنا تخطىء فى كثير من الأحيان لأننا نخطىء فى حساب قيمة مصالحنا ومنافعنا . فنحن انما يتفق لنا أن نريد أمورا سيئة لأننا نظن بمساعدة الغباء أننا بذلك نقترب مما نعده ذا فائدة كبيرة ومنفعة عظيمة . ولكن متى شُرح لنا كل شىء ، متى تم ترتيب كل شىء ، متى تم ترتيب كل شىء وتحديد كل شىء (وذلك جائز جداً ، لأن من السخف ومن الغباء أن نظن أن بعض قوانين الطبيعة ستبقى ألغازاً مستغلقة على الفهم) فعندئذ لن يبقى هنالك محل لما يسمى رغبات بطبيعة الحال . فاذا نشب صراع بين رغباتنا وعقلنا ، كان فى وسعنا أن نفكر لا أن نريد ، لأنه يستحيل على انسان عاقل أن يرغب فى أمور سخيفة ، وأن يناقض العقل عامداً ، وأن يسعى الى ايذاء نفسه بنفسه ... وما دامت جميع الرغبات وجميع استدلالات الفكر يمكن أن تُحسب سلفاً ، لأننا نكون قد اكتشفنا قوانين ما يسمى بحرية الاختيار ، فسيكون من الممكن فى ذات يوم (ولست أمزح) أن نضع شيئاً يشبه أن يكون قائمة أو ثبتاً ، وأن نرجع فى ارادتنا الى هذه القائمة أو الثبت . لنفرض أنه بُرهن لى فى يوم من الأيام على أننى اذا أريت أحد الناس قبضة يدى ، فانما أنا أفعل ذلك لأننى لم يكن فى وسعى أن أفعل غير ذلك ، ولأننى كان لا بد لى أن اقبض يدى على هذا النحو نفسه . فما هى الحرية التى لا أزال أملكها ، ولا سيما اذا كنت أنا نفسى عالماً وكنت أحمل شهادة جامعية ؟ اننى أستطيع اذن أن أحسب حياتى على مدى ثلاثين سنة سلفاً . خلاصة القول : اذا تحقق هذا فلن يكون علينا ان نفعل شيئاً غير أن نفهم . وينبغى لنا أن نكرر على مسامعنا ، بوجه عام ،

دون ما أسف أو حسرة ، أن الطبيعة ، في هذه اللحظة وفي هذا الظرف بعينه ، لا تهتم بنا أي اهتمام ، ولا تكترث لنا البتة ، وأن علينا اذن أن نقبلها كما هي لا كما يزينها لنا خيالنا ، فاذا كنا نتوق فعلاً الى المعادلات ، والى التقاويم ، والى الاميق ، فليس علينا الا أن نقبل الاميق ونسلّم به ونرتضيه ، فان لم نفعل ابتغنى الاميق عن رضانا به وتأييدنا له كل الاستغناء •

نعم ، ولكن في هذا الموضع بعينه انما تبدو لي الصعوبة • واعذروني اذا أنا أخذت أتفلسف هذا التفلسف • لا تنسوا انني في الأربعين من عمري ، وأنني قضيت الأربعين في قبوي • اسمعوا يا سادتي ، ان العقل شيء ممتاز رائع • ذلك أمر لا يمكن جحوده • ولكن العقل هو العقل ، وهو لا يُرضي في الانسان الا ملكة التفكير العقلي ، أما الرغبة فهي تعبر عن مجموع الحياة ، أي عن الحياة الانسانية كلها ، بما فيها العقل ووساوسه • ورغم أن حياتنا ، في تعبيرها عن نفسها على هذا النحو ، تكتسي في كثير من الأحيان مظهراً رديئاً جداً ، فذلك لا ينفي أنها الحياة ، لا استخراج الجذر التربيعي •

ولأضرب بنفسي مثالاً : أنا أريد أن أحيا طبعاً ، بغية أن أرضي ملكة الوجود في جملتها ، لا بغية أن أرضي ملكة التفكير العقلي وحدها ، التي لا تمثل الا جزءاً من عشرين جزء من القوى القائمة في نفسي • ما الذي يعرفه العقل ؟ ان العقل لا يعرف الا ما تعلم (ولعله لن يعلم شيئاً غير هذا في يوم من الأيام ، وليس ذلك عزاءً ولكن ما ينبغي أن نخفيه) ، أما الطبيعة الانسانية فانها تفعل بكل ثقلها ان صح التعبير ، مستخدمةً كل ما تضمه وتشتمل عليه ، بشعور وغير شعور • قد ترتكب أكاذيب ، ولكنها تحيا •

أحسب يا سادتي أنكم تنظرون الى شيء من الازدراء والاحتقار :

انكم ترددون على مسامعي أنه يستحيل على انسان متنوّر مثقف ، يستحيل على انسان المستقبل أن يرغب عامداً فيما يناقض مصالحه وأن يريد ما يتنافى مع منافعه . وانني أوافقكم في هذا كل الموافقة : نعم ، هذا صحيح صحةً رياضية . ولكنني أعود فأكرر على مسامعكم للمرة المائة قولي : ان هناك حالة ، حالةً واحدة ، قد يريد فيها الانسان ، عامداً ، أن ينشد ما هو مخالف لمصلحته ، وأن يسعى الى ما يبدو له غباء وبلاهة وسخفاً ، لا لشيء الا أن يتحرر من الاضطرار الى اختيار ما هو نافع ولائق . ذلك أن هذه السخافة ، هذه النزوة ، قد تكون يا سادتي أنفع شيء في نظرنا على وجه الأرض ، ولا سيما في بعض الأحوال . حتى لقد تكون هذه المنفعة أعلى من سائر المنافع ، ولو كانت تحمل الينا أذى واضحاً ، وكانت تناقض أسلم النتائج التي ينتهي اليها استدلالنا العقلي وتفكيرنا المنطقي . ذلك أنها تصون لنا وتحفظ علينا الشيء الذي هو أعز عندنا وأغلى في نظرنا من سائر الأشياء ، ألا وهو شخصيتنا ؟ فان بين الناس من يؤكدون أن هذا بعينه هو أثمن ما نملك . قد تريد الارادة أحياناً أن تكون على اتفاق مع العقل ، لا سيما حين لا يكون في هذا الاتفاق غلو وحين يُستفاد منه استفادة معتدلة . وقد يكون هذا نافعاً خليقاً بالتحبيذ والتأييد . ولكن الارادة في كثير من الأحيان ، بل وفي أكثر الأحيان ، ترفض في عناد أن تكون على اتفاق مع العقل ، وعندئذ ... عندئذ ... ولكن هل تعلمون أن هذا « أيضاً » نافع جدير بالتحبيذ والتأييد جداً ؟

لنسلم أيها السادة بأن الانسان ليس غبياً . والواقع أننا لا نستطيع أن نقول ان الانسان غبي ، اذ لو كان غبياً فمن ذا الذي يمكن أن يزعم لنفسه الذكاء ؟ ولكن اذا لم يكن الانسان غبياً ، فهو على الأقل عاق عقوقاً فظيعاً ، عقوقاً خارقاً ؟ بل انني لأعتقد أن خير تعريف يُعرَّف به الانسان

هو التعريف التالى : كائن يمشى على قدمين وعاق . وليس هذا كل شيء بعد : ليست هذه الآفة آفته الرئيسية ، وانما آفته الرئيسية أنه سيء الطبع ، وأنه احتفظ بسوء طبعه هذا منذ عهد الطوفان الكبير الى العهد الشلسفجهولشتاينى من تاريخنا . واذا قلنا سوء الطبع فقد قلنا طيش السلوك ، فمن المعروف منذ زمان طويل أن الأمرين مرتبطان وأن أحدهما مشتق بالآخر . حاولوا أن تلقوا نظرة على تاريخ الانسانية : ماذا ترون ؟ قد تقولون : نرى فخامة وروعة ! نعم ، هذا جائز . ان تمثال رودس وحده يمثل شيئاً عظيماً . وليس عبثاً أن صاحبنا السيد آنايفسكى* يذكر لنا أن بعضهم يرى أن هذا التمثال هو من صنع القوى الطبيعية . وقد تقولون : اننا نرى تنوعاً كبيراً . حقاً ، ان هناك شيئاً من تنوع : يكفى أن نلقى نظرة على مختلف الأزياء الموحدة الكبرى ، العسكرية والمدنية ، خلال العصور وعند شتى الشعوب ، عدا أنواع الثياب الأخرى ، حتى نقتنع بذلك . ان هذا كله متنوع تنوعاً يخلب الألباب ، ويتيه فيه الفكر ، ولا يصمد لاغرائه مؤرخ . وقد تقولون اننا نرى تشابهاً ورتابة ! ممكن . فالناس فى الواقع لا يزيدون على أن يقتتلوا . اقتتلوا أمس ، ويقتتلون اليوم ، وسيقتتلون غداً . حقاً أن فى هذا اسرافاً فى التشابه والرتابة ، اعترفوا بذلك .

أى أننا نستطيع أن نقول عن التاريخ العام كل شيء ، نستطيع أن نقول عنه كل ما يعن على البال ويدور فى الخيال . ولكن يستحيل علينا أن نقول عنه انه مطابق للعقل : ان لساننا سيتلعثم منذ ننطق بأول حرف من هذا الكلام . وما الذى نلقاه فى كل يوم أيضاً ؟ اننا نلقى كل يوم أناساً يظهرون لنا عقلاء حكماء ، أناساً يحبون الانسانية ، ويهدفون الى أن يعيشوا حياة تستوحى العقل وتستلهم مبادىء الشرف بغية أن يؤثروا فى أقرانهم بالقدوة الحسنة وأن يبرهنوا لهم على أن فى وسع الانسان أن

يلتزم فى حياته جانب الحكمة • ولكن ماذا يحدث عندئذ ؟ انكم تعرفون أن عدداً من محبى الحكمة هؤلاء ينتهى بهم الأمر عاجلاً أو آجلاً الى أن يخونوا أفكارهم وأن يتورطوا فى قصص فاضحة !

فماذا يمكن أن نتوقع من الانسان ، ماذا يمكن أن نتوقع من هذا الكائن الذى أوتى هذه الصفات العجيبة ؟ حاولوا أن تغدقوا عليه جميع خيرات الأرض ؛ أغرقوه فى السعادة اغراقاً ؛ لبوا حاجاته الاقتصادية تلبية تبلغ من الكمال أن يصبح فى غير حاجة الى شىء غير أن ينام ويأكل فاخر الحلوى ويفكر فى الوسائل التى تكفل استمرار التاريخ العام ••• فماذا يحدث عندئذ ؟ ان الانسان ، حتى فى هذه الحالة ، سينقاد لعقوقه ، وسينساق مع حاجته الى تلويث نفسه ، فيرتكب حقارة من الحقارات من باب الشكر وعرفان الجميل ! ••• حتى لقد يجازف بفاخر حلواه ، فيسعى الى أخطر الحماقات ، وأضر السخافات ، لا لغرض الا أن يمزج تلك الحكمة الايجابية الوضعية بعنصر خيالى شاذ مؤذ • تلك أحلام وهمية وغباوات تافهة يريد المحافظة عليها لا لهدف الا أن يبرهن لنفسه (كما لو كان ذلك ضرورياً الى هذه الدرجة حقاً) على أن البشر بشر وليسوا أصابع بيانو تتنازل قوانين الطبيعة أن تعزف عليها وتلعب بها ، وهى تعزف عليها وتلعب بها فى براعة تبلغ من الحذق أنه لن يبقى من الممكن فى المستقبل القريب أن يريد الانسان أى شىء دون الرجوع الى التقاويم والاعتماد عليها • وهب أن الانسان ليس الا اصبع بيانو ، وهبك استطعت أن تبرهن له على ذلك برهاناً رياضياً ، فانه لن يعود الى الصواب ولن يلتزم جانب الحكمة والرشاد ، بل سيظل يرتكب حماقة من الحماقات ، لا لشىء الا أن يدل على عقوقه ويستمر فى انقياده لنزوته ؟ وقد يوغل فى التخريب ، وينحدر الى السديم والفوضى اذا أعوزته الوسائل الأخرى ؟ فاذا هو يسبب شروراً لا أدرى ما هى ، ولكنه لن يستلهم

فى آخـر الأمر الا ما يعنُّ بباله ويأمره به خياله ، ثم اذا هو يصب على العالم لعنته ؟ واذا كان الانسان لا يملك شيئاً الا أن يلعن (وهذه ميزته التى ينفرد بها من دون سائر الحيوانات) ، فسيحقق بذلك أهدافه ويبلغ غاياته ، وهى الاقتناع بأنه انسان وليس مسماراً فى آلة •

فاذا قلتم لى ان السديم والظلمات والفوضى واللعنات ، اذا قلتم لى ان ذلك كله أيضاً يمكن حسابه سلفاً ، فتكون امكانية هذا الحساب وحدها قادرة على أن تشل اندفاعة الانسان ، ويتسنى للعقل عندئذ أن ينتصر مرةً أخرى اذن ، قلت فان الانسان لا تبقى له والحالة هذه الا وسيلة واحدة من أجل أن يعمل بوحي رأسه ، ألا وهى أن يفقد عقله عامداً ، وأن يجنَّ جنوناً تاماً •

أنا من ذلك على يقين • أنا أضمن لكم أن هذا ما سيحدث • اذ يبدو أن الهم الأكبر الذى كان يشغل الانسان فى جميع الأزمان هو أن يبرهن لنفسه بغير انقطاع على أنه انسان لا جزء من آلة • كان الانسان يجازف فى سبيل هذا بجلده ، ولكنه كان يظفر بأن يبرهن لنفسه عليه • كان يعيش حياة سكان الكهوف ، ولكنه كان يبرهن لنفسه على ما يريد البرهان لها عليه • فكيف بعد هذا لا نغبط أنفسنا ولا نهنىء أنفسنا على أننا لمَّا نصل الى هذه المرحلة ، وعلى أن الارادة ما تزال متوقفةً على ••• لا أدرى ماذا ؟

قد تصيحون قائلين (اذا كنتم ما تزالون تولوننى شرف الصراخ فى وجهى) ان أحداً لا يخطر بباله أن يحرمنى من ارادتى ، وان هذه الجهود كلها ليس لها من هدف الا أن ترتب الأمور على نحو يمكِّن ارادتى أن تكون من تلقاء نفسها ، وبمبادرتها هى ، على اتفاق مع مصالحى السوية ، مع القوانين الطبيعية ، مع علم الحساب •

دعونا من هذا الكلام أيها السادة ! ما عسى يبقى من ارادتى حين لا يكون علىّ أن لا أرجع الا الى جداول الحساب ، وحين لا يبقى الا « ٢ × ٢ = ٤ » ؟ ان ٢ × ٢ تساوى ٤ دون أن تتدخل فى هذا ارادتى. وانما تريد الارادة شيئاً آخر .

٩

أنا يا سادتي أمزح طبعاً؟ بل انني لأعلم أن أمازيحي ليست حسنةً جداً . ولكن هذه الأمازيح ليست أمازيح فحسب . ولعلني أمزح وأنا أصرف بأسناني غيظاً . يا سادتي ، هنالك أسئلة ترهقني من امري عسراً ، وتعذبني تعذيباً : فساعدوني في حلّها . أنتم مثلاً تريدون أن تحرروا الانسان من عاداته القديمة ، وأن تصلحوا ارادته على ما توجبه حقائق العلم ومبادىء العقل . ولكن كيف عرفتم أن الانسان يستطيع ويجب عليه أن يُصلَح ؟ من أين استنتجتم أن ارادة الانسان ينبغي أن تربّى حتماً؟ وبكلمة واحدة : لماذا تظنون أن هذه التربية مفيدة للانسان حقاً؟ ما مصدر هذا الاقتناع الراسخ لديكم بأن من الخير للانسان دائماً أن لا يعارض مصالحه السليمة السوية الواقعية التي يضمنها الاستدلال ويكفلها الحساب؟ ليس هذا في آخر الأمر الا افتراضاً تفترضونه . لنسلم جدلاً بأن هذا هو القانون المنطقي فعلاً ، ولكن أهو القانون الانساني حقاً؟ ربما تخيلتم أنني مجنون يا سادتي ، أليس كذلك؟ فاسمحوا لي اذن أن أشرح ما بنفسي .

انني أسلم لكم بأن الانسان هو في جوهره حيوان بنّاء ، مضطر أن يتجه واعياً نحو هدفٍ ما : انه مهندس؟ فعليه اذن أن لا ينى يشق

طرقا جديدة فى جميع الاتجاهات • ولكن ربما كان هذا نفسه هو السبب فى انه يريد احيانا ان يوارب ويتملص ، لا لشىء الا لانه « محكوم عليه » أن يرسم طريقاً ، ولأن الانسان العامل الفعال ، مهما يكن غبياً ، يحزر فى بعض الأحيان أن الطريق يؤدى دائماً الى « مكان ما »، وأن اتجاه الطريق ليس هو الأمر الهام ، وانما الأمر الهام هو أن الطريق يفضى الى مكان ما ، حتى لا يخطر ببال الطفل الحكيم العاقل أن يحتقر مهنة الهندسة التى يعمل فيها ، ويستسلم للكسل الذى هو أبو الآفات جميعاً كما هو معلوم• صحيح أن الانسان يحب كثيراً أن يبنى وأن يشق طرقاً ، ذلك أمر لا جدال فيه ؟ ولكن لماذا نرى الانسان يحب الهدم والفوضى كذلك حباً يبلغ هذا المبلغ من القوة ؟ هلاّ قلتم لى لماذا ؟ ولكننى أحب أنا نفسى أن أقول بضع كلمات فى هذا الموضوع •

أليس جائزاً أن يكون مرد هذا الحب القوى للهدم والفوضى لدى الانسان (والانسان يحب الهدم والفوضى أحياناً ، ذلك أمر لا جدال فيه) أليس جائزاً أن يكون مرد ذلك الى أن الانسان يخشى بغريزته أن يبلغ الهدف وأن يتم الصرح الذى يبنيه ؟ ما يدريكم ؟ لعل الانسان لا يحب هذا الصرح الا من بعد ، لا من قرب • لعل الانسان يحلو له أن يبنيه لا أن يعيش فيه ، ولعله مستعد أن يتركه « للحيوانات الداجنة » * : للنمل ، للشياه ، الخ • والنمل من جهته له أذواق أخرى • ان للنمل فى هذا المضمار مبنى آخر يتحدى العصور هو قرية النمل •

ان النمل المحترم انما بدأ بقرية نمل ، ولعله سينتهى فى آخر المطاف من عمله بقرية نمل ؟ وذلك أمر يشرّف ما يبذله من جهد دائب ، وما يبديه من حس عملى • ولكن الانسان كائن متقلب الرأى ، وربما كان ، كلاعب الشطرنج ، لا يحب الا العمل نفسه ، لا الهدف الذى يجب بلوغه • ومن يدرى ؟ (ليس هناك ضامن) ، ربما كان

الهدف الوحيد الذى تسعى اليه الانسانية هو هذا الجهد وحده ، هذا العمل وحده . وبتعبير آخر : قد لا يكون للحياة هدف خارجى هو ذلك الهدف الذى لا يمكن أن يكون طبعاً الا « ٢ × ٢ = ٤ » ، أى لا يمكن أن يكون الا معادلة. وهذه المعادلة يا سادتى هى مبدأ موت لا مبدأ حياة. ومهما من أمر فان الانسان قد خشى دائماً معادلة « ٢ × ٢ = ٤ » هذه ، وأنا أيضاً أخشاها .

صحيح أن الانسان لا يهتم الا بالسعى وراء معادلة «٢ × ٢ = ٤» ، وهو فى سعيه وراءها يجتاز محيطات ويعرض حياته لمخاطر . ولكننى أحلف لكم على أنه يخاف من الوصول اليها ، ويتهيب ادراكها ادراكاً واقعياً ، ذلك أنه يحس أنه متى وصل اليها لم يبق له شىء يعمله . ان العمال حين ينهون عملهم يتقاضون أجرهم ويذهبون الى الحمارة ، وقد يختمون ليلتهم مع الشرطة ، فيشغلهم هذا أسبوعاً على الأقل . ولكن الى أين يذهب الانسان ؟ مهما يكن من أمر ، فاننا نلاحظ فى الانسان ، على الدوام ، شيئاً من الضيق كلما وصل الى هدف من تلك الأهداف . انه يحرص على الاقتراب من الهدف ، ولكنه متى وصل اليه أصبح غير راض . ذلك أمر مضحك حقاً . الخلاصة أن الانسان قد كُوِّن تكويناً مضحكاً جداً ، انه مكوَّن تكويناً يبعث على الضحك مثلما تبعث عليه نكتة قائمة على الجناس اللفظى . ولكن كيف دار الحال ، فان « ٢ × ٢ = ٤ » شىء لا يحتمل ولا يطاق . وفى رأيى أن معادلة « ٢ × ٢ = ٤ » تتفرس فينا بوقاحة . انها تضع يديها على خاصرتيها وتعترض طريقنا وتبصق فى وجوهنا . أنا أسلم بأن « ٢ × ٢ = ٤ » شىء عظيم . ولكن اذا كان لا بد من الثناء على كل أمر من الأمور ، فاننى أقول لكم ان معادلة « ٢ × ٢ = ٥ » هى أيضاً فى بعض الأحيان شىء جميل جداً ، فتان جداً .

ثم ، فيم اقتناعكم هذا الراسخ الذى لا يتزعزع ولا يتزحزح ، فيم اقتناعكم هذا الجازم القاطع بأن الشيء الطبيعى السوى ، الشيء الايجابى الوضعى، الشيء الذى يكفل الرخاء والراحة والدعة هو وحده ضرورى؟ وبتعبير آخر : أليس يخطىء العقل فى تقديراته ؟ جائز أن الانسان لا يحب الراحة والرخاء والدعة وحدها . جائز أن الانسان يحب الألم والعذاب أيضاً . أليس جائزاً أن يكون الألم مفيداً للانسان كفائدة الدعة سواء بسواء ؟ ان الإنسان يأخذ فى التوله بالألم أحياناً . ذلك واقع . ولا حاجة بنا البتة الى أن نستشير التاريخ العام فى هذا الأمر ، وأن نستفتيه فيه . اسألوا أنفسكم ، اذا كنتم بشراً ، واذا كنتم قد عشتم ولو قليلاً . أما اذا سألتمونى رأيي الشخصى ، فانتى أقول لكم انه من غير اللائق بالانسان أن لا يحب الا الدعة والراحة والرخاء. أهذا خير ؟ أهذا شر ؟ لست أدرى . ولكنه ممتع جداً فى بعض الأحيان أن يحطم المرء شيئاً ما . لست أدافع هنا عن الألم أو عن الدعة ؛ وانما هى رغبتى أنا ، ونزوتى أنا ، وانى لأصرُّ على أن تُكفل لى وأن تُضمن اذا وجب الأمر . أنا أعلم أن الآلام فى التمثيليات الهزلية مثلاً غير مقبولة ؛ لا ولا يمكن قبولها فى قصر من كريستال : ففى الألم شك وريب ، وانكار ونفى . ولكن ما عسى يكون قصر من الكريستال يمكن الشك فيه ، وأنا على يقين من الانسان لن يتنازل يوماً عن الألم الحق ، أى عن التحطيم والفوضى والتدمير .

الألم ! ألا انه لهو السبب الوحيد للشعور ، والعلة الوحيدة للوعى ! صحيح أننى أعلنت لكم فى البداية أن الوعى هو فى رأيى من أكبر عيوب الانسان ومن أعظم آفاته . ولكننى أعلم أن الانسان يحبه ، وأنه لن يرتضى أية لذة من اللذات بديلاً له . الوعى ، مثلاً ، أعلى

كثيراً من « ٢ × ٢ = ٤ » • وبعد « ٢ × ٢ » لا يبقى بطبيعة الحال شيء ، لا يبقى شيء نعمله ، لا ولا يبقى شيء نعرفه • الأمر الوحيد الذى يبقى لنا عندئذ هو أن نسد حواسنا الخمس وأن نغرق فى التأمل • صحيح أننا بالوعى نصل الى نتيجة مماثلة ، أى الى القعود عن الفعل ، ولكننا نستطيع على الأقل ، عندئذ ، أن نلهب أنفسنا من حين الى حين ، وذلك يشحذ فينا الفكر والروح على كل حال • ذلك رجعى جداً ، ولكنه يظل خيراً من لا شيء !•••

١٠

إنكم تؤمنون بقصر الكريستال الذى لا يتهدم الى الأبد ، والذى لا يمكن للمرء أن يمد له لسانه ساخراً ، ولا أن يريه قبضة يده خلسة ً• ولئن كنت أنا أشك في قصر الكريستال وأحذر منه ، فلعل ذلك لا يرجع الا الى أنه من كريستال ، وأنه لا يتهدم ، وأن المرء لا يستطيع أن يمد له لسانه ولو خفية ً وخلسة •

انظروا : لنفرض أننى لا أملك ، بدلاً من قصر الكريستال ، الا خم ً دجاج ؛ ولنفرض أن السماء أمطرت • اننى قد أتسلل الى خم ً الدجاج اتقاء ً للمطر ، ولكنى مع اعترافى بما لخم ً الدجاج على ً من فضل، لأنه وقانى من المطر ، لن أعد ً خم الدجاج هذا قصراً • انكم تضحكون، وانكم تقولون لى ان خم ً الدجاج والقصر يتساويان فى مثل هذه الحالة• فأقول لكم : هذا صحيح، اذا كان الانسان لا يحيا الا فى سبيل أن لا تبلله مياه الأمطار •

ولكن ما حيلتى اذا كنت قد وضعت فى رأسى أن الانسان لا يحيا فى سبيل هذا فحسب ، وأن الانسان اذا كان يريد أن يحيا ففى قصر من الكريستال انما يجب أن يسكن ؟ تلك ارادتى ، تلك رغبتى • ولن تفلحوا فى انتزاع هذه الارادة من نفسى الا حين تستطيعون أن تبدلوا رغباتى • فهيّا بدّلوها ان كنتم قادرين ، هيّا اعرضوا لى هدفاً آخر ، هيّا

قدموا لى غاية أخرى ، هيًا اعطونى مثلاً أعلى آخر ! ولكننى بانتظار ذلك ، أرفض أن أعد خمَّ الدجاج قصر كريستال • قد لا يكون قصر الكريستال الا خرافة ، وقد ترفضه قوانين الطبيعة ، وقد أكون اخترعته اختراعاً من باب الحماقة والغباء تدفعنى الى ذلك عادات مخالفة للعقل تعودها أبناء جيلنا ! ولكن ما قيمة هذا الكلام اذا كان قصر الكريستال هذا موجوداً فى رغباتى ، وما دام باقياً ما بقيت رغباتى • أظن أنكم ما زلتم تضحكون ! فاضحكوا ما شاء لكم هواكم أن تضحكوا ! سوف أقبل جميع السخريات ، ولكننى سأرفض أن أقول اننى شبعان حين أكون ما أزال جائعاً • لن أكتفى بتسوية ، لن أقبل حلاً وسطاً ، لن أقبل صفراً يتكرر الى غير نهاية ، لا لشىء الا لأنه مطابق للقوانين الطبيعية ، وأنه موجود فى الواقع فعلاً • لن أقبل أن تتوج رغباتى بأن أستأجر ، بأجر زهيد ، لمدة ألف عام ، بيتاً من آجر عليه اسم طبيب الأسنان فاجنهايم • حطموا رغباتى ، اقلبوا مثلى الأعلى ، قدموا لى هدفاً أفضل ، فأتبعكم حينذاك • قد تقولون اننى لا أستحق منكم عناء الاهتمام بأمرى • ولكننى سأجيبكم عندئذ بمثل ما تقولون • اننا نتناقش جادين ، فاذا لم تتنزلوا الى حيث تلتفتون الىَّ وتولونى انتباهكم ، فلن يبكينى هذا • ان لى قبوى •

ولكن ألا فلتيبس يداى اذا أنا حملت الى ذلك البيت ولو آجرةً واحدة ، ما ظللت أوجد ، وما ظللت أرغب ! لا تقولوا لى اننى قد تنازلت أنا نفسى منذ قليل عن قصر الكريستال لسبب واحد هو اننى لن أستطيع أن أخرج له لسانى ساخراً • لئن قلت هذا الكلام ، فما ذلك لأننى أحب اخراج لسانى كل هذا الحب • ولعل ما يثير حنقى هو أن مبانيكم جميعها ليس فيها واحد الا ويمكن أن يخرج له المرء لسانه • بالعكس : اننى مستعد لأن أقطع لسانى عرفاناً بالجميل اذا رُتِّبت الأمور ترتيباً

لا أشعر بعده برغبة فى أن أخرج لسانى • مهما يكن من أمر ، فليس يعنينى أن يكون هذا مستحيلاً ، وأن لا يكون بدٌ من الاكتفاء بالبيوت المكتراة بأجر بخس ! ولكن لماذا تجيش فى نفسى تلك الرغبات ؟ أيكون الهدف من تكوينى على هذا النحو هو أن ألاحظ أن هذا التكوين ليس الا مزحة دميمة ؟ أيكون هذا هو الهدف حقاً ؟ لا أظن ذلك !

ولكن هل تعرفون ما سأقوله لكم ؟ اننى مقتنع بأننا ، نحن أهل الأقبية ، يجب أن نُلجَم • ان انسان القبو قادر على أن يمكث صامتاً فى قبوه أربعين سنة ، ولكنه اذا خرج من جحره انطلق خارجاً من صمته ، وأخذ يتكلم ، ويتكلم ، ويتكلم •••

١١

غاية الغايات يا سادتي أن لا يفعل المرء شيئاً البتة • ان القعود عن الفعل والخلود الى التأمل مفضَّلان على أي شيء آخر • عاش القبو اذن ! فرغم ما قلته منذ قليل من انني أحسد الانسان السوى الطبيعي أشد الحسد ، فانني حين أراه على ما هو عليه ، أتنازل عن أن أكون انساناً سوياً طبيعياً (مع استمراري على حسده) • لا ! لا ! ان القبو أفضل وأحسن على كل حال • فهناك يستطيع المرء على الأقل أن ••• آه ••• هأنا ذا أكذب من جديد ! أكذب لأنني أعلم بوضوح كوضوح علمي بأن ٢ × ٢ = ٤ ، أعلم أن القبو ليس هو الأفضل ، وانما الأفضل شيء آخر مختلف عنه كل الاختلاف ، شيء أتطلع اليه ولكنني لا أستطيع أن أكتشفه • سحقاً للقبو !

ليتني أستطيع ، على الأقل ، أن أؤمن بكلمة واحدة مما أكتبه هنا ! يميناً يا سادتي انني لا أصدق كلمة واحدة من هذا الكلام ، لا أصدق حرفاً واحداً صغيراً ! أو قولوا : ربما كنت أصدقه ، ولكنني أحس في الوقت نفسه ـ لا أدري لماذا ! ـ أنني أكذب كما يكذب خالع أسنان • لا شك أنكم ستسألونني :

ـ فلماذا كتبت هذا كله اذن ؟

ما ذا كان يمكن أن تقولوا لو انني حبستكم خلال أربعين سنة

لا تعملون شيئاً ، ثم جئت أزوركم فى قبوكم بعد انقضاء هذه المدة ، لأرى ما الذى صرتم اليه ؟ وددت لو رأيتكم هنالك ! هل يمكن أن يترك انسان وحيداً بلا شاغل مدة أربعين عاماً ؟

ربما قلتم لى وأنتم تهزون رءوسكم باحتقار : « ولكن أليس هذا مخزياً ؟ أليس هذا ذلاً وعاراً ؟ أنت ظامىء الى الحياة ، ولكنك تريد أن تحل جميع مسائل الحياة باشكالات منطقية . ويا له من عناد ! ويا لها من وقاحة فوق هذا ! ولكنك مع ذلك خائف . أنت تقول سخافات راضياً وترتكب وقاحات معجباً ، ولكنك خائف من هذه السخافات والوقاحات ، فأنت تعتذر عنها . تزعم أنك لا تخشى أحداً ، ولكنك تلتمس رضى الناس وتنشد عطفهم . تؤكد أنك تصرف بأسنانك غيظاً ، ولكنك فى الوقت نفسه تمزح وتتندر لتضحكنا . تعلم أن أقوالك الجميلة ليست جميلة ، ولكنك تبدو شديد الرضى عن كلامك ، كثير الاعجاب بأدبك . جائز أن تكون قد تألمت ، ولكنك لا تحترم ألمك أى احترام . فى أقوالك شىء من حقيقة ، ولكن يعوزها الحياء والخفر . غرورك التافه المسكين يجعلك تحمل حقيقتك الى الميدان وتعرضها فى السوق ، وتلقيها أمام الناس عرضةً للسخريات . فى نفسك شىء تريد أن تقوله ، ولكن الخشية تجعلك تبلع الكلمة الأخيرة ، لأنك تملك وقاحة ولكنك لا تملك شجاعة . أنت تمتدح وعيك ، ولكنك غير قادر الا على التردد ، ذلك لأنك ، رغم أن عقلك يعمل ، متسخ القلب بالفحش ملوَّث النفس من الفجور ، وما لم يكن القلب صافياً طاهراً فلا يمكن أن يكون الوعى بصيراً ولا كاملاً ! يا لك من مشعبذ مهرِّج ! كذبٌ كل هذا ! كذب ! كذب ! » .

هذه الكلمات كلها أنا الذى قلتها طبعاً . انها هى أيضاً آتية من القبو صادرة عنه . خلال أربعين عاماً ظللت أصيخ بسمعى الى هذه

الأحاديث من خلال شق صغير • أنشأتها بنفسي ، اذ لم يكن هناك شيء آخر أعمله • كان سهلاً عليّ اذن أن أحفظها على ظهر القلب ، وأن ألبسها ثوباً أدبياً •

ولكن هل صدّقتم حقاً أنني سأنشر هذا الكلام كله ، وأقدمه اليكم لتقرأوه ؟ واليكم هذا الأمر الذي لا أفهمه : لماذا أخاطبكم بقولي « أيها السادة » ، كما لو كنتم قرائي ؟ ان هذه المسارّات التي أستعد للافضاء بها هنا ، لن تُنشر ، ولن تُقدَّم الى أحد ليقرأها • أنا على الأقل لا أملك من القوة قدراً كافياً لأن أفعل هذا ، لا ولا أرى أنه ضروري من جهة أخرى • ولكن اسمعوا : لقد بدت لي بدوة ، وراودتني نزوة أريد أن أحققها مهما كلف الأمر • اليكم الموضوع :

ان بين الذكريات الذي يختزنها كل منا ، ذكريات لا نرويها الا لأصدقائنا ؛ وان بينها ذكريات أخرى لا نعترف بها حتى لأصدقائنا ، ولا نرددها الا على أنفسنا ، بل ولا نرددها على أنفسنا الا سراً • ولكن هناك ذكريات أخرى يرفض الانسان حتى أن يعترف بها لنفسه • وكل انسان شريف أمين قد اختزن أثناء حياته قدراً كافياً من هذه الذكريات ، حتى ليمكنني أن أقول ان عدد هذه الذكريات يكون على قدر ما يتصف به الانسان من الشرف والأمانة • أنا على كل حال لم أقرر الا منذ مدة قصيرة أن أعيد تذكر بعض مغامراتي القديمة ، وكنت أقبل ذلك أتحاشاها شاعراً بشيء من القلق • والآن ، حين أستعيد هذه الذكريات وأريد أن أسجلها ، أمتحن نفسي فأتساءل : هل يمكن أن يكون المرء صريحاً وصادقاً ، تجاه نفسه على الأقل ، وهل يستطيع أن يقول لنفسه كل الحقيقة ؟ يحضرني في هذه المناسبة أن الشاعر هايني يؤكد أنه لا يمكن أن يكون هناك « سير ذاتية » صحيحة ، وان الانسان يكذب دائماً حين يتحدث عن نفسه • وفي رأيه أن روسو قد خدعنا حتماً

في كتابه « الاعترافات » ، بل وانه خدعنا عامداً ، من باب حب الظهور .
انني موقن من أن هايني على حق : انني لأفهم حق الفهم ان المرء يمكن
أن يقترف جرائم فظيعة لا لسبب غير حب الظهور ، وانني لأفهم أيضاً
ما يمكن أن تكون هذه العاطفة . ولكن هايني كان يقصد الاعترافات
للناس . أما أنا فانني أكتب لنفسي وحدها ؛ وأعود فأقول الآن مرة أخرى
الى الأبد : اذا كان يبدو عليّ أنني أخاطب القارىء ، فما ذلك الا طريقة
أعمد اليها التماساً لمزيد من السهولة . هذه صورة ، هذا شكل ، شكل
أجوف . أما القراء فلن يكون لي قراء قط . سبق أن قلت هذا .

ولا أريد أن يزعجني شيء في كتابة ذكرياتي . لن أتقيد بأي
ترتيب ، ولن أراعي أي نظام . لن أزيد على أن أسجل ما أتذكره .

ولكن قد يكون في وسعكم أن تقبضوا عليّ وتسألوني : « لو كان
صدقاً ما تدعيه من أنك لا تفكر في قرائك ، فعلام تعلن — كتابةً على
الورق أيضاً — أنك لن تتقيد بأي ترتيب ولن تراعي أي نظام ، وأنك
ستسجل ما يخطر ببالك ، الخ ؟ علام تقدم هذا التبرير ؟ وفيم تسوق هذا
الاعتذار ؟

سوف أجيبكم عندئذ قائلاً :

— هكذا !

على أن هذا حالةٌ سيكولوجية هامة شائقة . من الجائز أن أكون
جباناً لا أكثر . ولكن من الجائز أيضاً انني أتصور أمامي جمهوراً حتى
لا أخل بقواعد اللباقة أثناء الكتابة . ومن الجائز أن يكون هنالك بواعث
من هذا القبيل تُعدُّ بالألوف ...

غير أن هناك سؤالاً آخر أيضاً : لماذا شرعت في الكتابة أصلاً ؟
اذا كنت لا أكتب لجمهور ، أفلا أستطيع أن أستحضر ذكرياتي دون أن
أضعها على ورق ؟

فعلا . ولكن هذه الذكريات ستكتسي مظهراً فيه مزيد من الأبهة حين تُثبَّت على ورق . ان في هذا مهابة وجلالاً . سوف يحسن رأيي في نفسي ، وسوف يجود أسلوبي . ثم ان من الممكن أن يحمل الىَّ هذا شيئاً من التخفف والسلوى والعزاء . أنا اليوم ، مثلاً ، ترهقني ذكرى بعيدة ارهاقاً شديداً . لقد انبثقت في ذهني واضحةً جداً منذ بضعة أيام ، وهي تلاحقني وتطاردني الى الآن بلا هوادة ولا مهادنة ، كلحن من تلك الألحان الموسيقية التي تتشبث بك ولا تريد أن تدعك . ولا بد لي من التخلص من هذه الذكرى . عندي ذكريات من هذا النوع تُعدُّ بالمئات . ولكن واحدة من هذه الذكريات تستيقظ في بعض الأحيان فجأة ، وتمسك بخناقي . فيخيَّل الىَّ ـ لا أدري لماذا ـ انني قد أتحرر منها اذا أنا كتبتها . فلماذا لا أحاول ؟

ثم انني ، أخيراً ، أشعر بضجر شديد وسأم قوي ، ولا أعمل شيئاً قط . فاذا كتبت ذكرياتي كنت أقوم بعمل . والعمل ، فيما يقال ، يجعل الانسان طيباً شريفاً . فهذه اذن فرصة تعرض لي ...

الثلوج تتساقط اليوم كبياً كثيفة مصفرَّة: نصف ذائبة . وقد تساقطت أمس وأمس الأول أيضاً . أحسب أن هذا الثلج الذائب هو الذي ذكرني بالقصة التي أصبحت ذكراها لا تبارحني . لذلك سأضع لقصتي هذا العنوان : « بمناسبة الثلج الذائب » .

بمناسبة الثلج الذائب

حين استطاعت حرارة كلماتي المؤثرة *
أن تنتشل من هوة الضلال المظلمة ،
نفسك التي سقطت الى هاوية عميقة ؛
وحين زخرت نفسك بآلام حادة ،
فلعنت الرذيلة التي فتنتك في الماضي
وتلويت لوعة واسفا وحسرة ؛
حين عاقبت ضميرك ،
وقصصت على كل ماجرى قبلي
وتنكرت لحياتك السالفة
ثم دفنت وجهك في يديك ،
وامتلأ قلبك هولا وخزيا ،
فاخذت تبكين على حين فجأة ..

نكراسوف

١

لم يكن عمرى أكثر من أربعة وعشرين عاماً فى ذلك الأوان . وكانت حياتى عندئذ على ما هى عليه الآن : قاتمة ، مضطربة ، فوضى ، معتزلة اعتزالاً متوحشاً . لم تكن لى علاقات ، حتى لقد كنت أتحاشى أن أكلم أى انسان ، ولا يخطر ببالى الا أن أختبىء فى ركنى . وكنت أثناء الساعات التى أقضيها فى المكتب أحاول أن لا أرفع عينىّ نحو أحد ؛ ولكننى كنت ألاحظ تماماً أن زملائى يعدوننى امرءاً متفرداً شاذاً ، وكان يخيَّل الىّ أيضاً أنهم ينظرون الىّ بشىء من النفور والكراهية . كنت أتساءل فى بعض الأحيان : لماذا أنا الشخص الوحيد الذى يتخيل أن الناس ينظرون اليه نظرة فيها نفور وكراهية ؟ كان أحد الموظفين قبيح الوجه مجدور البشرة ، وكأنه لص من قطاع الطرق ، فلو كان وجهى دميماً دمامة وجهه اذن لما تجرأت حتى على أن أظهر للناس . وكانت بزة موظف ثانٍ من الموظفين تبلغ من الاتساخ أن المرء يشعر برائحتها الكريهة متى كان على مقربة منه . ومع ذلك لم يكن يبدو على أحد من هؤلاء السادة أنه يشعر بخجل لا من وجهه ولا من بزته ولا من طبعه . كانوا لا يتخيلون أن من الممكن أن ينظر اليهم أحد نظرة فيها اشمئزاز . وحسبهم تخيلوا ذلك ، فانهم لا يأبهون له ولا يكترثون به ، اللهم الا أن يكون من جانب رؤسائهم .

يتراءى لي الآن أنني بسبب غروري المفرط وبسبب شدة ما أطلبه من نفسي ، كنت أنظر الى نفسي في كثير من الأحيان بنوع من استياء حانق قد يبلغ حد الاشمئزاز • وعلى هذا النحو انما وصلت الى اقناع نفسي بأن الآخرين ينظرون اليَّ هذه النظرة نفسها • كنت أكره وجهي ، مثلاً : كنت أرى أنه يفتقر الى النبل ، وأنه يعبِّر عن شيء من جبن وخسة ودناءة• وذلكم هو السبب في أنني حين كنت أعمل في المكتب صباحاً ، كنت أبذل جهداً كبيراً في سبيل أن اصطنع وضع الانطلاق والاستقلال ، مخافة أن يظنوا بي الجبن والحقارة ، وكنت أحاول أن أسبغ على وجهي كل ما يمكنني اسباغه عليه من نبل ورفعة ، قائلاً لنفسي : « ليس وجهي جميلاً ، فلا أقل من أن يكون نبيلاً ، معبِّراً ، وأن يكون على وجه الخصوص ذكياً جداً » • وكنت أعلم علم اليقين ، واحسرتاه ، أن وجهي لن يستطيع أن يعبِّر عن هذه الأمور الجميلة في يوم من الأيام • ولكن الشيء الرهيب المرعب حقاً هو أنني كنت أرى وجهي غبياً بليداً • لقد كان يمكن أن أكتفي أخيراً بالذكاء ، وأن استغني به عما عداه ، حتى لقد كان يمكن أن أقبل أن يعبر وجهي عن الضعة والخسة ، شريطة أن يكون ذكياً ذكاء خارقاً •

وطبيعي أنني كنت أبغض جميع موظفي الدائرة ، من أولهم الى آخرهم ، وكنت أحتقرهم جميعاً • ولكنني كنت في الوقت نفسه أخشاهم جميعاً ، فيما أظن • حتى لقد كان يتفق لي أن أضعهم فوقي وأن أنزلهم في منزلة أعلى من منزلتي • وتلك أمور تحدث لي دائماً على حين فجأة : فأنا تارةً أحتقر الناس ، وتارةً أرفع شأنهم وأعظم قدرهم • ما من انسان شريف مثقف يمكن أن يكون مغروراً ما لم يكن متشدداً مع نفسه كثير المطالب تجاهها حتى ليحتقرها في بعض الأحيان احتقاراً يبلغ حد الكره والبغض • ولكنني أنا ، أيةً كانت مشاعر الاحتقار

والاحترام ، كنت أغض طرفي وأخفض بصري أمام كل انسان • حتى لقد كنت أحاول القيام بتجارب في بعض الأحيان • أتراني أستطيع أن أحتمل نظرة فلان أو فلان من الناس ؟ وكنت ألاحظ في كل مرة أنني مضطر الى أن أغض طرفي وأخفض بصري • وكان هذا يعذبني تعذيباً يبلغ حد الجنون •

وكنت أتصف كذلك بخوف مرضي من أن أكون مضحكاً ؛ ولهذا السبب انما كنت أحب أن أنصاع للروتين انصياعاً ذليلاً في كل مايتصل بالحياة الخارجية ، وكنت أهوى أن أسير في الطريق الممهّد الذي يسير فيه سائر الناس ، ويروّعني ما قد ألاحظه في نفسي من رغبة في الابتعاد عن هذا الطريق • ولكن كيف كان يمكنني أن أقاوم ؟ لقد كان ذكائي نامياً نمواً عظيماً يبلغ حد المرض ، كما ينبغي أن يكون ذكاء رجال هذا العصر ؛ أما هم فقد كانوا جميعاً أغبياء ، وكانوا يتشابهون تشابه الخراف • ولئن كنت الوحيد الذي يعد نفسه جباناً ، وعبداً ، فلعل سبب ذلك هو أن ذكائي كان أنمى من ذكائهم •

على أن هذا لم يكن مجرد وهم مني : لقد كنت في واقع الأمر وحقيقة الحال جباناً وعبداً • أقول هذا دون أن أشعر منه بأي حرج • ان كل انسان شريف في عصرنا هذا لا بد أن يكون جباناً وعبداً • تلك حالته الطبيعية • أنا مقتنع بهذا اقتناعاً عميقاً • هكذا خُلق ، ولهذا رُكّب • وليس ذلك ظاهرة ينفرد بها عصرنا ، وتتعلق بتضافر ظروف خاصة • ففي جميع الأزمان كان الرجل الشريف جباناً وعبداً • واذا اتفق له أن يصطنع الشجاعة فما ينبغي له أن يباهي بذلك وأن يفاخر لأنه سرعان ما سيأخذ بعد ذلك بالتباكي • هذا قانونه الأبدي • الحمير والبغال وحدهم شجعان ، بعض الشجاعة من جهة أخرى • وهؤلاء لا يستحقون منا عناء الالتفات اليهم ! انهم لا شأن لهم البتة •

هناك ظرف آخـر كان يعـذبنى بغير انقطاع : كنت ألاحظ أننى لا أشبه أحداً ، وأن أحداً لا يشبهنى • فكنت أقول لنفسى : « أنا وحيد وهم جميع » ، وآخذ أفكّر •

واضح من كل هذا اننى لم أكن بعدُ الا صبياً •

ولكن كان يحدث لى فى بعض الأحيان تغير مفاجىء • لشد ما كان الذهاب الى المكتب يشق على نفسى ! كانت هذه المشقة تبلغ من الشـدة فى بعض الأحيان أننى أرجع الى البيت مريضاً تماماً • ولكننى ما ألبث أن أدخل فجـأة فى فترة أخـرى تتميز بالريبة وقلة الاكتراث وعـدم المبالاة (ان كل شىء يحدث عندى فترات فترات) ، فاذا أنا أسخر من شدة صرامتى وكثرة احتقاراتى ، وأتهم نفسى بالرومانسية • أمس كنت لا أريد أن أخـاطبهم ، ولكننى اليوم أتحـدث معهـم ، وأحـاول أن أصادقهم • ان كل نفورى قد تبدد بما يشبه السحر • من يدرى ؟ لعل هـذا النفـور لم يخـالجنى فى يوم من الأيام ، ولعلنى اصطنعه اصطناعاً مسـتمداً من قراءة الكتب • اننى لم أسـتطع حتى الآن أن أحل هذه المشكلة وأن أجيب عن هذا السؤال • حتى لقد اتفق لى مرةً أن شُددت اليهم بصداقة حميمة، فكنت أزورهم ، فنلعب بالورق ، ونشرب الخمرة، ونتحدث عن الدرجات والعلاوات ••• ولكن اسمحوا لى هنا أن أفتح قوسين مستطرداً بعض الاستطراد •

قلَّما يوجـد بيننا ، نحن الروس ، على وجه العمـوم ، أناس من أولئك الرومانسيين الأغبيـاء الألمان ، أو الفرنسـيين خاصـةً ، الذين يحلقون فى كواكب أحلامهم ، ولا يفعلون عليها شيئاً ولو اهتزت الأرض تحت أقدامهم ، ولو هلكت فرنسا على المتاريس ! انهم لا يتغيرون أبداً، حتى ولا من قبيل اللباقة والكياسـة ، بل يظلون يصـدحون بأناشيدهم

السماوية الى آخر يوم ، لأنهم أغبياء . عندنا نحن ، على أرضنا روسيا ، لا يوجد أمثال هؤلاء البلهاء . ذلك معروف . وهو بعينه ما يميز بلادنا عن البلاد الأجنبية . ليس عندنا اذن أناس لهم تلك الطبائع المثالية على حالة الخام ان صح التعبير . ان النقاد والكتاب الصحفيين فى العصر السالف قد أوهمهم خيالهم الغبى أن أمثال كونستانجوجلو والعم بطرس ايفانوفتش * هم مثلنا الأعلى ، فاعتقدوا أن روائيينا الرومانسيين محلقون فى الأحلام الرائعة تحليق رومانسيى ألمانيا أو فرنسا .

بالعكس : ان طبع الرومانسى فى بلادنا يختلف كل الاختلاف عن طبع زملائه الأجانب ، وما من وحدة من وحدات القياس الأوروبية يمكن أن تصلح له (اسمحوا لى أن استعمل هذه الكلمة : « الرومانسى » ، التى هى كلمة قديمة محترمة يعرفها جميع الناس) . ان السمة البارزة المسيطرة فى طبع الرومانسى عندنا هى أنه يفهم كل شىء ، ويرى كل شىء ، يرى رؤية لا تقل وضوحاً عن رؤية اشد العقول ايغالاً فى الواقعية وتشبثاً بالوضعية ، بل تزيد عليها وضوحاً . صحيح أن الرومانسى عندنا لا يطأطىء رأسه للواقع ، ولكنه لا يحتقر الواقع أيضاً . وهو يخضع وينصاع اذا وجب الخضوع والانصياع . ان الهدف العملى النافع المفيد (كمعاش حسن ، ووسام جميل ، ومنزل أنيق) لا يغيب عن بصره أبداً ، بل هو يميزه من خلال جميع الحماسات ، ومن خلال جميع دواوين الشعر العاطفى الغنائى . ولكنه فى الوقت نفسه يحتفظ بمثله الأعلى فى « الجمال والروعة » ، مع محافظته على نفسه فى هذه المناسبة ذاتها ملفوفاً بالقطن كجوهرة ثمينة فى سبيل مصلحة ذلك الجمال نفسه وتلك الروعة نفسها . ان الرومانسى عندنا انسان واسع الى أقصى حدود السعة ، وهو أوغد الأوغاد ، أؤكد لكم ذلك ... فأنا أعرفه حتى من تجربتى الخاصة . ولكن هذا كله لا يتعلق الا بالرومانسى الذكى . ماذا أقول ؟

ان الرومانسي ذكي دائماً • وانما أودت أن ألفت نظركم الى أنه ان وجد بين الرومانسيين عندنا عدد من الأغبياء ، فهؤلاء لا يحسبون ، لأنهم يصيرون منذ زهرة العمر الى ألمان حقاً ، فيستقرون أخيراً في مكان ما من الغابة السوداء بألمانيا (شفارتسفالد) أو يستقرون في سويسرا ، حفاظاً على جوهرتهم سليمة" لا يمسها أذى ولا ينالها سوء •

ولأضرب مثلاً بنفسي : لقد كنت أكره مشاغلي صادقاً أكبر الصدق ، ولئن لم أبصق عليها ، فلأنني كنت مضطراً أن أذهب الى المكتب في سبيل أن أقبض راتباً • لاحظوا أنني كنت أذهب الى المكتب مهما يكن من أمر ! ان الرومانسي عندنا يؤثر أن يفقد عقله (ونادراً ما يحدث له ذلك على كل حال) على أن يركل وظيفته ان لم تعرض له وظيفة أخرى. لن يستطيع أحد أن يحمله على التخلي عن مكانه ولو ركلاً بالأرجل ؛ وكل ما يمكن فعله في أكثر تقدير ، اذا هو فقد عقله تماماً ، هو أن يُحبس في مستشفى من مستشفيات المجانين ، فيمثل هنالك دور ملك اسبانيا * •

ولكن الذين يفقدون عقولهم انما هم النحاف الشقر المخنثون ، على حين أن عدداً لا حصر له من الرومانسيين يبلغون أعلى الرتب • وان تنوع مواهبهم يبلغ حداً خارقاً • ولشد ما يسهل عليهم أن يوفقوا بين العواطف المتناقضة والاحساسات المتضاربة ! لقد لفت ذلك نظري وخطف انتباهي وعزّاني وواساني منذ ذلك الحين ! ولهذا يوجد بيننا هذا العدد الغفير كله من « الطبائع الواسعة » التي تحتفظ بمثلها الأعلى حتى في سقوطها الأخير • ورغم أن هؤلاء لا يحركون حتى اصبعاً واحدة في سبيل هذا المثل الأعلى ، ورغم أنهم أوباش من قطاع الطرق حقاً ، فانهم يظلون شرفاء في نفوسهم الى أقصى حد ، ويظلون يحترمون مثلهم الأعلى الذي يتحدثون عنه والدموع في أصواتهم •

نعم يا سادتي ، لا يوجد الا عندنا انسان يمكن أن يكون أوغد الأوغاد ثم هو شريف في نفسه ، شريف الى حد الروعة ، ولكن دون أن يكف بسبب ذلك عن أن يكون مسكيناً تافهاً • أعود فأقول : انه يخرج دائماً من بين صفوف الرومانسيين عندنا غشاشون يبلغون من البراعة والحذق (انني استعمل هنا كلمة «الغشاش» بمعنى فيه مداعبة) ويظهرون من قوة الحس الواقعي ووفرة المعارف العملية ما يجعل الناس ورؤساءهم يفركون أعينهم دهشةً واستغراباً •

نعم ، ان التنوع والسعة فينا خارقان حقاً ، والله وحده يعلم ما الذي سيخرج منهما أيضاً ، وما الذي يبشّران به للمستقبل ! ليس هذا النسيج برديء في الواقع ! ما رأيكم يا سادتي ؟ اذا كنت أقول هذا فليس يدفعني الى قوله عاطفة وطنية مضحكة • ثم انكم تتخيلون مرةً أخرى أنني أمزح •• أنا واثق بأنكم تتخيلون هذا • أو لعل العكس هو الصحيح : لعلكم تظنون أنني أتكلم جاداً • مهما يكن من أمر ، فالرأيان كلاهما يشرّفاني يا سادتي ، وهما كلاهما يسراني على حد سواء •

ولكن اغفروا لي هذا الاستطراد •

لم أكن استطيع ، بطبيعة الحال ، أن احتمل علاقات الصداقة مع زملائي زمناً طويلاً • فسرعان ما كنا نفترق افتراقاً عاصفاً ، حتى لقد كنت أكف عن تحيتهم – وتلك ثمرة من ثمرات قلة خبرتي ونقص تجربتي – فاذا بكل شيء بيننا ينتهي ! على أن هذا لم يحدث لي الا مرةً واحدة ، لأنني كنت متوحداً على الدوام •

وفي بيتي كنت أعكف على القراءة أكثر الوقت • فبذلك كنت أحاول أن أطفيء بالتأثرات الخارجية ما كان يغلي في نفسي بغير انقطاع• والتأثرات الخارجية الوحيدة التي كنت أملك الحصول عليها انما تأتيني

من القراءة . فكانت هذه التأثرات تساعدنى كثيراً والحق يقال : فهى تهز نفسى ، وتسرّى عنى ، وتعذبنى . ولكننى كنت أصل الى لحظة أتعب فيها منها ، وأشعر بالحاجة الى أن أعمل ، فكنت أغرق عندئذ فى مجون صغير قذر مراءٍ متخفٍ . كان حنقى المتصل وغيظى المستمر يجعلان أهوائى جامحة حارة واخزة . وكانت اندفاعاتى المحمومة تؤدى بى الى نوبات عصبية تصاحبها دموع وتشنجات . لا شيء حولى يستطيع أن يفرض علىّ احتراماً له وأن يجذبنى اليه . كان قلق غامض يجتاح نفسى ويغرقنى فى لججه . كنت أشعر بظمأ هسترى الى التناقضات والتعارضات والتضاربات ، فكنت ألقى بنفسى الى الفسق والمجون .

لست أقول هذا كله لأبرىء نفسى ... ومع ذلك !... لا ! اننى أكذب . فانما أنا أردت أن أعتذر . ولكننى لنفسى انما أسوق هذه الملاحظة . اننى لا أريد أن أكذب . لقد قطعت على نفسى عهداً بذلك.

كنت أتسلل الى عند النساء خلسةً ، وأنا أشعر بعارٍ لا يبارحنى قط ، حتى فى أحط اللحظات ، فيغيظنى ويخرجنى عن طورى الى حد الجنون . منذ ذلك الحين كانت نفسى تحمل فى ذاتها قبوها . كنت أخاف خوفاً شديداً قوياً أن يصادفنى وأن يعرفنى أحد ، فكنت لذلك أذهب الى أحقر المواخير وأقذرها .

وفى ذات مساء ، بينما كنت أمر أمام مطعم صغير ، شهدت من خلال النوافذ المضاءة معركةً بعصىّ البلياردو بين لاعبين ، ورأيت أحدهم يُرمى من النافذة . لو قد شهدت ذلك فى لحظة غير تلك اللحظة ، اذن لشعرت منه بتقزز ، ولكننى كنت فى تلك اللحظة على حال نفسية خاصة جعلتنى أحسد ذلك السيد الذى طُرد تلك الطردة على هذا النحو . وقد بلغ شعور الحسد هذا من القوة فى نفسى أننى دخلت المطعم وولجت الى

صالة البليـاردو ، قائلاً لنفسى : « من يدرى ؟ قد أثير أنا أيضاً شجاراً طيباً كذلك الشجار فأفلح فى أن أحملهم على القائى من النافذة ! » •

لم أكن سـكران ، ولـكن ماذا تريدون ؟ لقد أفقـدنى الضجر والسأم والقلق والخوف عقلى فصرت كالمجنون • ولكن الذى حدث هو أننى لم أستحق حتى أن أُرمى من النـافذة ، فخـرجت دون أن أفلح فى الاقتتال مع أحد •

ذلك أن ضابطاً قد ردّنى منذ البداية •

لقد وقفت قرب مائدة البليـــاردو ، وأخـذت أزعج اللاعبين وانا لا أعرف منهم أحداً • وأراد الضابط أن يمر ، فأمسـكنى من كتفى ، وأبعدنى دون أى شرح ، دون أن ينطق بكلمة ، ومرّ كأننى لا وجود لى • كان يمكن أن أغفر له لطمـات يكيلها لى ، ولكن الشىء الذى لم أطق احتماله هو أنه أبعدنى صامتاً بغير كلام •

لقد كنت على استعداد لأن أهب كثيراً فى سبيل أن أظفر بمشاجرة نظامية ، باقتتال لائق ، باختصام أدبى ان صح التعبير • ولكننى عوملت كما تعامل ذبابة • كان الضابط طويل القامة ، وكنت أنا قصيراً هزيلاً • ومع ذلك كان لا يتـوقف الا علىّ أنا أن أثير فضيحـة وأن أحـدث جرْسة : فلو قد هيبت أحتج اذن لأُلقيت من النـافذة فوراً ، ولكننى فكرت فى الأمر ، فآثرت أن أنسل هارباً والغيظ يملأ قلبى •

وجدت نفسى فى الشـارع مضطرباً حـائر النفس مبلبل الفكر ، فعدت الى منزلى رأساً • وفى الغداة غطست فى دعارتى الصـغيرة بمزيد من الوجل والخشـية ، وبمزيد من الأسى والكآبة ، حتى لقـد انسكبت الدموع من عينى ، ولكننى واصلت ولم أكف • لا تظنوا مع ذلك أن تراجعى أمام الضابط كان عن خوف • ان نفسى لم تكن خوافة فى يوم

من الأيام ، رغم أننى كنت طوال حياتى أخاف الفعل ، أخاف العمل •
ولكن حسبكم ضحكاً ! ان لهذا تفسيراً • ان عندى تفسيرات لجميع الحالات •

أوه ! ليت ذلك الضابط كان واحداً من أولئك الناس الذين يرتضون أن يقتتلوا فى مبارزة ! ولكن لا ! انه واحد من أولئك السادة (وقد زال نموذجهم منذ زمن طويل وا أسفاه !) الذين يؤثرون أن يستعملوا عصىّ البلياردو أو أن يشتكوا الى رؤسائهم على أن يتبعوا طريقة الملازم بيروجوف الذى حدثنا عنه جوجول * • ان هؤلاء لا يقتتلون فى مبارزة ، ولا سيما حين يكون شأنهم مع أمثالنا نحن معشر المدنيين المساكين • انهم يعدون المبارزة أمراً غير لائق ، يعدونها موضة فرنسية ، يعدونها دليلاً على روح لبرالية • ولكن هذا لا يمنعهم ، ولا سيما اذا كانوا طوال القامة أقوياء الجسم ، من أن يهينوا غيرهم فى سخاء •

ليس الخوف هو الذى حملنى على الانصراف ، بل الغرور والخيلاء.
لم أخف من طول قامة هذا الضابط الذى أهاننى ، ولا من اللطمات التى كان يمكن أن تُكال لى ، ولا من أن أُطرد بالقائى من النافذة • ليست الشجاعة الجسمية هى التى أعوزتنى ، ولكن شجاعتى الروحية هى التى لم تكن كافية • لقد خفت أن يأخذ جميع الحضور بالضحك منى اذا أنا رفعت صوتى محتجاً وكلمتهم بلغة أدبية ••• أقول جميع الحضور ، ابتداءً من ذلك الضابط الوقح وانتهاءً بذلك المستخدم المتبثّر الوجه الفاسد الدم القذر الياقة الذى كان يحوم حول اللاعبين منهمكاً • ذلك أن المرء فى بلادنا لا يستطيع أن يتكلم عن « نقطة الشرف » (لا عن الشرف ، بل عن « نقطة الشرف ») * ، الا اذا هو استعمل لغة أدبية • أما باللغة العادية فلا يستطيع المرء أن يبحث نقطة الشرف وأن يناقش فيها • كنت على

يقين كامل (هأنتم أولاء ترون أن الرومانسية لا تنفى الحس الواقعى) من أنهم سيفطسون من فرط الضحك ، وان الضابط لن يكتفى بأن يضربنى ، وانما هو سيجعلنى أدور حول البلياردو ركلاً برجليه ، ثم قد يشفق علىّ بعد ذلك فيلقينى من النافذة • واضح أن هذه القصة الشقية لا يمكن أن تنتهى معى أنا الا على هذه الصورة •

وقد التقيت بهذا الضابط مراراً بعد ذلك فى الشارع ، فلاحظته وأحسنت ملاحظته • ترى هل عرفنى هو ؟ لا أدرى ! أغلب الظن أنه لم يعرفنى • أستنتج ذلك من بعض القرائن• أما أنا فكنت أتفحصه بكره شديد ، وحنق مسعور • ودام ذلك عدة سنين • نعم يا سادتى ! بل كان كرهى يزداد حدة وشدة مع الزمن • أخذت فى أول الأمر أجمع بعض المعلومات عن شخصه خفيةً • وقد كلفنى ذلك عناءً كبيراً ، لأننى لم أكن أعرف أحداً ، لم أكن أعرف هراً • ولكن حدث فى ذات مرة ، بينما كنت أتبعه من بعيد ، مقتفياً أثره ، أن ناداه أحد باسمه فى الشارع• وهكذا عرفت ماذا كان اسمه • وفى مرة أخرى تبعته حتى بيته ، واستطعت بقرشين أن أعرف من البواب فى أى طابق يسكن ، ومع من يسكن ، الى آخر ما يمكن أن يُعرف من بواب •

وفى ذات صباح ، خطر ببالى ، رغم أننى لم أُعن قبل ذلك بالأدب يوماً ، أن أصف هذا الضابط وصفاً هجائياً ، وأن أرسم لشخصيته صورة كاريكاتورية ، وأن أتخذه بطلاً لقصة • وغرقت فى هذا العمل سعيداً به ، فوصفت بطلى وصفاً سيئاً ، وصورته فى صورة بشعة ، وصبغته بألوان قاتمة ، حتى لقد أسرفت فى التجنى عليه • ولم أبدل اسمه فى أول القصة الا تبديلاً يسيراً جداً ، فاذا قرأ أصدقاؤه هذه القصة كان لا بد أن يعرفوا أنه هو المقصود فيها فوراً • وأرسلت قصتى الى مجلة « حوليات الوطن » * ، ولكن الموضة الأدبية التى كانت رائجة

فى ذلك الحين لم تكن موضـة القصص الهجائى ، فلم يُتَح لقصتى أن تنشر ، واستأت من ذلك استياءً شديداً .

وكنت فى بعض الأحيان أكاد اختنق غضباً وسخطاً وحنقاً ؛ حتى لقد قررت أخيراً أن أدعو عدوى الى المبارزة ، فدبجت رسـالةً جميلة جداً أتوسل اليه فيها أن يعتذر لى ، فاذا رفض أن يعتذر بادرت فأشرت اشارة واضحة جداً الى موضوع المبارزة . وقد بلغت فى تدبيج الرسالة من حسن الاتقان وجودة الصـياغة أن الضـابط لو كان يملك ذرة من الشعور « بالجمال والروعة » اذن لأسرع الىَّ حتماً ، فارتمى على عنقى وقدم لى صـداقته ، ولكان ذلك مؤثراً فى النفس أبلغ التأثير ، ولعشـنا سعداء ، سعداء غاية السعادة ... ان هيئته الجميلة المهيبة كانت ستحمينى من أعدائى ، وان ما أنعم به أنا من ذكاء ، وما أملكه من أفكار وآراء ، كان سيكفل لى أن أُؤثر فيه تأثيراً يضفى على النفس سـمواً ونبلاً . ما أكثر الأشياء التى كان يمكن أن نفعلها ! تصوروا أن هذا جرى بعد وقوع الحادثة بسنتين ، وأن التحدى الذى فكرت فيه كان قد انقضى أوانه فهو الآن سخيف مضحك رغم كل ما بذلته من حذق وبراعة فى سبيل تعليـل واخفـاء ما يتصف به من أنه قد فات أوانه . ولكننى أحمد الله (اننى ما زلت الى يومنا هذا أحمد الله دامع العينين شكراناً وعرفاناً) على أننى لم أبعث الرسالة . ان رعدة تسرى فى جسمى متى تصورت ما كان يمكن أن يحدث لو بعثتها .

ثم ... ثم أفلحت فجأة فى الانتقام لنفسى على نحو بسيط عبقرى. ومضت فى ذهنى فكرة نيِّرة مضيئة . كنت أحياناً فى أيام الأعياد أمضى أتنزه فى شارع نفسكى ، وأسير فى نحو السـاعة الرابعـة على الرصيف المعرَّض لأشعة الشمس . واذا أردت الدقة فى التعبير قلت اننى كنت لا أتنزه هنالك وانما أعانى تباريح وآلاماً لا نهـاية لها ، وأقاسى مذلات

شديدة ونوبات أوجاع في الكبد . ولكن لعل ذلك بعينه هو ما كنت أنشده وأبتغيه في تلك الأماكن . فكما تفعل حشرة من الحشرات ، كنت أتدسسُ بين المارة على نحو كريه بشع ، متنحياً عن الطريق للجنرالات وضباط الحرس والفرسان والسيدات الجميلات . وكنت أشعر بتقلصات حقيقية تقبض قلبي ، وبرعدات تسري في ظهري ، متى تصورت حقارة ملابسي ، ومتى تخيلت ما لا بد أن يكون في شخصي الصغير المضطرب القلق من مظهر الضعة والعامية . انه لعذاب حقيقي وذل في كل لحظة ما كان يثيره في نفسي شعوري الواضح بأنني لم أكن بين تلك الأناقات الا ذبابة ، الا ذبابة كريهة ، ذبابةً تفوق هؤلاء الناس طبعاً من حيث الذكاء والنبل ، ولكنها مهانة دائماً ، مذلة بغير انقطاع ، مضطرة الى التنحي في كل حين .

لماذا كنت أذهب الى شارع نفسكي ؟ لماذا كنت أسعى وراء ذلك العذاب وأنشده وأبتغيه ؟ لا أدري . ولكني كنت أشعر بأنني منجذب نحوه فأهرع اليه كلما استطعت الى ذلك سبيلاً .

كنت اذن منذ ذلك الحين أحس بنوبات التلذذ التي تكلمت عنها في الفصل الأول . ولكن هذا الاغراء قد ازداد قوة بعد حادثتي مع الضابط . وفي شارع نفسكي انما كنت ألقاه في أكثر الأحيان . هناك انما كنت أستطيع أن أعجب به . كان هو ايضاً يتنزه في شارع نفسكي أيام الأعياد . وكان يتنحى كذلك للجنرالات والشخصيات العليا ، ويتسلل بينهم تسلل سمكة صغيرة ؟ أما اذا كان الأمر أمر أشخاص من نوعي أو أنظف قليلاً ، فانه كان يدوسهم دوساً ، فهو يسير اليهم قدماً كأنهم لا وجود لهم ، ولا يتنحى لهم بحال من الأحوال . وكان يأكلني حنقي وغيظي حين أراه مقبلاً ، ولكنني أتحول عن طريقي في كل مرة ، ممتلىء النفس غضباً . كان يؤلمني أن لا أستطيع ، حتى في الشارع،

أن أقف على قدم المساواة معه ؟ وكنت أسأل نفسى أحياناً ، فى وسط الليل ، وقد تشنجت من فرط الغضب : « لماذا تكون أنت المتنحى دائماً ؟ لماذا أنت ؟ ما من قاعدة هنالك • ليس هذا مكتوباً فى أى مكان • أنا أفهم أن يكون ثمة اقتسام ومشاطرة ، كما يحدث هذا بين أناس محترمين : يتنحى هو ، وتتنحى أنت ، وتمران كلاكما على احترام متبادل » • مهما يكن من أمر ، فقد كنت أنا الذى أتحول عن طريقى دائماً ، أما هو فكان لا يلاحظ حتى هذا الأدب والتهذيب من جانبى • وهذه فكرة رائعة تخطر على بالى فى ذات مرة• قلت لنفسى: « ماذا لو تجاسرت أن لا أتنحى له ، عامداً ، عائداً ، حتى ولو دفعنى ؟ ما عسى يحدث حينئذ ؟ » • واستولت علىّ هذه الفكرة الجريئة شيئاً بعد شىء ، وبلغت من قوة استيلائها علىّ أننى أصبحت لا أستطيع منها فكاكاً • أصبحت لا أنفك أحلم بهذا اللقاء بينى وبينه ، وأصبحت أكثر من ذهابى الى شارع نفسكى بغية أن أتصور بمزيد من الوضوح طريقة تصرفى حين سأتصرف • واجتاح الفرح نفسى • صرت كلما فكرت فى مشروعى مزيداً من التفكير ، ازداد اقتناعاً بأنه يمكن تحقيقه • أخذت أحدث نفسى قائلاً : « لن أدفعه دفعةً قوية بطبيعة الحال ـ لقد أحسن الفرح الىّ وطامن من حدتى ـ ولكننى لن أتحاشاه • سنتصادم ، ولكن دون احداث ألم شديد • يكفى أن نتلامس كتفانا ، يكفى هذا حتى تراعى الواجبات وتُصان الكرامة » •

وعزمت أمرى أخيراً ، واتخذت قرارى • ولكن التحضيرات استغرقت زمناً طويلاً • كان علىّ قبل كل شىء أن أكون حسن الهندام أثناء تلك العملية ، فكان لا بد أن أُعنى اذن بملبسى • « اذا حدثت فضيحة مثلاً (ان الجمهور فى مثل تلك الساعة يكون من أكثر الناس أناقة هندام : الأمير د ••• ، الكونتيسة ، جميع الكتاب) ، فيجب أن

تكون حسن الملبس ؟ ان ذلك يجعل لك مهابة ، ويضعك على قدم المساواة فوراً مع أى انسان » • ذلك ما كنت أحدث به نفسى • ولهذا اقترضت سلفةً على رواتبى واشتريت من عند تشوركين قبعةً وقفازين سوداوين • بدا لى أن القفازات السوداء أحسن وقعاً وأكثر رصانةً من القفازات الليمونية اللون التى خطرت ببالى فى أول الأمر ثم رأيت أنها صارخة « فكأننى أريد بها أن ألفت الانتباه الىّ »• هكذا عدلت عن شراء قفازين بلون الليمون • وكنت قد أعددت منذ مدة طويلة قميصاً أنيقاً له أزرار من عاج • ولكن حالة معطفى تطلبت اعدادات طويلة • لم يكن ذلك المعطف بشعاً مسرفاً فى البشاعة على وجه الاجمال ، وكان يوفر لى دفئاً كافياً • ولكنه كان مبطناً بقطن ، وكانت ياقته من فراء الفأر كمعاطف الخدم • فكان لا بد من ابدال هذه الياقة مهما كلف الأمر ، ومن تركيب ياقة من فراء الكستور كتلك التى يلبسها الضباط • مضيت أطوف بالمتاجر ، واستطعت أخيراً بعد مساع مخفقة وجهود عقيمة أن أعثر على نوع من كستور ألمانى قدرت أنه لن يكون باهظ الثمن • ان الكستور الألمانى ، رغم أنه ليس متيناً ورغم أنه سرعان ما يسوء مظهره ، يبدو حسناً حين يكون جديداً • وأنا لم أكن فى حاجة اليه الا لهذه المناسبة وحدها • سألت عن الثمن فاذا هو باهظ مع ذلك • فقررت عندئذ أن أبيع ياقتى المصنوعة من فراء الفأر ، وأن اقترض المبلغ الذى ما يزال يعوزنى ، وهو فى نظرى مبلغ ضخم ، أن أقترضه من أنطون أنطونوفتش سيتوشكين ، رئيس المكتب الذى أعمل فيه ، وهو انسان لطيف دمث ، لكنه جدى وعملى ، وكان قد أوصاه بى خيراً رجلٌ من علية القوم منذ تعيينى فى وظيفتى •

كنت أعانى عذاباً شديداً وألماً رهيباً : كان يبدو لى أن من أكبر العار والخزى أن أسأل أنطون انطونوفتش مالاً • ولبثت ليلتين أو ثلاث

ليالٍ لا يعرف جفناى الى الغمض سبيلاً . وكنت أثناء تلك المدة كلها لا أنام الا قليلاً جداً على كل حال . وانتابتني حمى ، وانقبض قلبي انقباضاً شديداً ، ثم أخذ يثب في صدري على حين فجأة ، يثب ، ويثب ، ويثب ...

دُهش أنطون أنطونوفتش بعض الدهشة في أول الأمر ، ثم صعَّر وجهه ، وفكَّر ؛ ثم أقرضني المال المطلوب أخيراً ، بعد أن جعلني أوقّع سنداً أفوّضه فيه بأن يقبض راتبي بعد أسبوعين .

غدا كل شيء مهيأً . حلّ الكستور الجميل محلّ فراء الفأر البشع ، وشرعت أرتّب ، شيئاً بعد شيء ، مراحل عملي . ليس يستطيع المرء أن يعمل منذ أول لقاء طبعاً . فلا بد من انتهاز ظرف مناسب ، لا بد من التمهل والصبر . ولكنني بعد بضع محاولات عقيمة أخذت أيأس من النجاح ، أعترف لكم بذلك . لم نفلح في أن نلتقي وجهاً لوجه . ألم أكن قد تأهبت كل التأهب مع ذلك ؟ ألم أتخذ جميع احتياطاتي ؟ وهانحن نلتقي وجهاً لوجه ذات مرة . ها قد أفلحنا في ذلك أخيراً . ولكن ماذا أرى ؟ لقد تنحيت له من جديد ، فمرّ دون أن يلتفت الىّ أىّ التفات ؟ وأخذت أضرع الى الله أن يلهمني قوة العزيمة حين رأيته مقبلاً علىّ في مرة ثانية ، فلما قررت أن أنفذ قراري أخيراً ، رأيتني لا أزيد على أن أقع عند قدميه ، لأنني ترددت حين صرت على مسافة خطوتين منه ، فمرّ من فوقي هادئاً كل الهدوء ، ورُميت جانباً كما تُرمى كرة .

اعترتني الحمى مرةً أخرى في تلك الليلة ، وصرت أهذي . ولكن هذه العقدة انحلت فجأة على خير ما يُرام . قررت في ذات مساء أن أعدل عن خطتي المشؤومة وأن أدع كل شيء . وفي اليوم التالي اتجهت نحو شارع نفسكي مرةً أخيرة وأنا على تلك الحالة النفسية ، بغية أن أشهد تركي لمشروعي ان صح التعبير . وفيما أنا أمشي ، وجدتني أعزم

أمرى واتخـذ قرارى فجـأة وأنا على بعد ثلاث خطوات من عدوّى . أغمضت عينىّ ... وتصادمنا ، كتفاً بكتف ... لم أتنح شبراً واحـداً ... ومررنا متحاذيين كما يمر ندان ... ولم يقم هو بأى حركة ، حتى أنه لم يلفت رأسه ، وتظاهر بأنه لم يلاحظ شيئاً . ولكننى على يقين من أن ذلك لم يكن منه الا وضعاً مصطنعاً . وما زلت على يقين من ذلك الى يومنا هذا . وقد أوجعتنى الصدمة أكثر مما أوجعته طبعاً ، فهو أقوى منى جسماً وأصلب عوداً . ولكن هدفى قد تحقق كله . لقد أنقذت كرامتى : لم أتنحّ شـبراً واحـداً وأجبرته على أن يعاملنى معاملة الند للنـد على رءوس الأشـهاد . فلما عدت الى بيتى كنت أحس بأننى ثأرت ثأراً تاماً لكل ما عانيته من مذلات . أصبحت أسبح فى الفرح . انتصرت . أخذت أغنى ألحاناً ايطالية .

لن أصف لكم طبعـاً ما حدث بعد ذلك بثلاثة أيام . اذا كنتم قد قرأتم الفصـل الأول ، « القبو » ، فانه يكون سـهلاً عليكم أن تتخيلوا ما حدث . لقد نُقل الضابط بعد ذلك الى مكان آخـر لا أدرى أين . اننى لم أره منذ أربعـة عشر عاماً . ما الذى يعمله الآن ذلك الصـاحب العزيز ؟ من تُراه يدوس ؟

٢

كنت اذا انتهت فترة الفجور والفسق أشعر باشمئزاز شديد وتقزز حاد ، وكنت أحس بالندم وعذاب الضمير ، ولكنني كنت أطردهما ، لأنهما يثيران فى نفسى غثيـــاناً • ومع ذلك فقـد ألفت الأمر وتعودته قليلاً قليلاً • كنت أعتاد كل شيء ؟ أو قولوا بتعبير أصح وأدق اننى كنت لا أعتاد ، وانما أرتضى أن أحتمل كل ما يقع وأن أصبر على كل ما يحدث • ولكن كان لى مخرج أفزع اليه هو أن أهرب الى آفاق « الجمال والروعة » ، بالحلم طبعاً • كنت أغرق فى الأحلام غرقاً جنونياً، طوال ثلاثة أشـهر ، قابعاً فى قبوى • وصدقونى اذا قلت لكم اننى كنت فى أثناء تلك اللحظات لا أشـبه فى شيء ذلك السـيد الذى كان يخيط لمعطفه ياقةً من فراء الكستور الألمانى ، مضطرب القلب كدجاجة • كنت أستحيل فجأة الى بطل ، فلو طلب صاحبى الضـابط ذاك أن أسـتقبله لرفضت استقباله فى تلك اللحظات ، وما كان ليخطر ببالى هذا كله على كل حال •••

فماذا كانت تلك الأحلام ، وكيف كانت تكفينى وترضينى ؟ انه ليصـعب علىّ أن أشرح ذلك فى هـذه الأيام • ولكننى أعلم أننى كنت عندئذ مكتفياً راضـياً • ثم ان هـذه الأحلام تكاد تكفينى حتى فى هذا

الأوان • كانت تلك الأحلام تكتسي صوراً عذبة آسرة فور انتهاء نوبات فسقي وفجوري ، حينما توافيني وسط آلام الضمير ودموع الندامة ولعنات النفس وحماسات القلب • يميناً لقد كانت تمر بي لحظات تبلغ من قوة الامتلاء وكمال السعادة أن كل سخرية كانت تخرس ، فلا يبقى في نفسي الا الايمان والأمل والحب • وفي مثل ذلك الأوان انما كنت اقتنع اقتناعاً أعمى بأنني بفضل معجزة من المعجزات ، بفضل ظرف من الظروف الخارجية ، سوف تزول من أمامي جميع المصاعب ، وسوف تتهدم جميع الأسوار ، وسوف ينفسح لي ميدان عمل نافع جميل ، عمل يتصف خاصة بأنه « يمكن أن يتحقق » (لم أعرف في يوم من الأيام ما عسى يكون ذلك العمل ، ولكن الأمر الأساسي في نظري هو أنه عمل متأهب لأن يتحقق كل التأهب) • وكنت عندئذ أرى نفسي مالىء الدنيا، وشاغل الناس ، أكاد امتطي جوادا أبيض ، وعلى رأسي أكليل من الغار• كنت لا أُريد حتى أن أفكر في امكان دور ثانوي • ولعل هذا هو السبب أنني كنت في الحياة الواقعية أكتفي بهذا الدور الثانوي هادئاً كل الهدوء• اما أن أكون بطلاً واما أن لا أكون شيئاً ، فلا وسط في نظري ، وذلك بعينه هو ما ضيعني ، لأنني حين كنت أغوص في الوحل كنت أعزي نفسي متذكراً أنني في لحظات أخرى كنت بطلاً ، فكان البطل يضفي على الوحل اشراقة مهابته ، وسطوع عظمته : انه لمحظور على الانسان العادي أن يغوص في الوحل ، أما البطل فانه يحلق في ذُرى تبلغ من العلو أنه لن يستطيع أن يتسخ اتساخاً كاملاً ، ففي وسعي اذن أن أتدحرج في القذارة •••

وأعجب ما في الأمر أن هذه الاندفاعات نحو « الجمال والروعة كانت تنشأ في نفسي أحياناً أثناء نوبات الفجور والدعارة ، ولا سيما حين أكون قد سقطت الى قاع الهاوية ، فاذا هي تنبجس انبجاس الذكريات،

مسقطة شعاعاً شاحباً ، ولكنها تعجز مع ذلك عن تبديد رغباتي وازالة شهواتي حتى لكأنها تحرضها مزيداً من التحريض وتثيرها مزيداً من الاثارة ، بسبب ما تظهره من تضاد وتناقض هما أشبه بتوابل تجعل للطعام مذاقاً شهياً . ان هذه التوابل تتألف من تناقضات وتباريح وتحليلات موجعة أليمة ، فهذه العذابات كلها ، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، تضيف الى فجوري طعماً حاداً محرقاً ، بل وتسبغ عليه شيئاً من معنى. الخلاصة أن تلك الاندفاعات انما كانت تقوم حق القيام بدور توابل لذيذة بغية أن أتصور بمزيد من الوضوح طريقة تصرفي حين سأتصرف . النكهة طيبة الطعم حتى أن ذلك كله كان لا يخلو من بعض العمق . والا فهل كان يمكنني أن أقبل فجوراً عادياً ودعارة تافهة بسيطة صادقة يسترسل فيها موظف صغير ، وأن أحتمل هذه الفظاعة راضياً هادئاً ؟ كلا ... لقد كنت أدخر في جعبتي دائماً طريقة نبيلة وأسلوباً رفيعاً في مواجهة الأشياء والنظر الى الأمور .

ولكن ما كان أعظمه من حب ، يا رب ، ذلك الحب الذي كنت أشعر بنبضه في نفسي أثناء استرسالي في تلك الأحلام ، حين كنت أفر الى آفاق « الجمال والروعة » ! ورغم أن هذا الحب كان أخيلة خارقة وأوهاماً عجيبة ورغم أنه كان لا ينصب قط على أي شيء انساني ، فلقد كانت تفيض به نفسي فيضاناً يبلغ من الوفرة أنني كنت أصبح في غير حاجة الى ذلك التحقق الذي يكاد يكون نافلة لا قيمة لها ولا جدوى منها . وكان كل شيء ينتهي انتهاء موفقاً جداً على كل حال . فكنت ألتفت ، في كسل وتوان ولذة ، الى الفن ، أي الى الصور الجميلة والأشكال البديعة الجاهزة المهيأة تستمد من الشعراء والروائيين وتلائم جميع الحاجات وجميع المطالب في سهولة ويسر .

هأناذا مثلاً انتصر على الكون بأسره فاذا بجميع الناس يسجدون

أمامي على التراب مضطرين الى الاعجاب بفضائلي الكاملة ولكنني أغفر لهم جميعاً ؟ أو هأناذا ، وقد أصبحت شاعرا مرموقاً وموظفاً في قصر القيصر ، أهيم غراماً وأصبح عاشقاً . وهأناذا أتلقى ملايين لا حصر لها ولا عدّ ، فأبادر الى تقديمها هديةً للنوع الانساني ، معترفاً أمام الشعب المحتشد بكل ما أتصف به من عيوب مخزية ، ولكنها ليست عيوباً عادية بطبيعة الحال وانما هي عيوب فيها شيء من « جمال وروعة » ، عيوب فيها شيء « بايروني » من نوع مانفرد . وها هم أولاء جميعاً يذرفون الدموع ويعانقونني ويقبّلونني (ولو لم يفعلوا ذلك لكانوا أغبياء بلهاء) ، وهأنا ذا أمضي حافي القدمين جائعاً ساغباً أبشّر بالأفكار الجديدة وأفضح الرجعيين فضحاً كاملاً في أوسترلتس ! ثم يُعزف نشيد :انه العفو العام . يوافق البابا على أن يترك روما وأن يذهب الى البرازيل . ثم تقام حفلة رقص لايطاليا كلها في « فيللا » بورجيز التي تقع على شاطىء بحيرة كومو ، لأن البحيرة قد نُقلت الى ضواحي روما لهذه المناسبة خصيصاً . وبعد ذلك يجري مشهد عظيم في الأدغال ، الخ الخ ! ... كأنكم لا تعرفون هذا كله حق معرفته ! ...

ستقولون لي انه لغباء وعار أن أحلم بهذا كله بعد الدموع الغزيرة وحالات الوجد التي اعترفت بها أنا نفسي . ولكن لماذا يكون هذا عاراً يا سادتي ؟ أتتصورون حقاً أنني أستحي من هذا كله ، وأن أحلامي أشد غباءً مما وقع لكم أنتم في حياتكم أيها السادة ؟ ثم ... صدقوني اذا قلت لكم ان الأمور كانت مرتبةً على أحسن نحو ، لأن بحيرة كومو لم تكن وحدها مسرحاً لكل شيء ... ولكنكم على حق مع ذلك : هذا غباء ، هذا عار ! غير أن أنكى ما في الأمر أنني أسوّغ نفسي أمامكم . وهذه الملاحظة الأخيرة شر من ذلك أيضاً . ولكن كفى ! قد لا يفرغ المرء من هذا قط لأن المزيد من الانحدار ممكن دائماً .

وكنت لا أستطيع أن أواصل الاسترسال فى الأحلام على هذا النحو أكثر من ثلاثة أشهر متتالية ، ثم أشعر بحاجة لا تقاوَم الى معاشرة الناس . وكان هذا يعنى أن أزور رئيس مكتبى أنطون أنطونوفتش سيتوشكين . كان هذا الرجل ، فى حياتى ، هو الشخص الوحيد الذى قامت بينى وبينه صلات مطَّردة . وذلك أمر ما يزال يدهشنى الى يومنا هذا . ولكننى كنت لا أذهب اليه الا حين تكون أحلامى قد أوغلت فى البعد حتى أصبحتُ أحب أن أعانق الانسانية بأسرها . فكان لا بد لى عندئذ من أن ألقى انساناً واحداً على الأقل ، من لحم ودم . على أن أنطون أنطونوفتش كان لا يُزار الا فى يوم الثلاثاء ، فذلك هو اليوم الذى يستقبل فيه الناس ، فكان علىَّ اذن أن أوفِّق بين ظمئى الى معانقة البشر وبين ذلك اليوم بعينه .

كان أنطون أنطونوفتش هذا يقيم فى شارع « الأركان الخمسة » ، وكان بيته يقع فى الدور الثالث ، ويتألف من أربع غرف صغيرة جداً ، واطىء سقفها ، فقيرة المظهر ، مصفرَّة اللون . وكان له ابنتان وعمة تهيىء المائدة وتخدم الضيوف . والبنتان تبلغ احداهما من العمر ثلاثة عشر عاماً ، وتبلغ الثانية أربعة عشر . وكان أنف كل منهما أقنى . كانت هاتان البنتان تثيران فى نفسى الخجل والوجل كثيراً ، لأنهما لا تكفان عن التهامس ، وتطلقان ضحكات مخنوقة من حين الى حين . ان رب البيت يستقر عادةً فى حجرة عمله جالساً على كنبة كبيرة من جلد ، أمام مائدة مستديرة ، فى صحبة سيد محترم هو موظف من موظفى وزارتنا . لم ألتق هنالك فى يوم من الأيام بأكثر من شخصين أو ثلاثة أشخاص لا يتغيرون . والحديث انما يدور على مناقصات وجلسات ومرتبات وتعيينات . ويتحدث المتحدثون عن صاحب المعالى ، ووسائل الارضاء وما الى ذلك . ولقد كنت أصبر على البقاء مع هؤلاء الناس كحطبة خلال

ثلاث ساعات ، لا أجسر ولا أستطيع أن أكلمهم فى أى أمر • كنت أحس أننى عدت فأصبحت غبياً بليداً ، وكان العرق يتصبب منى ، وكنت أشعر أننى سأصاب بشلل • ولكن ذلك كان يعود علىّ بنفع ، فاننى ما ان أرجع الى منزلى حتى أكون قد عدلت ، الى حين ، عن رغبتى فى ضمّ الانسانية كلها بين ذراعىّ •

وكان لى صاحب آخر أيضاً هو سيمونوف ، أحد رفاقى القدامى فى المدرسة • وكان فى وسعى ، على كل حال ، أن أعثر على عدة أشخاص من قدامى رفاق المدرسة فى بطرسبرج ، ولكننى كنت قد انقطعت عن رؤيتهم ، حتى لقد كففت عن تحيتهم فى الشارع ؛ وربما كان حرصى على تحاشيهم وتجنبهم وقطع الصلة بجميع ذكريات طفولتى الكريهة هو الذى جعلنى ألتحق بوظيفة فى وزارة أخرى • لعنة الله على تلك المدرسة ، وعلى تلك السنين القاسية التى عشتها فيها كما يعيش سجين فى سجن ! الخلاصة ••• لقد قطعت الصلة بجميع رفاق المدرسة منذ أنهيت دراستى ، وأصبحت لا أحيى منهم الا اثنين أو ثلاثة ، وكان أحد هؤلاء سيمونوف هذا الذى لم يكن يتميز فى المدرسة بشىء ، وكان حلو الخصال متساوى المزاج ، ولكننى كنت أحترمه لما يتمتع به من استقلال الطبع واستقامة الخلق • حتى اننى لا أعتقد أنه كان غبياً غباء شديداً جداً • وقد عشنا معاً لحظات جميلة • ولكن علاقاتنا الحسنة لم تدم طويلاً ، لأن نوعاً من ضباب قد غشيها على حين فجأة • ومما لا شك فيه أن ذكراها كانت تزعج سيمونوف الذى كان يخشى دائماً أن تعود صلاتنا الى ما كانت عليه • حتى لقد كنت أحسّ أنه ينفر منى بعض النفور ويشمئز بعض الاشمئزاز ، ولكننى لعدم تأكدى من ذلك كنت ما أزال أذهب اليه بين الفينة والفينة •

وهأنا ذا أعجز فى ذات يوم من أيام الخميس عن احتمال العزلة

مزيداً من الاحتمال، فأتذكر سيمونوف لعلمي بأن منزل أنطون أنطونوفتش مغلق في أيام الخميس. وفيما أنا أصعد السلّم المؤدي الى مسكنه في الدور الرابع ، اذا بي أتصور أن حضوري سيزعج هذا السيد ، وأنني أخطأت اذ فكرت في المجيء اليه . ولكن لما كانت أمثال هذه الخواطر لا تزيد على أن تحضني على التماس المواقف الملتبسة الحرجة ، فقد دخلت عليه دون تفكير ، وكنت قد انقطعت عن زيارته منذ سنة .

٣

وجدت عنده اثنين من قدامى رفاقى فى المدرســة • كان يبدو عليهم أنهم يتكلمون فى أمر هام • لم يظهر أحد من الرفيقين أى اهتمـام بدخولى الذى كان يدعو الى الاستغراب حقـاً ، لأننا لم نكن قد التقينا منذ سنين • كان واضحاً أنهما يعدانى شخصاً تافهاً لا قيمة له البتة ، كذبابة • لم أكن أ'عامـل هذه المعاملة فى المدرسة ، رغم أننى كنت فيها مكروها • ولقـد أدركت على كل حـال أنهما لا بد أن يحتقرانى بسبب اخفاقى فى الحياة والعمل ، وكذلك بسبب مظهرى الزرى ، بسبب ثيابى العتيقة البالية التى كانت فى نظرهم دليــلاً واضحاً على عجزى ، وعلامة جلية على ما أنا فيه من حال بائسة • ومع ذلك لم أكن أتوقع أن أ'حتقر احتقاراً واضحاً هذا الوضوح كله• أما سيمونوف فقد ظهرت عليه دهشة شـديدة من دخولى • على أنه قد د'هش من زياراتى مراراً قبل ذلك • وشعرت من هذا كله بضيق وحرج • وجلست منزعجاً بعض الانزعاج ، وأخذت أصغى الى ما كانوا يقولونه •

كانوا يتناقشون بلهجة جادة ، بل وبشيء من الحرارة ، فى موضوع حفلة عشاء وداعية كان هؤلاء السادة يريدون أن يقيموها معاً لواحد من رفاقهم اسمه زفركوف ، وهو ضابط سيسافر الى الأقاليم • كان السيد زفركوف أحد رفاقى فى المدرسة هو أيضاً ، وكنت قد أخذت أكرهه منذ

ذلك الحين ، ولا سيما في الصفوف العليا . انه حين كان طفلاً صغيراً لم يكن الا صبياً مهذباً مرحاً يحبه الجميع . أما أنا فلم أكن أحبه ، لا لسبب الا أنه كان مهذباً . وكانت دراسته منذ البداية متعثرة ، وأصبح يزداد كسلاً في الدراسة مع الوقت . ومع ذلك أنهى الدراسة بنجاح ، لأنه كان ذا سند يحميه . وفي ختام حياته الدراسية ورث أرضاً ومائتي قن ؛ واذ كنا جميعاً فقراء تقريباً فقد أخذ يصطنع بيننا مظاهر العظمة . لقد كان زفركوف في ذلك الحين صبياً تافهاً ولكنه كان طيب القلب مع ذلك . ورغم أن عواطف الشرف ومشاعر الكرامة كانت تتخذ في مدرستنا في بعض الأحيان صوراً عنيفة فيها كثير من التفاخر الكلامي، فان جميع التلاميذ ، باستثناء عدد قليل منهم ، قد أخذوا يتقربون منه ويتوددون اليه ، فكان هذا يحضه على اصطناع المزيد من مظاهر التعاظم . ولكن لئن كانوا يدورون جميعاً حوله ويحتفلون به ، فان ذلك لم يكن منهم سعياً الى فائدة ونشداناً لمنفعة ، بل لمجرد أن الطبيعة قد خصته بنعمها وأغدقت عليه . ثم ان جميع التلاميذ كانوا يعدون زفركوف اختصاصياً في كل ما يتصل بأناقة الهندام وحسن الآداب . وذلك بعينه هو ما كان يغيظني خاصةً . كنت أكره الصوت الحاد في كلامه الممتلىء دائماً بالثقة ، وكنت أكره كلماته الفكاهية التي كان يبدو راضياً عنها كل الرضى ولكنها كانت غبية سخيفة ، رغم أنه جريء في كلامه متحلل غير متحرج . كنت أكره وجهه الذي كان وجهاً جميلاً ولكنه أبله (ومع ذلك لشد ما كان يمكن أن أسرع الى مقايضة وجهي « الذكي » بوجهه الأبله فرحاً بذلك كل الفرح) ، وكنت أكره حركاته المنطلقة المتحررة على طراز ضباط سنة ١٨٤٠ ؛ وكنت أكرهه لما يقدّر أنه سيناله من نجاح مع النساء (كان لا يجسر أن يشرع في غزواته النسائية قبل أن يفوز بالشارات التي ستزين كتفيه ، ولذلك كان ينتظر فوزه بها نافد

الصبر) ، ولما يمنّي نفسه بالقيام به من مبارزات . ما زلت أتذكر أنني قطعت صمتي في ذات مرة ، فشاجرت زفركوف مشاجرة عنيفة ، وذلك حين كان يحدث رفاقه عن مغامراته الغرامية القريبة ، فوصل من الافتتان الى درجة أصبح فيها أشبه بكلب صغير يتدحرج في الشمس ، فأعلن فجأة أنه لن يفوّت أية فلاحة من الفلاحات الصبايا في أراضيه ، لأن ذلك « حق من حقوق السيد على أقنانه » ، فاذا تجاسر الفلاحون فاحتجوا جلدهم بالسياط وضاعف الضرائب على هؤلاء « الأوغاد الملتحين » . صفّق رفاقنا الجبناء لكلامه . فانبريت أنا أهاجمه هجوماً عنيفاً ، لا من باب الشفقة على البنات وآبائهم ، وانما لمجرد أن هذا الانسان الحشرة قد صفقوا له ذلك التصفيق . وقد انتصرت في تلك المرة . ولكن زفركوف كان رغم غباوته مرحاً ووقحاً ، فاستطاع أن يجتذب الضاحكين الى صفه ، وبلغ من النجاح في ذلك أن انتصاري لم يكن كاملاً في حقيقة الأمر : فقد أصبح الضاحكون يضحكون عليّ أنا . وقد انتصر عليّ مراراً بعد ذلك ، دون خبث أو شر ، وانما مازحاً ضاحكاً . أما أنا فكنت ألزم الصمت احتقاراً وازدراء . وحين أنهينا دراستنا تودد اليّ بعض التودد ، فلم أرفض هذا التودد ، لأنه قد أرضى غروري ، ولكننا لم نلبث أن افترقنا افتراقاً طبيعياً . وسمعت بعد ذلك عن نجاحه ضابطاً ، وعن « الحياة المرحة » التي كان يعيشها . ثم علمت شيئاً آخر هو ترقّيه السريع . وأصبح اذا رآني في الشارع لا يحييني ، فقدّرت أنه لا يريد أن يعرّض سمعته لسوء بالقاء التحية على امرىء يبلغ من الضعة ما أبلغ. وقد رأيته مرة في المسرح أيضاً ، في شرفات الدور الثالث ، مزدان الصدر بالأوسمة منذ ذلك الحين ، منهمكاً حول بنات جنرال عجوز . ثم لم أره بعد ذلك خلال ثلاث سنين . وقد تغير أثناء هذه المدة تغيراً

كبيراً ، ولكنه رغم سمنته الشديدة ، قد احتفظ بجمال وجهه وأناقة حركاته وآدابه • وأغلب الظن أنه سيترهل حين يبلغ من عمره الثلاثين•

ان زفركوف هذا هو الذى عُيِّن اذن فى الاقاليم ، وهو الذى يريد رفاقه أن يقيموا له حفلة عشاء وداعية • وهم لم يقطعوا علاقاتهم به ، رغم أنهم لا يعدون أنفسهم أنداداً له ، أنا واثق من ذلك •

ان أحد ضيفى سيمونوف يسمى برفتشكين • انه روسى من أصل ألمانى ، قصير القامة له وجه قرد • وهو غبى يسخر من جميع الناس ، وقد كان ألدّ أعدائى فى المدرسة منذ الصفوف الدنيا • انه متحذلق وقح يتظاهر بفرط الحساسية وشدة الشعور بالكرامة ، ولكنه ليس فى حقيقته الا جباناً رعديداً • وكان واحداً من أولئك المعجبين بزفركوف ، يتقرب منه ويتزلف اليه ويتملقه ، وذلك لهدف عملى نفعى ، فكثيراً ما كان يقترض منه بعض المال •

أما الثانى ، واسمه ترودوليوبوف ، فليس فيه أى شىء بارز يلفت النظر • هو عسكرى فارع الطول ، قوى البنية ، بارد الوجه • ولئن كان شريفاً مستقيماً ، فانه يحترم النجاح أياً كان ، وينحنى له ، ولا يجيد الكلام فى شىء غير التعيينات والترقيات وما الى ذلك • وهو يمت الى زفركوف بقرابة بعيدة ، وكان ذلك يضفى عليه فى نظرنا شيئاً من مهابة، مهما يظهر هذا سخيفاً • وكان ينظر الىّ نظرته الى شخص تافه لا قيمة له ، ولكنه يعاملنى معاملة مقبولة محتملة ، ان لم أقل رقيقة مهذبة •

قال ترودوليوبوف :

ـ فاذا كان ما سيدفعه كل واحد سبعة روبلات ، كان المجموع واحداً وعشرين ما دمنا ثلاثة • وبهذا المبلغ نستطيع أن نصيب عشاءً مناسباً • ولن يدفع زفركوف شيئاً بطبيعة الحال •

فأجاب سيمونوف قائلاً :

ـ طبعاً ، ما دمنا ندعوه الى العشاء دعوة .

فتدخل برفتشكين يقول بلهجة متعالية وقحة ، كخادم سفيه يتباهى بأوسمة سيده :

ـ كيف تستطيعون أن تصدقوا أن زفركوف يقبل أن ندفع النفقات وحدنا ؟ سوف يقبل دعوتنا من باب اللباقة والكياسة ، ولكنه سيأمر لنا بشمبانيا ، بست زجاجات حتماً .

قال ترودوليوبوف الذى لم يفطن الا الى عدد الزجاجات :

ـ ست زجاجات ؟ هذا كثير على أربعة أشخاص .

وقال سيمونوف الذى اختير منظماً للحفلة ، قال يلخص الموضوع:

ـ نحن اذن ثلاثة ، فاذا أضفنا زفركوف كان المجموع أربعة . والمبلغ واحد وعشرون روبلاً ؟ والمكان « فندق باريس » ؟ والموعد غداً فى الساعة الخامسة .

هتفت أقول منفعلاً بعض الانفعال وأنا أشعر بشيء من اهانة ألحقت بى :

ـ لماذا واحد وعشرون ؟ اذا عددتمونى أنا كان المبلغ لا واحداً وعشرين روبلاً بل ثمانية وعشرين .

لقد خيِّل الىَّ اننى اذا عرضت نفسى على هذا النحو فجأة فلا بد أن أحدث أثراً حسناً ، ولا بد أن أنتصر عليهم بسخائى وكرمى ، ولا بد أن ينظروا الىَّ نظرة اعجاب .

ـ أتريد حقاً أن تشاركنا ؟

كذلك سألنى سيمونوف مستاءً ، وكان يتحاشى أن ينظر الىَّ لأنه كان يعرفنى على ظهر القلب .

أغاظني أن يعرفني هذه المعرفة الكاملة . فهتفت أقول بصوت أجش :

ـ لم لا ؟ يخيّل الىّ أنني كنت رفيقه أيضاً ، وانني لأعترف لكم بأنني قد ساءني أن لا يُحسب حسابي وأن أُنحىّ جانباً .

تدخل ترودوليوبوف يقول في خشونة :

ـ أين كان يمكننا أن نعثر عليك ؟

وأضاف يقول وقد احتقن وجهه :

ـ ثم انك لم تكن على علاقة طيبة بزفركوف في يوم من الأيام .

غير أنني كنت قد اندفعت وتورطت فقلت بصوت مرتعش ، كأن الأمر على جانب عظيم من خطورة الشأن :

ـ أحسب أنه ليس يحق لأحد أن يقضي في هذا الأمر .. ولعلني ، لأننا لم نكن على علاقة طيبة ، انما أريد الآن أن ...

قال ترودوليوبوف ساخراً :

ـ من ذا الذي يستطيع يوماً أن يفهمك ... وأن يفهم أفكارك العالية ؟...

قال سيمونوف يحسم الأمر وهو يلتفت نحوي :

ـ سنسجل اسمك . غداً ، الساعة الخامسة ، في « فندق باريس » ... لا تنس فتخطىء ...

قال فرفتشكين بصوت خافت وهو يومىء لسيمونوف الىّ :

ـ والمال ؟

ولكنه توقف عن الكلام فجأة ، لأن سيمونوف نفسه انزعج .

قال ترودوليوبوف وهو ينهض :

ـ كفى ! ما عليه الا أن يأتى اذا كان يرغب فى ذلك الى هذا الحد.

فقال فرفتشكين حانقاً أشد الحنق :

ـ ولكن الجو سيكون جوَّ أصدقاء . ليس هذا اجتماعاً رسمياً ، ومن الجائز أن لا نكون راغبين فى حضورك ...

وخرج الرجلان . حتى أن فرفتشكين لم يسلِّم علىَّ حين خرج. أما ترودوليوبوف فانه انحنى برأسه انحناءة خفيفة دون أن ينظر الىَّ .

وبقيت وحدى مع سيمونوف ، فكان يبدو عليه الاضطراب والحيرة والضيق والانزعاج ، وكان ينظر الىَّ نظرة غريبة ؟ ثم انه لم يجلس ولا دعانى أن أجلس .

ثم قال بسرعة وخجل :

ـ هِمْ ... نعم ... الموعد غداً ... هل تدفع المال اليوم ؟ اننى ألقى عليك هذا السؤال من باب التأكد .

فاحمر وجهى غضباً . ولكننى ، وقد احمر وجهى غضباً ، تذكرت اننى مدين لسيمونوف بمبلغ خمسة عشر روبلاً منذ عهد قديم موغل فى القدم ، وذلك أمر ما نسيته فى يوم من الأيام على كل حال . قلت له :

ـ لا بد أن تقدر يا سيمونوف أننى حين جئت الى هنا لم أكن أتنبأ بأن ... ويؤسفنى أننى نسيت أن ...

ـ نعم نعم ، لا ضير ... ستدفع غداً . أنا لم أقل ما قلت الا لأعلم على وجه اليقين أنك ... أرجوك أن ...

وتوقف عن الكلام ، وأخذ يسير في الغرفة طولاً وعرضاً ، بينما كان يزداد ضيقه وانزعاجه ، وكان يقرع أرض الغرفة بكعبيه قرعاً قوياً.

سألته بعد بضع دقائق من صمت :

ـ ألست أحجزك عن الخروج ؟

فأجاب يقول كمن يثوب الى نفسه فجأة :

ـ لا ، لا ...

ولكنه أضاف يقول خجلان بصوت المعتذر :

ـ الحق أن عليّ أن أذهب الى ... ليس المكان بعيداً عن هنا ...

فهتفت أقول وأنا أتناول قبعتي بحركة منطلقة لا يدرى الا الله من أين وافتني :

ـ أوه ! ولكن لماذا لم تذكر لى ذلك ؟

فكرر سيمونوف يقول وهو يشيعني بانهماك لا يناسبه :

ـ ليس المكان بعيداً عن هنا ... هو على مسافة خطوتين لا أكثر

وصاح يقول لى على السلم :

ـ اذن الى الغد ... الساعة الخامسة تماماً .

وكان يبدو عليه أنه سعيد حقاً بانصرافى . أما أنا فكنت مغتاظاً محنقاً .

تباً لى ! ما كان أغنانى عن التورط فى هذه الحكاية ! وأخذت أصرف بأسنانى وأنا أقطع الشارع بخطى كبيرة . ومن أجل من ؟ من أجل هذا الخنزير زفركوف ! لن أذهب حتماً ! اننى أبصق عليه ! لا شىء يجبرنى

على الذهاب الى الموعد • سأنبيء سيمونوف بذلك في رسالة أبعث بها اليه •

ولكن الشيء الذى كان يؤجج حنقى هو أننى كنت أعلم أننى سأذهب الى الموعد ، وأننى سأحث خطاى اليه على قدر ما فيه من مجافاة للعقل ، وقرب من السخف الذى يبعث على الضحك !

على أن هناك عائقاً واقعياً جداً ، هو أننى لا أملك مالاً • كان كل ما معى تسعة روبلات علىّ أن أدفع سبعة منها فى الغد لخادمى آبولون الذى كان يأكل على نفقته طبعاً •

وأنا أعرف طبع آبولون ، وأعرف أننى لا أستطيع أن أستمهله وان أحمله على الانتظار • ـ لا بد أن أحدثكم فى يوم من الأيام عن هذا الوغد ، عن هذا الطاعون ! ـ ومع ذلك كنت أعلم أننى لن أدفع له أجره ، واننى سأذهب الى العشاء •

رأيت فى تلك الليلة أحلاماً فظيعة • ولا غرابة فى هذا ، فقد عذبتنى طوال نهارى ذكرى سنى المدرسة التى كانت لى بمثابة سجن خانق • كان قد أودعنى فى تلك المدرسة أقرباء بعيدون ، أقرباء كنت رهناً بهم وعالةً عليهم ، ثم لم أرهم بعد ذلك ولا عرفت عنهم شيئاً قط • لقد ألقونى فى تلك المدرسة يتيماً يشعر بالألم والعذاب منذ ذلك الحين ، طفلاً حالماً صموتاً يلقى على كل ما حوله نظرات متوحشة • واستقبلنى رفاقى بسخريات خبيثة شريرة ، لأننى لم أكن أشبه أحداً منهم• ولكننى لم أستطع أن احتمل السخريات ، ولم أستطع أن آلفهم بسهولة كما كان يألف بعضهم بعضاً • فأخذت أكرههم اذن منذ البداية ، وانطويت على نفسى فى خيلاء وجلة جريحة لا حدود لها • كانت فظاظتهم تثير فى نفسى التمرد • كانوا يضحكون ضحكاً ساخراً مستهتراً ، من وجهى ومن

مظهرى الأخرق الثقيل. ولكن ما كان أشد الغباء الذى يبدو فى وجوههم هم ! ان الوجوه في مدرستنا كانت تتغير وتنحط ، فسرعان ما تعبر عن بلاهة . ما أكثر الاطفال الحسان الذين رأيتهم يدخلون هذه المدرسة ! فما هى الا بضع سنين حتى كانت تكتسى وجوههم طابعاً منفراً كريهاً. كنت منذ السادسة عشرة من عمرى أتفرس فيهم قوى الاستطلاع مظلم النفس : فكانت تفاهة آرائهم وسخافة اهتماماتهم وحماقة أحاديثهم وبلادة ألعابهم ، كان ذلك كله يخطف بصرى ويثير دهشتى . واذ كانوا يعجزون عن فهم بعض الأشياء الهامة جداً ، واذ كانوا لا ينتبهون أى انتباه الى أمور خاصة جداً ، فقد أصبحت أعد نفسى ، رغم ارادتى ، أعلى قدراً وأرفع منزلة . ولم يكن ذلك منى ثمرة الكرامة الجريحة والغرور المهان ! ناشدتكم الله أن لا تزعجونى بذلك الاعتراض الذى شبعنا منه حتى أصبح يثير فينا الغثيان وهو القول بأننى كنت لا أزيد على أن استرسل في الأحلام وأغرق في التهاويل ، بينما كانوا ، هم ، يملكون الاحساس بالواقع منذ ذلك الحين . لا ! لقد كانوا لا يفهمون شيئاً ، وكانوا لا يملكون أى احساس بالواقع ... ويميناً لقد كان هذا بعينه هو ما يغيظنى فيهم أكثر من أى شىء آخر. بالعكس : كانوا يستقبلون أوضح واقعة من الوقائع على أغبى نحو خيالى ، ولو كانت تلك الواقعة تفقأ الأعين ان صح التعبير ؟ وكانوا قد اعتادوا منذ تلك السن أن لا يحترموا الا النجاح وأن لا ينحنوا الا له . كانوا يسخرون سخراً غبياً قاسياً من كل ما هو حق وعدل متى كان مهجوراً مُذلاً . كانوا يحترمون الرتب أكثر مما يحترمون الذكاء ، وكانوا منذ السادسة عشرة من أعمارهم لا يحلمون الا بمناصب لا تقتضيهم عملاً . لا شك أن غباوتهم كان لها دخل كبير فى هذا ، وكذلك القدوات السيئة التى أحاطت بهم فى طفولتهم وشبابهم . ولكن لا شك أيضاً أن فى هذا جانباً خارجياً وأوضاع

استخفاف واستهتار مصطنعة ، فكانت نضارة شبابهم تتراءى بالشفافية رغم كل شيء من وراء انحطاطهم في بعض الأحيان . ولكن نضارتهم هذه نفسها لم تكن جذابة فيهم ، لأنها كانت تتجلى بنوع من الشهوانية الفظة الغليظة. فكنت أكرههم وأمقتهم ، رغم أنني ربما كنت شراً منهم وأخبث. وقد بادلوني كرهاً بكره ومقتاً بمقت ، وكانوا لا يخفون حتى اشمئزازهم مني . ولكنني كنت قد كففت عمن التفكير في صداقتهم ، وأصبحت ، خلافاً لذلك ، لا أتطلع الا الى اذلالهم .

ومن أجل أن أتخلص من سخرياتهم أخذت أجد واجتهد ما وسعني الجد والاجتهاد ، فأصبحت في المدرسة بين الأوائل ، ففرضت بذلك عليهم مهابتي ؛ وأدركوا جميعاً على وجه التقريب أنني قد قرأت كتباً ما كان في وسعهم أن يعرفوها بعد ، وأنني أفهم أموراً كانت ماتزال غريبة عنهم كل الغرابة (أموراً لا شأن لها بدروسنا الخاصة) . لاحظوا ذلك بدهشة ساخرة ، ولكنهم أصبحوا يهابونني ويراعون حرمتي ، لا سيما وأن ما حصلته من معارف قد لفت الي أنظار معلمينا أيضاً . فانقطعت السخريات اذن ، غير أن الكره ظل باقياً ، وقامت بيننا علاقات باردة رسمية .

وضقت ذرعاً أنا نفسي آخر الأمر : لقد أصبحت أشعر مع انقضاء السنين بحاجة الى أن أمضي الى البشر وأن يكون لي أصدقاء . فحاولت أن أتقرب من بعض رفاقي . ولكن علاقاتنا كان فيها دائماً شيء مزيف مصطنع كاذب ، فسرعان ما انتهت وانقطعت . ومع ذلك أصبح لي صديق في ذات مرة . ولكن نفسي كانت طاغية مستبدة منذ ذلك الحين ، فكنت أريد أن أسيطر على فكره سيطرة تامة ، وكنت أريد أن أفرض عليه احتقار من يحيطون به ، وكنت أطلب منه أن يقطع الصلة ببيئته قطعاً حاسماً فيه كثير من الأنفة والكبرياء . فأرعبته صداقتي الجامحة العنيفة

هذه ، وروّعته الى حد الدموع ، الى حد التشنج • وكان فتى ساذج الطبع جواد النفس كريم الخلق • فما ان وهب لى ذاته كاملةً حتى كرهته ونبذته • فكأنني لم أكن فى حاجة اليه الا من أجل أن أحقق نصراً ومن أجل أن أصبح سيّده • ولكنني لم أستطع أن أنتصر عليهم جميعاً • وكان صديقى هذا لا يشبه أحداً منهم ، وانما كان استثناءً نادراً •

وما ان أنهيت دراستى حتى كان أكبر همى أن أترك المهنة التى تهيأت لها ، وذلك حتى أقطع جميع الصلات وأحطم جميع الروابط ، وحتى أستطيع أن ألعن الماضى وأن أهيل عليه التراب ••• ولا يدرى الا الشيطان لماذا ظللت أذهب بعد ذلك الى سيمونوف هذا •

استيقظت فى صباح الغد مبكراً ، فنهضت عن سريرى مضطرباً أشد الاضطراب ، كأن موعد العشاء قد أزف فوراً • ولكننى كنت مقتنعاً بأنه لا بد أن يحدث فى ذلك اليوم نفسه ، بل وأنه سيحدث فى ذلك اليوم نفسه تبدل أساسى وتغير جذرى فى حياتى • ولعل مردّ ذلك الى قلة التعود • ومهما يكن من أمر ، فاننى كنت طوال حياتى أتوقع دائماً ، عند حدوث أى حادث مهما يكن تافهاً ، أتوقع أن يقع لحياتى تبدل أساسى وتغير جذرى •

وذهبتُ الى المكتب كما كنت أذهب اليه كل يوم ، ولكننى غادرته قبل موعد مغادرته بساعتين ، بغية أن أستعد وأن أتهيأ • قلت لنفسى : « يجب خاصةً أن لا أصل أولَ الواصلين ، حتى لا يتخيلوا أننى نافد الصبر » • ولكن كانت تشغلنى كذلك هموم أخرى كثيرة غير ذلك الهم ! وبلغت فى ذلك من الاضطراب ما أعيانى وأوهن قواى الى أقصى حدود الوهن •

نظفت حذاءىَّ مرة أخرى : ما كان لآبولون أن يرضى بحال من الأحوال أن يلمِّعها لى مرتين فى يوم واحـد ، لاعتقاده بأن ذلك يبث الاضطراب والفوضى فى عمله . ومن أجل أن أنظف حذاءىَّ مرة أخرى اضطررت أن أختلس الفرشاة من حجرة المدخل اختلاساً حتى لا يلاحظ آبولون أننى أتولى تنظيف حذاءى بنفسى فيزدرينى ويحتقرنى . ثم فحصت ملابسى تفصيلاً فلاحظت أن كل شىء كان عتيقاً بالياً مهترئاً . ذلك أننى قد تعودت فرط الاهمال حقاً ! لعل بزتى كانت ما تزال حسـنة لائقة ، ولـكن لم يكن فى وسعى أن أذهب الى العشـاء مرتدياً بزة . والأنكى من ذلك أن سروالىَّ كان على الركبة منهما بقعة صفراء كبيرة . وكنت أتنبأ منذ تلك اللحظة أن هذه البقعة ستذهب بتسعة أعشار مهابتى . ولكننى كنت أعلم أيضاً أن التفكير على هـذا النحو فيه حطة وصـغار ، وعاميـة وابتـذال ... « على أن الأمر الآن ليس أمر تفكير ، فانمـا نحن أمـام الواقع وجهـاً لوجه » ، كذلك كنت أقول لنفسى ، غير أننى كنت أفقـد شجاعتى مزيداً من الفقد شيئاً بعد شىء . كنت أعلم حق العلم أننى أبالغ وأغالى وأضخِّم جميع هذه الأمور تضخيماً جنونياً . ولكن ما حيلتى ؟ لقد أصبحت لا أسيطر على نفسى ، وكانت الحمى تهزنى هزاً قوياً .

طفقت أتخيل ، بكثير من الكمد واليـأس ، تلك اللهجـة المتعالية الباردة التى سيستقبلنى بها ذلك الوغد زفركوف ، وطفقت أتخيل تلك النظرة التى سيرمقنى بها ترودوليوبوف مليئةً باحتقار غبى لا مناص منه ؛ وطفقت اتخيل كذلك تلك الضحكة الوقحة التى سيضحكها ذلك الانسان الحشرة فرفتشكين الذى سـيريد أن يتودد الى زفركوف وأن يتملقه . أما سيمونوف فلا شك أنه سيدرك كل شىء ، وسيحتقرنى لهوان كرامتى وحطة غرورى وجبـانة خلقى . وطفقت أقول لنفسى : ما أحقر هـذا كله ، وما أشد ابتذاله ، وما أبعده عن « الأدب » ! ولقد كان الأفضـل

أن أمكث فى بيتى فلا أمضى الى العشاء • ولكن هذا بعينه كان أصعب من كل ما عداه • اننى حين أشعر بانجذاب من هذا النوع أندفع الى النهاية وأتردى ترديا كاملا •فلو قد أحجمت اذن لظللت طوال حياتى أسخر من نفسى وأتهكم عليها قائلا : « ها ••• لقد خفت ، خفت من الواقع ، نعم خفت ! » • وأنا انما كنت أريد نقيض ذلك ، كنت أرغب رغبة محمومة فى أن أبرهن لذلك الوبش التافه أننى لست جبانا رعديدا الى الحد الذى يبدو • غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً : لقد كنت أحلم ، وأنا فيما أنا فيه من حمى شديدة ، أن أغلبهم جميعاً ، ان انتصر عليهم ، ان أفتنهم ، أن أجبرهم على أن يحبونى ، أن يحبونى على الأقل « لسمو فكرى وحدة ذهنى التى لا سبيل الى جحودها » • وسيتركون زفركوف: فيبقى وحيداً ، صامتاً ، شاعراً بالحزن والخجل ، فأسحقه • وربما قبلت بعد ذلك أن أصالحه ، فنشرب معاً ، ونرفع الكلفة بيننا ، ونتخاطب بصيغة المفرد •

ولكن الشىء الذى يحنقنى ويهيننى أكثر مما يحنقنى ويهيننى أى شىء سواه ، هو أننى كنت أعلم ، كنت أعلم تمام العلم أننى لست فى حاجة الى شىء من هذا كله ، واننى لا أرغب البتة فى أن أسحقهم وأن أنتصر عليهم وأن أفتنهم ، وأننى أول من لا يرضى أن يدفع قرشاً واحداً فى سبيل الحصول على هذه النتيجة اذا حصلت عليها • رباه ! ما أكثر ما تضرعت الى الله أن تنقضى تلك الأمسية بأقصى سرعة !

ودنوت من النافذة وأنا أشد ما أكون قلقاً وغماً لا سبيل الى وصفهما ، وفتحت خوضتها ، وحاولت أن أشق ببصرى الحجاب الكثيف من الثلج الذائب الذى كان يتساقط كبباً كبيرة •

وأخيراً دقت ساعتى الحقيرة الصغيرة القديمة المعلقة على الجدار ،

دقَّت الخامسة بصوت أبحّ أجش ؛ فتناولت قبعتى ، وتسللت الى الخارج محاولاً أن لا أنظر كثيراً الى آبولون الذى كان ينتظر راتبه منذ الصباح ولكنه لغباوته لم يشأ أن يكون أول من يتكلم فيه . واستأجرت عربة جميلة بالخمسين كوبكاً الأخيرة التى كانت معى ، فوصلت الى « فندرق باريس » كما يصل سيد عظيم .

٤

كنت أعلم منذ أمس أننى سأكون أول الواصلين . ولكن الأمر ليس هذا الآن .

لم يقتصر الأمر على أننى لم أجد أحداً منهم ، وانما لقيت كذلك عناءً كبيراً فى الاهتداء الى الحجرة المحجوزة لنا . ولم تكن الأغطية قد وُضعت على الموائد بعد . ما معنى هذا ؟ وعلمت من الخدم بعد أسئلة كثيرة أن العشاء قد أوصى به للساعة السادسة لا الساعة الخامسة ، ثم أكدّ لى مدير الخدمة هذا بعدئذ . انزعجت أنا نفسى من القاء تلك الأسئلة عليهم . وكانت الساعة لا تعدو الخامسة وعشرين دقيقة . لو كانوا قد غيّروا الموعد لكان عليهم أن ينبئونى بذلك على الأقل ، فلهذا انما وُجدت مصلحة البريد ؟ كان ينبغى لهم أن لا يعرّضونى لهذا الهوان أمام نفسى وأمام ... الخدم ! وجلست . وجاء الخادم يضع غطاء المائدة ، فزاد وجوده حنقى وغضبى . وفى نحو الساعة السادسة ، جئ بشموع ، زيادةً على المصابيح التى كانت تضئ الحجرة . غير أن الخادم لم يخطر بباله أن يجئ بالشموع منذ وصولى . وفى الحجرة المجاورة كان يتعشى سيدان ، كلٌ على مائدة مستقلة ، وكلٌ صامت مظلم الوجه عابس الأسارير . ولكن ضجةً كبيرة كانت تُسمع آتيةً من الصالونات الكبيرة ، حتى لقد سمعت صرخات وضحكات وصيحات بلغة فرنسية رديئة ركيكة تتبادلها جماعة

كبيرة تضم رجالاً وسيدات. شعرت بتقزز. قلما عرفت في حياتي لحظات أمقت الى نفسي من تلك اللحظات ، حتى أنني حين وصلوا في الساعة السادسة تماما مجتمعين ، وجدتني مستعداً لأن أستقبلهم استقبال المنقذين والمخلِّصين ، ونسيت في اللحظة الأولى أن عليَّ أن أظهر شيئاً من الامتياء .

دخل زفركوف أول الداخلين كأنه رئيس العصبة . وكانوا جميعاً يضحكون ولكن زفركوف رفع رأسه حين أبصرني ، وأقبل عليَّ دون تعجل ، متبختراً تبختر امرأة مغناج ، ومدَّ اليَّ يده بحركة ودود ، ولكن بغير مبالغة ، مع نوع من التهذيب المتأني هو التهذيب الذي يُلاحظ في شخصية رفيعة المقام ؟ وكان ، وهو يمده اليَّ يده ، كمن يحمي نفسه من خطر ما . كنت أتخيل ، على خلاف ذلك، أنه سيأخذ يضحك ضحكاً حاداً صارخاً متى ظهر ، كما كان يفعل ذلك في الماضي ، وأنه سيطلق مزحة من مزحاته التافهة على عهدي به . وكنت أهيىء نفسي لهذا منذ الأمس . ولكنني لم أتوقع منه البتة لهجة تبلغ هذا المبلغ من تكلف التواضع واصطناع التهذيب المتعالي المتكبر . أهو يعد نفسه اذن أعلى قدراً مني الى هذا الحد ، من جميع النواحي ؟ ولقد كان يهون الأمر لو أنه اصطنع هذه اللهجة التي يصطنعها السادة العظماء في سبيل اذلالي ؟ فلو أنه فعل ذلك لكان في وسعي أن أقابله بما يقابلني به . ولكن ماعساي أفعل اذا كان لم يخطر بباله البتة أن يهينني ، وكان كل ما في الأمر أنه قد وقع في وهمه الغبي أنه أرفع مني منزلة وأسمى قدراً الى الحد الذي لا يستطيع معه أن يخاطبني الا بهذه اللهجة التي يخاطب بها العظيم من يرعاهم ويحميهم من الناس ؟ فما ان قام في ذهني هذا الافتراض ، حتى أخذ قلبي يخفق خفقاناً شديداً .

بدأ كلامه يقول منغماً صوته ، ماطاً كل كلمة من كلماته ، وذلك أمر لم يكن يفعله فى الماضى :

ـ علمت ، على دهشة منى ، أنك رغبت أن تشارك فى عشائنا هنا ! لقد أصبحنا لا نلتقى فى الآونة الأخيرة . كنتَ تتحاشانا وتتجنب لقاءنا . ولقد أخطأت فى هذا : فلسنا أناساً رهيبين الى الحد الذى قد يتراءى . على كل حال ، يسعدنى جداً أن نصل ما انـ .. قـ .. طع !..

قال ذلك ثم تحول عنى ليلقى قبعته على مسند النافذة باهمال .

وقال ترودوليوبوف سائلاً :

ـ هل انتظرت مدة طويلة ؟

فأجبته بصوت عالٍ وغيظ ينذر بانفجار قريب :

ـ أنا هنا منذ الساعة الخامسة على ما اتفقنا عليه بالأمس .

فاتجه ترودوليوبوف الى سيمونوف يسأله :

ـ ألم تبلغه أننا أخرنا الموعد ؟

فأجاب سيمونوف يقول :

ـ لا ... نسيت .

ولكنه لم يُظهر أى أسف ، حتى لقد أغفل أن يعتذر لى ، وخرج يصدر أوامره .

صاح زفركوف يقول ساخراً :

ـ أأنت هنا منذ ساعة اذن أيها الفتى المسكين ؟

ذلك أن هذا الأمر لا بد أن يبدو لعقله مضحكاً الى أبعد حد .

ولم يلبث فرفتشكين الحقير أن حذا حذوه فضحك ضحكته البشعة الحادة المجلجلة • لكأنه كلب صغير • لقد بدوت له مضحكاً الى أبعد حد !

انطلقت أقول وقد أخذ غيظى يشتد مزيداً من الاشتداد :

ـ ليس فى هـذا ما يبعث على الضحـك • تلك خطيئتهم هم لا خطيئتى أنا ! لقـد أغفلوا أن يبلغونى تأخير الموعد ! ••• هذه ••• هذه ••• هذه حماقة لا أكثر !•••

جمجم ترودوليوبوف يقول مدافعاً عنى فى سذاجة :

ـ بل أكثر من حماقة • انك رفيق مسرف فى الرقة • تلك فظاظة ••• ولكنها غير مقصودة طبعاً ••• كيف يغفل سيمونوف أن يبلغه تأخير الموعد ؟ هه ؟

قال فرفتشكين :

ـ لو صُنع بى أنا هذا ، لكنتُ •••

ـ لكنتَ أمرت بشىء ، أو لشرعت تتناول عشاءك دون أن تنتظر أحداً •

بهذا قاطعه زفركوف • فقلت بلهجة قاطعة :

ـ كان فى وسعى أن أفعل هذا دون أن تأذنوا به • واذا كنت قد انتظرت ، فلأن •••

هنا دخل سيمونوف قائلاً :

ـ الى المائدة أيها السادة • كل شىء مهيأ • أنا أضمن الشمبانيا • انها مثلجة تماماً •

ثم التفت نحوى فجأة وقال لى دون أن ينظر الىّ :

ـ لم أكن أعرف عنوانك ، فأين كان يمكن أن أعثر عليك ؟

كان واضحاً أنه ناقم عليّ ، وأنه قد ظل يفكر في ماضينا طوال أمس .

وجلسوا وجلست . كانت المائدة مستديرة . ووجدتني على يمين ترودوليوبوف وعلى يسار سيمونوف . وكان مكان زفركوف أمامي . وقد جلس الى جانبه فرفتشكين قريباً من ترودوليوبوف .

استمر زفركوف على الاهتمام بي فسألني :

ـ قل لي ... أأنت ... في الوزارة ؟

انه وقد رأى اضطرابي ، تخيَّل جاداً أنه لا بد من ايناسي وتشجيعي ان صح التعبير . قلت لنفسي وقد شعرت بالحنق يجتاحني ويستبد بي : « أهو يريد أن أرميه بزجاجة على رأسه ؟ » . لعل اهتياجي السريع الشديد هذا انما يرجع الى قلة التعود .

قلت بصوت متقطع :

ـ نعم ... أنا ملحق بالدائرة .

ـ وهل تجد في ذلك مزايا وفوائد ؟ قل لي : ما الذي حملك على هجر مشاغلك القديمة ؟

ـ سئمتها .. .هذا كل شيء ...

قلت ذلك وأنا أمطُّ كلامي أكثر منه ثلاث مرات. أصبحت لا أكاد أسيطر على نفسي . ألقى عليَّ سيمونوف نظرة ساخرة . وتوقف ترودوليوبوف عن الطعام وتفرس في وجهي مستطلعاً متعجباً .

انتفض زفركوف انتفاضة خفيفة . ولكنه تظاهر بأنه لا يلاحظ شيئاً .

ـ وراتبك ؟

ـ أي راتب ؟

ـ أجورك !

ـ أهذا امتحان ؟

ولكنني ذكرت له مع ذلك راتبي وقد اصطبغ وجهي بحمرة رهيبة .

قال زفركوف بلهجة وقور :

ـ مبلغ ضئيل .

وزاد فرفتشكين على ذلك فقال بوقاحة :

ـ من كان راتبه ضئيلاً هذه الضآلة ، لا يسمح لنفسه بعشاء في مطعم .

وأضاف ترودوليوبوف يقول جاداً :

ـ في رأيي أن هذا بؤس !

وقال زفركوف ، ولكن دون خبث أو مكر في هذه المرة ، بل بنوع من شفقة وقحة ، وهو يتفرس فيّ ، وينظر الى ردائي :

ـ وما أشد ما أصابك من نحول ! ما أكثر ما تغيرت !

وقال فرفتشكين ضاحكاً في سخرية :

ـ كفاكم ! ها هو ذا قد اضطرب منذ الآن !

فصحت أخيراً أقول :

ـ اعلم أيها السيد انني لست مضطرباً البتة ، هل تسمع ؟ أنا أتعشى « في المطعم » على نفقتي ، من جيبي ، بمالي أنا ، لا بمـال غيري ، لاحظ هذا يا سيد فرفتشكين !

ـ كيف ؟ من ذا الذي لا يتعشى هنا على نفقته وبماله ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

كان فرفتشكين قد احمر وجهه احمراراً شديداً ، ونظر الىَّ نظرة فيها حنق قوي •

شعرت أنني بالغت وأسرفت فقلت :

ـ قلت هذا هكذا ••• واني لأحسب على كل حال أن الأفضل أن نتحدث في أمور أقرب الى العقل والذكاء •

ـ أتريد أن تبهرنا بعقلك وذكائك ؟

ـ لا تقلق : لا جدوى من هذا هنا !

ـ ما هـذا الذي تهرف به أيها السـيد ؟ أتراك فقدت عقلك تماماً في ذلك المكتب الذي تعمل فيه ؟ أتراك جُننت ؟

صرخ زفركوف يقول بصوت فيه تسلط واستبداد •

ـ كفى أيها السادة ! كفى !

وجمجم سيمونوف يقول :

ـ ما أغبى هذا كله !

وقال ترودوليوبوف بفظاظة متجهاً الىَّ وحدي :

ـ هذا غباء كبير حقاً ! لقد اجتمعنا هنا كما يجتمع أصدقاء ، لنودّع رفيقنا الطيب ، فأخذتم تتشاجرون . أنت الذى طلبت أن تشاركنا العشاء ، فلا تعكر صفونا ولا تشوش انسجامنا !

وصاح زفركوف :

ـ كفى ! كفى ! هلاّ كففتم أيها السادة ! حقاً ليس هذا بمحمود ! أوثر أن أقص عليكم الآن كيف أوشكت أن أتزوج أمس الأول .

وها هو ذا ، هذا السيد ، يأخذ يقص علينا حكاية سخيفة غبية ، لا شأن لها طبعاً بزواج ولا لهو ، وانما هى وسيلة اتخذها ليحدثنا عن جنرالات وكولونيلات ورجال من مجلس النواب ، يكاد يمثل بينهم الدور الأول ويكاد يحتل بينهم المقام الأكبر . وطفق الحضور يقهقهون استحساناً وطرباً ، حتى لقد أخذ فرفتشكين يئن من فرط ابتهاجه أنيناً .

لقد هجرنى الجميع ، وأصبحت وحيداً مُذلاّ مسحوقاً .

قلت لنفسى : « رباه ! أهذا هو المجتمع الذى يناسبنى ؟ وما أغبى ذلك الدور الذى مثلته أمامهم منذ قليل ! ولكننى أسرفت فى التسامح مع هذا النذل فرفتشكين ! يتخيل هؤلاء البلهاء أنهم يشرفوننى باجلاسى الى مائدتهم ، ولا يخطر على بالهم أننى أنا ، نعم أنا ، أنا الذى أشرفهم بالجلوس الى مائدة معهم ! لقد أصابنى نحول ! وهذا الرداء الذى أرتديه ! أوه ! قُبّح هذان السروالان ما أبشعهما ! ان زفركوف قد لاحظ البقعة الصفراء عند الركبة فوراً . لم يبق لى الا شىء واحد أستطيع أن أعمله : أن أنهض عن المائدة ، فأتناول قبعتى وأخرج دون أن أنطق بكلمة واحدة ... فبذلك أظهر لهم احتقارى . وسأكون فى الغد مستعداً لأن أبارز ! يا للجبناء ! ليست الروبلات السبعة هى

ما آسف عليه ... ربما ظنوا ذلك ... شيطان يأخذهم ! اننى غير آسف على الروبلات السبعة . سأنصرف حالاً ! » .

ولم أتحرك من مكانى طبعاً .

وفى سبيل أن أُغرق حزنى وشجنى أخذت أعب من صنوف الخمرة كئوساً كبيرة ، فسرعان ما سكرت لأننى لم أعتد ذلك . وكان غيظى يزداد ويشتد . وخطر ببالى فجأة أن لا أنصرف الا بعد أن أهينهم على أوقح نحو . يجب أن اختار اللحظة المناسبة ، فأعرّفهم بقيمتى . سيقولون بعد ذلك انه مضحك ، ولكنه ذكى ذكاءً خارقاً !... الخلاصة ... شيطان يأخذهم !...

طفت على المائدة بنظرة وقحة مضطربة . ولكن كان يبدو أنهم نسونى كل النسيان . الجو « عندهم » صاخب مرح . ما يزال زفركوف يهذر . أصخت بسمعى . كان زفركوف يتكلم عن سيدة جميلة عرف كيف يحسن مداورتها فاذا هى أخيراً تصارحه بحبها (كان يكذب طبعاً) ؛ وقد ساعده فى هذه الحكاية واحد من أصدقائه الحميمين هو أمير شاب فى سلاح الفرسان اسمه كوليا ويملك ثلاثة آلاف نفس .

ــ ولكن أين ذلك الفارس كوليا الذى يملك ثلاثة آلاف نفس ؟ اننا لا نراه هنا ! لماذا لم يجىء لتوديعك ؟

أطلقت هذا الكلام فى وسط الحديث ، فخيّم صمت طويل .

وأخيراً تنازل ترودوليوبوف فانتبه الىّ ورشقنى بنظرة احتقار وقال لى :

ــ أنت سكران تماماً .

وكان زفركوف يتفرس فىّ صامتاً كتفرسه فى حشرة عجيبة . غضضت عينىّ . وأسرع سيمونوف يصب الشمبانيا فى الأقداح .

رفع ترودوليوبوف كأســه ، واقتدى به الآخرون ، الا أنا ؛ وقال يخاطب زفركوف :

ـ كأسَ صحتك ، ورحلتك الموفقة السـعيدة . كأسَ ذكريات سنيننا الماضية أيها السادة ! كأس مستقبلنا !

وشرب الجميـع ، واســرعوا يعانقون زفركوف ويقبلونه . لم أتحرك ، وظلت كأسى أمامى ملأى .

زأر ترودوليوبوف وهو يلتفت نحوى بهيئة مهدِّدة متوعدة :

ـ وأنت ؟ ألا تشرب ؟

ـ أريد أن أقول كلمتى أنا أولاً ، يا سيد ترودوليوبوف ، وبعد ذلك أشرب !

دمدم سيمونوف يقول هامساً :

ـ يا للجرب القذر !

نهضت عن كرسيى ورفعت كأسى . كان بى حمى ، وكنت أستعد لأمر خارق ، دون أن أعرف على وجه الدقة ما الذى سأقوله . هتف فرفتشكين يقول :

ـ حتماً ! الآن انما سنسمع أقوالاً ذكية آخر الأمر !

كان زفركوف ينتظر جاداً كل الجد ، مدركاً ما سيحدث . وبدأت كلامى فقلت :

ـ يا سيدى الليوتنان زفركوف ، اعلمْ أننى أمقت الجمل الرنانة والعبـارات الطنانة ، وأحتقر الذين يقولونها ، وأكره البزات الأنيقة . تلك نقطة أولى . أما النقطة الثانية فاليك هى ...

رأيتهم يضطربون جميعاً على مقاعدهم •

ـ النقطة الثانية هى أننى أكره المجانين المستهترين الداعرين • والنقطة الثالثة هى أننى أحب الحقيقة ، أحب الصدق ، أحب الاستقامة (كنت أستمر فى الكلام استمراراً يشبه أن يكون آلياً ، وأشعر بهول يجمدنى تجميداً ، ولا أدرى كيف أتجاسر فأقول هذا الكلام) ••• أحب الفكر يا سيد زفركوف ، أحب أن يكون الرفاق رفاقاً صادقين يتعاملون تعامل أنداد متساوين • هيم ••• هيم ••• ولكن ليم لا ؟ سأشرب أنا أيضاً كأس صحتك يا سيد زفركوف • افتن الصبايا الشركسيات ، واقتل أعداء الوطن ، و ••• كأس صحتك يا سيد زفركوف !

نهض زفركوف فحيانى وقال :

ـ لك أجزل الشكر !

كان يشعر بأنه أُهين اهانةً بالغة ، حتى لقد انكفأ وجهه وشحب لونه •

أعول ترودوليوبوف قائلاً وهو يضرب المائدة ضربةً قوية عنيفة بقبضة يده :

ـ شيطان يأخذه !

وصرخ فرفتشكين يقول بصوته الحاد :

ـ لا بل انه يستحق أن يُحطَّم بوزه !

وجمجم سيمونوف :

ـ يجب طرده •

وعندئذ هتف زفركوف يقول فى عظمة وأبهة ليوقف السـخط الشامل :

ـ لا كلمة ولا حركة أيها السادة • شكراً لكم جميعاً • ولكننى سأعرف كيف أبرهن له على قيمة أقواله فى نظرى •

اتجهت الى فرفتشكين وقلت له بلهجة وقور :

ـ ياسيد فرفتشكين ، غداً تتحاسب على الأقوال التى تفوهتَ بها !

فأجابنى فرفتشكين قائلاً :

ـ ماذا ؟ مبارزة ؟ بكل سرور •

ولكن يظهر أننى حين ألقيت هذا التحدى كنت مضحكاً الى حد جعلهم جميعاً ينفجرون مقهقهين ، وينقلبون على كراسيهم من شـدة الضحك ، ومنهم فرفتشكين نفسه •

قال ترودوليوبوف باشمئزاز :

ـ طبعاً طبعاً ••• دعوه ! ••• لقد أخذ منه السكر كل مأخذ •

وعاد سيمونوف يجمجم قائلاً :

ـ لن أغفر لنفسى قط أننى أشركته •

قلت لنفسى وأنا أمسـك زجاجة ملأى : « هـذا أوان أن أرميهم بزجاجة على رءوسهم » ، ولكننى سكبت كأساً ، وحدثت نفسى قائلاً : « لا ••• الأفضل أن أبقى الى النهاية ••• لو أخليت لكم المكان لأسعدكم ذلك كثيراً أيها السادة ! لا ••• لن أنصرف بحال من الأحوال ! سأبقى عامداً ، وسأظل أشرب ، لأبرهن لكم على أننى لا أولى هذا كله أى اهتمام ، ولا أقيم له أى وزن • سأبقى وسأشرب ، لأننا فى كاباريه ،

ولأنني دفعت حصتي . سأبقى حيث أنا ، وسأظل أشرب ، لأنني لا أعدكم الا خشباً مسنَّدة ، لأنني لا أعدكم الا كائنات لا وجود لها ... سأشرب ، وسأغني ، اذا حلا لي ذلك . نعم ، سأغنّي ، يحق لي أن أغني ... هِمْ ... » .

ولكنني لم أغنِّ . وانما حاولت أن لا أنظر الى أحدٍ منهم . واصطفت هيئة طلقة وأوضاعاً غير متحرجة ، وانتظرت نافدَ الصبر أن يبادئوني الكلام . ولكنهم لم يكلموني وا أسفاه ! ومع ذلك ما كان أقوى رغبتي في أن أصالحهم ، في تلك اللحظة نفسها ! ودقت الساعة الثامنة ، ثم التاسعة . وتركوا المائدة ، واستقروا على الأريكة . واستلقى زفركوف على مضجعٍ واضعاً قدميه على منضدة صغيرة . وصُفّت الزجاجات والكئوس بالقرب منه . فقد أمر لهم هو أيضاً بثلاث زجاجات من الشمبانيا . أما أنا فلم يدعوني طبعاً . وتحلقوا جميعاً حوله . كانوا يصغون الى كلامه بما يشبه التقديس . واضحٌ انهم يحبونه . تساءلت : لماذا يحبونه ؟ لماذا ؟ وكان يعصف بهم السكر في بعض الأحيان فيتعانقون ويقبّل بعضهم بعضاً . وكانوا يتكلمون عن القفقاس ، وعن الغرام المشبوب والهوى الصادق ، وعن مزايا الخدمة العسكرية ، وعن ايرادات الضابط في سلاح الفرسان بودخاريفسكي الذي لم يكن يعرفه أحد منهم ؛ وقد أسعدهم كثيراً أن تكون ايراداته ضخمة . وتكلموا كذلك عن الأميرة د ... ، تكلموا عن رشاقتها ولطفها وجمالها ، دون أن يعرفوها أيضاً ، بل ودون أن يكونوا قد رأوها . وانتهوا أخيراً الى الكلام على شكسبير فقالوا انه خالد .

كنت أبتسم احتقاراً وأنا أسير طولاً وعرضاً ، من المائدة الى المدفأة ومن المدفأة الى المائدة ، حذاءَ الجدار الذي يقابل الأريكة . كنت

أحرص على أن أبرهن لهم أننى أستطيع الاستغناء عنهم ، ومع ذلك كنت أقرع أرض الحجرة بكعبى عامراً . ولكن ذلك لم يجدنى شيئاً . انهم لم يلتفتوا الىّ أىّ التفات . وصبرت . ظللت أذهب وأجىء أمامهم كالمكوك ، من المائدة الى المدفأة ومن المدفأة الى المائدة ، من الساعة الثامنة حتى الساعة الحادية عشرة : « أنا أمشى لأننى يحلو لى أن أفعل ، وما من أحد يستطيع أن يمنعنى من ذلك » . كذلك قلت لنفسى . وقد توقف الخادم عدة مرات لينظر الىّ مستطلعاً متعجباً . أصابنى دوار من كثرة الذهاب والاياب ، وخيِّل الىّ فى بعض اللحظات أننى أهذى . بللنى العرق ثلاث مرات أثناء تلك الساعات الثلاث ؟ وثلاثَ مرات جف عرقى جفافاً كاملاً .

وشعرت فى بعض اللحظات بما يشبه طعنات السكين قسوةً حين كانت تشق ذهنى تلك الفكرة الرهيبة وهى أننى سأظل أتذكر دائماً ، باشمئزاز ومذلة وهوان ، بعد عشر سنين ، بعد أربعين سنة ، هذه الدقائق التى هى أنذل وأسخف وأفظع ما عرفت فى حياتى من لحظات . حقاً لقد كان من المستحيل أن يُذلّ امرؤ نفسه اذلالاً يفوق هذا الاذلال خبثاً وشراً ، وقصداً وتعمداً . كنت أدرك ذلك ادراكاً تاماً ، ولكننى أواصل سيرى من المائدة الى المدفأة ومن المدفأة الى المائدة . وكنت أقول بينى وبين نفسى فى بعض اللحظات ، مخاطباً فى ذهنى أعدائى الجالسين على الأريكة : « آه ... ليتكم تعرفون على الأقل ما أنا قادر عليه من عواطف وأفكار ! ليتكم تعرفون مدى ما أملك من ذكاء ! » . ولكن أعدائى كانوا يتصرفون تصرفَ من لا يشعر بوجودى البتة ! مرةً واحدة التفتوا نحوى ، حين أخذ زفركوف يتحدث عن شكسبير ، فأطلقتُ أنا ضحكة احتكار . وكانت ضحكتى تبلغ من الزيف والخبث والشر أنهم قطعوا حديثهم فجأة ، وأخذوا يتابعون ، بكثير من الانتباه والجد ، خلال

دقيقة أو دقيقتين ، سيرى حذاءَ الجدار من المائدة الى المدفأة ومن المدفأة الى المائدة ، « دون أن ألتفت اليهم أى التفات » • ولكننى لم أظفر من ذلك بطائل ، فانهم لم يخاطبونى بكلمة واحدة ، وما انقضت دقيقتان حتى نسونى من جديد • دقت الساعة الحادية عشرة •

هتف زفركوف يقول وهو ينهض :

ـ والآن ، أيها السادة ، تذهب جميعاً الى « هناك » •

فقال الآخرون مؤبدين :

ـ طبعاً ، طبعاً •

التفتُ فجأة نحو زفركوف •كنت قد بلغت من الانسحاق والتحطم أننى أصبحت مستعداً لكل شيء ، حتى للانتحار ، فى سبيل أن أفرغ من هذا الأمر •• كان بى حمى • ان شعرى المبتل بالعرق يلتصق بجبهتى ، وصدغىَّ •

قلت بلهجة حازمة :

ـ زفركوف ، أنا استغفرك • واستغفرك أنت أيضاً يا فرفتشكين ، واستغفركم جميعاً ، جميعاً • لقد أسأتُ اليكم جميعاً •

قال فرفتشكين بصوته النحيل الوقح :

ـ ها ها ••• أنت خائف من المبارزة •

شعرت بطعنة فى قلبى •

ـ لا ••• ليست المبارزة هى ما أخشاه • اننى مستعد لأن أبارزك غداً ، بعد أن نتصالح ؟ بل اننى لأصر على هـذا • ولا تستطيع أن

ترفض . أريد أن أبرهن لكم على أن المبارزة لا تخيفني . أنت تطلق الرصاص أولاً ، ثم أطلق أنا في الهواء .

قال سيمونوف :

ـ يسليه هذا الكلام !

وقال ترودوليوبوف :

ـ سخافات !

وقال زفركوف باحتقار :

ـ هلاً تركتنا نمر ! انك تسد طريقنا . ماذا تريد أخيراً ؟

كانت وجوههم جميعاً قد احتقنت دماً ، وكان عيونهم تسطع . لقد شربوا كثيراً . قلت :

ـ أنا أنشد صداقتك يا زفركوف . لقد أسأت اليك ، لقد أهنتك ، ولكن ...

ـ أهنتني ؟ أنت أهنتني ؟ أهنتني أنا ؟ اعلم أيها السيد أنك لن تستطيع أن تهينني بحال من الأحوال ، في يوم من الأيام ...

وقال ترودليوبوف يختم الكلام :

ـ وكفى هذا ! امض ! هيّا بنا نحن !

صاح زفركوف يقول :

ـ ستكون أولمبيا لي أنا أيها السادة . هذا متفق عليه ، مفروغ منه . أليس كذلك ؟

ـ طبعاً ، طبعاً ، بلا جدال !...

بقيت هنالك مهان الكرامة مسحوق النفس . وخرجت العصبة صاخبةً ضاجة . أخذ ترودوليوبوف يغني أغنية سخيفة بلهاء . وتأخر سيمونوف قليلاً عن صحبه ليوزع « البقاشيش » على الخدم . فرأيتني أتقدم منه بغتةً وأقول له يائساً :

ـ سيمونوف ، اعطني ستة روبلات .

فنظر الىّ مذهول العقل مضطرب العينين : كان هو أيضاً سكران. سألني :

ـ ماذا ؟ أتريد أن تذهب معنا « الى هناك » ؟

قلت :

ـ نعم .

فقال بلهجة قاطعة وهو يبتسم ابتسامة احتقار :

ـ ليس معي مال .

واتجه نحو باب الخروج . فأمسكته من حافة معطفه . كان ذلك كابوساً حقيقياً .

ـ سيمونوف ! رأيت معك مالاً فلماذا تمنعه عني ؟ أأنا شقي ؟ حذار أن تمنع عني المال ! ليتك تعلم ، ليتك تستطيع أن تعلم لماذا أطلب منك هذا المال ! ان مستقبلي كله مرهون به ، وان خططي كلها موقوفة عليه .

أخرج سيمونوف المال من جيبه ورماه الىّ رمياً على وجه التقريب وهو يقول لي بخشونة وقسوة :

ـ خذه اذا كنت قد بلغت هذا المبلغ من قلة الكرامة .

وأسرع يلحق بصحبه .

لبثت لحظة وحدى . ما أشد الفوضى من حولى ! نفايات موائد ، أقداح محطومة ، خمر مسفوح ، أعقاب سجائر !... خنق القلق قلبى ، واجتاح دخان السكر رأسى . ولمحت خادماً . لقد رأى كل شىء ، وسمع كل شىء ، وها هو ذا يتفرس فىّ متعجباً .

هتفت أقول :

ـ هلمّ ! اما أن يجثوا متضرعين الىّ ملتمسين صداقتى وهم يقبّلون قدمىّ ، واما أن ... واما أن أصفع زفركوف !...

٥

جمجمت أقول وأنا أهبط السلّم مهرولاً : « هـذا هو الصراع مع الواقع اذن ... هذا هو الصراع مع الواقع أخيراً . ليس الأمر الآن أمر سـفر البـابا الى البرازيل ، ولا أمر حفلة رقص على شاطىء بحيرة كومو ! » .

ثم دمدمت أقول : « يا لحماقتك اذ تسخر من هذا فى هذه اللحظة. لمّا يضع كل شىء بعد ، فلا ضير اذن ! » .

كانوا قد غابوا فلا أثر لهم . ولكننى كنت أعرف أين أعثر عليهم.

رأيت عربة زحافة منعزلة ، عربة من تلك العـربات التى تعمـل ليلاً . ان الحوذى يرتدى معطفاً من صوف يغطيه ثلج ذائب يوشك أن يكون دافئاً . والجو رطب خانق . والحصـان الصـغير الأحلس متشعث الرأس وقد غشيته كذلك طبقة من ثلج . وكان الحصان يسعل . اننى أتذكر ذلك تذكراً واضحاً كل الوضوح . أسرعت نحو العربة ، ولكن ما ان رفعت قدمى لأدخلها حتى تراءت لى صورة سيمونوف وهو يرمى الىّ المال ، فاذا بهذه الصورة تهدمنى تهديماً ، واذا بى أتهالك فأسـقط فى داخل العربة سقوط كيس .

هتفت أقول : « نعم ، هناك أشياء كثيرة سيكون علىّ أن أفتدى بها

ذلك كله • ولكنني سأفتديه ••• أو أهلك في هذه الليلة نفسها • هيّا ! » •

سارت بي العربة • الأفكار تفور وتغلي في رأسي هوجاء مجنونة •

« سوف يضرعون الي ملتمسين صداقتي جثواً على الركب • ما هذا الا سراب ، سراب غبي ، رومانسي ، خيالي ، ما هو الا حفلة الرقص تلك نفسها على شاطيء بحيرة كومو • أنا « مضطر » اذن الى أن أصفع زفركوف • علي أن أصفعه • تقرر هذا اذن : « أنا راكض اليه لأصفعه • هيّا ••• مزيداً من السرعة ! » •

شد الحوذي زمام الحصان •

تابعت أخاطب نفسي قائلاً : « ما ان أدخل حتى أصفعه • هل علي أن أقول بضع كلمات من باب التمهيد لصفعه ؟ لا ••• بل أدخل وأضربه • سيكونون قد اجتمعوا كلهم في الصالون • وسيكون هو جالساً على الديوان مع أولمبيا • لُعنت أولمبيا • لقد استهزأت يوماً بوجهي ، حتى لقد رفضت أن تتبعني • سأجرها من شعرها ، وسأشد أذني زفركوف • لا بل الأفضل أن أمسكه من أرنبة أنفه فأجبره على أن يدور في الصالة • قد يسرعون الي عندئذ ليضربوني وليرموني الى خارج • بل ان هذا لمؤكد محقق • لا ضير !••• سأكون أنا الذي ضربته أولاً • سأكون أنا الباديء ، وهذا وحده كاف في مقاييس الشرف • سيكون جبينه قد تلطخ بالعار ، فاذا أراد أن يغسل اللطخة ، فلن يجد بداً من قبول المبارزة • سيكون مضطراً الى مبارزتي • ليس يهمني أن يهجموا علي • ليس يهمني هذا • يا لهم من أناس عقوقين ! سوف تكون لطمات ترودوليوبوف قوية قوة خاصة : انه قوي جداً • أما فرفتشكين فسوف يعدني خاتناً غداراً فيمسكني من شعري • أنا من

ذلك على يقين • ولكن لا ضير ! ليس يهمنى هذا • لقد عزمت أمرى ، فأنا مستعد لكل شىء • يجب أن تفهم عقولهم التى تشبه عقول الخراف ، يجب أن تفهم أخيراً جانب الفاجعة والمأساة فى هذه القصة • حين سيجروننى نحو الباب سأصرخ قائلاً لهم انهم أقل قيمة من خنصرى •ـ أسرع أيها الحوذى ، أسرع مزيداً من الاسراع !

انتفض الحوذى ، وحرك سوطه • كان فى صرختى شىء من توحش حقاً •

« سوف نتبارز عند مطلع الصبح • هذا مقرر • أما مكتبى فقد انتهيت منه • ولكن من أين نأتى بمسدسات ؟ الأمر بسيط : سوف أطلب سلفة على مرتباتى فاشترى مسدسات ؟ ليس لى أصدقاء ؟ الأمر بسيط أيضاً (قلت ذلك وأنا اشتد حماسة واندفاعاً) ! ان أول عابر ألقاه فى الشارع وأطلب منه أن يكون شاهدى ، سيكون مضطراً الى أن يقبل، كاضطراره الى أن ينتشل من الماء انساناً يغرق • ان أكثر الحلول اغراباً فى الشذوذ مقبولة فى مثل هذه الحالات • فلو طلبت الى مديرى أن يشهد هذه المبارزة لما وسعه أن يرفض ذلك اذا كان على شىء من روح الفروسية ، ولوجب عليه أن يكتم السر • وأنطون أنطونوفتش ••• » •

ولكننى فى تلك اللحظة نفسها أدركت بوضوح وجلاء وضياء ، أكثر من أى انسان فى هذا العالم ، كل ما تشتمل عليه افتراضاتى هذه من بشاعة تدعو الى الاشمئزاز وسخافة تبعث على الضحك ، ورأيت ظهر القضية ، غير أن •••

ـ مزيداً من السرعة أيها الحوذى ، اضرب أيها الوغد ! اضرب !

فقال لى رجل الشعب البسيط ، قال لى بلهجة شاكية :

ـ آه ••• سيدى ! •••

فاذا أنا أشعر ببرد كبرد الجليد يسرى فى جسمى •

« ولكن أليس الأفضل ••• أليس الأفضل أن أعود رأساً الى البيت ؟ آه ! رباه ! لماذا تورطت فى هذا العشاء ؟ ولكن••• مستحيل••• مستحيل ••• أأنسى الساعات الثلاث التى قضيتها ذاهباً آيباً من المدفأة الى المائدة ومن المائدة الى المدفأة ؟ لا ••• ان عليهم هم أن يدفعوا ثمن تلك الساعات الثلاث ! ان عليهم أن يخلصونى من لطخة العار هذه !

ـ اضرب أيها الحوذى !

« ماذا لو أسلمونى للشرطة ؟ لا ••• لن يجسروا • سوف يخشون الفضيحة • وماذا لو رفض زفركوف مبارزتى اظهاراً لاحتقاره؟ أنا واثق بأنه سيرفض مبارزتى • ولكننى سأبرهن لهم عندئذ ••• سوف أركض فى هذه الحالة الى محطة الخيول لحظة سفره ، فأمسكه من ساقه ، وأنزع معطفه حين يركب العربة ، وأغرس أسنانى فى يده فأعضه : « أنظروا الى أى مدى يستطيع اليأس أن يدفع بالانسان ! » • قد يضربنى عندئذ على رأسى ، وقد ينهال علىّ الآخرون من ورائى • ولكن لا ضير !••• سوف أصرخ قائلاً لجميع الناس : « انظروا الى هذا الصبى الذى يسافر ليغوى الشركسيات وبصقتى على وجهه ! » •

« وبعد ذلك يكون كل شىء قد انتهى طبعاً • سيكون مكتبى قد زال من على سطح الأرض • سأعتقل ، وسيحكم علىّ ، وسأطرد من الوزارة ، وسأسجن ، وسأنفى الى سيبيريا • لكن ما يكون • ما هذا بشىء • بعد خمسة عشر عاماً ، حين يطلق سراحى ، فأضرب فى الأرض بائساً رثّ الثياب ، سوف أهتدى الى آثاره ، سوف أعثر عليه فى مدينة من المدن بالأقاليم ، ويكون قد تزوج وسعد وأنجب بنتاً أصبحت فى ريعان الصبا ••• سأقول له : انظر أيها الشيطان الرجيم ! أنظر الى خدىّ

الخاسفين والى أسمالى البالية ! لقد فقدت كل شيء : السعادة ، والوظيفة ، والفن ، والعلم و « الحبيبة » ... وذلك كله بسببك أنت . هذه مسدسات . لقد جئت لأفرغ مسدسي ... وأنا ... أغفر لك . وعندئذ سأطلق الرصاص في الهواء ، ثم أمضى دون أن أخلف أثراً . »

تأثرت من هذا تأثراً قوياً بلغ بي حد البكاء ، على شعوري الكامل، في تلك الدقيقة نفسها ، بأنني قد استمددت هذا من « سيلفيو » * ومن مسرحية « الحفلة التكرية » التي ألفها ليرمونتوف . وفجأة شعرت بخجل حاد وخزى لاذع دفعني الى أن استوقف الحصان ، فأخرج من العربة ، وأظل على هذه الحال في وسط الشارع لحظة ، غارق القدمين في الثلج.

كان الحوذي ينظر الي مدهوشاً وهو يزفر زفرات عميقة .

ماذا كان ينبغي أن أعمل ؟ يستحيل أن أذهب الى هناك ؛ فانني لن أجني من هنالك شيئاً . ولكن يستحيل كذلك أن أترك الأمور على ما هي عليه ، فان هذا لا يمكن أن يطاق ... رباه ! كيف يمكنني أن دع هذا الأمر ؟ أأدعه بعد كل تلك الاهانات !

صحت أقول وأنا أندفع الى العربة من جديد .

« لا ... هذا قدري ! اسرع ، أسرع ، هلم ! » .

ومن شدة نفاد صبري ، لطمت الحوذي في ظهره بقبضة يدي . هتف الحوذي يقول :

ـ ماذا دهاك ؟ لماذا تضربني ؟

ومع ذلك ضرب حصانه بسوطه ضربة قوية ، فأخذ الحصان يسرع .

كان الثلج يتساقط سبائخ كبيرة . وكنت قد حللت أزرار معطفي،

لأن أموراً أخرى تشغل بالى وتستأثر بتفكيرى . كنت قد نسيت كل شىء ، لأننى قررت أن أصفعه ، وأنا أشعر مرتاعاً بأن هذا سيحدث لا محالة ، فوراً ، فما من قوة تستطيع أن تقف الأحداث بعد الآن . المصابيح المنعزلة تلتمع كابيةً فى ضباب الثلج كأنها مشاعل دفن . الثلج قد نفذ تحت معطفى وردنجوتى ، وتراكم تحت رباط عنقى وأخذ يذوب هنالك . ولكننى لم أتدثر : ألم يضع كل شىء ؟

ووصلنا أخيراً . وثبت من العربة كالمجنون ، وصعدت الدرجات القليلة وأخذت أقرع الباب بقدمى ويدىَّ . كنت أشعر بضعف شديد فى الساقين ، ولا سيما فى الركبتين . وسرعان ما فُتح الباب ، كأن قدومى كان منتظراً (الواقع أن سيمونوف كان أبلغ أهل المحل أن زائراً آخر قد يجىء ، اذ لا بد فى هذا المحل من الابلاغ لاتخاذ بعض الاحتياطات . المحل نوع من « متجر للملبوسات » قد أغلقته الشرطة بعد ذلك ، وهو فى الواقع متجر أثناء النهار ، غير أن فى وسع المرء أن يقضى فيه الليل اذا أوصى به أحد) . اجتزت الدكان المظلمة مسرعاً ، ودخلت صالون الاستقبال الذى كنت أعرفه حق المعرفة ولم يكن يضيئه فى ذلك الحين الا شمعة واحدة . ثم ما لبثت أن توقفت مدهوشاً مذهولاً : لم يكن ثمة أحد .

سألت :

ـ أين هم ؟

ولكنهم كانوا قد انصرفوا وافترقوا .

كانت صاحبة المحل واقفة أمامى وعلى شفتيها ابتسامة بلهاء . لم تكن هذه المرأة تجهلنى .

وبعد لحظة ، انفتح الباب ودخل داخل .

لم التفت الى أحد ، وأخذت أسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ، وأنا أحدث نفسى ، فيما أظن . كان يتراءى لى أننى أفلت من الموت ، فكان كيانى كله يهتز طرباً ويتفتح فرحاً . فلو قد وجدته لصفعته حتماً . أنا من ذلك على يقين مطلق . ولكنهم انصرفوا جميعاً ... لقد زال كل شىء ... لقد تغير كل شىء . نظرت حولى . لم أكن قد استطعت بعد أن أعى كل ما جرى . رفعت عينىّ نحو الداخل الذى دخل منذ هنيهة ، رفعت عينىّ نحوه ذاهلاً ، فلمحت وجهاً فتياً ، نضراً ، شاحباً بعض الشحوب ، له حاجبان داكنان مستقيمان ، ونظرة جادة فيها شىء من دهشة . سرعان ما أعجبنى هذا . لو قد ابتسمت لكرهتها واحتقرتها . تفرست فيها مزيداً من التفرس وأنا أبذل شيئاً من جهد : كنت ما أزال أجد عناء فى استجماع أفكارى . كان فى هذا الوجه تعبير ساذج طيب ، ولكنه جادٌ جداً غريباً . أنا على يقين من أن هذا التعبير يسىء اليها فى هذا المحل ، وأن أحداً من هؤلاء البلهاء لم يلاحظه . على أننى لا أستطيع أن أقول انها على جانب عظيم من الجمال ، رغم أنها فارعة الطول بضة الجسم حسنة التكوين . وكانت ملابسها بسيطة . شعرت بعضة قوية فى قلبى ، ودنوت منها .

وفى تلك اللحظة ذاتها رأيت نفسى فى المرآة . كان وجهى منقلباً ، فبدا لى كريهاً منفراً : ان فيه صفرةً وشراً وحنقاً . وكان شعرى مشعثاً . حدثت نفسى قائلاً : « هذا أحسن ... يسرنى أن أكون كذلك . نعم ، يسرنى أن أبدو لها منفّراً ، يلذ لى هذا ! » .

٦

في الجهة الثانية من الحاجز ، أخذت ساعةُ حائط تحشرج أو تسعل : لكأن صوتها صوت انسان أُمسك خناقه وشُدّ شداً قوياً . وأعقبت تلك الحشرجةَ الطويلة رنات حادة مزعجة ما ان يسمعها المرء حتى يتصور انساناً يندفع متواثباً على حين فجأة . هي الساعة الثانية بعد منتصف الليل .

ثبت الى رشدى . لم أكن نائماً ، ولكننى كنت فى حالة تشبه الوسن .

الظلام يكاد يكون كاملاً فى الغرفة الواطئة الضيقة التى تملؤها خزانة كبيرة للثياب ، وعلب كرتون ، وملابس مبعثرة ، وأسمال بالية ، حتى ليتعذر على المرء أن يتحرك فيها من فرط ازدحامها بتلك الأشياء . وكانت بقية الشمعة المشتعلة فى أحد الأركان توشك أن تذوب كلها ، فهى لا تبعث الآن الا أشعة باهتة كابية . فما هى الا دقائق حتى يعم ظلام تام حالك .

ثبت الى رشدى بسرعة . تذكرت كل شىء دفعةً واحدة بغير جهد ، كأن ذكرياتى كانت لا تنتظر الا أن أصحو حتى تسرع الىّ وتتكاثر علىّ . ثم اننى ، حتى حين كنت فيما يشبه الوسن ، كان فى نفسى شىء لم يبارحنى ، شىء هو أشبه بنقطة لا أستطيع أن أنساها وعليها

تدور أحلامي ثقيلة ثقيلة • ولكن الأمر الغريب هو أن كل ما وقع لي في ذلك اليوم بدا لي الآن في صحوى بعيداً ، فكأنه حدث منذ زمن طويل ، وكأني عشت تلك الأحداث قبل بضع سنين •

كان في رأسي ثقل • وكنت أحس أن شيئاً ما يحلق فوقي ويلامس رأسي • فكان ذلك يزعجني ويثيرني ويستفزني • وعاد القلق والغضب يغليان في نفسي ويلتمسان لهما مخرجاً • وفجأة رايت الى جانبي عينين محملقتين تتفرسان فيّ تفرساً غريباً عنيداً • ان نظرتهما باردة قاتمة تعبّر عن قلة الاكتراث ، وكأنها آتية من مكان بعيد جداً • انها تحدث في النفس شعوراً بالضيق •

انبجست في ذهني فكرة غامضة ، فولّدت في جسمي كله احساساً بالانزعاج شبيهاً بما يحسه المرء حين يدخل قبواً رطباً خانقاً • تراءى لي أنه ليس طبيعياً أن لا تأخذ هاتان العينان بتفحصي الا الآن ، وفي هذه اللحظة بعينها • وتذكرت أيضاً أنني خلال الساعتين اللتين انقضتا لم أتبادل كلمة واحدة مع هذه الانسانة ، لا ولا رأيت أن ذلك ضروري • بالعكس : كنت قد وجدت في هذا الصمت لذة • ولكنني أدركت في تلك اللحظة سخافة وبشاعة الدعارة التي تشرع فوراً ، على نحو فظ خالٍ من الحشمة والحياء ، فيما ينبغي أن يكون ثمرةً للحب يجنيها المحب في النهاية • نظر كل منا الى الآخر على هذا النحو مدة طويلة • ولكنها لم تغضض عينيها أمام عينيّ ، ولا تغير تعبير نظرتها ، فما وسعني الا أن أشعر آخر الأمر بشيء من قلق •

سألتها بلهجة مباغتة وقد نفد صبري :

ــ ما اسمك ؟

فأجابت مدمدمةً تقريباً ، ولكن على نحو ليس فيه شيء كثير من كياسة ولطف ، أجابت وهي تشيح عينيها :

ـ ليزا .

صمت .

قلت كمن يخاطب نفسه وأنا أصالب ذراعيّ وراء قذالي وأحدق الى السقف ، بحركة مكتئبة حزينة :

ـ يا له من طقس في هذا اليوم ! الثلج ... ما أشد ما يبعثه في النفس من حزن .

لم تجب . هذه قسوة يضيق بها المرء . عدت أسألها ملتفتاً نحوها وبي شيء من غضب :

ـ أأنت من هنا ؟

ـ لا .

ـ من أين أنت ؟

أجابت تقول على مضض :

ـ من ريجا .

ـ هل أنت ألمانية ؟

ـ لا بل روسية .

ـ هل تقيمين هنا منذ مدة طويلة ؟

ـ أين ؟

ـ في هذا المحل .

ـ منذ أسبوعين .

أصبح صوتها يتقطع مزيداً من التقطع . وكانت الشمعة قد انطفأت ، فأصبحت لا أميِّز وجهها .

ـ هل لك أب وأم ؟

ـ نعم ... لا ... نعم .

ـ أين هما ؟

ـ هناك فى ريجا .

ـ ماذا يعملان ؟

ـ لا شىء يستحق الذكر .

ـ كيف هذا ؟ ما هما ؟ ما حالتهما ؟

ـ من متوسطى الحال .

ـ هل كنت تسكنين معهما ؟

ـ نعم .

ـ ما عمرك ؟

ـ عشرون سنة .

ـ لماذا تركتهما ؟

ـ هكذا ...

ان كلمة « هكذا » هذه كانت تعنى : « دعنى وشأنى . لقد ضقت بأسئلتك ! » .

وعدنا الى الصمت .

لا يدرى الا الله لماذا لم انصرف . أنا أيضاً كنت أشعر بمزيد من الضيق والقلق شيئاً بعد شىء . وها هى ذى صــور أحداث ذلك اليوم الذى انقضى تأخذ تتخاطر فى ذاكرتى فوضى من تلقاء نفســها دون أى جهد أبذله . وتذكرت على حين فجأة منظراً شهدته فى الشارع حين كنت ذاهباً الى المكتب مشغول البال مهموم النفس .

ـ رأيت الناس فى هذا الصباح يخرجون تابوتاً ، فكادوا يقلبونه.

قلت هذه الكلمات بصوت عال دون أن أنتبه الى ذلك ، ودون أن يخطر ببالى أن استأنف الحديث معها ، فكأنني لم أقل ما قلته عامداً .

سألتنى :

ـ تابوتاً ؟

ـ نعم ، فى سينايا * . أخرجوه من قبو .

ـ من قبو ؟

ـ نعم ، من غرفة فى قبو ... من منزل سيء السمعة .. ما أكثر ما كان يحيط بالمنزل من أقذار !... قشور ، نفايات ... ورائحة العفونة تفوح كريهةً ... شيء فظيع !...

وساد الصمت .

ثم عدت أقول لا لشيء الا أن لا أسكت :

ـ أمر مزعج أن يُدفن أحد فى هذا اليوم !

ـ لماذا ؟

ـ البرد ... الرطوبة ...

وتثاءبت .

قالت فجأة بعد برهة من صمت :

ـ ما قيمة هذا ؟

ـ كيف ؟ هذا شيء محزن (وتثاءبت مرة أخرى) . لا بد أن حفارى القبر قد أصابهم مرض ، لأن الثلج بللهم ... ولا شك أن حفرة القبر قد امتلأت ماءً .

سألتنى بنوع من الاستطلاع والتعجب ، ولكن بلهجة فيها مزيد من التقطع والمباغتة اللذين لاحظتهما في لهجتها منذ قليل :

ـ لماذا تقدّر أن الحفرة لا بد أن تكون قد امتلأت بالماء ؟

شعرت فجأة بشيء يستيقظ في نفسي . قلت :

ـ كيف لا تعرفين هذا ؟ ان ارتفاع الماء لا يقل عن ثلاثة أشبار . ما من حفرة جافة في مقبرة فولكوفو .

ـ لماذا ؟

ـ لماذا ؟ لأن الأرض ملأى بالماء . الغدران في كل مكان . والتابوت يوضع في الماء رأساً . رأيت هذا مراراً .

(الحق أنني لم أر هذا في يوم من الأيام ، ولا ذهبت الى مقبرة فولكوفو * مرة واحدة ، ولكنني سمعت من يتكلم عن هذا الأمر) .

قلت لها :

ـ أأنتِ لا يهمك حقاً أن تموتي ؟

فأجابت تقول وكأنها تدافع عن نفسها :

ـ لماذا يجب أن أموت ؟

ـ ستموتين في يوم من الأيام ، وستموتين كما ماتت تلك المرأة التي حدثتك عنها ... انها هي أيضاً « بنت » ... وقد ماتت بمرض السل .

ـ لو كانت « بنتاً » لماتت في المستشفى ...

قلت لنفسي : « هي تعلم هذا اذن . قالت « بنتاً » ولم تقل «فتاة» .

أجبتها قائلاً :

ـ كانت مدينةً لقوادتها بمال كثير . وظلت تعمل حتى لفظت آخر أنفاسها تقريباً ، رغم أنها كانت مريضة بالسل . ان الحوذيين الذين كانوا هناك قد تحدثوا في هذا مع الجنود . لعلهم أصحابها القدامى . كانوا

يضحكون ويتأهبون لشرب كأس من الخمر فى الكاباريه احتفاء بذكراها (هنا أيضاً لفقت وزوقت كثيراً) .

وساد صمت ، صمت عميق . لم تقم حتى بحركة صغيرة . قلت :

ـ والمستشفى ؟ هل الموت فيه أفضل ؟

أجابت :

ـ سيان ... الأمران واحد ...

ثم أضافت متبرمة :

ـ ولكن لماذا يجب أن أموت ؟

ـ لا الآن ، بل فى المستقبل .

ـ ما يزال الوقت طويلاً ...

ـ لا تتخيلى هذا ! أنت الآن فتية جميلة نضرة ، والناس هنا يقدرونك لهذا . ولكنك ستتغيرين تغيراً كبيراً بعد سنة واحدة ، سوف تذبلين !...

ـ بعد سنة واحدة ؟

أجبتها ملحاً مصراً فى خبث وشر :

ـ على كل حال ، لن تكون قيمتك بعد سنة كقيمتك اليوم . سوف تتركين هذا المنزل الى منزل آخر أدنى منه . فما ان تنقض سنة أخرى حتى تتركى المنزل الثانى الى منزل ثالث ... حتى اذا انقضت ست سنوات أو سبع انتهيت الى غرفة فى قبو بميدان سينايا . وهذا كله لا يعد شيئاً ذا بال ... وانما الشر كل الشر أن يلم بك مرض ... مرض فى الصدر أو مرض آخر ... اذا أصابك برد ... والمرض يتفاقم ويستفحل فى ظروف حياة كالحياة التى تعيشينها ، فاذا هو لا يتركك ، ثم اذا أنت تموتين .

ـ سأموت ، ثم ماذا ؟

بهذه الكلمات رشقتني حانقةً ، واختلج جسمها اختلاجة مفاجئة.

قلت :

ـ سيكون هذا أمراً محزناً .

ـ هل فى حياتى ما آسف عليه .

ـ الحياة نفسها .

وساد صمت .

ـ هل كان لك خطيب ؟

ـ ما شأنك أنت وهذا ؟

ـ أنا لا أستجوبك . فيم يعنينى هذا الأمر ؟ لماذا تغضبين ؟ لا شك أنك قاسيت متاعب كثيرة . وهذا لا شأن لى به . ولكننى أشعر بشفقة..

ـ على من ؟

ـ عليك .

دمدمت تقول بصوت خافت :

ـ لا داعى الى الشفقة .

ومرةً أخرى اختلجت اختلاجة مفاجئة .

أغاظنى منها هذا . كيف ؟ أأكون لطيفاً معها ثم هى ...

قلت :

ـ ولكن ماذا تظنين ؟ أتحسبين أنك فى الطريق القويم ؟

ـ لست أظن شيئاً البتة .

ـ هذا بعينه هو ما يؤسف له ... هذا بعينه هو ما يحز فى النفس.

عودى الى نفسك قبل أن يفوت الأوان • لم يفت الأوان بعد • انك ما زلت شابة جميلة• ففى وسعك أن تحبى وأن تتزوجى وأن تسعدى ••

قالت بلهجة خشنة :

ـ ما كل المتزوجات سعيدات !

ـ طبعاً ، ما كلهن سعيدات • ولكن أى شىء أفضل من البقاء هنا• لا مجال للمقارنة ••• شتان ••• اذا أحب الانسان فانه يستطيع أن يستغنى حتى عن السعادة • الحياة جميلة حتى فى الشقاء والعناء • الحياة حلوة أيةً كانت • أما هنا ••• فهنا عفونة ••• شىء فظيع !•••

وأشحت وجهى باشمئزاز • أصبحت لا أفكر فى الأمور تفكيراً هادئاً • أخذت أشعر فعلاً بالأشياء التى أتحدث عنها وأخطب فيها • اندفعت وتحمست • أصبحت أتطلع الى شرح أفكارى العزيزة وآرائى الحبيبة التى كنت قد أنضجتها قابعاً فى ركنى • ان شيئاً ما قد اشتعل فجأة فى نفسى ؟ تراءى لى هدف ، تبدت لى غاية • قلت :

ـ لا تلتفتى الى وجودى فى هذا المكان • لا تتخذينى قدوة • ربما كنت أسوأ منك• ثم اننى كنت سكران حين جئت الى هنا (أسرعت أبرىء نفسى مع ذلك) • هذا عدا أن المرأة يجب أن لا تقتدى بالرجل• الأمران مختلفان • أنا أوسخ نفسى هنا ، ولكننى لست عبداً لأحد • أدخل ثم أخرج فأنفض عن نفسى الوساخة فاذا أنا شخص آخر • ولا كذلك أنت • فأنت أولاً عبدة ••• نعم عبدة ••• أنت تتخلين عن كل شىء ، تتخلين عن كل ارادتك • وقد تريدين فى المستقبل أن تحطمى القيد ولكنك لن تستطيعى الى ذلك سبيلاً • ستكبلك الأغلال بمزيد من القوة يوماً بعد يوم • هذه هى السلسلة التى تقيدك•

انني اعرفها ••• ناهيك عما عدا ذلك • لعلك لن تفهميني • ولكن قولي لي : لا شك أنك مدينة للقوادة بمال ، أليس كذلك ؟

لم تجبني ، وظلت تصغي الي ّ صامتة ، فتابعت أقول رغم ذلك :

ـ أرأيت اذن ؟ هذه سلسلة أولى تقيدك • ولن تتحرري منها في يوم من الأيام • سيرتبون الأمور ترتيباً يضمن لهم هذا • فكأنك بعت روحك للشيطان ••• وما يدريك ؟ لعلني لا أقل عنك شقاء ••• لعلني لا أغوص في الوحل الا لأنسى عذابي ! بعض النـاس يشربون الخمـر التماساً للنسيان ••• وأنا أجيء الى هنا لهذا الغرض • قولي لي : أهذا خير ؟ لقد تضاجعنا ••• ولم نتبادل كلمة واحدة ••• وبعد أن انتهى كل شيء انما اخذت تتفرسين في ّ كمتوحشة ، وأخذتُ أنظر اليك أنا أيضاً • أهكذا يكون الحب ؟ أهكذا ينبغي أن يكون الاتحاد بين الرجل والمرأة ؟ هذا يدعو الى الاشمئزاز ، لا أكثر •••

قالت بصوت متعجل قاطع :

ـ نعم !

ان تعجلها هـذا في اطلاق كلمـة « نعم » قد أدهشني • اذن لقد كانت هذه الفكرة تدور في رأسها حين كانت تتفرس في ّ منذ قليل • هي اذن قادرة على أن يكون لها أفكار • ألا ان الأمر قد أصبح شائقاً !••• هنالك اذن شيء من التقارب • ان من الممكن جداً توجيه نفس شابة الى هذا الحد •

كدت أفرك يدي ّ فرحاً •

وأصبحت اللعبة تغريني مزيداً من الاغراء شيئاً بعد شيء •

قدّمت رأسها نحوي ، وأسندته على ذراعي ّ • هذا ما خيّل الي ّ

فى الظلام • أتراها تتفرس فىّ ؟ لشد ما أسفت على أننى لا أستطيع أن أرى عينيها ! وكنت أسمع تنفسها العميق •

سألتها بلهجة فيها شىء من التسلط منذ الآن :

ـ لماذا جئت الى هنا ؟

ـ هكذا !

ـ ما كان أجمل الاقامة فى بيت الأبوين مع ذلك ! ما أكثر ما فى بيت الأبوين من دفء وراحة ! كان ذلك البيت عشَّك الأمين •

ـ فما قولك اذا ذكرت لك أن حياتى فيه كانت أسوأ من حياتى هنا ؟

قلت لنفسى : « يجب أن أجد اللهجة المناسبة • بالكلام العاطفى لن أجنى شيئاً كثيراً » •

على أن هذه الفكرة لم تزد على أن ومضت فى فكرى وميضاً سريعاً ثم زالت • أحلف لكم أن تلك المرأة قد شاقتنى حقاً • ثم اننى كنت موهناً ضعيفاً ، وكنت مؤهباً للشعور بعواطف كريمة يسهل كثيراً أن يرافقها المكر •

أجبت بسرعة أقول :

ـ لا أحد ينكر هذا • كل شىء يمكن أن يحدث • أنا متأكد مثلاً من أن اهانة قد لحقت بك ، وأن اساءةً قد نالتك ، وأنهم «هم» المذنبون فى حقك ، وأن الخطأ ليس خطأك بل خطؤهم • لست أعرف شيئاً عن تاريخك ، ولكن لا شك أن فتاة مثلك لا تدخل الى هنا راضية مختارة •

دمدمت تقول بصوت لا يكاد يُسمع ، ولكننى سمعته :

ـ ماذا تعنى بقولك « فتاة مثلى » ؟

ها ... اننى أتملقها . هذا جبن . ولكن قد يكون فى ذلك خير كثير ...

صمتت . قلت لها :

ـ اسمعى يا ليزا . سأضرب لك بنفسى مثالاً . لو قد كان لى أسرة أثناء طفولتى ، لما كنت اليوم على ما أنا عليه . اننى كثيراً ما أفكر فى هذا الأمر . مهما تكن حياتك فى أسرتك شقية ، فان أباك وأمك ليسا عدوّين لك على كل حال ... ما هما عنك بغريبين . لا بد أن يعبرا لك عن حبهما مرةً فى السنة على الأقل . أنت هناك تشعرين بأنك فى منزلك. أما أنا فلم تكن لى أسرة ، ولعل هذا هو السبب فى اننى بلغت هذا المبلغ من ... انعدام الاحساس .

انتظرت من جديد .

قلت لنفسى : « لعلها لا تفهم . انه لشىء مضحك أن أسدى اليها دروساً فى الأخلاق ! » .

استأنفت كلامى بصوت عال وأنا أحاول أن لا أواجه الأمور مواجهة مباشرة ، وأتظاهر بأننى لا أتكلم الا لأسليها :

ـ لو كنت أباً وكان لى ابنة لأحببتها أكثر مما أحب ابناً . أنا واثق بذلك .

أعترف لكم بأن وجهى قد احمر .

سألتنى :

ـ لماذا ؟

آ ... هى اذن تصغى الى كلامى . قلت :

ـ لا أدرى يا ليزا . عرفت فى الماضى أباً قاسياً عاتياً ولكنه يركع أمام ابنته . كان يقبّل قدميها ويديها ولا يكف عن الاعجاب بها . اذا

كانت ترقص فى حفلة رقص ، لبث هو خمس ساعات طوال فى مكان واحد لا يحوّل عنها بصره . كان كالمجنون بسببها . لست أفهم هذا . كان يسهر فى الليل حين تنام ، ويأتى اليها أثناء رقادها فيقبّلها ويباركها. وكان بخيلاً على غيرها ، وكان هو نفسه يرتدى ردنجوتاً متسخاً ، أما معها فهو لا يبالى النفقات مهما تكن باهظة . كان يهدى اليها هدايا ثمينة ... فاذا أظهرت رضاها عنها وسرورها بها شعر بفرح لا حدود له ! ان الآباء يحبون بناتهم أكثر مما تحبهن الأمهات . والبنات يسعدن فى منزل الأب على وجه الاجمال . ما أحسب أننى أرضى أن أزوج ابنتى لو كان لى ابنة .

قالت وهى تبتسم ابتسامة خفيفة :

ـ عجيب ! لماذا ؟

ـ لغيرتى عليها ... حقاً ! كيف يمكن أن تقبّل شخصاً غريباً ؟ كيف يمكن أن تحب أحداً أكثر مما تحب أباها ؟ هذا أمر يؤلمنى تصوره. تلك سخافات طبعاً ، ولا بد أن يرتد المرء الى الصواب آخر الأمر . ولكن يخيّل الىّ اننى قبل أن أزوّجها سأتعب خاطبيها وأستبعدهم واحداً بعد آخر ، الى أن أزوّجها مَنْ تحبه مع ذلك آخر الأمر .والرجل الذى تحبه البنت هو بعينه الرجل الذى يكرهه أبوها أكثر مما يكره من عداه. نعم ، ان الأمر كذلك. وما أكثر المصائب التى تقع فى الأسر بسبب هذا؟

قالت فجأة :

ـ بين الآباء من يسعدهم أن يبيعوا بناتهم ، لا أن يزوجوهن زواجاً شريفاً .

آ ... هذا هو الأمر اذن !...

واستأنفت كلامى قائلاً بحرارة :

ـ ذلك ، يا ليزا ، لا يحدث الا فى الأسر التى كتبت عليها اللعنة ، الأسر التى لا تعرف الله ولا تعرف الحب . وحيثما يغب الحب يغب العقل أيضاً . صحيح أن أسراً كهذه الأسر موجودة ، ولكن كلامى لا ينصرف اليها ولا ينصب عليها . اننى أدرك الآن أنك لم تكونى سعيدة فى بيت أهلك ما دمت تقولين هذا الكلام . نعم ... أنت شقية حقاً ... همْ ... ان الفقر هو سبب جميع هذه الشرور بوجه عام .

ـ هل تجرى الأمور على غير هذا النحو فى منـازل الأثرياء ؟ ان الشرفاء يعيشون سعداء حتى فى الفقر .

ـ همْ ... نعم ... ربمـا ... وهنـاك شىء يا ليزا ، هو أن الانسان لا ينتبه الا الى ألمه ، أما سعادته فلا يتوقف عندها ولا يلتفت اليها . ولو فكر الانسان فى سعادته ، لوجد أن لكل مرحلة من مراحل حياته حظاً منها ... فكيف اذا جرت جميع الأمور فى الأسرة مجرى حسناً ، فباركهـا الله ، وكان الزوج طيبـاً ، وكان يُعنى بك وكان لا يتركك ! ما أسعد الحياة فى الأسرة حينذاك ، ولو تسلل اليها شىء من شـقاء . أليس يتسـلل الشـقاء الى كل مكان ؟ اذا تزوجت فى يوم من الأيام ، فلربما عرفت ذلك بنفسك . ثم فلننظر فى الأوقات الأولى من حياتك مع الرجـل الذى تحبين . ما أعظم سـعادة هذه الأوقـات ! ما أعظم سعادتها ! وهذا يحدث دائمـاً . حتى المشـاجرات تنتهى بينكما نهـاية حسنة فى تلك الأوقات . من النساء من يسعين الى مشاجرة أزواجهن على قدر ما يحببنهم . أؤكد لك ذلك . لقـد عرفت امرأة من هـذا الطراز . لسان حالها يقول : « أحبك كثيراً . واذا كنت أعذبك فلكى تشعر بذلك . » . هل تعرفين هذا يا ليزا ؟ قد يحدث أن يعذب أحد أحداً لا لشىء الا لأنه يحبه . النساء يفعلن هذا . والمرأة تقول بينها وبين نفسها أثناء ذلك مخاطبة رجلها الذى تحبه « سوف أبلغ من قوة حبك

وكثرة ملاطفتك بعد هذا ، أنني لا آثم اذا عذبتك الآن ! » • الجميع يتقاسمون الفرح فى الدار ، ويسودهم جو المرح والشرف ، ويرفرف عليهم الامن والسلام • ان بعض النساء غيورات • فاذا خرج الرجل لم يطقن احتمال ذلك • آنا آعرف امرأة كانت تتصرف هذا التصرف • انها تثب من سريرها فى الليـل وتسرع لترى اليس زوجها الان مع فلانة فى مكان كذا ؟ ما هذا بالامر المستحسن • والمراة تعرف ذلك • وهى تتالم وتحكم على نفسها وتدين سلوكها • ولـكن ماذا تريدين ؟ انها تحبه ! ••• ولـكن ما أحلى المصالحة بعد مشـاجرة ! ما احلى أن تستغفره أو أن تغفر له • انهما كليهما يشعران بالسعادة حينئذ ، كانهما قد التقيا منذ لحظة ، أو كأنهما قد تزوجا منذ هنيهة ، وكان حبهما انما بدأ الآن ••• وما من أحد ، ما من أحد يجب ان يعرف ما يحدث بين الرجل وامرأته اذا كانا متحابين حقاً • مهما يتشـاجرا فما ينبغى أن يحتكم أحد منهما حتما الى أمه ، وما ينبغى لهما أن يقصا على أحد شيئاً مما وقع بينهما ؛ ما ينبغى أن يحتكما الا الى نفسيهما • الحب سرٌ الهى يجب أن يظل مخبأ عن أعين جميع الناس ، مهما يحدث من أمر ، ومهما يقع من خلاف • ذلك خير وأبقى ، ذلك أنبل وأقدس • بهذا يزداد الاحترام المتبادل ، وما أكثر الأشياء التى تُبنى على الاحترام المتبادل ! اذا قام الزواج على الحب ، فلماذا يجب أن يموت هذا الحب ؟ هل يتعذر حقاً بقاءُ هذا الحب حياً ؟ انه لمن النادر أن يتعذر ذلك • كيف يمكن أن يتعذر ذلك اذا كان الرجل طيب القلب شريف النفس ؟ صحيح أن الحب الأول ينقضى ، ولكن حباً آخر سيعقب الحب الأول ، حباً أسمى كثيراً من الحب الأول ، حباً يوحد النفسين ، ويجعل كل شىء مشتركاً بينهما ، فلا تخفى أحدهمـا عن الأخـرى سراً ؛ فاذا جـاء الأولاد بدا كل شىء عندئذ جميلاً ، حتى أصعب المصاعب ، شريطة أن يوجد الحب

وأن توجد الشجاعة • العمل نفسه زاخر بالفرح ، وانه ليفرح الانسان ان يحرم نفسه من الخبز في سبيل أن يهبه للأولاد • لان الاولاد سيحبونك لهذا في المستقبل • ولنفسك اذن انما تكنزين وتدخرين • ويكبر الاولاد ، فتشعرين انك لهم قدوة ، وأنك سندهم • حتى اذا وافتك المنية حملوا بعدك الأفكار والعواطف التي أخذوها منك ، فاذا هم قد خلقوا على صورتك • هذا يملي عليك اذن واجباً خطيراً • كيف لا يتحد الابوان اتحاداً أقوى واوثق ما دام الامر كذلك ؟ يقال ان الأولاد مشقة وعناء • كذب القائل • الأولاد فرحة الهية • هل تحبين الاطفال الصغار يا ليزا ؟ أنا أعبدهم عبادة ••• تصوري ••• تصوري وليداً بلون الورد يرضع من ثدي ••• أي زوج لا يذوب قلبه حناناً حين يرى امرأته تحتضن ابنه بذراعيها ؟••• طفل صغير بلون الورد ، بض الجسم ، يتمطى ، يتبسم ، يلعب ••• قدمان صغيرتان ••• يدان صغيرتان سمينتان ••• أظافر صغيرة نظيفة تبلغ من الصغر أنها تبعث على الضحك ••• عينان صغيرتان يبدو منذ الآن انهما تفهمان كل شيء ••• وهو اذ يرضع يربت على ثديك ••• ويعبث ••• ويشدك ••• حتى اذا اقترب الأب انقلب الى وراء ، ونظر الى أبيه ، وأخذ يضحك • يا له من منظر مضحك ! ثم يعود الصغير الى ثدي أمه ويستأنف الرضع • وسوف يعض الثدي في مرة أخرى حين تنبت أسنانه، وسوف يرشق أمه في الوقت نفسه بنظرة ماكرة فكأنه يقول لها : «هل أحسست؟ لقد عضضتك !..». أليست هي السعادة ، أليست هي السعادة الكاملة أن يكونوا جميعهم معاً : الأم والأب والطفل ؟ ان الانسان يمكن أن يغفر أموراً كثيرة في سبيل هذه اللحظات • لا يا ليزا : على المرء ، قبل أن يتهم الآخرين ، أن يتعلم هو نفسه الحياة !

قلت بيني وبين نفسي مخاطباً ليزا : « بهذه اللوحات انما يجب

التأثير فيك » ، قلت ذلك بيني وبين نفسي رغم أنني قد تكلمت صادقاً كل الصدق مخلصاً كل الاخلاص ، أحلف لكم ... ثم اذا بي أحمرُ على حين فجأة . تساءلت : « ما عساى أفعل اذا هي انفجرت ضاحكة ، أين عساى أدس نفسي حينذاك ؟ » وأحنقتني هذه الفكرة . كنت في نهاية خطابي شديد الاهتياج ، وهأنا ذا الآن أشعر من ذلك بغضاضة تجرح كبريائي . واستمر الصمت . وددت حتى لو أدفعها عني ...

بدأت تتكلم فقالت :

ـ مالك تتكلم مثل ...

ثم أمسكت عن اتمام كلامها .

ولكنني كنت قد أدركت كل شيء . هناك أمر آخر كان يختلج في صوتها : ان المرء لا يلاحظ في صوتها الآن ما كان يلاحظه منذ قليل من جفاء وعناد ، بالعكس : ان في صوتها الآن عاطفة رقيقة ، يبلغ ما تشتمل عليه من الخفر والحشمة والحياء أنني شعرت أمامها على حين فجأة بخجل وخزي ، وأحسست أنني مذنب آثم .

سألتها باستطلاع رقيق :

ـ ماذا ؟

ـ انك ...

ـ ماذا ؟

ـ لكأنك تقرأ في كتاب ...

تصورت من جديد أن في صوتها شيئاً من سخرية .

جرحتني هذه الملاحظة جرحاً بالغاً أليماً . لقد كنت أتوقع شيئاً آخر .

لم أدرك أنها كانت تخفي عواطفها تحت ستارٍ من لهجة ساخرة ، وأن هذا هو المكر الأخير الذي تعمد اليه القلوب الزاخرة حياءً وخفراً ، القلوب المنعزلة المتوحدة ، حين يريد أحـد أن يقتحمها اقتحاماً مباغتـاً عنيفاً ، فاذا هي تأبى الاستسلام مستكبرةً متعالية ، واذا هي تخشى أن تظهر ما تضمره من عواطف • كان يكفي أن ألاحظ ما ظهر عليها من تردد ووجل حين استأنفت جملتها عدة مرات قبل أن تعزم أمرها على النطق بها ، كان يكفي أن ألاحظ ذلك حتى أدرك كل شيء • ولكنني لم أحزر شيئاً ، واجتاحتني عاطفة شريرة •

قلت لنفسي : « مهلاً ! انتظر قليلاً ! » •

٧

آه يا ليزا ! أأنا أقرأ فى كتاب ؟ صحيح أننى لا علاقة لى بالأمر ، ولكننى أشعر باشمئزاز . ثم ان الأمر يهمنى . لقد استيقظت روحى فى هذا المساء . أصحيح أنك لا تحسين هنا بتقزز عميق ؟ ألا ان للعادة تأثيراً خارقاً . الشيطان وحده يعرف الى اين يمكن أن تؤدى العادة بالانسان ! أتعتقدين حقاً بأنك لن تهرمى قط ، وبأنك ستظلين جميلة ، وبأنهم سيحتفظون بك هنا دائماً ؟ لست أكلمك عن وحل هذا المكان . ولكن اليك ما سأقوله لك عن حياتك فى هذه الدار : أنت الآن فتية ، وأنت الآن نضرة ، وان لك الآن لروحاً وعواطف . ولكن هل تعلمين أننى حين صحوت بمنذ قليل ، قد آلمنى أن أجد نفسى بالقرب منك ؟ ان الرجل لا يسقط فى حمأة هذا المكان الا وهو فى حالة سكر تام . أما لو التقيت بك فى مكان غير هذا المكان ، وكنت تعيشين كما يعيش الشرفاء من الناس ، لكان من الممكن لا أن أغازلك فحسب ، بل وأن أهيم بحبك أيضاً ، ولكان من الممكن أن تسعدنى منك لا كلمة فحسب ، بل نظرة واحدة أيضاً . كان من الممكن أن انتظرك على الباب ، أن أقضى ساعات راكعاً أمامك ، كان من الممكن أن أعدك خطيبتى وأن أؤمن بأن هذا يشرفنى كثيراً . ما كان لى عندئذ أن أتجرأ فأدنس طهارتك ولو بالخيال . على حين أنه يكفينى هنا أن أصفر لك حتى

تهرعي الىّ وحتى تكوني مضطرة أن تتبعيني شئت أم أبيت • فلست أنا رهن مشيئتك بل أنت رهن مشيئتي • حين يلتزم أحقر فلاح بالقيام بعمل من الأعمال ، فانه لا يبيع نفسه كاملةً على كل حال ، وهو يعلم عدا ذلك أنه مستعبد الى حين ؛ أما أنت فمستعبدة الى الأبد • هلاّ فكرت قليلاً فيما تبيعينه هنا ، هلاّ فكرت قليلاً فيما تسلمينه للعبودية في هذا المكان ؟ انه روحك وجسمك معاً ! لقد أصبحت لا تملكين أن تتصرفي بروحك • انك تسلمين حبك لأول سكران عابر ، ليدوسه بقدميه • مع أن الحب هو كل شيء • الحب جوهرة غالية ، الحب كنز الفتاة وثروتها • ان من الناس من لا يحجمون عن التعرض للموت وعن بذل النفس في سبيل أن يظفروا بهذا الحب • أما هنا فهل لهذا الحب من اعتبار ؟ لقد اشتُريت جسماً وروحاً في هذا المكان • وما حاجتهم الى حبك وقد استطاعوا أن ينالوا منك كل شيء حتى بدون حب ؟!••• ما من اهانة أبلغ من هذه الاهانة في حق فتاة ، فهلاّ فهمت هذا ؟

« سمعت من يقول انهم يتملقونكن هنا أيتها الحمقاوات ، فيأذنون لكنّ بعشاق تعاشرنهم معاشرة الخلان • ألا ان هذا لهزل وكذب • انهم يضحكون عليكن فتصدقنهم • هل صحيح أن خليلك يحبك حقاً ؟ أنا لا أصدق هذا • كيف يمكنه أن يحبك وهو يعلم أنهم سينادونك فاذا أنت مضطرة أن تتركيه لتمضي الى رجل آخر ؟ ألا انه لويش حقير ونذل دنيء اذا هو ارتضى هذا ! وهل في وسعه أن يحترمك ولو قليلاً من الاحترام ؟ ماذا يجمع بينكما ؟ انه يسخر منك ، ويسرق مالك فوق ذلك • هذا هو حبه كله • ويا للسعادة اذا هو لم يضربك • وقد يضربك على كل حال • اطلبي من خليلك ، اذا كان لك خليل ، أن يتزوجك • لسوف ينفجر ضاحكاً أمام أنفك ، هذا اذا لم يبصق في وجهك أو لم يصفعك • وهو نفسه لا يساوي أكثر من قرشين مثقوبين • هلا تساءلت

لماذا دفنت حياتك هنا ؟ أمن أجل أن يسقوك قهوة ويقدموا لك طعاماً ؟ ولكن ما هي غايتهم من اطعامك ؟ ألا انه ما كان لفتاة أخرى ، ما كان لفتاة شريفة أن تستطيع ابتلاع لقمة من طعامهم ، لأنها تدرك غايتهم من اطعامها . أنت مدينة للقوادة منذ الآن . وسيزداد دينها عليك وسيربو يوماً بعد يوم ، وسيظل يزداد ويربو الى آخر أيامك ، الى أن يأنف منك زبائنك ويعرضوا عنك مشمئزين . وسيحدث هذا قريباً . لا تثقي بشبابك . الزمان يجري هنا سريعاً . سوف تطردك يومئذ شر طردة . ولكنها قبل أن تطردك ستلاحقك بالملامات والاهانات والشتائم ، كأنك لم تهبي لها شبابك وصحتك ، وكأنك لم تبيعيها روحك . سوف تقول انك تسببين لها الدمار والخراب ، كأنك قد سرقت مالها ورميتها الى حضيض البؤس . ولا تنتظري من أحد عوناً . ان رفيقاتك سيهوين على ظهرك هن أيضاً ، مداهنةً للقوادة ، لأنهن جميعاً مستعبداتٌ في هذا المكان ، قد فقدن منذ زمن طويل كل شفقة وكل وجدان . ان فيهن جبناً وحقارة . وليس على وجه الأرض اهانات أقذر ولا أسوأ ولا أقسى من الاهانات التي سيغمرنك بها . سوف تفقدين هنا كل شيء ، حتى دون أن تلاحظي ذلك : سوف تفقدين صحتك وشبابك وجمالك وآمالك . فما ان تبلغي الثانية والعشرين من عمرك حتى يكون مظهرك قد أصبح مظهر امرأة في الثلاثين أو يزيد . وعليك أن تحمدي الله اذا أنت لم تصابي بداء عضال ! لعلك تتخيلين أنك لا تقومين هنا بأي عمل ، وأن أيامك كلها أعياد . ألا ان عملك هنا لعمل مرهق ، عمل من أعمال نزلاء سجون الأشغال الشاقة . ليس هناك عمل أسوأ من هذا العمل . ان القلب ليذوب دموعاً من شدة عذابه بمثل هذا العمل !

« ولن تجسري أن تقولي كلمة ولانصف كلمة حين ستُطردين من هذا المكان . ستنصرفين كما لو كنت قد ارتكبت جريمة . ستذهبين الى

منزل ثان ، ثم الى منزل ثالث ، ثم الى منـازل أخرى ، حتى ينتهى بك المطاف الى سينايا • وهناك سيضربونك : ان الصفعات هنالك ملاطفات• لن يستطيعوا أن يلاعبوك هنـالك قبل أن يلكموك بضع لكمات • هل تتصورين أن ذلك المكان ليس فظيعاً الى هذه الدرجة ؟ ما عليك اذن الا أن تزوريه مرة فتعرفى الحقيقة بنفسك •

« لقد رأيت واحدةً من تلك البنات هنالك على الباب فى ذات يوم من أيام رأس السنة • ان زميلاتها أنفسهن قد طردنها الى الخارج على سبيل المزاح ، من أجل أن « يجلّدها الصقيع » قليلاً ، لأنهـا كانت تسرف فى البكاء • طردنها ثم أغلقن الباب • وفى الساعة التاسعة من الصباح كانت سكرى سكراً تاماً قد تشعث شعرها وكادت تعرى ، وامتلأ جسمها بآثار الضرب : كان وجهها شديد البياض من المساحيق ، ولكن عينيها غائرتان والدم يسيل من أنفها وفمها • ان حوذياً من الحوذيين هو الذى جعلها على هذه الحـال • كانت جالسـةً على درجات السلم الحجرى ، تمسك بيدها سمكةً مملّحة • وكانت تبكى وما تنفك تجمجم بكلمات غامضة عن مصيرها وتضرب السلّم بسـمكتها • وكان يحتشـد حولها ويسخر منها حوذيون وجنود سكارى •

« أتظنين أن مصيرك لن يكون كمصيرها ؟ أنا أيضـاً أود أن أظن ذلك • من يدرى ؟ لعـل هذه المرأة التى تحمل السـمكة المملّحة قد وصلت هى نفسها الى هنا منذ عشر سنين أو منذ ثمانى سنين ، لا يعلم أحد من أين ، وصلت نضرةً كطفل ، بريئة طاهرة تجهل كل شيء عن الشر ، ويحمر خداها من كلمة • ولعلها كانت فى الماضى تشبهك : لعلها كانت شديدة الكبرياء سريعة التأذى لها هيئة كهيئة ملكة ، ولعلها كانت مقتنعة بأن السعادة الكاملة تنتظر الرجل الذى سيحبها وتحبه • فهآنت ذى ترين كيف كانت خاتمتها !

« ما قولك اذا تذكرت هذه المرأة ، أثناء سكرها وتشعث شعرها وضربها درجات السلّم بسمكتها المملّحة ، ما قولك اذا هي تذكرت الماضي : اذا هي تذكرت السنين الطاهرة التي قضتها في منزل أهلها ، وتذكرت المدرسة وابن الجيران الذي كان يترقبها في الطريق ويحلف لها ليحبنها الى الأبد ، ويعدها بأن يقف عليها حياته ، فاذا هما يتعاهدان على أن يبقى حبهما خالداً وعلى أن يتزوجا متى أصبحا في سن الزواج ؟

« آه يا ليزا ! لسوف يكون حظك سعيداً اذا أمكنك أن تموتي هنالك في ركن بالقبو ميتة سريعة بمرض السل كما ماتت الأخرى . انك تتكلمين عن المستشفى . ليتك تُنقلين الى المستشفى. ولكن ماذا اذا كنت مدينةً للقوادة ، وكانت القوادة في حاجة اليك ؟ ان السل داء يطول أمره ، فما هو حمى طارئة تخطف الحياة خطفاً . المريض بالسل يظل الى آخر لحظة يأمل أن يكون في صحة حسنة ويؤكد أنه في صحة حسنة. انه يعزي نفسه ... والقوادة تجني من هذه الحالة النفسية نفعاً . ان الأمر هو على ما وصفت . لقد بعتِها روحك ، وما تزالين مدينة لها فوق ذلك بمال ، فلم يبق لك بعد هذا حق في الكلام .

« حتى اذا جاءت ساعة الاحتضار أعرض الجميع عنك ونسوك ، اذ لا يبقى لهم فيك مأرب ، ولا يبقى لهم فيك نفع . حتى أنهم سيلومونك على أنك ما تزالين تشغلين مكاناً كبيراً ولا تموتين بسرعة . فاذا اشتد بك الظمأ سقوك ، ولكنهم يسقونك عندئذ شاتمين ، قائلين : ألا فطست أخيراً أيتها الحقيرة ! انك تحرميننا بأنينك من النوم ! وانك تثيرين في زبائننا الاشمئزاز والتقزز . . » . هذه هي الحقيقة . لقد سمعت هذه الملامات بأذني .

« سوف يلقون بك شبه ميتة الى ركن من القبو هو أكثر أركانه

قذارة ورطوبة وظلاماً . فما هي الخواطر التي ستمر في رأسك وأنت راقدة هنالك على الأرض وحيدة ؟

« حتى اذا مت أخيراً لمُوك بيد كارهة وهم يدمدمون متذمرين متململين قد نفد صبرهم . لن يباركك عندئذ أحد ، ولن يتنهد أحد حين يفكر فيك ... فانما المهم أن يتخلصوا منك بأقصى سرعة ! سيشترون تابوتاً حقيراً يضعونك فيه ، ثم ينقلونك على نحو ما نقلوا في هذا الصباح تلك الشقية التي ماتت في قبو بميدان سينايا . فمتى فرغوا من ذلك مضوا يشربون كأساً في كاباريه !... وستكون حفرة قبرك ملأى بالوحل والأقذار والثلج الذائب . انهم لن يزعجوا أنفسهم من أجلك أنت . « هيا يا فانيا ، أنزلها من هنا ! هذا مكتوب عليها . مكتوبٌ عليها أن تكون ساقاها هنا أيضاً مرفوعتين ... شدً الحبل يا غبي ! » ـ « حسن هكذا » ـ « ألا ترى أنها راقدة على الجنب . انها من مخلوقات الله على كل حال ! » ـ « هيا ... حسنٌ هكذا ... اجرف التراب ».

« ولن يتشاجروا طويلاً في سبيلك . سوف يدفنونك تحت طبقة رقيقة من طين رطب أزرق ، ثم يندفعون متجهين الى الكاباريه ! تلك هي نهاية ذكراك على الأرض . سوف يجيء الى القبور الأخرى أبناء وآباء وأزواج . أما قبرك أنت فلن تُسمع عنده زفرة ، ولن تسكب عليه دمعة ، ولن يتذكره أحد . ما من أحد سيجيء اليك في يوم من الأيام . سيُمحى اسمك من على وجه الأرض ، فكأنك لم توجدى ولم تولدى . لا شيء الا الوحل ، لا شيء الا مستنقع !... وربما ارتطمت بغطاء تابوتك ساعة يستيقظ الأموات في الليل ، وهتفت تقولين : « دعوني أخرج أيها الناس الأخيار ! أريد أن أرى النور ! لقد عشت دون أن أعرف من الحياة شيئاً ؟ فانما كنت خرقة ملقاة على الأرض يمسح بها

المارة أقذار أقدامهم . لقد شربوا حياتي هناك في سينايا ، في الكاباريه! دعوني أعيش مرةً أخرى على الأرض أيها الناس الطيبون ! » .

أصبحت لا أسيطر على نفسي من شدة الانفعال ، وهذه تشنجات في حلقي تقطع كلامي على حين فجأة ... نهضت مرتاعاً ، وملت برأسي خائفاً مثقل القلب ، وأصخت بسمعي : لقد كان هنالك ما يدعو الى الاضطراب !

كنت قد شعرت منذ مدة طويلة أنني قد قلبت نفسها وحطمت قلبها . وكنت كلما ازددت اقتناعاً بذلك ازددت رغبةً في بلوغ الهدف كاملاً وتحقيق النصر سريعاً . كان لعب الكلام يستهويني . على أن الأمر لم يكن لعباً فحسب ...

كنت أعلم أن في أقوالي ثقلاً وخراقة واصطناعاً ، وأن كلامي يشبه أن يكون « قراءة في كتاب » . ولكن ذلك لم يهمني . كنت أعلم أنها ستفهمني ، وأن أسلوب الكتب هذا سيعينني هو نفسه في أن أحقق معها نجاحاً كبيراً . ولكنني حين وصلت الى هذا الهدف شعرت بخوف .

لم تقع عيناي قبل الآن في يوم من الأيام على منظر يمثل ما كان يمثله منظرها عندئذ من يأس رهيب ! كانت راقدةً على الفراش ، قد دفنت وجهها عميقاً في وسادتها وعانقت الوسادة بيديها ، وأخذ الشهيق يمزق صدرها . ان جسمها الفتيّ يرتعش وينتفض متشنجاً، وان دموعها تخنقها وتنطلق على حين فجأة آهات وصرخات ، فاذا هي عندئذ تدفن رأسها في الوسادة بمزيد من القوة ، لأنها لا تريد أن يطلع أحد في هذا المنزل على دموعها وأن يعرف آلامها . وكانت تعض وسادتها وتعض ذراعها عضاً شديداً يفجر منها الدم (لاحظت ذلك فيما بعد) ، وكانت

أصابعها تقبض على شعرها المبعثر ، وكان تستميت فى سبيل أنفاسها وأن تبقى على شفتيها مطبقتين •

أردت أن أكلمها وأن أطلب منها أن تهدىء روعها ، ولكننى لم أجرؤ أن افعل ، ثم اذا آنا ارتعش ارتعاشاً قوياً وآصبح فى حالة أشبه بالهلع ، وأطفق ألمّ أمتعتى بالتلمس على حين فجأة من اجل أن أهرب• كان الظلام حالكاً ، فلم أستطع رغم جميع جهودى أن أفرغ من لم أمتعتى بسرعة • وعثرت أصابعى بغتةً بعلبة كبريت وعثرت بشمعة كاملة على منضدة صغيرة قرب علبة الكبريت • فما ان أضاء نور الشمعة الغرفة حتى وثبت ليزا ، وجلست على أريكتها وحدّقت الىّ بنظرة بلهاء وابتسامة تشبه أن تكون ابتسامة انسان مجنون • جلست الى جانبها ووضعت يدىّ على يديها • ثابت الى نفسها • وامتدت ذراعاها نحوى كأنما لتمسكنى ، ولكنها لم تجرؤ أن تفعل ، فما لبثت أن خفضت رأسها ببطء •

قلت :

ـ ليزا ، صديقتى ، لقد أخطأت فى حقك ، سامحينى ، اغفرى لى•

ولكنها ضغطت يدىّ بأصابعها ضغطاً بلغ من القوة أننى صمت • لقد أدركت أننى لم أقل ما كان ينبغى أن أقوله •

ـ اليك عنوانى يا ليزا • زورينى فى يوم من الأيام •

دمدمت تقول بلهجة جازمة ، ولكن دون أن ترفع رأسها :

ـ سأجىء •

ـ والآن أنصرف ••• وداعاً ! الى اللقاء •••

ونهضتُ ، فنهضت هى أيضاً ، ولكنها احمرّت ، وفيما هى

ترتعش ارتعاشاً قوياً تناولت عن كرسيٍ منديلاً لفّت به عنقها وكتفيها حتى الذقن ؛ حتى اذا فرغت من ذلك ابتسمت ابتسامة خجلى ، واحمرت من جديد ، وحدّقت ، الىّ بنظرة غريبة • كنت أتألم ، ولم يكن لى الا همٌ واحد هو أن أنصرف بسرعة فأغيب •

قالت لى فجأة ونحن فى الدهليز قرب الباب ، قالت لى وهى تستوقفنى ممسكةً طرف معطفى :

ـ انتظر لحظة !

ومضت راكضة • لا شك أنها تذكرت شيئاً تريد أن تُريني• كانت عيناها تسطعان ، وكان خداها بلون الورد ، وكانت شفتاها تبتسمان• ما هو الأمر ؟ انتظرت رغم ارادتى • فما هى الا دقيقة حتى عادت وفى نظرتها معنى طلب الصفح والمغفرة • كان وجهها قد تبدل • ليست نظرتها الآن مظلمة ريّابة عنيدة • ان فى عينيها ضراعة واستعطافاً ، وعذوبة ورقة ، وان فيهما كذلك شيئاً من الخجل ، ومن الحنان ، ومن الثقة • هكذا ينظر الأطفال الى من يحبونهم حين يهمون أن يطلبوا منهم شيئاً • ان عينيها الشهباوين الصافيتين الجميلتين الزاخرتين بالحياة تجيدان التعبير عن الحب والكره كليهما على حد سواء •

وفى صمت ـ كما لو كنتُ انساناً فذاً لا بد أن يفهم كل شىء دون شرح ـ مدّتْ الىّ ورقة • ان فرحاً ساذجاً يشبه أن يكون فرح طفل قد أضاء وجهها فى تلك اللحظة• فضضت الورقة• هى رسالة بعثها اليها طالب طبٍ أو شاب آخر يصارحها فيها بحبه بأسلوب يشتمل على شىء من البهرجة والتزويق ، ولكنه يشتمل كذلك على كثير من الاحترام • لا أتذكر الآن عبارات الرسالة ، ولكننى أتذكر أنها ، رغم أسلوبها المتفخم ، تشف عن عاطفة صادقة يستحيل أن تكون مزوّرة • فلما

فرغت من قراءة الرسالة التقى نظرى بنظر ليزا ، فرأيتها تحدّق الىّ تحديقاً كتحديق الأطفال فيه كثير من الحرارة والاستطلاع ونفاد الصبر. كانت تلتهمنى بعينيها التهاماً ، وتنتظر منى ، وهى على أحرّ من الجمر ، أن أقول لها كلمة أفصح بها عن رأيى .

وببضع كلمات سريعة لكنها زاخرة بالفرح والاعتزاز ، ذكرت لى أنها حضرت سهرة راقصة عند أسرة محترمة « أسرة محترمة جداً جداً ، لا يعرف أحـد من أفرادها عنى شـيئاً على الاطلاق حتى الآن » ... (ذلك أنها لا تعيش فى هذا المحل الا منذ زمن قريب ... على سبيل الاطلاع فحسب ... ولا شك أنهـا سـتبارحه متى ردّت ما عليها من ديون ...) وقد كان ذلك الطالب أحد حضور الحفلة ، وظل يراقصها طوال السـهرة . انهما متعارفان من قبـل ، متعارفان منذ كانا طفلين فى ريجا ، وقد لعبا معاً من زمن طويل ... وكان هو يتردد الى أهلها ...

ولكنه لا يعرف عن « هذا الأمر » شيئاً ، لا يعرف عنه شيئاً البتة ، لا ولا يخطر له على بال ! وفى غداة تلك الحفلة (أى منذ ثلاثة أيام) بعث اليها هذه الرسالة بواسطة صديقة لها حضرت تلك الحفلة معها ... هذا كل شىء ...

قالت ليزا تلك الكلمات وخفضت عينيها الساطعتين .

كانت الصبية تحتفظ برسالة هذا الطالب احتفاظها بكنز ثمين . لقد أرادت أن تجيئنى بهذه الثروة الوحيدة الغالية حتى لا أنصرف قبل أن أعلم أنها تُحَبُّ هى أيضاً حباً شريفاً صادقاً مخلصاً ، وأنها تُخاطب هى أيضاً باحترام. لا شك أن هذه الرسالة ستبقى عندها فى درج من الأدراج دون أن يعقبها شىء ... ولكن لا ضير !... ستحتفظ بهـا ليزا طوال حياتها كما تحتفظ بكنز ثمين . سـتظل هذه الرسـالة موضع اعتزازها

وسبب اعتبارها لنفسها ••• لقد تذكرتُها فى تلك اللحظة لتفتخر أمامى بهذه الكلمة ، ليعلو قدرها فى نظرى ، لأقرأ هذه السطور فأهنئها بها وأغبطها عليها !

لم أقل شيئاً • صافحتها وانصرفت • كنت استعجل الانصراف •

عدت الى منزلى سائراً رغم أن الثلج الذائب ما يزال يهطل كتلاً كبيرة • كنت مهدود القوى خائر العزيمة مسحوق النفس متردد الفكر حائر الارادة • ولكن الحقيقة كانت تظهر من وراء تردد الفكر وحيرة الارادة : كانت حقيقة دميمة أشد الدمامة !

٨

أقبل تلك الحقيقة بسرعة . وحين استيقظت في الصباح بعد بضع ساعات من نوم ثقيل كالرصاص ، استعرضت ذكريات الأمس فأدهشتني تلك « العاطفية المائعة » التي أظهرتها تجاه ليزا ، وأدهشتني أحاديثنا تلك كلها عن « الشفقة والشرف » . كيف أمكن أن أنقاد ذلك الانقياد الرخو لمثل تلك النوبة العصبية التي لا تجدر الا بامرأة ضعيفة ؟ ألا ان ذلك لأمر يثير الاشمئزاز ويبعث على التقزز ! ولماذا أعطيتها عنواني ؟ ما عساني فاعلاً اذا هي جاءت ؟ أوه ! ألا فلتأت اذا شاءت أن تأتي ! لا ضير ...

ولكن الشيء الهام الأساسي ، طبعاً ، هو أن أتصرف بسرعة لأسترد سمعتي في نظر زفركوف وسيمونوف مهما كلف الأمر . ذلك هو الأمر الوحيد الهام الخطير ... وقد شغلني هذا الأمر في ذلك الصباح فنسيت ليزا نسياناً تاماً .

كان يجب عليّ أن أردّ الى سيمونوف دينه قبل كل شيء . فقررت أن أعمد الى اتخاذ اجراء يائس ، هو أن اقترض من أنطون أنطونوفتش خمسة عشر روبلاً بالتمام والكمال . وشاءت المصادفة أن يكون أنطون أنطونوفتش رائق المزاج مشرق النفس في ذلك الصباح ، فأعطاني المبلغ منذ طلبته ، فبلغت من شدة الفرح وأنا أوقع له سند استلام المبلغ انني

حكيت له ، منبسطً النفس طلقً اللسان مهملاً غير متحرج ، عن « حفلة القصف » التي أقمتها مع بعض الأصدقاء في « فندق باريس » توديعاً لرفيق من رفاق المدرسة ـ نعم لماذا لا أقول له هذا ؟ ـ واندفعت في الكلام قائلاً : « هوه ! هو ماجن رهيب ... دللته الحياة ... سليل أسرة عريقة طبعاً ... على جانب عظيم من الثراء ... لامع في وظيفته ... فكه ... لطيف ودود ... متعجل ـ مع النساء طبعاً ، هه ؟ شربنا نصف دستة من زجاجات الشمبانيا فوق ما كنا نزمع أن نشرب » . هكذا اندفعت أقول في يسر وسهولة وانطلاق ، بلهجة مرحة ، راضياً عن نفسي كل الرضى سعيداً بها كل السعادة .

فلما عدت الى منزلي شرعت أدبج رسالةً الى سيمونوف .

ما زلت الى الآن معجباً بالأسلوب المضيء الصريح الودود الذي كتبت به تلك الرسالة . أنه اسلوب لا يحسنه الا « جنتلمان » . اتهمت نفسي في تلك الرسالة اتهاماً كاملاً ، على نحو بارع كريم نبيل ، دون أن أضمنها أية كلمة زائدة نافلة . اعتذرت اليه عما بدر مني « اذا كان يجوز لي أن أعتذر » ، وألححت خاصةً على أنني لم أتعود شرب الخمرة ، فلذلك سكرت سكراً تاماً منذ الكأس الأولى التي احتسيتها قبل وصولهم ، بين الخامسة والسادسة (هذا ما زعمته !) . وقلت انني أتوجه بالاعتذار الى سيمونوف خاصةً ، ولكنني أرجوه أن يبلغ الآخرين هذه الشروح ، ولا سيما زفركوف الذي يتراءى لي أنني أسأت اليه وأهنته « فهذا ما أتذكره الآن كحلمٍ من الأحلام » . وأعربت عن أسفي لعجزي عن الذهاب اليهم بنفسي للاعتذار ، بسبب ما أعانيه من صداع شديد ، وخاصة بسبب ما أشعر به من خجل !

وسرّني سروراً عظيماً ما لاحظته في الرسالة التي جرى بها قلمي عفواً ، من « خفة » بل ومن « اهمال » (وهو اهمال مهذب على كل

حال) . ان هذه الخفة وهذا الاهمال سيفهمانهم أكثر من أى شىء آخر فى هذا العالم أننى أنظر الى كل تلك « القصة السخيفة التى جرت بالأمس » نظرة استعلاء . اننى ، أيها السادة ، لم أُسحق كما قد تتوهمون. بالعكس : اننى لا أنظر الى هذا الأمر كله الا نظرة «جنتلمان» يحترم نفسه بهدوء ورصانة . « ان لسنّ الشباب ضروراته وأحكامه » .

قلت لنفسى وأنا أعيد قراءة الرسالة : « ألا ان فيها كذلك لشيئاً ارستقراطياً . لماذا ؟ لأننى رجل مثقف ، لأننى رجل ذكى ! ما كان لغيرى أن يعرف كيف يخرج من المأزق ، أما أنا فقد خرجت منه ، وهأنا ذا ألهو من جديد . انظروا كيف يكون المرء ابن زمانه ، مثقفاً ذكياً ! على أن هذا كان ذنب الخمرة التى شربتها !... لا ... ليس هذا صحيحاً كل الصحة . أنا لم أشرب خمرة حين كنت انتظرهم بين الساعة الخامسة والساعة السادسة . لقد كذبت على سيمونوف ، كذبت بوقاحة ، ولست أشعر من ذلك بخجل ...

على اننى لا أبالى بهذا كله بل أبصق عليه . فانما المهم هو أن أخرج من الأمر .

وضعت فى الظرف ستة روبلات ثم ختمته وطلبت من آبولون أن يحمله الى سيمونوف . فلما علم آبولون أن فى الظرف مالاً شعر بشىء من الاحترام ورضى أن يحمل الظرف الى العنوان الذى ذكرته له .

وفى المساء خرجت أتنزه . كنت ما أزال أشعر بصداع ودوار .

ولكن مشاعرى وخواطرى أخذت تختلط وتضطرب بمقدار ماكان الليل يهبط والظلام يتكاثف . كان فى نفسى ، فى قرارة قلبى ، فى أعماق ضميرى ، شىء لا يريد أن يموت ، شىء يتجلى فى قلق غريب . أخذت أتجول فى أكثر الشوارع ازدحاماً بالناس وامتلاءً بالحركة : شارع

ميستشانسكايا ، شارع سادوفايا ، نواحي حديقة يوسوبوف . كنت أحب أن أتجول في هذه الشوارع خاصة عند نهاية النهار ، حين تكون زاخرةً بالخلق من مارة عابرين وتجار وأصحاب عائدين الى منازلهم بعد فراغهم من العمل وقد ظهرت في وجوههم علائم التعب . ان الشيء الذي كنت أحبه خاصة هو هذه الحركة المبتذلة في الحياة اليومية . غير أن هذا الاضطراب قد أثار أعصابي مزيداً من الاثارة في هذه المرة. أصبحت لا أستطيع السيطرة على نفسي . كان شيء ما يستيقظ في نفسي استيقاظاً مؤلماً موجعاً ولا يريد أن يسكن ويهدأ . رجعت الى الدار مضطرب النفس والفكر . لكأن ضميري مثقل بجريمة ارتكبتها .

كان يعذبني تصوري أن ليزا ستجيء . شيء غريب : بين جميع ذكريات الليلة البارحة ، كانت ذكرى ليزا بارزة مستقلة ، وكانت ترهقني ارهاقاً خاصاً . كنت عند هبوط المساء قد انقطعت عن التفكير في كل ما عدا ليزا ، وكنت من جهة أخرى ما أزال راضياً عن رسالتي الى سيمونوف ، حتى اذا تذكرت ليزا زال رضاي واعتكرت نفسي ، فكان يخيل الىّ أن سبب عذابي انما هو ليزا .

كنت أقول لنفسي بغير انقطاع : « ما عساني فاعلاً اذا هي جاءت ؟ طيب ... فلتجيء ... ما عليها الا أن تجيء !... هِمْ ... ان الشيء المزعج خاصةً هو أنها سترى كيف أعيش . لقد مثلت أمامها بالأمس دور البطل ، والآن ... آه ... أخطأت حين اندفعت ذلك الاندفاع . ان هذا المسكن بائس . وكيف رضيتُ أن أذهب الى المطعم للعشاء بهذه الثياب ؟ ما أحقر هذه الأريكة المنجّدة بقماش مشمّع ، الممزقة المهترئة ، التي يخرج قشها من كل جهة ! ما أبشع ثوب المنزل هذا الذي ارتديه ! انه خرقة رثة بالية !... سوف ترى ليزا كل هذا . وسوف ترى أبولون . لا شك أن هذا الحيوان أبولون سوف يهينها . سوف ينتحل

أى عذر لاهانتها ، ولو فى سبيل اغاظتى . أما أنا فسأخاف ، على عادتى فى الخوف . سوف أتهـزز أمامها وأتلفف بثـوبى وأبتسـم وأكذب . يا للفظاعة ! ولكن هذا ليس كل شىء : هنـاك ما هو أخس وأحقر ! نعم ! سيكون علىّ أن أضع ذلك القناع الكاذب من جديد !... » .

احمر وجهى احمراراً شديداً .

« الكاذب ؟ أكان قنـاعاً كاذباً ؟ لقـد تكلمت بالأمس مخلصـاً كل الاخلاص . اننى اتذكر هذا . كان يهزنى انفعال صادق . كنت أريد أن أوقظ فى نفسها عواطف كريمة نبيلة طيبة . ومن الخير أنها بكت . ان للبكاء أثراً حسناً » .

ولكننى لم أفلح مع ذلك فى تهدئة نفسى . ولبثت طوال المساء ، حتى بعد الساعة التاسعة ، أى حتى بعد الساعة التى يمكن أن تأتى فيها ليزا ، لبثت لا أنقطع عن التفكير فيهـا وعن رؤيتها بالخيـال على نحـو ما تبدت لى البارحة فى لحظة خاصـة أثرت فى نفسى تأثيراً شـديداً ، وهى اللحظة التى أشعلت فيها عود الكبريت فأضاء نوره وجهها الشاحب ونظرتها الأليمة وابتسامتها المتكلفة المريرة . ألا ما أكثر ما كان فى تلك الابتسامة التى تبعث على الشفقة من افتعال وتوتر ! ولكننى كنت ما أزال أجهل أننى سأظل خمسة عشر عاماً أتذكر ليزا خلالها على هذه الصورة ، مبتسمةً تلك الابتسامة نفسـها ، تلك الابتسـامة المفتعلة التى تبعث على الشفقة .

وفى الغداة كنت مستعداً لأن أنظر الى كل ما جرى على أنه ترهة من الترهات ضخمتّها أعصابى المريضة تضخيماً كبيراً . لقد كنت أدرك حق الادراك تلك الآفة من آفات طبعى وكنت أخشـاها كثيراً ، فكنت لا أبرح أردد قائلاً : « اننى أبالغ دائماً ، وهذه علتى وبلواى » . ولكننى

كنت أقول لنفسى مع ذلك : « ستأتى ليزا ••• لا شك فى أنها ستأتى »• كانت هذه العبارة هى اللازمة التى أختم بها جميع خواطرى • وقد بلغت من الاهتمام بهذا أننى كنت أصل منه فى بعض الأحيان الى حنق شديد وغيظ مسعور ، فاذا أنا أطفق راكضاً فى الغرفة صائحاً : « ستأتى حتماً ، ان لم تأت اليوم فستأتى غداً • سوف تكتشفنى ! أوه ! تباً لرومانسية القلوب الطاهرة ! أوه ! هذه خسة ! أوه ! يا لتفاهة هذه النفوس العاطفية السخيفة ! كيف لا أدرك هذا ؟ كيف لا أدرك هذا ؟ »• ولكننى كنت ما ألبث أن أتوقف وقد بلغ منى الاضطراب كل مبلغ •

قلت لنفسى : « لقد كفتنى كلمات قليلة وقصيدة قصيرة ، قصيدة هى من جهة أخرى كاذبة مخترعة ملفقة ، فقبلت حياة بأكملها رأساً على عقب • يا للأرض العذراء ! » •

وكان يخطر ببالى أحياناً أن أذهب اليها بنفسى فأذكر لها كل شىء وأطلب منها أن لا تجىء الىّ • ولكن ما ان تراودنى هذه الفكرة حتى يجتاحنى حنقٌ يبلغ من الشدة أننى أتصور أن من الممكن أن أسحق « ليزا اللعينة » هذه لو رأيتها ، أن أطردها وأبصق عليها وأطردها وأضربها •

وانقضى يوم ، ثم انقضى يوم ثانٍ فثالث ولم تجىء ليزا • وكنت استرد رباطة جأشى على وجه عام بعد الساعة التاسعة من المساء ، حتى لقد كنت أسترسل عندئذ فى أحلام عذبة ممتعة : « هأنا ذا ، مثلاً ، أنقذ ليزا بمجرد التحدث اليها حين تجىء الىّ ••• اننى أثقفها وأنشّئها • وألاحظ أخيراً أنهـا تحبنى ، انها تحبنى حبـاً عنيفـاً ، فأتظاهر بأننى لا ألاحظ ذلك (لماذا أتظاهر هـذا التظاهر ؟ لا أدرى ••• ربمـا كان ذلك عن ميلٍ الى اصطناع العـواطف الجميلة) • وها هى ذى ، آخـر الأمر ، ترتمى على قدمىّ مضطربة مرتعشـــة باكية ، فتقـول لى اننى منقـذها

ومخلِّصها وانها تحبنى أكثر من أى شىء فى هذا العالم ، فيأخذنى ذهول وأقول لها : « أأنت تتخيَّلين حقاً يا ليزا أننى لم ألاحظ حبك ؟ لقد رأيتُ كل شىء وأدركت كل شىء ، ولكننى لم أجرؤ أن استولى على قلبك لأننى كنت أؤثِّر فيك فكنت أخشى أن تقسرى قلبك قسراً على الاستجابة لحبى وأن يضطرك العرفان بالجميل الى أن تحرِّضى فى نفسك حباً قد لا يكون له وجود . كنت لا أريد ذلك ، والا كنت أتسلط وأستبد وأسلك سلوكاً لا يجمل بى أن أسلكه (الخلاصة أننى كنت استرسل هنا فى عاطفيات مرهفة لطيفة تبلغ غاية النبل ، عاطفيات «أوربية» حقاً على طريقة جورج صاند) . أما الآن فأنت لى أنا ، أنت من صنعى أنا ، وأنت جميلة ، وأنت زوجتى ! » .

« هذا بيتى فادخليه ، بجرأة وحرية ، سيدةً لى » * .

ثم نعيش بعد ذلك سعيدين ، ونسافر الى الخارج ، الخ ... » .

الخلاصة أننى كنت أبلغ من الاسترسال فى مثل هذه الاحلام حداً لا يسعنى معه الا أن أشعر بخجل ، فاذا أنا أمدُّ لسانى لنفسى أمام المرآة آخر الأمر .

وقلت لنفسى : انهم لن يدعوا لها أن تخرج على كل حال . ليس يُسمح لهنَّ بالخروج عامةً ، ولا سيما فى المساء (لا أدرى لماذا كنت أتصور أنها ستجىء مساءً ، فى الساعة السادسة على وجه الدقة) . ولكنها قالت لى انها لم ترتبط بعدُ ارتباطاً تاماً وانها تتمتع بحقوق خاصة. اذن ... هِمْ ... سوف تجىء ! أنا واثق بأنها سوف تجىء !

ومن حسن الحظ أننى كان لى طوال ذلك الوقت ما يسلينى ويشغلنى عن نفسى ، ألا وهو آبولون ووقاحاته التى تخرجنى عن طورى . لقد كان آبولون جرحاً أو طاعوناً أرسلته الىَّ السماء . كنا

تراشق كلمات لاذعة منذ عدة سنين ، وكنت اكرهه رباه ! لشد ماكنت أكرهه ... ولا سيما فى بعض اللحظات ! هو رجل متقدم فى السن وقور المظهر ، يعمل فى ساعات فراغه خياطاً . كان يحتقرنى ، لا أدرى لماذا ، يحتقرنى احتقاراً لا حدود له ، وينظر الىّ دائماً من علٍ . على أنه كان ينظر الى جميع الناس هذه النظرة . حسبك أن ترى رأسه وشعره الأملس الأشقر الباهت وذؤابته التى يجعّدها ويعتنى بتدهينها ، وفمه القاسى الذى يشبه الحرف V ؟ حسبك هذا حتى تدرك فوراً أنك أمام انسان لا يخامره أى شك فى قيمة نفسه . انه رجل متحذلق متفيهق الى أبعد حد ، بل انه بين جميع مَن رأيت على وجه الأرض من رجال أشدُّهم تحذلقاً وتفيهقاً . وقد أوتى عدا ذلك غروراً خليقاً بالاسكندر المقدونى . كان مولّهاً بكل زر من أزراره ، وكل ظفر من أظفاره . نعم كان مولّهاً ... ان مظهره ينبىء بذلك ويدل عليه . وكان يعاملنى معاملة طاغيةٍ مستبد ، ولا يكلمنى الا قليلاً ، فاذا اتفق أن ألقى علىّ نظرة ، كان فى نظرته دائماً أبهة وعظمة وغرور وشىء من سخرية ، فكان هذا يثير حنقى ويؤجج نار غيظى .

وكان يقوم بواجبات الخدمة وكأنه يتفضل علىّ أكبر التفضل ويحسن الىّ أعظم الاحسان . وكان من جهة أخرى لا يكاد يعمل من أجلى شيئاً ، ولا يعد نفسه مضطراً الى أن يعمل شيئاً . وليس يخامرنى أى شك فى أنه كان يعدنى أغبى الأغبياء طراً ، واذا كان يحرص على فلأننى أدفع له حقوقه كل شهر ، فهو « يرتضى » أن لا يعمل شيئاً جزاء الروبلات السبعة التى يتقاضاها أجراً . ألا ان الله سيغفر لى كثيراً من الذنوب بسبب ما قاسيته من هذا الرجل . كان كرهى له يبلغ فى بعض الأحيان من الشدة ان صوت وقع خطواته كان يكفى لأن يثير فى جسمى تشنجات قوية . على أن « زأزأته » فى النطق هى التى كانت تبعث فى

نفسى الاشمئزاز خاصة . كان لسانه مفرطاً فى الطول بعض الافراط ، أو كانت به آفة أخرى من هذا النوع ، فكان لذلك يقلب « الجيم » فى نطقه « زاياً » ، وكان هذا يفرحه كثيراً ، لأنه يتخيل أن هذا العيب فى النطق يزيده مهابة وجلالاً . وكان آبولون يتكلم بصوت هادىء متساو ، واضعاً يديه وراء ظهره خافضاً عينيه . ولكنه كان يغيظنى خاصةً حين يأخذ يتلو المزامير جهراً فى ركنه وراء الحاجز الذى يفصل بيننا . لطالما بذلت جهوداً مضنية فى سبيل تحمل تلك التلاوات . وكان يحب قراءة المزامير فى المساء خاصة ، فاذا صدح بها صوته الهادىء المتساوى المنغّم فى جوف الليل ، حسبته يسهر على جثمان ميت . والى هذا انما انتهت حياته فى الواقع حين أصبح يكلّف بتلاوة المزامير على الأموات . وهناك اختصاص آخر له : كان آبولون يبيد الفئران ويصنع دهاناً لتلميع الأحذية .

ولكننى لم أكن أستطيع طرده ، فكأنه مرتبط بحياتى ارتباطاً لا انفصام له ؛ وما كان له هو نفسه أن يقبل تركى على كل حال . كان يستحيل علىَّ أن أقيم فى غرفة مؤثثة : لقد كان مسكنى هو قوقعتى التى ألجأ اليها ، وأحتمى بها من الانسانية بأسرها ؛ وكان يخيَّل الىَّ — لا يدرى الا الشيطان لماذا — أن آبولون جزء من هذا المسكن لا ينفصل عنه. ذلكم هو السبب فى أننى لم أستطع ، طوال سبع سنين ، أن أطرده.

كان يستحيل كل الاستحالة تأخير دفع أجوره يومين أو ثلاثة أيام . فلو فعلت ذلك لأثار فضيحة لا أعرف معها كيف أهرب ولا أين أختبىء .

ولكننى كنت فى تلك الأيام قد بلغت من شدة الحنق على العالم كله والبشر جميعاً أننى قررت فجأة أن أعاقب آبولون وأن أؤخر دفع أجوره شهرين كاملين . كنت أهىء له هذه الضربة منذ زمن طويل — منذ سنتين

ـ لا لشيء الا أن أبرهن له على أنه ليس من حقه أن يتعاظم عليّ ، وأن في امكاني دائماً أن لا أدفع له أجره • وقررت في هذه المرة أن لا أقول له شيئاً ، قررت أن أصمت لأنتصر على صلفه وكبريائه ، لأجبره على أن يطالبني هو بالأجر ؟ فاذا طالبني أخـرجت من درجي سـبعة روبلات ، فأريتـه أنني أملكها ، وأنني قد وضعتها جانبـاً ، ولكنني لا أريد ، نعم لا أريد أن أعطيه اياها ، لأن هذا يحلو لي ، لأن مشيئتي تريد ذلك ، ولأنه وقح ، ولأنه فظ غليـظ • ولـكن اذا ارتضى أن يكلمني بأدب وتهـذيب فقد يرق قلبي فأدفع له المال ، أما اذا لم يفعل ذلك فسـيكون عليه أن ينتظر أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أو شهراً بكامله •

ولكن آبولون هـو الذي انتصر رغم غضبي الشـديد • انني لم أستطع أن أصمد أكثر من أربعة أيام • أخذ يفعل ما يفعله دائمـاً في مثل هذه الحالات ، ذلك أن هذا الأمر قد سبق أن حدث قبل هذه المرة (وكنت عرف أسلوبه الدنيء وأتنبأ به سلفاً) فهو في البداية يوجّه اليّ نظرة قاسية خلال بضع دقائق ، ولا سـيما عند خـروجي من البيت أو عودتي اليه • فاذا صمدت فتظاهرت بأنني لا ألاحظ ما يفعله ، ظل يلتزم الصمت ولكنه يشرع عندئذ في سلسلة أخرى من الوسائل ، فاذا هو يدخل الى غرفتي بخطى بطيئة على حين فجـأة دون أي سبب ، بينما أنا أقرأ أو أسير في الغرفة طولاً وعرضاً ، فيقف قرب الباب جاعلاً احدى ساقيه ممتدةً الى أمام ، واحدى ذراعيه وراء ظهره ، ويأخذ يتفرس فيّ بنظرة ليس فيها قسوة فحسب ، بل فيها كذلك ازدراء شـديد واحتقار عميق • فاذا سألته ماذا يريد لم يجب عن سؤالي ، وظل ينظر اليّ خلال بضع ثوان أخرى ثم زمّ شفتيه زماً بليغ الدلالة ، وتحول عني ببطء ، ورجع الى غرفته بخطى وئيدة ؟ فما تكاد تنقضي ساعتان حتى يخرج من غرفتـه مرة أخرى ويظهر أمامي من جـديد فيجنُّ جنوني من شـدة

الغضب ، ولكنني لا أسأله عندئذ عما يريد ، وانما أرفع رأسي بحركة متكبرة متسلطة ، وآخذ أحدّق الى عينيه بنظرة ثابتة لا تريم ، فنلبث على هذه الحال فى بعض الاحيان دقيقةً او دقيقتين ، فيتحول عنى أخيراً ببطء وأبهة ، ثم يغيب ساعتين أخريين .

فاذا لم يؤثر هذا فىّ فاستمررت فى تمردى وعصيانى أخذ يتنهد وهو ينظر الىّ تنهداً بطيئاً عميقاً ، كانه يقيس به عمق سقوطى الاخلاقى كلّه ؛ وينتهى كل شىء بعد ذلك بانتصاره هو طبعاً ، فأنا أثور وأصرخ حانقاً ، ولكننى أكون مضطراً الى تحقيق ما يتوقعه منى .

أما فى هذه المرة فما كادت تبدأ مكائده الأولى التى قوامها نظرات قاسية حتى اندفعت اندفاعاً شديداً وأسرعت أهجم عليه . كانت أعصابى مهتاجة مفرطة فى الاهتياج !...

صحت أقول له وهو يتحول عنى بطيئاً صامتاً ، ويتجه الى غرفته جاعلاً يده وراء ظهره ، صحت أقول له :

ـ قف ! ارجع ، أقول لك ارجع !

ويظهر أن صيحتى كان فيها من الكرب واليأس ما جعله يدور على عقبيه وينظر الىّ بشىء من دهشة ، غير أنه ظل يتفرس فىّ صامتاً ، وهذا بعينه ما كان يؤجج حنقى .

ـ كيف تجرؤ أن تدخل علىّ بغير استئذان وأن تنظر الىّ هذه النظرة ؟ أجب !

فبعد أن تفرّس فىّ قرابة ثلاثين ثانية ، ظهر عليه من جديد أنه يهم أن ينصرف . فزأرت قائلاً وأنا أركض نحوه :

ـ قف ! اياك أن تتحرك ! هه ! أجبنى الآن : لماذا كنت تنظر الىّ ؟

فلبث صامتاً برهةً قصيرة ، ثم قال يجيب « مزأزئاً » بصوت هادىء موزون ، وهو يحنى رأسه بوقار رهيب :

ـ اذا كنت تأمرنى بشىء فعلىَّ واجب الطاعة والتنفيذ .

فصحت أقول وأنا أرتجف من شدة الغضب :

ـ لست أكلمك عن هذا ، لست أكلمك عن هذا أيها السفّاح . سأقول لك أنا نفسى سبب مجيئك الى هنا أيها السفاح : انك ترى اننى لم أدفع لك أجرك ، ولكنك لا تريد أن تطالبنى به زهواً منك وصلفاً ؛ ومن أجل أن تعاقبنى انما تجىء تلقى علىَّ هذه النظرات البلهاء ، من أجل أن تعاقبنى ، من أجل أن تعذبنى . ولـكنك لا تتصـــور ، أيها السفاح ، مدى ما فى سلوكك هذا من غباوة ، من غباوة ، من غباوة ، من غباوة !

وهمَّ مرة أخـرى أن يترك الغرفة وهو ما يزال صامتاً ، ولكننى أمسكت بثيابه ، وصرخت أقول له :

ـ اسمع . انظر الى المال. هل تراه ؟ (أخرجت المال من الدرج). هى سبعة روبلات بالتمام والكمال . ولكنك لن تنالها ، لن تنالها ما لم تجىء الىَّ مستغفراً باحترام . هل فهمت ؟

فأجابنى قائلاً برزانة خارقة :

ـ لن يكون هذا !

فصرخت أقول :

ـ بل سيكون . يميناً سيكون !

وتابع كلامه وكأنه لم يلاحظ صرخاتى :

ـ ليس علىَّ أن استغفرك ، لأنك أنت الذى وصفتنى منذ هنيهة بأننى سفاح ، حتى ليمكننى أن أشكوك الى رئيس الشرطة .

فصرخت أقول بصوت حاد وأنا أقبض على كتفه :

ـ عليك برئيس الشرطة ، عليك به ! اذهب اليه حالاً ، بلا ابطاء ! هذا لا يمنع أنك سفاح ، سفاح !

ولكنه اكتفى بأن نظر الىّ ، ثم استدار وخرج بخطاه الوئيدة المتساوية دون أن يلقى بالاً الى صرخاتي ودون أن يلتفت .

قلت لنفسي : « لولا ليزا لما حدث شيء ! » . وانتظرت قرابة دقيقة ، ثم سرت بأبهة وعظمة ، ولكن على خفقان ثقيل في قلبي ، الى الركن الصغير الذي يشغله آبولون وراء الحاجز .

قلت بصوت رقيق ولكنه مختنق :

ـ آبولون ! هيّا اطلب رئيس الشرطة حالاً دون أن تضيّع لحظة واحدة .

كان آبولون قد استقر أمام منضدته ووضع نظارتيه واستعد لخياطة شيء ما ، ولكنه حين سمع الأمر الذي أصدرته اليه انفجر يضحك في قهقهة يحاول مغالبتها .

ـ امض الى رئيس الشرطة ! امض اليه فوراً ! انك لا تستطيع حتى أن تتخيل ما قد يقع !

قال حتى دون أن يرفع رأسه ، قال « مزأزئاً » وهو يحاول أن ادخال الخيط في سم ابرته :

ـ لقد فقدت عقلك حقاً ! أين رأى الناس رجلاً يمشي بنفسه الى الشرطة ؟ أما اذا كنت تريد أن تخيفني فعبث ما تفعل ، لأنك لن تظفر بذلك .

عدت أصرخ بصوت حاد وأنا أمسك كتفه :

ـ اذهب الى رئيس الشرطة .

وكدت أضربه .

ولكن باب حجرة المدخل فُتح في تلك اللحظة نفسها ببطء دون ضجة ، فدخل شخص توقف على العتبة ونظر الينا كلينا مرتبكاً أشد الارتباك . رفعت عيني ، فذُهلت ، ثم أسرعت أمضي الى غرفتي طائش العقل من الشعور بالخزي والعار . وهناك أمسكت شعري بكلتا يديّ ، وأسندت رأسي الى الجدار ، ولبثت على هذه الحال أنتظر .

وبعد دقيقتين سمعت وقع خطوات آبولون البطيئة .

قال لي وهو ينظر اليّ نظرة شديدة القسوة :

ـ شخص يسأل عنك .

ثم تنحى فدخلت ليزا .

كان لا يريد أن ينصرف ، وكان يتفرس فينا كلينا وقد ظهرت في وجهه معاني السخر . فصرخت أقول له وقد جن جنوني :

ـ اذهب ! اذهب !

وفي تلك اللحظة جهدت ساعة الحائط في بيتي ، فسمعت تدق الخامسة .

٩

« هذا بيتي فادخليه ، بجرأة وحرية ، سيلة لى »

لبثت أمام ليزا تائه العقل مسحوق النفس أشعر بخجل رهيب ؟ وأظن أنني كنت ابتسم حين أخذت أحاول أن أتلفف بثوبي المهترىء القذر، على نحو ما كنت أتصور ذلك تماماً منذ قليل •

وقد تركنا آبولون بعد أن انتظر دقيقتين ، ولكن حالتي لم تتحسن • وأنكى ما في الأمر أن ليزا حين رأتني على هذه الحال من الاضطراب قد فقدت سيطرتها على نفسها هي أيضاً ، وذلك ما لم أكن أتوقعه •

قلت لها على نحو آلى وأنا أقرِّب كرسياً من المائدة :

ـ اجلسى !

وجلست أنا على الأريكة • فسرعان ما أطاعتني فجلست وهي تحدِّق الى عينيَّ • كان واضحاً أنها تتوقع أن يصدر عني شيء خارق• وقد أثار هذا التوقع حنقي ، ولكنني كنت ما أزال مسيطراً على نفسي •

كان عليَّ أن لا ألاحظ شيئاً ، كأن ما يجرى طبيعي تماماً ، أما هي •••

وأحسست احساساً غامضاً بأنها ستدفع لى ثمن « هذا كله » • غالياً •

قلت متلعثماً وأنا أدرك ادراكاً كاملاً أن كلامي هذا ليس هو الكلام الذي يجب أن أبادئها به :

ـ لقد فاجأتني يا ليزا وأنا في وضع غريب ...

فلما رأيتها تحمرُّ على حين فجأة أردفت أقول صائحاً :

ـ لا ، لا ، لا يخطرن على بالك شيء . لست بالخجلان من فقري ... بالعكس . أنا به معتز . نعم أنا فقير ، ولكنني شريف ...

وتابعت كلامي مدمدماً :

ـ يمكن أن يكون المرء فقيراً وشريفاً . ثم ان ... ألا تريدين شيئاً من الشاي ؟

قالت :

ـ لا ...

قلت :

ـ انتظري !

ووثبت عن أريكتي ومضيت الى آبولون . كان لا بد لي من أن أغيب في مكان ما .

دمدمت أقول له محموماً وأنا أرمي أمامه على المائدة الروبلات السبعة التي كنت ما أزال قابضاً عليها في راحة كفي :

ـ آبولون . اليك أجرك . أرأيت ؟ هأنا ذا أعطيك أجرك . ولكن عليك أن تنقذني : ائتني فوراً ، من الدكان القريبة ، بشاي وعشر بسكويتات . فاذا لم تفعل كنت تُشقي انساناً . أنت لا تعرف ما هذه المرأة !... انها ... انك ستتخيل لا أدري ماذا ... ولكنك لا تستطيع أن تتصور ما هذه المرأة !...

كان آبولون قد استأنف عمله وأعاد وضع نظارتيه على أذنيه ، وها هو ذا يلقي على المال نظرةً من جانب ، دون أن يقول شيئاً وحتى

دون أن يترك ابرته ، وها هو ذا يستمر فى عمله من غير أن يجيبنى .
لبثت واقفاً قربه ثلاث دقائق ، مصالباً ذراعيَّ على طريقة نابوليون . كان العرق يبلل صدغيَّ . وأحسست أن وجهى قد اصفر اصفراراً شديداً. ولكن لعل منظرى قد أثار شفقته ولله الحمد ، فها هو ذا يضع ابرته على المنضدة ، وينهض ببطء ، ويزيح الكرسى متشدداً ، ويخلع نظارتيه متمهلاً ، ويعد المال ثم يخرج من الغرفة أخيراً بخطى بطيئة .

وفيما كنت عائداً الى ليزا خطر ببالى أن أهرب ، كما أنا ، بثوب المنزل ، وأن أمضى قدماً لا ألوى على شىء ولا أفكر فى شىء .

رجعت الى مكانى وجلست . أخذت ليزا تنظر اليَّ فى قلق. ولبثنا صامتين بضع دقائق .

صحت أقول وأنا أضرب المائدة بيدى ضربة بلغت من القوة أن الحبر انبجس من المحبرة :

ـ سوف أقتله !

فصاحت تقول وهى تنتفض واثبة :

ـ رباه ! ماذا تقول !

فأعولت أقول وأنا أضرب المائدة :

ـ سوف أقتله ! سوف أقتله !

كنت فيما يشبه الهذيان ، ومع ذلك كنت أدرك ادراكاً تاماً أن من الغباء أن أكون على هذه الحال .

وأردفت أقول :

ـ انك لا تستطيعين أن تدركى يا ليزا مدى ما يسببه لى هذا السفاح من عذاب . انه جلادى ... ذهب يشترى الآن بسكويتاً ... انه ...

ولم أستطع آن أتم جملتي فقد أجهشت باكياً • كانت تلك نوبة عصبية • ما أشد ما شعرت به من خجل !••• ولكنني لم أستطع أن أسيطر على نفسي •

خافت ليزا • وصاحت تقول وهي تضطرب حولي :

ـ ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

فجمجمت أقول بصوت واهن :

ـ ماء ! اعطيني ماءً !•••

وكنت أدرك ادراكاً تاماً أنني أستطيع الاستغناء عن الماء ، وأستطيع أن أتكلم بصوت أقوى وأثبت • ولكنني كنت أبالغ انقاذاً للمظاهر ، رغم أن نوبتي العصبية صادقة غير مفتعلة • وفي تلك اللحظة جاء ابولون بالشاي • فبدا لي فجأة أن الشاي شيء مبتذل خالٍ من الشعر وأنه يحدث أثراً تافهاً وضيعاً يكاد يكون غير لائق بعد كلّ ما جرى • فاحمر وجهه خجلاً •

وخرج آبولون دون أن ينظر الينا •

قلت وأنا أحدّق الى عيني ليزا وأرتجف تحرقاً الى معرفة رأيها :

ـ ليزا ، أنت تحتقرينني ، أليس كذلك ؟

فاحمر وجهها ولم تستطع أن تجيب •

قلت لها غاضباً :

ـ اشربي الشاي !

كنت غاضباً من نفسي حانقاً عليها ، وواضح أن ليزا هي التي لا بد أن تتحمل غضبي • وأحسست فجأة بكره شديد لها وحقد قوي عليها : كان يمكن أن أقتلها في تلك اللحظة • وقررت عندئذ ، بيني وبين

نفسى ، أن أثأر منها بأن أمسك عن الكلام فما أنطق بحرف • « أليست سبب كل شىء ؟••• » • بهذا حدثت نفسى •

دام صمتنا أكثر من خمس دقائق • كان الشاى على المائدة ، ولكننا لم نلمسه • كنت فى حالة أرفض معها أن أكون البادىء بشرب الشاى ، وذلك لأجعل الموقف أكثر صعوبة وأشد حرجاً • وكان يضايقها هى أن تشرب وحدها • وهى تلقى علىّ نظرات قلقة حزينة من حين الى حين• ولكن لا شك أننى كنت أشقى منها وأتعس ، لأننى كنت أدرك ادراكاً واضحاً جداً أن حنقى خسة وضعة ثم أنا لا أفلح فى كبح جماح نفسى والسيطرة على مشاعرى •

بدأت تقول أخيراً من أجل أن تنهى صمتنا :

ـ أريد أن أغادر ••• نهائياً ••• ذلك المحل !•••

يا للمسكينة ! ان هذا الكلام بعينه هو ما لا ينبغى أن يكون فاتحة الحديث فى تلك اللحظة البلهاء مع رجل يبلغ ما أبلغه أنا من بلاهة • شعرت بشفقة أليمة على صراحتها العقيمة وعجزها الخائف الوجل• ولكن سرعان ما انبجس فى نفسى شىء خنق تلك الشفقة وحرّض حنقى مزيداً من التحريض ، فلو هلك العالم بأسره لما هزّنى ذلك !

وانقضت خمس دقائق •

سألتنى خجلةً بصوتٍ لا يكاد يُسمع :

ـ لعلنى أضايقك ؟

وظهر عليها أنها تهم أن تنهض •

ولكننى ما ان لاحظت هذه الحركة الأولى التى تدل على شعورها بكرامتها الجريحة حتى أخذت أرتجف غيظاً وحتى أطلقت ما كان يعتمل

فى نفسى ، فقلت أسألها بصوت مخنوق دون أن أراعى فى كلامى أى نظام منطقى ، لأننى كنت فى حاجة الى أن أقول كل شىء فى آن واحد ، حتى دون أن أعبأ بالبداية :

ــ هلاّ قلت لى لماذا جئت الىّ ؟ هلاّ قلت لى ذلك من فضلك ؟ لماذا جئت ؟ أجيبينى ! أجيبى !

كذلك صرخت خارجاً عن طورى ثم أردفت :

ــ طيب ... سأقول لك أنا ، يا عزيزتى ، لماذا جئت ! لقد جئت لأننى قلت لك فى ذلك اليوم « كلمات مؤثرة » ، فرقّ قلبك ، فأردت أن تسمعى كلمات أخرى من ذلك النوع . ألا فاعلمى أننى كنت فى ذلك اليوم أسخر منك وأضحك عليك ، واننى أسخر منك وأضحك عليك اليومَ أيضاً . لماذا ترتعشين ؟ نعم ، لقد سخرت منك. كانوا قد أهانونى أثناء العشاء ... أولئك الذين وصلوا اليك قبلى ، وقد جئت لأثأر من أحدهم ، من الضابط ، ولكننى لم أظفر بذلك ، فانهم كانوا قد انصرفوا. وكان لا بد لى مع ذلك من أن أصبّ غضبى على أحد من الناس، فظهرت أنت فى تلك اللحظة ، فثأرت لنفسى منك وضحكت عليك . لقد أذلونى فأردت أن أُذل أحداً أيضاً . عاملونى كما تُعامَل خرقة بالية ، فأحببت أن أجرب أنا سلطتى ... ذلك ما جرى ، بينما تصورت أننى ما ظهرت الا لأنقذك . ألم تتخيلى هذا ؟ ألم تتخيليه حقاً ؟ هه ؟

كنت أعرف أنها مبلبلة الفكر وأنها لن تستطيع أن تفهم جميع هذه التفاصيل ، ولكننى كنت أعرف فى الوقت نفسه أنها ستفهم الشىء الأساسى . وذلكم ما حدث : اصفر وجهها اصفراراً شديداً وحاولت أن تكلمنى . تقلصت شفتاها من الألم . ثم تهالكت على كرسيّها تهالك من ضرب بفأس . وظلت تصغى الىّ فاغرة الفم جامدة العينين مرتجفةً من الخوف . ان ما فى أقوالى من وقاحة شديدة قد سحقها سحقاً تاماً .

صرخت قائلاً وأنا أنهض عن كرسيي وأطفق أسير في الغرفة طولاً وعرضاً :

ـ أنقذك ؟ مم أنقذك ؟ ألا انني قد أكون شراً منك . لماذا لم تصرخي في وجهي حين كنت ألقي عليك دروساً في الأخلاق ، لماذا لم تصرخي في وجهي قائلة : « وأنت ما مجيئك الينا ؟ أجئت من أجل القاء درس في الاخلاق ؟ » . ان ما كنتُ في حاجة اليه حينذاك هو أن أمارس سلطتي على أحد من الناس ، وكنت في حاجة الى أن أعبث أيضاً : كنت في حاجة الى دموعك ، والى مذلتك ، والى نوبتك العصبية . ذلك ماكنت في حاجة اليه . ولكنني كنت لا أملك القوة اللازمة للصمود ، لأنني لست الا خرقة ، فاذا أنا أخاف ، واذا أنا أعطيك عنواني ، لا يدري الا الشيطان لماذا ! وقبل أن أرجع الى البيت كنت أشتمك وألعنك بسبب ذلك العنوان . وكنت قد كرهتك لأنني كذبت عليك . ذلك أنني ان كنت أحب العبث في الكلام والأقوال ، وان كنت أحب أن أحلم أيضاً ، فان الشيء الذي أريده في الواقع هو أن تغوروا جميعاً ، هو أن تذهبوا جميعاً الى الشيطان ! لست في حاجة الا الى هذا . أنا في حاجة الى الهدوء . انني مستعد لأن أبيع الكون كله بقرش واحد ، شريطة أن أترك وشأني هادئاً مطمئناً ! لو سئلتُ ماذا تؤثر : أن يهلك العالم كله أو أن تُحرم من احتساء نصيبك من الشاي لقلت : ألا فليهلك العالم شريطة أن أشرب الشاي ! أكنت تعلمين هذا ؟ أما أنا فاعلمه . أعلم أنني سافل دنيء كسول أناني . انني منذ ثلاثة أيام أرتجف خوفاً من أن تجيئي . ولكن هل تعلمين ما الذي كان يشغل بالي ويقلق فكري خاصةً خلال هذه الأيام الأخيرة ؟ هو أنني كنت في نظرك بطلاً ، وأنك سترينني على حين فجأة متسخاً بائساً في ثوبي العتيق المهترىء الممزق . لقد زعمت لك منذ قليل أنني لا أستحي من فقري . ألا فاعلمي أنني استحي من فقري أكثر مما

أستحي من أي شيء آخر ، أكثر مما استحي من السرقة ، وأنني أخافه وأخشاه ـ لانني أبلغ من حب الذات درجة يتراءى لي معها أن الناس تسلخ جلدي حياً ، وأن ملامسة النسيم وحدها تؤذيني وتؤلمني . فهل أدركت أخيراً أن رؤيتك اياي مرتدياً ثوبي هـذا هاجمـاً على آبولون هجوم كلب من الكلاب الشرسـة أمرٌ لن أغفـره لك ما حييت ؟ لقد رأيتِ البطل المنقـذ يهجم على خادمه الذي يسخر منه كما يهجم كلب متسخ ! لا ولن أغفـر لك في يوم من الأيام تلك الدموع التي لم أملك الا أن أذرفها أمامك كما تفعل امرأة ضبطت متلبسةً بالعـار . لا ولن أغفر لك اعترافاتي هذه نفسها ! نعم ، أنت ، أنت وحدك مسئولة عن هذا كله ، لأنك وُجـدتِ تحت يدي ، ولأنني بين سـائر ديدان الأرض أحقرها وأبعثها على الضَحك وأنذلها وأغبـاها وأشـدها حسـداً ! ليس الآخرون خيراً مني ، ولكنهم يمتازون عني بأنهم لا يفقدون ثقتهم ورباطة جأشهم ، الشيطان وحده يعلم لماذا ! ... أما أنا فسـأظل طوال حياتي أتلقى ضربات من أتفـه هـذه الحشرات التي تمـلأ الأرض . على أنني لا يهمني أن لا تفهمي ما أقوله لك الآن . وما شأني بك على كل حال؟ فيم يعنيني أن تهلكي أو أن لا تهلكي؟ فهل تدركين الآن مدى ما سأحمله لك من كره وحقـد بعد كل ما قلتـه لك ، وبعـد كل ما رأيتـه هنـا وما سمعته ؟ مرةً واحدةً في حياته يستطيع رجل مريض الأعصـاب أن يسمح لنفسه أن يتكلم بصراحة تبلغ هذا المبلغ ... فماذا تريدين مني اذن ؟ ما بقاؤك هنا أمامي بعد هذا كله ؟ لماذا لا تنصرفين ؟

غير أن شيئاً خارقاً قد حدث عندئذ .

كنت قد بلغت من التعود على أن أفكر وعلى أن أحلم وفقاً للكتب وعلى أن أتصور الأشياء كما خلقتها قبل ذلك في أحلامي ، أنني في الوهلة الأولى لم أستطع حتى أن أدرك ما يحـدث . ولكن اليكم ما حـدث في

الواقع : ان ليزا التي أهنتها وسحقتها قد فهمت أكثر كثيراً مما كنت أتوقع أن تفهم . لقد فهمت من كل كلامي ما تفهمه المرأة حين تحب حباً صادقاً : لقد رأت أنني شقي بائس .

ان الشعور بالخوف والشعور بالكرامة الجريحة سرعان ما حلَّ محلَّهما على وجهها انشداه أليم . وحين أخذت أهين نفسي وأصف نفسي بأنني « نذل » وأنني « حقير » ، وحين أخذت أبكي (لقد كان ذلك الكلام الطويل كله مصحوباً بدموع) ، تقبض وجهها وتقلص على حين فجأة . وحاولت مراراً أن تنهض وأن توقفني عن الاسترسال في الحديث ؛ ولكنها حين أنهيتُ كلامي قد انتبهت لا الى الأقوال المهينة الجارحة التي تفوهت بها (« ما بقاؤك هنا ؟ لماذا لا تنصرفين ؟ ») بل الى الجهد الرهيب الذي لا بد أنني كنت أبذله من أجل أن أقول كل ذلك الكلام . وعدا هذا ، بدا على المسكينة انصعاق كامل : لقد كانت تعد نفسها أقل مني قيمةً وأوضع شأناً وأحط منزلة . فكيف يمكن أن تغضب وأن تستاء . على أنها وثبت عن كرسيها ومدَّت اليَّ ذراعيها وهي ترتعش ارتعاشاً شديداً دون أن تجرؤ على الاقتراب مني بعد .

شعرت بقلبي يذوب عندئذ في صدري . وأخيراً هرعت اليَّ وأحاطت عنقي بذراعيها احاطة قوية وأخذت تبكي صامتة . لم أستطع أن أقاوم فأجهشت أبكي كما لم أجهش قبل ذلك طوال حياتي .

وقلت في مشقة وجهد :

ــ لا يُتاح لي ... لا أستطيع أن أكون طيباً .

ثم جررت نفسي نحو الأريكة فتهالكت عليها مكباً بوجهي ، وظللت أبكي مدة ربع ساعة أخرى وأنا فريسة نوبة عصبية رهيبة . اقتربت ليزا مني ، وأحاطتني بذراعيها ولبثت على هذه الحال ساكنةً لا تتحرك .

ولكن كان لا بد لنوبتي العصبية أن تنتهي آخر الأمر ، وتلك هي الصعوبة • وهأنا ذا أثناء رقادي على الأريكة مدفونَ الوجه في الوسائد الجلدية (انني أصف الحقيقة المعيبة) ، هأنا ذا ، أتصور تصوراً غامضاً في أول الأمر واضحاً بعد ذلك ، أنني سيزعجني كثيراً أن أرفع رأسي وأن أنظر الى ليزا وجهاً لوجه• لا أدري ما الذي كان يخجلني، ولكنني كنت أشعر بخجل • وخطر ببالي أيضاً أننا قد تبادلنا الدور ، فهي الآن البطلة ، أما أنا فانسان مُذَلّ مسحوق ، كما كانت هي كذلك في نظري منذ أربعة أيام • خامرتني هذه الفكرة بينما كنت راقداً على الأريكة دافناً وجهي في الوسائد الجلدية •

« رباه ! أأنا أحسدها حقاً ؟ » • لا أدري • انني لم أحلّ هذه المسألة بعد ، واضح انني كنت عندئذ أعجز عن حلّها مني الآن • انني لا أستطيع أن أحيا دون أن أمارس سلطتي على أحد ••• دون أن أستبد بأحد ••• ولكن ••• ولكن الاستدلالات المنطقية لا تفسر شيئاً ، فالأوْلى اذن أن أكف عن الاستدلال المنطقي •

استطعت أخيراً أن أسيطر على نفسي فرفعت رأسي • كان لا بد لي من هذا • وفي تلك اللحظة اشتعلت في قلبي عاطفة أخرى ألهبت نفسي وأججت نيرانها ، تلك هي عاطفة التسلط والامتلاك • انني لعلى يقين من أن نشوء هذه العاطفة انما مرده الى أنني كنت أشعر بخجل من رفع رأسي والنظر الى ليزا • فها هما عيناي تسطعان ، وهأناذا أضغط يديْ ليزا بين يديّ ضغطاً قوياً • لشدّ ما كنت أكرهها في تلك اللحظة ولشد ما كانت تجذبني ! كانت كل عاطفة من هاتين العاطفتين تقوّي الأخرى وتعززها • يشبه أن يكون هذا نوعاً من الانتقام • عبّر وجهها في أول الأمر عن حيرة وبلبلة ، وعمّا يشبه الخوف والرهبة • ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة ، ثم اذا هي تشدني بذراعيها فرحةً فرحاً حاراً عنيفاً •

١٠

بعد ربع ساعة ، كنت أركض في الغرفة طولاً وعرضاً وأنا أرتعش من نفاد الصبر ، وأتوقف في كل لحظة أمام الستارة التي كان يتيح لي شقُّها أن أرى ليزا جالسةً على الأرض مسندةً رأسها الى السرير • لعلها كانت تبكي ، ولكنها لا تريد أن تنصرف ، فكان ذلك يزعجني ويضايقني • لقد عرفتْ في هذه المرة كل شيء • أهنتُها اهانة لا برء منها ولا اصلاح لها • ولكن ••• ليس من الضروري أن أروي لكم كيف أهنتها • لقد ادركتْ أن اندفاعة الهوى المشبوب لم تكن الا انتقاماً وثأراً واذلالاً جديداً ، وأن الكره الذي شعرت به منذ قليل والذي كان كرهاً غامضاً لا موضوع له ، قد أضيف اليه كره حاسد ينصب عليها هي ••• على أنني لست واثقاً بأنها قد فهمت هذا كله فهماً واضحاً • ولكنها أدركت على كل حال انني انسان دنيء ، وأدركت خاصةً أنني لا أستطيع أن أحبَّها •

أعلم أنكم ستقولون لي : هذا أمر لا يُصدَّق ، فمن المستحيل أن يبلغ المرء هذا المبلغ من الشر والغباء ، وربما أضفتم الى ذلك أنه لا يُصدَّق أن لا أكون قد أحببتها قط ، أو أن لا أكون قد تأثرت بحبها في أقل تقدير • ولكن لماذا تظنون أن هذا الأمر لا يُصدَّق ؟ انه ليستحيل عليَّ أن أحب ، ذلك أن الحب ـ أعود فأكرر على مسامعكم

ما سبق أن قلته ـ انما يعنى فى نظرى الاستبداد والتسلط الروحى . انتى لم أستطع فى يوم من الأيام أن أتخيل الحب فى صورة غير هذه الصورة ، وقد بلغت من ذلك أننى ما زلت حتى الآن أرى فى بعض الأحيان أن قوام الحب هو أن يهب المحبوب للمحب حقَّ الاستبداد به . اننى فى أحلام قبوى لم أستطع فى يوم من الأيام أن أتخيَّل الحب الا فى صورة صراع : صراع يبدأ بكره وينتهى بعبودية روحية . أى شيء يصعب تصديقه فى هذا ما دمت قد بلغت من فساد الروح ومن فقدان التعود على « الحياة الواقعية » أننى قد أخذت أُخجلها منذ قليل ، وأعيب عليها أنها جاءت الىَّ لتسمع منى « كلمات عاطفية » ؟ اننى لم أدرك أنها لم تجىء الىَّ لهذا الغرض وانما جاءت لتحبنى ، لأن كل انبعاث وكل خلاص انما يكون لدى المرأة بالحب ، ولا يمكن أن يتجلى الا حباً . ثم ... هل كنت أكرهها الى ذلك الحد من الكره حين كنت أذرع الغرفة طولاً وعرضاً واختلس النظر اليها من شق الستارة ؟ لا ... ولكن وجودها كان يعذبنى عذاباً شديداً . وددت لو تختفى . كنت ظامئاً الى « الهدوء » . كنت أريد أن أخلو الى نفسى وحيداً فى قبوى . ان « الحياة الواقعية » التى لم أتعودها كانت تضايقنى الى حد الاختناق .

كانت الدقائق تنقضى وليزا لا تنهض فكأنها غائبة فى حلم . وتواقحت فنقرت نقراً خفيفاً لأذكّرها ... فانتفضت ونهضت بوثبة سريعة وأخذت تجمع أشياءها : منديلها ، وقبعتها ، ومعطفها ، كأنها تفر وتنجو بنفسها . وبعد دقيقتين ، خرجتْ من وراء الحاجز بخطى بطيئة وألقت علىَّ نظرة ثقيلة . فضحكتُ ضحكةً شريرة أجبرت نفسى عليها اجباراً من باب « التقيد بالواجبات » ، ثم أشحت وجهى عنها .

قالت لى وهى تتجه نحو الباب :

ـ وداعاً !

فأسرعت اليها فجأة ، فأمسكت يدها وبسطتها ووضعت فيها ما كنت قد أعددته ، ثم قبضتها من جديد • وبعد ذلك تحولت عنها وركضت بأقصى سرعة الى الطرف الآخر من الغرفة حتى لا أرى على الأقل •••

لقد هممت الآن أن اكذب فاكتب أننى فعلت ذلك مصادفة بغير تفكير لأننى كنت قد فقدت صوابى تماماً • ولكننى لا أريد أن أكذب وهأناذا أقول صراحة انى قد بسطت يدها ووضعت فيها مالاً ••• لا يدفعنى الى ذلك الا الخبث والشر • لقد خطر ببالى أن أفعل هذا بينما كنت أسير فى الغرفة محموماً وكانت جالسة على الأرض قرب الحاجز• ولكن اليكم ما أستطيع أن أقوله جازماً : ان هذه القسوة التى اقترفتها عامداً لم تصدر من القلب بل صدرت من رأسى الخبيث المريض • ولقد كانت هذه القسوة من الزيف والاصطناع « والاستقاء من الكتب » أننى لم أستطع أن أحتملها أنا نفسى ثانية واحدة ••• لذلك هربت الى الطرف الآخر من الغرفة ••• وهأناذا بعد ذلك أركض وراء ليزا وقد استبد بى الخجل والحزى واليأس والكرب ، فأفتح باب الدهليز وأصيخ بسمعى ، ثم أنادى فى السلم ولكن بصوت خافت خجول :

ـ ليزا ! ليزا !

ولم أتلق جواباً ، وخيل الى أننى أسمع صوت وقع أقدامها على الدرجات الأخيرة •

فصحت منادياً بصوت قوى :

ـ ليزا •

فلم أسمع جواباً كذلك • ولكن الباب الزجاجى فُتح على الشارع فى تلك اللحظة نفسها ثقيلاً صاراً ، ثم أغلق فاحدث اغلاقه ضجة قاسية ترجعت فى السلم •

لقد انصرفت ليزا • فعدت الى غرفتي واجماً مفكّراً وأنا أشعر بثقل رهيب يجثم على قلبي •

وقفت قرب المائدة الى جانب الكرسي الذي كانت جالسةً عليه ، ونظرت أمامي في غباء وبلاهة • انقضت دقيقة ، فاذا أنا انتفض على حين فجأة • فعلى المائدة ، أمامي ، رأيت ••• رأيت الورقة النقدية الزرقاء ، ورقة الخمسة روبلات التي كنت قد وضعتها في يدها منذ قليل ، رأيتها مجعّدة • هي تلك الورقة نفسها ، نعم • لا يمكن أن تكون ورقة أخرى • ليس عندي غيرها • لقد اتسع وقت ليزا اذن لأن تردها فتضعها على هذه المائدة بينما كنت أنا أهرب الى الطرف الآخر من الغرفة •••

آه ! ••• كان يمكنني أن أتوقع هذا ! هل كنت أتوقعه ؟ لا ••• لقد بلغت من فرط الأنانية ومن قلة الاعتبار للبشر أنني لم أتخيل أن في وسع ليزا أن تفعل هذا • لم أستطع تحمل ذلك • فهجمت على ثيابي كالمجنون ، فألقيت عليَّ منها ما وقعت عليه يدي ، وهبطت السلّم مهرولاً • لا شك أنها لم تكن قد قطعت مائتي خطوة حين صرت أنا في خارج البيت •

كان الجو لطيفاً • الثلج يهطل سبائخ كبيرة هطولاً يكاد يكون عمودياً فيشكّل على الأرصفة والشارع المقفر فراشاً سميكاً• ما من انسان يُرى ، وما من صوت يُسمع • المصابيح تلتمع حزينة في غير جدوى• سرت بضع مئات من الأمتار حتى وصلت الى مفترق الطرق فوقفت • تُرى في أي اتجاه سارت ؟ ولماذا أركض وراءها ؟

لماذا ؟ لأرتمي على قدميها ، فأبكي عندهما وأهدىء ما أشعر به من ندم ومن عذاب الضمير ، لأقبّل ركبتيها وأتوسل اليها طالباً غفرانها • ذلكم ما كنت أريد أن أفعله • كنت أشعر بصدري يتمزق • ألا انني لن أستطيع أن أتذكر هذه اللحظات في يوم من الأيام دون أن تهتز نفسي•

تساءلت : ولكن ما هدفي من هذا ؟ هل يمكن أن لا أكرهها منذ الغد ، لا لشيء الا أنني قبَّلت قدميها اليوم ؟ هل يمكنني أن أُسعدها ؟ ألم أدرك مرةً أخرى هي المرة المائة أنني انسان تافه دنيء ؟ هل يمكنني أن أمتنع عن تعذيبها ؟

كنت واقفاً في الثلج أحاول أن أثقب ببصري حجابه الكثيف ، وكنت غارقاً في تفكير عميق .

وقلت لنفسي حين عدت الى البيت محاولاً أن أنسى ألمي بالاسترسال في الأحلام : « أليس الافضل أن تحمل هذه الاهانة معها ؟ ان الاهانة تطهِّر النفس . هي أشد العواطف مرارة وألماً . لا شك في أنني كنت سأوسِّخ نفس ليزا منذ الغد ، وسأثقل قلبها بعبء باهظ . أما وقد تركتها تمضي حاملةً معها الاهانة ، فانها لن تنسى هذه الاهانة في يوم من الأيام ، وستظل الاهانة حيةً في نفسها لا تموت . مهما يكن الوحل الذي ينتظرها رهيباً فظيعاً ، فان الاهانة سترفعها وتطهِّرها ... بالكره ... هم ! ... وربما بالغفران أيضاً ... ولكن هل من شأن هذا كله أن يجعل حياتها أسهل وأيسر ؟ » .

الحق أنني ما زلت حتى الآن ألقي على نفسي هذا السؤال الذي لا طائل تحته : أي الأمرين أفضل : أسعادةٌ مبتذلة أم آلام رفيعة ؟ هلاّ قلتم لي أي الأمرين أفضل ؟

على هذا النحو كنت أفكر ، في ذلك المساء ، محطَّم النفس من شدة الألم . انني لم أعرف في حياتي ، حتى ذلك الحين ، عذاباً كالعذاب الذي كنت أكتوي بناره حينذاك . ولكن هل كان يمكن أن يخطر ببال أحد ، ولو لحظةً قصيرة ، حين ركضت باحثاً عن ليزا ، أنني قد أقف في منتصف الطريق ؟ لم ألق ليزا بعد ذلك في يوم من الأيام ، ولا سمعت عنها قط ... وأضيف الى هذا أنني لبثت خلال مدة طويلة راضياً عن الجملة

التى قلتهـا عن فائدة الاهـانة والكره • ومع ذلك أوشـكت أمرض من فرط الحزن والقلق والغم •

ان هذه الذكريات ما تزال تشق على نفسى حتى اليوم بعد انقضاء ذلك العـدد كله من السـنين • وان هنـاك أموراً مؤلمة كثيرة تسـتيقظ فى ذاكرتى ، ولكن •• أليس الأفضل أن أختم كتابة هذه «الذكريات»؟ أحسب أننى قد أخطأت حين بدأتهـا ••• ومهمـا يكن من أمر ، فاننى ما برحت أشعر بالخجل والعار أثناء كتابة هذه القصة : ليست كتابة هذه القصة أدباً ، بل هى عقاب وتكفير وقصاص •

ألا انه ليس بالأمر الشـائق أن أروى ، فى قصص طويلة ، كيف ضيعت حياتى وفقدت عادة الحياة وقبعت فى قبوى حانقاً مغتاظاً • ان كتابة رواية من الروايات لا بد لها من بطل ، أما أنا فقد جمعت ، كأنما على عمد ، جميع الصفات التى يتصف بها « نقيض البطل » • ثم ان هذا كله سيحدث فى النفس أثراً كريهاً ، لأننا جميعاً قد فقدنا عادة الحياة ، لأننا جميعاً نعرج كثيراً أو قليلاً ، حتى لقد بلغنا من فقدان تعود الحياة أننا نشعر تجاه الحياة الواقعية ، تجـاه « الحياة الحيـة » بما يشـبه أن يكون اشـمئزازاً ، وذلكم هو السبب فى أننا لا نحب أن يذكرنا بها أحـد ؟ وقد وصلنا فى هذا الطريق الى حيث صرنا نعد الحياة الواقعية ، « الحياة الحية » محنةً أليمـة أو جهـداً شـاقاً • ونحن جميعاً متفقـون على أن الأفضل لنا أن نقرأ هذه الحيـاة فى كتاب • علام هذه الاضطرابات التى نتخبط فيها ؟ علام هـذه الاندفاعات الجنونية التى نستسلم لها ؟ ما الذى نطلبه ؟ اننا نحن أنفسنا نجهل ذلك • ولو قد استجيبت دعواتنا الحمقـاء لكنا أول من يتألم من ذلك •

هيّا جربوا ! هبوا لنا مزيداً من الاستقلال ، فكوا أيدينا ، ووسّعوا ميدان عملنا ، ارفعوا الوصاية عنا ، تجدوا أننا ••• أحلف لكم أننا متى

رفعتم الوصاية عنا فسنعود تطالب بها . أنا أعلم أنكم ستصرخون محتجين ، وستغضبون وأنتم تخبطون الارض باقدامكم قائلين :

ـ تحدث عن نفسك ، صوّر أنواع الشقاء التى تعانيها فى قبوك ، ولكن حذار أن تقول : « نحن جميعاً » .

عفوكم يا سادة ! ليس فى نيتى أن أبرر نفسى حين أقول : « نحن جميعاً » . أنا لم أزد فى حياتى على أن مضيت الى الحد الاقصى بما لم تجرؤوا أنتم على أن تمضوا به ولو الى منتصف الطريق ، مطلقين على الجبن اسم الحكمة ، معزّين أنفسكم على هذا النحو بأكاذيب . وربما كنت لهذا أكثر حياة منكم .

ألا أنعموا النظر ! اننا اليوم لا نعرف حتى أين هى الحياة ، وماهى ، وما صفتها . فيكفى أن نُترك وشأننا ، يكفى ان تسحب الكتب من بين أيدينا ، حتى نرتبك فوراً ، وحتى تختلط علينا جميع الأمور ، فاذا نحن لا ندرى أين نسير ، وكيف نتجه ، وماذا يجب أن نحب وأن نكره ، وماذا يجب أن نحترم وأن نحتقر . حتى انه ليشق علينا أن نكون بشراً ، بشراً يملكون أجساداً هى لهم حقاً ، أجساداً تجرى فيها دماء . اننا نخجل أن نكون كذلك ، ونعد هذا عاراً ، ونحلم فى أن نصبح نوعاً من كائنات مجردة ، عامة . نحن مخلوقات « ولدت ميتة » ، ثم اننا قد أصبحنا منذ زمن طويل لا نولد من آباء أحياء ، وهذا يرضينا ويعجبنا كثيراً . انه يلقى فى نفوسنا هوى . وقريباً سنجد السبيل الى أن نولد رأساً من فكرة .

ولكن كفى ! لا أحب بعد الآن أن أسمعكم صوتى من «القبو» .

لم تنته ذكريات هذا الرجل المحب للمفارقات الغريبة . انه لم يستطع أن يقاوم الاغراء ، فعاد يمسك القلم . ولكن يخيّل الينا ، نحن أيضاً ، أن فى وسعنا هنا أن نختم .

قصة اليمة

١٨٦٢

« قصة اليمة » (Skverni Anekdote)

لعلها كتبت فى شهرى ايلول وتشرين الأول ـ سبتمبر وأكتوبر ـ سنة ١٨٦٢ وقد نشرت فى مجلة «الزمان» فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) من السنة نفسها •

حدث

هذا أيامَ كان الايمـان بنهضة وطننا الغـالى يهز نفوس خيرة أبنائه فيندفعون فى حماسة وحمياً نحو آمال جديدة ومصائر جديدة •

فى ليلة صاحية هـادئة من ليالى الشـتاء كان ثلاثة رجال محترمين قد اجتمعوا فى غرفة مريحة بل وفاخرة الأثاث من منزل يُعد من أجمل منازل حيّ بطرسبورجسكايا ستورونا * • ان هؤلاء الرجال الثلاثة ، الغائصـين فى مقاعد عميقـة وثيرة رخصـة ، يحملون جميعاً رتبـة جنرال ، وهم الآن بسـبيل التناقش ، بوقار ورصانة ، فى موضوع هام جداً ، أثناء احتسائهم رشفات كبيرة من الشـمبانيا من حين الى حين •

ان صاحب الدار ، وهو مستشار الدولة ستيفان نيكيفوروفتش ، العازب الذى يبلغ من العمر خمسة وستين عاماً ، يحتفل اليوم بسكنى منزله الجديد الذى اشتراه منذ مدة قصيرة • ومن المصادفات عدا ذلك أن عيد ميلاده الذى لم يحتفل به قبل ذلك قط ، يقع فى هذا اليوم نفسه. والحق أن الاحتفال بالمنزل الجـديد لم يكن خارقاً ، فان صاحب المنزل لم يدع الى هذا الاحتفال الا ضيفين اثنين هما له زميلان قديمان ومرءوسان : مستشار الدولة سيمن ايفانوفتش شيبولنكو، وايفان ايلتش برالنسكي الذي يشغل

منصب مستشار دولة أيضاً • لقد وصلا في الساعة التاسعة لتناول الشاى، ولكنهما تلبثا يشربان وفى تقديرهما أن عليهما أن يعودا الى منزليهما قبل منتصف الليل بعشرين دقيقة لأن صاحب الدار رجل شديد التقيد بالمواعيد شديد الحرص على أن لا يخل بما ألف من عادات •

ان ستيفان نيكيفوروفتش الذى بدأ حياته فى المناصب موظفاً صغيراً ، قد ظل يعمل فى كثير من النصب والعناء خلال خمسة وأربعين عاماً ، وهو يعلم سلفاً ما الذى تؤدى اليه هذه الحياة المتواضعة المطردة التى يحياها • كان ، كما يقال ، لا يحب أن يفتن نجوم السماء ، وان يكن يحمل على صدر بزته الرسمية نجمتين اثنتين • وكان يكره خاصةً أن يُعلن رأيه الشخصى • وهو يستطيع أن يصف نفسه بأنه رجل شريف مستقيم ، بمعنى أنه لم يتفق له فى حياته أن ارتكب عملاً غير لائق • وقد ظل عازباً من باب الأنانية • وهو على كونه ليس بالغبى ، لا يحب أن يبدى ذكاءه ، وكان يكره الحماسة أكثر مما يكره أى شىء آخر ، فهو يعد الحماسة عيباً أخلاقيا كبيراً •

وفى نهاية حياة طويلة ليس فيها بريق أو لمعان ، أخذ ستيفان نيكيفوروفتش ينعم وحيداً برخاء وادع وهناءة رضية • وكان على تردده الى المجتمع من حين الى حين يكره أن يستقبل أحداً فى منزله ، حتى لقد انتهى به الأمر فى الآونة الأخيرة الى الاكتفاء بمصاحبة تلك الساعة الكبيرة الموضوعة على المدفأة ، يستمع الى دقاتها كلَّ مساء وهو جالس على مقعده هادئاً نصف نائم ، وربما عمد بين الفينة والفينة الى الاستغراق فى لعبة من ألعاب الصبر على منضدته • فاذا نظرت الى هذا الموظف الكبير رأيته شديد العناية بهندامه ، كثير الاهتمام بحلاقة ذقنه ، وحسبته أصغر سناً من عمره ، فهو ما يزال محافظاً على نضارة صحته ، وما يزال يعد بأن يعمّر طويلاً وأن يعيش جنتلماناً كما يعتقد •

وكان منصبه مريحاً : وسوف تقدرون خطورة منصبه متى قلنا لكم ان له مكتباً فى مكان ما ، وانه يذيّل بتوقيعه بعض الأوراق • الخلاصة أنه كان يُعدُ انساناً ممتازاً •

وقد كان له طوال حياته هوى قوى وحيد أو قل رغبة حارة وحيدة كانت تضىء أيامه : ألا وهى أن يملك منزلاً ، لا منزلاً للتأجير بل منزلاً خاصاً من منازل السادة ذات الأبهة والفخامة ، وقد تحققت له هذه الرغبة أخيراً • لقد عثر ستيفان نيكيفوروفتش على منزل فى حى بترسبورسكايا ستورونا ، ولئن كان هذا المنزل بعيداً ، فانه منزل أنيق جداً ، تحيطه حديقة كبيرة •

حتى لقد اغتبط المالك الجديد بكون المنزل بعيداً عن مركز المدينة هذا البعد : فهو ، كما تعلمون ، لا يحب أن يستقبل فى منزله زواراً • أما من أجل أن يقوم هو بزيارة ومن أجل أن يذهب الى مكتبه ، فقد كان يملك عربة ذات أربع عجلات ، بلون الشوكولاته ، تتسع لشخصين وحوذياً اسمه ميشيل ، وحصانين صغيرين جميلين قويين • ان هذه الثروة التى هى حصيلة خمسة وأربعين عاماً من الجهد الشاق والتوفير المتصل ، كان يثب لها قلبه فرحاً واعتزازاً • وذلك هو السبب فى أن هذا الشيخ ما ان استقر فى منزله الجديد حتى شعرت نفسه الحسّاسة بسعادة بلغت من القوة أنه دعا الى الاحتفال بعيد ميلاده (الذى حرص قبل ذلك على كتمانه) هذين الصديقين القريبين • يجب أن نضيف الى هذا أن صاحب الدار كان يطمع فى أن يجنى من أحد الضيفين منفعة : ان ستيفان نيكيفوروفتش يحتل من المنزل الطابق الأول الوحيد ، وعليه أن يجد للطابق الأرضى مستأجراً ، فهو يأمل أن يكترى منه سيمن ايفانوفتش هذا الطابق الأرضى ، وقد قاد الحديثَ فى ذلك المساء نفسه

الى هذا الموضوع مرتين ، ولكن صاحبه لزم الصمت حريصاً على أن يجيب بشيء .

ان سيمن ايفانوفتش هذا ، وهو رجل أسود شعر الرأس والعارضين ، ملو ن الوجه بالصفرة من نوبات الصفراء ، كان هو أيضاً قد كافح كفاحاً طويلاً قاسياً في سبيل أن يشق لنفسه طريقاً في الحياة . وهو متزوج ، يحب المكوث في بيته ، شرس الطبع ، مغلقٌ بابَ داره ، قائم بواجبات عمله في ثقة وطمأنينة ، مشارف على نهاية نشاطه كمضيفه عالمٌ في الوقت نفسه بأنه لن يصل يوماً الى الذرى التي طالما هفت نفسه اليها ... لقد ملك منصباً حسناً فهو متمسك به أشد التمسك ، حريص عليه أشد الحرص . أما الأفكار الجديدة التي كانت تنفذ الى روسيا في ذلك الزمان ، فانه لا يعبأ بها ولا يكترث لها ، فهي لا تثير في نفسه لا غضباً ولا خشية . لذلك نستطيع أن نقول انه كان يصغي في ذلك المساء بنوع من الخبث الماكر الى التمريناتَ الخطابية التي كان ايفان ايلتش برالنسكي مسترسلاً فيها ، أثناء تدفقه الغزير في الكلام عن النظريات الرائجة .

يجب أن نذكر أن الرجال الثلاثة قد شربوا أكثر قليلاً مما ألفوا أن يشربوا ، وذلك هو السبب في أن ستيفان نيكيفوروفتش قد تنازل وتواضع الى حيث ارتضى أن يشرع في مناقشة خفيفة مع السيد برالنسكي عن النظام الذي سيسود في المستقبل .

هنا ينبغي لنا أن نتوسع في الكلام قليلاً لنزوّد القارىء ببعض المعلومات عن صاحب السعادة السيد برالنسكي ؛ اننا مضطرون الى ذلك لا سيما وأن هذا الموظف هو البطل الرئيسي في قصتنا .

ان مستشار الدولة ايفان ايلتش برالنسكى لم يحمل لقب « صاحب السعادة » الا منذ أربعة اشهر ، فهو ما يزال جنرالاً شاباً . انه ليس متقدماً فى السن ، فعمره لا يزيد على ثلاثة وأربعين عاماً ، وهو عدا ذلك يرغب فى أن يبدو أكثر شباباً ، وينجح فى ذلك نجاحاً تاماً .

انه وسيم الطلعة فارع القامة أنيق الهندام فاخر الثياب يزدان صدره بوسام فارس من درجة عالية . وقد عرف منذ ريعان صباه كيف يتقن بعض الآداب الاجتماعية الراقية ، وحلم دائماً فى أن يخطب فتاة غنية تنتمى الى أسرة مرموقة . على أن ايفان ايلتش الذى لم يكن مع ذلك غبيا كان يحلم كثيراً ، وكان يحلم فى أشياء كثيرة . وكان يبدو فى بعض الأحيان بارع الحديث ذرب اللسان ، وكان يحب أن يصطنع أوضاعاً برلمانية . وقد تربى فى مدرسة ارستقراطية ، لأن أباه كان جنرالاً ، فهو قد ارتدى ثياباً من مخمل ومن باتيسته منذ صباه ؟ ولئن لم يستمد من مدرسته تلك علماً غزيراً ، لقد عرف كيف يحصل على التقدير فى عمله ، فسرعان ما وصل الى رتبته الحالية .

كان رؤساؤه يرون أنه رجل كفء ، بل كفء جداً ، وكانوا يعقدون عليه آمالاً كثيرة . ولكن ستيفان نيكيفوروفتش الذى كان فى الماضى رئيسه ، والذى ما يزال ايفان ايلتش يعمل تحت امرته ، لم يكن يرى فيه رجلاً ذا قيمة عالية ، ولم يكن يثق بمستقبله ثقة كبيرة .

على أن الجنرال العجوز كان يسره أن يعرف أن مرءوسه الذى ينحدر من أسرة رفيعة ، كان يملك ثروة لا بأس بها هى فى الدرجة الأولى منزل جميل يدر عليه ايراداً كبيراً . ومع ذلك فان الشىء الذى كان يسره ويتملق غروره خاصة هو أن يعمل تحت امرته رجل يمت بصلة الى أناس من أصحاب النفوذ ، وأن له هيئة مهيبة تفرض نفسها ، ولهذا شأنه . وكانت هذه المزايا كلها لا تمنع الرئيس من أن يلوم مرءوسه

الشاب فى كثير من الأحيان ، بينه وبين نفسه ، على اندفاعات خياله وخفة طبعه .

ولكن ايفان ايلتش كان ذكياً ذكاءً كافياً من أجل أن يأخذ على نفسه كذلك أنه مسرف فى حب ذاته وسرعة تأذيه . ومن الأمور الغريبة أنه، حين يفعل ذلك ، توافيه وساوس مرضية ، بل ويلم به نوع من الندم ؛ وهو يُضطر حينئذٍ الى أن يعترف لنفسه بأن قيمته لا تبلغ الدرجة التى يتصورها لها (يجب أن نضيف الى هذا أن لحظات الانهيار هذه كانت تنتابه فى الوقت الذى يعانى فيه آلام البواسير) ، وكان يخلص من ذلك الى أن حياته حياة مخفقة ، وكان ينتهى عادةً ، وقد فقد كل ثقة بكفاءاته البرلمانية ، الى أن يصف نفسه بأنه انسان لا يحسن الا تزويق الكلام . على أن هذه الاتهامات التى يتهم بها نفسه ، وهى تشرِّفه على كل حال ، كانت لا تدوم زمناً طويلاً ، ولا تمنعه من أن يرفع رأسه بعد نصف ساعة ، فاذا هو يسترد طمأنينته ، ويعلن بمزيد من الثقة بنفسه أنه لن يصبح شخصية مرموقة فحسب ، بل سيصبح كذلك رجلاً من رجال الدولة تحتفظ روسيا بذكراه زمناً طويلاً . حتى لقد تتراءى لخياله فى بعض اللحظات أنصاب تذكارية تشاد له بعد موته تخليداً لذكراه .

ان جميع ما ذكرناه الآن يسمح لنا أن نفترض أن ايفان ايلتش كان رجلاً طموحاً ، رغم أن شيئاً من القلق كان يحمله أحياناً على أن يدفن ، الى زمن ، فى ركن مظلم من نفسه ، الأحلام الغامضة التى تكون قد راودته . وهو على وجه الاجمال انسان طيب ، حتى ليمكن أن توصف نفسه بأنها نفس شاعر . غير أن النوبات المرضية التى سبقت الاشارة اليها قد أصبحت توافيه فى السنين الأخيرة أكثر مما كانت توافيه قبل ذلك ، فجعله هذا أسرع الى الاهتياج والشك ، حتى صار يعد أىَّ اعتراض عليه اهانةً شخصية له .

وكان قد ظهر في روسـيا في تلك الآونة تيارُ نهضـةٍ وانبعاث أشعل في نفس السيد برالنسكي آمالاً كباراً أوصلتها رتبة الجنرال التي حصل عليها الى ذروتها •

رفع ايفان ايلتش رأسـه وأخذ يتكلم بفصـاحة وبلاغة عن الآراء الرائجة التي سرعان ما جعلها آراءه • ان جميع الفرص تبدو له مواتية • كان قد أخذ يسعى في المدينة ، فلم يلبث أن اشتهر بانه لبرالي ، فسرَّه هذا سروراً عظيماً وأرضى طموحه ارضاءً كبيراً •

وها هو ذا الآن ، في المسـاء الذي تبدأ فيه قصتنا ، بعد أن شرب أربع أقداح من الشـمبانيا ، يزمع وقد توقدت موهبتـه الخطابية توقداً خاصاً ، أن يأخذ في اقناع ستيفان نيكيفوروفتش الذي لم يره منذ زمن طويل ، ولكنه ما يزال يحتفظ تجاهه بعادات الطاعة والاحترام •

وها هو ذا يعتقد فجأة ، دون أن يدري لماذا ، أن رئيسه السـابق رجل رجعي ، فيندفع في حديثـه اليه اندفاعاً قوياً • لم يجب العجـوز بشيء ، ولكنه كان يصغي اليه بانتباه ماكر ، لأن الموضوع يشوقه كثيراً • وأخذت حماسة ايفان ايلتش تزداد تأججاً ، وفي أثناء المناقشـة الحـارة التي كان يتخيل أنه يجـريها ، راح يرشف من قدح الشـمبانيـا أكثر مما يجب أن يرشف • وكان ستيفان نيكيفوروفتش أثناء تدفق الجنرال الشاب في الكلام يتناول قنينة الشمبانيا على مهلٍ ويملأ القدح ، فأثار هذا استياء ايفان ايلتش أخيراً ، لا سيما وأن سيمن ايفانوفتش شيبولنكو الذي كان ايفان ايلتش يكرهه كرهاً خاصـاً لما يتصف به من استخفاف وسخرية وخبث ، يصرُّ على الصمت ولا يزيد على الابتسام •

حدث ايفان ايلتش نفسه على حين فجأة قائلاً : « أظن أنهما يعداني صبياً صغيراً » ، فتابع كلامه يقول حانقاً :

ـ لا ، لا ، ألا انه قد آن الأوان ! ألا انه قد آن الأوان جداً . نحن متأخرون كثيراً . وفي رأيي أن الروح الانسانية يجب أن توضع في المقام الأول ، ان الروح الانسانية تجاه من هم دوننا ، وهم بشر مثلنا ، أمر لا بد منه ولا غنى عنه ! سوف تكون الروح الانسانية كل شيء وسوف تساعد على كل شيء ...

ـ هيء هيء هيء !

كذلك فعل سيمن ايفانوفتش .

وقال ستيفان نيكيفوروفتش في رفق ولين وهو يبتسم ابتسامة لطيفة متوددة :

ـ ولكن ما بالك تؤنبنا وتقرعنا ؟ انني اعترف لكِ يا ايفان ايلتش أنني لم أستطع حتى الآن أن أدرك ما تريد أن تشرحه لنا متفضلاً . أنت تتكلم عن الروح الانسانية : أفتراك تشير الى حب الانسان أخاه الانسان ؟

ـ نعم نعم ، طبعاً ، ولكنني أنا ...

ـ اسمح لي ! اذا صدق حكمي فان الأمر لا يقتصر على هذا . ان الروح الانسانية كانت في جميع الأزمان ضرورة لا بد منها في علاقات البشر بعضهم ببعض ، ولكن الاصلاحات تمضي الى أبعد من هذا كثيراً . الآن تنشأ مسائل تتعلق بالفلاحين ، ومسائل قضائية واقتصادية وأخلاقية ، ومسائل تتعلق بشراء الأراضي ، الى آخر ما هنالك من مسائل لا نهاية لها ... أي مسائل كثيرة يمكنها أن تخلق ، مجتمعةً ، بعض المتاعب !... ذلك ما نخشاه ، لا الروح الانسانية التي تحدثنا عنها .

ودمدم سيمن يقول بهيئة عليمة :

ــ نعم نعم ، هذا صحيح كل الصحة ! ان القضية تسير الآن الى أبعد من ذلك كثيراً ، وتتناول أموراً أعمق من ذلك كثيراً ...

قال ايفان ايلتش وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ــ اننى أدرك اعتراضك كل الادراك يا سيمن ايفانوفتش ، واسمح لى أن أقول لك اننى لا أحرص البتة على أن لا أبقى وراء تفكيرك ، ولكننى أجيز لنفسى مع ذلك أن ألفت نظرك ، وأن ألفت نظرك أنت ايضاً يا ستيفان نيكيفوروفتش ، الى أنه ليس يبدو لى أنكما تفهمان عنى ما أقول ...

قال صاحب الدار :

ــ حقاً لست أفهم !

ــ ومع ذلك فاننى أحرص على آرائى ولن أكف عن شرحها لجميع الناس . ان الروح الانسانية ، حين نطبقها على مرءوسينا ، من الموظف الى الكاتب ، ومن الكاتب الى الحاجب ، ومن الخادم الى الفلاح ، ان هذه الروح الانسانية هى وحدها التى يمكن أن تكون حجر الزاوية فى الاصلاحات لنهضة بلادنا . فاذا سألتنى : لماذا ؟ قلت لك لأن ... (هنا توقف لحظةً) ... اسمع هذا القياس المنطقى : انا انسان ، اذن يحبنى الناس ؟ يحبنى الناس ، اذن يثقون بى ، اذن يصدقوننى ؟ يصدقوننى ، اذن يحبوننى ... أقصد ... لا ... وانما أريد أن أقول : اذا كانوا يصدقوننى فسوف يثقون بالاصلاحات التى أنادى بها ، وسوف يدركون معنى المسألة نفسها ، وسيكون من شأن هذا أن يتعانق جميع البشر ، بالمعنى الروحى طبعاً ، وهكذا تُحلُّ جميع القضايا بالود والصداقة ...

ضحك السيد شيبولنكو فانتفض ايفان ايلتش .

ـ لماذا تضحك يا سيمن ايفانوفتش ؟ أليس كلامى مفهوماً ؟

لبث المسئول صامتاً ، وبدا عليه استغراب شديد ، ورفع حاجبيه ، ثم قال بمرارة شديدة :

ـ يخيَّل الىَّ أننى أسرفت فى الشراب • اذن يصعب علىَّ قليلاً أن أدرك معنى كلامك •

وأضاف قائلاً وهو يضحك ضحكة ساخرة :

ـ هو نوع من أفول الفكر وغياب العقل !

اجتاح ايفان ايلتش غضب شديد وحنق قوى •

وتدخل ستيفان نيكيفوروفتش فجأة فقال :

ـ أنحن مضطرون الى أن نحتمل هذا كله وأن نعانى منه ؟

ذُهل ايفان ايلتش من هذه الجملة المبهمة المستغلقة على الفهم كأنها لغز •

ـ أقصد ••• ماذا تريد أن تقول بهذا الكلام ؟ أن نحتملوا ؟ أن تحتملوا ماذا ؟•••

كذلك سأل ايفان ايلتش رئيسه السابق ، مندهشاً من ملاحظته تلك الموجزة المفاجئة معاً •

فدمدم الآخر يقول وقد بدا عليه أنه لا يريد أن يفيض مزيداً من الافاضة :

ـ أليس هذا كله فوق طاقاتنا ؟

أجاب ايفان ايلتش :

ـ لعلك تشير الى الخمر الجديدة فى زقاق عتيقة * • فاطمئن علىَّ• أنا مسئول عن نفسى !•••

دقت ساعة الحائط الحادية عشرة والنصف •

تدخل سيمن ايفانوفتش فقال وهو يهم أن ينهض عن مكانه :

ـ ربما كان ينبغي أن تنصرف •

ولكن ايفان ايلتش كان قد سبقه • تناول قبعته الراقدة على المدفأة، وألقى على ما حوله نظرات غضبى •

قال صاحب الدار وهو يشيِّع زائريه في اتجاه حجرة المدخل :

ـ ستفكر في الأمر اذن يا سيمن ايفانوفتش •

ـ تعني البيت ؟ نعم نعم سأفكر فيه •

ـ وستبلغني قرارك ، أليس كذلك ؟

قال السيد برالنسكي باهمال متودِّد :

ـ لا شيء الا الأعمال !

كان السيد برالنسكي ، وهو منهمك في اللعب بقبعته ، يتصور أن صاحب الدار يعده مقداراً مهملاً •

وظلت ملاحظتـه بلا جواب • لقـد أراد صاحب الدار بذلك أن يُشعر زائريه بأنه لا يتمسك ببقائهما •

وادرك السيد شيبولنكو هذا ، فحيَّا مسرعاً • قال السيد برالنسكي بينه وبين نفسه : « طيب ••• اذا كنتم لا تريدون أن تفهموا عبارة ليست الا « ملاطفة » ، فليكن ما تشاءون ، ومدَّ يده الى ستيفان نيكيفوروفتش بحركة تصطبغ بنوع من الاستقلال •

وفي حجرة المدخل تلفف الجنرال الشاب بفرائه الذي يمتاز بأنه غالي الثمن خفيف الوزن دافيء في آن واحد ، متظاهراً بأنه لا يلاحظ لا يلاحظ فرة سيمن ايفانوفتش البخسة الثمن المهترئة • وهبط الموظفان الكبيران على السلَّم •

قال السيد برالنسكي :

ـ يبدو على الشيخ أنه غاضب •

فقال الآخر بلهجة هادئة باردة :

ـ غاضب ؟ ممَّ عساه يغضب ؟

فحدث ايفان ايلتش نفسه قائلاً : « يا للأحمق ! » •

وتحت الرواق ، رأى الرجلان عربةً زلاَّقة قد قُرن بها حصان أشهب • كانت العربة تنتظر السيد شيبولنكو •

صاح ايفان ايلتش :

ـ يا للشيطان ! أين مضى تريفون بعربتي ؟

وأعقب ذلك بحث طويل ، ولكن العربة ظلت غائبة • ولم يستطع خادم ستيفان نيكيفوروفتش أن يشرح غيابها ، لا ولا استطاع ذلك بربام حوذى سيمن ايفانوفتش الذى أجاب بأنه قد لبث فى المكان لم يبرحه ، فكان يرى العربة ثم لم يرها •

قال السيد شيبولنكو :

ـ حادثة مؤسفة ، قصة أليمة ! هل تريد أن أوصلك ؟

فأعول السيد برالنسكي يقول وقد استبد به حنق مفاجىء :

ـ آه ••• يا للسفلة ! ان تريفون هذا الوغد قد استأذنني فى أن يذهب الى عرس قريبة له • شيطان يأخذه • لقد نهيته عن الذهاب بشدة وقسوة ، ومع ذلك أراهن أنه ذهب الى هناك !

قال بربام :

ـ هذا صحيح •حتى انه ، قبل أن يذهب الى هناك ، وعد بأن يعود بعد لحظات •

ـ انتظر قليلاً !

قال سيمن ايفانوفتش وقد أخذ منذ ذلك الحين يدثّر ركبتيه بغطاء الجلد الذى تزدان به زلاقته :

ـ خذه الى الشرطة ، ومُرْهم بجلده !

ـ أشكر لك نصائحك وأرجوك أن لا تزعج نفسك يا سيمن ايفانوفتش .

ـ ألا تريد اذن أن أوصلك ؟

ـ شكراً . مع السلامة !

انصرف سيمن ايفانوفتش ، فنزل السيد برالنسكى عن الرصيف الخشبى ، ومضى قدماً لا يلوى على شىء وهو فريسة غيظ شديد واهتياج عنيف .

كان الجنرال يقول بينه وبين نفسه غاضباً : « انتظر قليلاً أيها الوغد تريفون ! أريد أن تفهم وأن تخاف ! آه أيها الوغد ! ليتنى أرى كيف سيكون وجهك حين تعلم متى عدت أن السيد قد انصرف سيراً على قدميه ! » .

ان الجنتلمان الكامل ، ايفان ايلتش ، لم يستعمل فى حياته حتى الآن ألفاظاً فظة هذه الفظاظة . ولكنه كان يشعر فى هذه المرة بأنه فى ذروة السخط . أضف الى ذلك أن أبخرةً كانت قد غشيت دماغه . انه لم يتعود أن يشرب كثيراً ، لهذا كانت أقداح الشمبانيا الخمس أو الست قد أحدثت أثرها .

الليلة رائعة، صحيح أن الجو صقيع ، ولكن الهواء هادىء ساكن ، والسماء صافية تملؤها النجوم ، والقمر بدرٌ يسكب على الأرض أشعته الفضية •

ما أمتع التنفس فى هذا الجو ! لذلك لم يكد ايفان ايلتش يخطو خمسين خطوة حتى كان قد نسى افعال حوذيّه السيئة نسياناً تاماً • ان ايفان ايلتش يشعر الآن بارتياح • وها هو ذا منذ الآن ، كسائر الناس المتقلبين الذين تتغير حالاتهم النفسية تغيراً قوياً من حين الى حين ، هاهوذا يأخذ يحس منذ الآن برضى وغبطة بين البيوت الخشبية الصغيرة الحقيرة التى تصطف على طول الرصيف •

قال يحدث نفسه : « كانت فكرةٌ رائعة حقاً أننى قررت السير على قدمى • هذا عدا أن ذلك سيكون درساً قاسياً لتريفون ، كما أنه سلوى كبيرة لى • بل ان علىَّ أن أقوم بنزهات من هذا النوع فى أحيان كثيرة ! » •

وهتف بحرارة وحماسة يقول وقد رقَّ قلبه وجاشت عاطفته :

ـ ما أروع هذه الليلة ! وما أفقر هذه المنازل الصغيرة البائسة ! لا شك أن سكانها موظفون صغار ، وباعة ، وربما ••• آه من ذلك السخيف ستيفان نيكيفوروفتش ! يا له من رجعى ! ما أشبهك بطاقية عتيقة من قطن يا صديقى ! نعم : طاقية عتيقة من قطن ••• تلك هى الكلمة المناسبة ، ذلك هو التعبير اللازم ! على أن هذا الرجل لا يعوزه الذكاء : انه يملك حساً سليماً ، انه يفهم الأشياء فهماً واضحاً عملياً • ولكن يا للعجوز فى مقابل ذلك ! يا للعجوز ! انه يفتقر الى ••• الى •• كيف أقول ؟ نعم ••• انه يفتقر الى ذلك الشىء •••

وفيما كان الجنرال يبحث عن الكلمة التى تفصح عما بذهنه ،

تذكَّر الجملة المستغلقة كأحجية ، التي قالها رئيسه ، لقد قال : « اننا لن نحتمل » ، فماذا كان يعني ؟ ما معنى هذا التعبير ؟ ثم انه كان مستغرقاً في التفكير حين نطق بهذه الجملة ...

ـ على أن من المؤكد أنه لم يفهم شيئاً مما كنت أقوله . ولا ضير على كل حال ... فانما الأمر الأساسي أنني أنا مقتنع ! الروح الانسانية ... حب الانسان أخاه الانسان ! ... أن نردّ الانسان الى نفسه ... أن نوقظ فيه الشعور بكرامته ... ثم نندفع الى العمل بهذه المادة الجديدة كل الجدة .

ـ نعم ، ولكن اسمح لي بقياس منطقي آخر يا صاحب السعادة : انظر مثلاً الى الموظف الصغير المبهوت . هأناذا أسأله : « من أنت ؟ » فيجيب : « موظف » ـ « طيب ... ولكن أي موظف » ـ « موظف كذا أو كذا » ـ « أين تعمل ؟ » ـ « أعمل في ... » ـ هل تريد أن تكون سعيداً » ـ « أريد ! » ـ « ما الذي تحتاج اليه لسعادتك ؟ » ـ « كيت وكيت » ـ « لماذا ؟ » « لأن ... » . ويعقب شرح صادق ، فاذا بالرجل يفهم عني ، واذا هو يصبح لي . نعم يا صاحب السعادة ! لقد احتويت هذا الرجل في شباكي ، وسأصنع به ما أشاء ! ... وذلك في سبيل خيره هو نفسه ...

وهتف يقول فجأة :

ـ يا له من شخصية تبعث على الاشمئزاز ، سيمن ايفانوفتش هذا ! ... ما أبشع تلك السحنة التي له ! « خذه الى الشرطة ومُرْهم بأن يجلدوه ! » ... تجرأ أن يقول هذا الكلام غامزاً ... لا ، لا يا صديقي احتفظ بنصائحك لنفسك ! شكراً ! لن أجلد أحداً ! سيكفيني الكلام كل الكفاية لأجعل تريفون يفهم الغلطة التي ارتكبها . أما عقوبة الجلد ... هِمْ ... فتلك مسألة لا يمكن حلها حالاً .

ان خطورة هذه المسألة قد أوقفت تأملات الجنرال ، فحاول أن يتحاشاها . وسرعان ما عرضت له أرض أخرى : « ماذا لو ذهبت أزور ايميرانس ؟ » . كذلك تساءل وهو يبتسم ابتسامة بطرة .

ولكن الجواب على هذا التساؤل لم يحضر ، لأن ساق الجنرال كادت تلتوي .

قال ايفان ايلتش غاضباً :

ـ رصيف فظيع ! ثم يُقال هذه عاصمة ! يالها من مدينة ! قد يكسر المرء ذراعيه وساقيه ! هِمْ ... لشد ما أكره سيمن ايفانوفتش هذا المزدهي المغرور ! ان له وجهاً مقيتاً بشعاً ! وما أكثر ما ضحك حين كنت أقول ان الناس سيتعانقون عناقاً روحياً . نعم ، صحيح ، سوف يتعانق الناس . وما شأنه هو وهذا ؟ لستَ أنت من سأعانق ... وانما سأعانق غلاماً ... اذا التقيت بفلاح فسوف أكلمه . ثم انني كنت سكران ، ولا شك أنني لم أفصح بوضوح ، وربما كنت حتى الآن لا أفصح بوضوح ... هِمْ ... لا أريد أن أشرب بعد اليوم !... يتحدث المرء في المساء ، ثم اذا هو في الصباح يندم ... ولكنني أسير مستقيماً مع ذلك ... ما هؤلاء الا أوغاد على كل حال !

هكذا استمر ايفان ايلتش يقذف جملاً قصيرة خالية من المعنى . كان يسير محاذياً الرصيف . وفعل الهواء الطري فعله ، فما هي الا خمس دقائق حتى كان يبدو على الجنرال أنه هدأ روعه وسكنت نفسه .

وحين صار فجأة على بعد خمسة أمتار من « الشارع الكبير » سمع أصوات موسيقى فالتفت : في الطرف الآخر من الشارع ، في منزل من خشب ، منزل عتيق طويل ذي طابق واحد ، كانت آلاتُ كمان تتناوح ، وكانت نايٌ تصوِّت ، وكانت الكونترباس تشخر على لحن

رقص ؛ وكانت تحتشد أمام النوافذ المضاءة جمهرة صغيرة • ان نساء يرتدين معاطف مبطنةً بقطن ويغطين رءوسهن بمناديل ، كنَّ يجهدن فى سبيل أن يرين شيئاً من خلال شقوق المصاريع • وكان واضحاً أن من فى داخل المنزل مبتهجون • وكانت ضجة أقدام الراقصين تصل الى سمع ايفان ايلتش • ورأى ايفان ايلتش شرطياً فاقترب منه وسأله وهو يزيح ياقة فرائه بالقدر الذى يتيح للشرطى أن يبصر وشاح الوسام الذى يزدان به عنقه :

ـ لمن هذا المنزل يا أخ ؟

قال الحارس منتصباً كالعصا لأنه لاحظ الوسام :

ـ هو منزل الموظف بسلدونيموف :

ـ بسلدونيموف ؟ ها ••• بسلدونيموف ••• أهو يتزوج اذن ؟

ـ نعم يا صاحب السعادة ••• انه يتزوج ابنة الموظف ماميفيروف ••• وقد وُهب له هذا المنزل مهراً •

ـ اذن أصبح المنزل مِلْك بسلدونيموف لا مِلْك ماميفيروف* •

ـ نعم يا صاحب السعادة • فى هذا الصباح كان المنزل ما يزال مِلْك ماميفيروف ، أما الآن فقد أصبح ملك بسلدونيموف •

ـ هِمْ ••• أنا أسألك عن هذا الأمر يا أخ ••• أنا أسألك عن هذا كله ••• لأننى رئيسه • أنا جنرال فى المكتب الذى يعمل فيه بسلدونيموف •

ـ نعم يا صاحب السعادة •

بدا على الحارس مزيد من الاستطالة والانتصاب ، وظهر على ايفان ايلتش الوجوم والتفكير • كان يلوح أنه يدبر أمراً ما •••

ان بسلدونيموف ينتمى فعلاً الى الدائرة التى يرأسها الجنرال •
ان الجنرال يتذكر جيداً ذلك الموظف الصغير الذى يتقاضى راتباً قدره عشرة روبلات فى الشهر • فان السيد برالنسكى ، رغم أنه لم يرأس هذه الدائرة الا منذ بضعة أيام ورغم أنه لم يستطع أن يحفظ أسماء جميع مرءوسيه ، قد حفظ اسم بسلدونيموف خاصةً ، لما لهذا الاسم من وقع خاص ولأنه اسم مستغرب لا يُتوقع • وقد أعرب الجنرال عن رغبته فى أن يرى صاحب هذا الاسم الغريب من كثب ، فلما جيء به اليه رأى أمامه شاباً فى أول الشباب له أنف طويل معقوف ، وله شعر باهت قد نبت على رأسه حزماً حزماً ، وله جسم هزيل من سوء التغذية ، وقد ارتدى بزة حقيرة وسروالاً يكاد يخرج عن حدود الاحتشام •

تذكر السيد برالنسكى هذا كله ، بل تذكر أيضاً أنه قد تساءل حين رأى هذا «الكاريكاتور» : ألا ينبغى اعطاء هذا المسخ المسكين عشرة روبلات من باب المكافأة ليستطيع أن يرتدى ملابس لائقة ؟ ولكن لما كان هذا الشقى يبدو كمن يشارف على نهايته ، ولما كانت نظرته ، عدا ذلك ، غير محببة كثيراً ، فان هذا القرار الطيب الذى خطر ببال الجنرال لم يلبث أن تبخر ، فلم يتلق بسلدونيموف مكافأة ، وظلّ شحاذاً كما كان •

وقد اندهش الجنرال بعد ذلك مزيداً من الاندهاش حين رفع اليه بسلدونيموف هذا نفسه طلب استئذان بالزواج •

وقد تذكر ايفان ايلتش الآن أنه قد وافق على منحه ذلك الاذن فوراً ، دون أن يتريث لدرس الموضوع ، ولكنه قد حفظ عندئذ هذا الأمر : أن الخطيبة تقدم لخطيبها مهراً هو بيت من خشب واربعمائة روبل عداً ونقداً •

كان هذا كله يحاصر ذاكرة برالنسكى الآن ، وكان برالنسكى يبدو غارقاً فى تأملات خارقة •

انكم تعلمون أن أفكاراً كثيرة متالية تجتاز أدمغتنا فى بعض الأحيان بسرعة كسرعة البرق ، وتعرض لنا فى صورة احساسات لا يمكننا أن نصوغها صياغة أدبية ، بل ولا تستطيع أية لغة انسانية أن تعبر عن دلالتها تعبيراً دقيقاً . ولكننا لن نقف الآن أمام مصاعب هذه المهمة ، وسنحاول أن نؤول ما اشتملت عليه أفكار بطلنا من أمور هى أبعدها عن السخف ان لم نحاول أن نؤول معنى هذه الأفكار بأكمله . صحيح أن الخواطر والاحساسات التى عاناها ايفان ايلتش تفتقر الى المنطق بعض الافتقار ، ولكنكم لا تجهلون سبب هذه البلبلة وهذا التخبط .

قال السيد برالنسكى يحدث نفسه : « انه ليتفق لنا أن نقول أشياء كثيرة ، ولكننا نتقهقر ونتراجع متى حانت ساعة التنفيذ ! لننظر مثلاً الى بسلدونيموف هذا : انه يعود من الكنيسة مرتعشاً من الانفعال ! انه يأمل أن يذوق الثمرة التى حُرِّمت عليه حتى الآن !... هذا طبعاً يوم من أجمل أيام حياته ... انه يُعنى بضيوفه ، ويهيىء احتفالاً لن يعوزه لا الفرح ولا الصدق ، رغم أنه احتفال بسيط ، ان لم نقل انه احتفال فقير !...

« فما عسى يحدث اذا هو علم ، فى هذه اللحظة نفسها ، أننى ، أنا رئيسه المباشر الكبير ، واقف هنا ، أمام منزله ، أصغى الى الموسيقى ؟

« حقاً ، ما عسى يحدث — اننى أسألكم هذا السؤال — اذا أنا خطر ببالى فجأة أن أدخل على هذا المسكين ؟

« هِمْ ... ان بسلدونيموف سيصاب عندئذ بالبكم من شدة الرعب والانفعال ، وقد يسقط على ظهره ، ولا شك أن دخولى سيقلب كل شىء ... نعم ... هذا ما سيحدث اذا دخل على بسلدونيموف جنرال غيرى ، نعم ... جنرال غيرى ... أما أنا فلا ...

« نعم يا ستيفان نيكيفوروفتش ، نعم يا من كنت منذ قليل لا تفهمنى فيما يبدو ... خذ ... هذا مثال من شأنه أن يفقأ عينيك .

« نحن جميعاً ، معشر المتكلمين عن الروح الانسانية ، هل نستطيع أن نقوم بعمل بطولى واحد ؟ نعم ، نحن نستطيع ذلك . وقد تسألوننى : فأين البطولة فى هذا كله ؟ ألا فاسمعوا اذن :

« ما دامت العلاقات الراهنة بين أفراد المجتمع هى الآن على ما هى عليه ، فما قولكم اذا خطر فجأة ببال مستشار دولة أن يحضر عرس واحد من مرءوسيه هو موظف بسيط راتبه عشر روبلات فى الشهر ؟ ... وفى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل فوق ذلك ؟... ما قولك فى هذا ياستيفان نيكيفوروفتش ؟

« سوف يصيحون : يا للفضيحة ! ، وسوف يصفون هذا العقل بالجنون، وسوف يعولون قائلين فى آخر الدنيا «هذا آخر أيام بومبئى»*، وسوف يقولون ما لا أدرى أيضاً . لن يكون أحد قادراً على أن يفهم هذا الفعل ، حتى ولا أنت يا ستيفان نيكيفوروفتش الذى تبدو مع ذلك انساناً ذكياً ... لأن أحداً من رجال الماضى هؤلاء المشلولين الأغبياء لن يكون قادراً على القيام بهذا الفعل الذى أعرضه عليك !... أما أنا فسأقوم به ... أنظر كيف أحيل « آخر أيام بومبيئى » الى أجمل يوم فى حياة مرءوسى المسكين البائس !... ان العمل الذى تصفه بالجنون سيستحيل بفضلى حادثاً تاريخياً له دلالة أخلاقية بعيدة المدى لا يمكن حسابها !

« لعلك تسألنى : كيف أتدبر الأمر ؟ فاسمع اذن . لنفرض اننى دخلت على بسلدونيموف . ماذا يحدث عندئذ ؟ ذهول عام فى أول الأمر طبعاً ... ان الناس المشتركين فى حفلة العرس سيقطعون رقصاتهم على

الفور ، وسيتوقفون وقد اتسعت عيونهم ذعراً ، وسيتراجعون تراجع الأمواج عند الجزر !...

« نعم ، ولكنني فى تلك اللحظة انما سأستعمل كل كياستى لتهدئة روعهم ، وردهم الى الراحة والطمأنينة .. أمضى الى بسلدونيموف الذى يتأملنى مرتعشاً من الخوف ، فابتسم له ابتسامة المودة الكاملة ، وأخاطبه بكلام موجز بسيط قائلاً له :

« ــ هأناذا ! اننى آتٍ منعند صاحب السعادة ستيفان نيكيفوروفتش. أظن أنك تعرفه . انه يسكن غير بعيد .

« ثم أسارع فأروى قصة فكهة من شأنها أن ترد جميع الحضور الى الراحة والدعة ، فلا شيء كالفكاهة يزيل الحرج ويبدد الارتباك . أحكى قصتى مع تريفون ، وأروى كيف قررت أن أمشى على قدمىَّ . أنت تدرك ، أليس كذلك ؟

« اسمع . اليك هذا المثال عن حكايتى الفكهة :

« سمعت موسيقى على حين فجأة ، فسألت الشرطى ، فعلمت أنك تحتفل بعرسك ، فخطرت ببالى فكرة فقلت لنفسى : « فلأزر مرءوسى الطيب، لأرى كيف يتسلى الموظفون فى دائرتى و.. كيف يتزوجون !».

« ــ آمل أن لا تطردنى !

« أن لا تطردنى ! يا لها من كلمة تقال لمرءوس ! ألا انه سيطير من هذه الكلمة صوابه ! وها هو ذا يضطرب حولى ، ويأتينى بمقعد ، ويرتعش فرحاً ، ويشعر بأنه عاجز عن تقدير السعادة التى تسقط عليه.

« أى فعل أكثر بساطة وأعظم أناقة ورشاقة من هذا الفعل ؟ فاذا سألتمونى لماذا دخلت عليه قلت هذا سؤال آخر ، هذا سؤال يشتمل على الجانب الأخلاقى من الأمر ان صح التعبير .

قال ايفان ايلتش يسأل نفسـه وهو يضع يده على جبينـه : « ماذا كنت أريد أن أقول ؟ آ ... نعم !

« ها هم أولاء يجلســونني قرب مدعو مرموق هـو موظف من الموظفين أو كابتن محال على التقاعد له أنف أحمر جميل ... ما أجمل تلك الصفحـات التي دبجتها يراع جـوجول في وصف أمثـال هؤلاء الناس !

« ثم أتعرف على العروس ، وأقول لها بضع كلمات لطيفة طبعاً . ولن يفوتني أن أشجع الراقصين أيضاً : سأطلب اليهم أن يستمروا في لهوهم . وسأضيف الى ذلك وأنا أضحك ضحكة صغيرة أشبه بضحكة طفل بريء :

« ـ استمروا في لهوكم كما لو لم أكن حاضراً !...

« سوف ألقي فكاهات ، وسوف أضحك ، وسوف أكون في غاية اللطف والظرف ، كما أجيد ذلك في لحظات بهجتي ...

« هِمْ ... أقصـد ... أحسب أنني أسرفت في الشراب بعض الاسراف ...

« ولما كنت امرءاً جنتلمـاناً ، فلن أطالبهم باظهـار أي علامة من علامات الاحترام طبعاً ... ولكن هذا أمرٌ آخر من الناحية الأخلاقية. ان فعلي سيبعث في نفوسهم عاطفة قديمة نبيلة : سوف يفهمون ، وسوف يقدرون !

« وسأمكث عندهم على هذه الحال نصف ساعة ، وقد امكث ساعة كاملة ، ثم انصرف حتى قبل العشاء . ويكونون قد دعوني الى العشاء مع ذلك ، ويكونون قد ألحوا أن أبقى ، ولكنني أرفض عرضهم قائلاً :

« – تعرفون طبعاً أن هناك أعمالاً تناديني ... وتضطرني الى الانسحاب .

« وسأكتفي بأن أفرغ كأساً من الشمبانيا تكريماً للعروسين .

« وسيكون من شأن اللهجة الرصينة وكلمة « الأعمال » أن تردّا الى وجوههم صرامتها التي تعبّر عن الاحترام . سوف تذكرهم هذه الكلمة السحرية تذكيراً لطيفاً كيّساً بكل ما يفرّق بيننا . انها تشير الى المسافة التي تفصلني عنهم وتفصلهم عني : هي مسافة بعيدة بعد الأرض عن السماء !

« ليس معنى هذا أنني أريد أن أفرض مهابتي عليهم ، ولكن هذا التحفظ يظل أمراً لازماً للدلالة الأخلاقية الروحية التي يتضمنها فعلي .

« ثم انني لن ألبث أن أسترد ابتسامتي ، فأمازحهم قليلاً لأشجعهم ... وسأقول للعروس بضع ملاطفات أخرى ... هِمْ ... هِمْ ... ماذا أستطيع أن أقول لها ؟

« ها ... نعم ... وجدت ما يجب أن أقوله لها : أشير الى أنني سأزورها بعد تسعة أشهر عراباً . عظيم ! لا شك أنها ستكون بعد تسعة أشهر قد ولدت ... هؤلاء أناس يتناسلون كالأرانب . ويضج الحضور بالضحك لمزاحتي ، وتحمر العروس حياءً لطيفاً ، فأقبل جبينها ، بل وأباركها ... وفي الغد ، في الغد تعلم جميع المكاتب ببطولتي وتقدرها قدرها !

« ورغم أنني سأعود الى شدتي وقسوتي وصلابتي ، فان جميع الناس سيعرفونني وسيعرفون من أنا فيقولون حين يتحدثون عني :

« – انه قاس من حيث هو رئيس ، ولكنه ملاك من حيث هو انسان ! .....

« وهكذا انتصر ، هكذا أربح المعركة : اكتسب قلوب الملأ ، فأنا الأب وهم أبنائي ...

« هيَّا افعل شيئاً يشبه هذا ياصاحب السعادة ستيفان نيكيفوروفتش!

« هل تعلم الآن ، هل تفهم الآن ما معنى هذا ؟ لاحظ أن بسلدونيموف نفسه سيقص على أبنائه فى المستقبل أن جنرالاً قد حضر عرسه ، بل وأنه شرب فى العرس شمبانيا . نعم ، سيقول هذا لأبنائه الذين سيقولونه هم أيضاً لأبنائهم ! وسيظل الناس يتحدثون عن هذا الأمر زمناً طويلاً فى سهراتهم ؛ وسترتقى هذه القصة الصغيرة التى كان بطلها رجلاً من كبار الموظفين ، رجلاً من رجال الدولة ، سترتقى هذه القصة الصغيرة الى مصاف الأساطير المقدسة . سأكون قد أنهضت روح انسان مذل ، انسان مسكين فقير ، سأكون قد رددت هذا الانسان الى نفسه وغرست فيه فى الوقت نفسه أجمل المبادىء الأخلاقية !

« ويكفى أن أكرر هذه الرحلة مرتين أو ثلاثاً حتى أكتسب شعبية واسعة شاملة ...

« سيُحفر اسمى فى جميع القلوب . وهل يدرى أحد الى أين تؤدى الشعبية ؟ » .

هكذا كان يفكر ايفان ايلتش . ما أكثر ما يمكن أن يقوله لنفسه انسانٌ أثَّر فيه الشراب بعض التأثير ! وان جميع هذه الخواطر والأفكار قد اجتازت رأسه فى أقل من دقيقة واحدة . وكان يمكن أن يكتفى صاحبنا بأحلامه هذه ، وأن يتابع سيره فى الطريق الى منزله هادئاً ، بعد أن أفحم ستيفان نيكيفوروفتش هذا الافحام وبعد أن أخجله من نفسه على هذه الصورة . ولا شك أن رجوعه الى منزله هو خير ما كان يمكن أن

يفعله حينذاك • ولكن شاء سوء الحظ أن تكون تلك الدقيقة دقيقة غريبة شاذة •

ففي تلك اللحظة نفسها صوّر له خياله ، بما يشبه العمد ، أنه يرى وجهي ستيفان نيكيفوروفتش وسيمن ايفانوفتش متهللين راضيين • وهذا ستيفان نيكيفوروفتش يقول له بلهجة حاقدة وضحكة ماكرة ساخرة :

« لن تملك الشجاعة اللازمة ، لن تملك القوة الكافية ، لن تملك القوة الكافية » •

وهذا سيمن ايفانوفتش يصاحب كلام زميله بضحكة وقحة :

« هيء هيء هيء » ، فاذا بهذه الضحكة تثير حنق الجنرال الشاب آخر الأمر ، واذا هو يقول بلهجة قاطعة وهيئة حازمة :

ـ سنرى أأملك الشجاعة أم لا ؟

وصعد الدم الى رأسه ، فترك الرصيف ، وعبر الشارع بخطو ثابت ، ليدخل منزل مرءوسه الموظف الصغير بسلدونيموف •••

كان قدره يقوده • ها هو ذا يجتاز باب الحديقة الصغيرة التي تفضي الى الدار ، سائراً بخطى حازمة • وهذا كلب صغير طويل الشعر أبح الصوت ينبرى له محاولاً أن يتسلل بين ساقيه نابحاً نباحاً أجش ، فيدفعه الجنرال عنه في احتقار وازدراء •

مشى ايفان ايلتش محاذياً فروع أشجار الصفصاف التي تؤدي الى الشرفة ، ثم صعد الدرجات الضيقة الثلاث التي تقرّبه من المدخل • كان هنالك عقب شمعة أو شيء من هذا القبيل ، ولكن هذا الضوء

الضئيل لم يمنع الزائر المفاجيء من أن يطأ بقدمه طبق طعام كان يبترد في ركن من الأركان •ومال ايفان ايلتش على الأرض مستطلعاً مستغرباً فرأى طبقين آخرين فيهما حلوى • وقد أزعجه أنه داس طبق الطعام فسحقه ، وأوحى اليه ذلك بفكرة سريعة عابرة هي أن يلوذ بالفرار • ولكنه لو هرب لعدَّ ذلك جبناً ، لا سيما وأنه لم ير حتى الآن مخلوقاً قط • وها هو ذا يمسح حذاءه بحركة سريعة ليزيل علامات خراقته • ثم ها هو ذا يجس باباً فيفتحه ، فاذا هو يجد نفسه في حجرة صغيرة هي حجرة المدخل التي يزدحم نصفها بمعاطف وفروات وقبعات وأوشحة وجراميق ، ويقبع في نصفها الثاني أربعة موسيقيين لا شك أنهم جُمعوا من الشارع ، وهم عازفان على الكمان ، وعازف على الناي ، وعازف على الكونترباس •

كان هؤلاء الفنانون جالسين حول مائدة خشبية تُحتضر في وسطها شمعة ، وكانوا يختمون عزف لحن من ألحان الرقص • ومن خلال الباب المفتوح يُرى الراقصون الذين يتحركون وسط سحابة من الغبار والدخان •

ان مرحاً جنونياً يسيطر على الحجرة • ضحكات النساء وصيحاتهن تنطلق من كل جانب • والراقصون يقرعون الأرض بأعقابهم فكأنهم كوكبة من الفرسان • وفوق هذه الجلبة كلها يحلّق صوت قائد الرقص وهو فتى منطلق الحركات كان يصيح آمراً : « الراقصون يتقدمون ! ••• حلقة السيدات ترجع ! » ، الخ •

خلع ايفان ايلتش فروته ونزع عن قدميه خفّي المطاط ، منفعلاً بعض الانفعال ، ودخل الى الصالة ممسكاً طاقيته بيده • وكان قد انقطع عن التفكير •••

لم يلاحظه أحد في الوهلة الأولى ، لأن الحضور جميعاً كانوا

مشدودين الى الرقص منهمكين فيه . فلبث ايفان ايلتش على هذه الحال بضع لحظات كالمذهول لا يستطيع أن يميز أى شيء فى هذه الفوضى التى يضطرب فيها نحو ثلاثين شخصاً يتصبب منهم العرق . وكانت أثواب السيدات تلامسه ملامسة سريعة أثناء مرورهن به . وكان الراقصون يقذفون وجهه بدخان سيجاراتهم الموضوعة بين شفاههم . وهذا وشاح أزرق يدغدغ أنفه ... ثم هذا طالب يدور على نفسه وقد طار شعره فى الهواء ، يلكزه بكوعه . ووراء الطالب ضابط طويل كعمود ، يصوِّت من شدة الفرح .

أحسّ ايفان ايلتش تحت قدميه بشيء لزج : أغلب الظن أن أرض الغرفة قد طُليت بالشمع .

وانقضت بضع دقائق . فلما انتهى الرقص توقفت الحركة فجأة . وعندئذ انما بدأ يجرى الحدث « التاريخى » على نحو ما تنبأ به الجنرال .

لقد قامت على حين بغتة دمدمة غير مألوفة جرت بين الحضور الذين لمّا يتسع وقتهم بعد لأن يعودوا الى أنفسهم ويتنفسوا ويجففوا العرق الذى كان يسيل من جباههم .التفتت جميع الوجوه نحو القادم الجديد ، وهبّت ريح من ذعر ، فأخذ الجمهور يتقهقر . والذين لم يفهموا الأمر بعدُ سرعان ما نبهّهم اليه جيرانهم بشدّ حافات ثيابهم ، فالتفتوا مسرعين ، وهرعوا يجارون الحركة العامة .

أما ايفان ايلتش ، الذى ما يزال واقفاً عند عتبة الباب ، فقد لا حظ بشيء من الانزعاج أن المسافة التى تفصله عن المدعوين ما تنفك تكبر من لحظة الى أخرى . ان الفراغ الذى ينشأ أمامه يتسع بغير انقطاع ، كاشفاً عن أرض الغرفة التى تغطيها الأوساخ وتتناثر عليها مزق ورق القصدير وأغلفة المربيات المبعثرة ، وقشور الجوز وأعقاب السجائر .

وهذا الفراغ ، هذا الفراغ الذى لم يكن فى الحسبان ، ما ينفك يكبر ، ثم يكبر ...

ثم تحرك الفضاء : فهذا شاب يرتدى فراكاً قد دخل ، فرأى فيه الجنرال ذكرى الشعر الأشقر الباهت ، والأنف الأقنى المنحنى .

انه بسلدونيموف بعينه يتقدم من الجنرال معبِّراً بكيانه كله عن هيئة الخضوع تلك التى ينظر بها الكلب الى مولاه حين يناديه هذا ليكافئه بركلة من قدمه .

هتف الجنرال يقول فرحاً كل الفرح :

ـ يومك سعيد يا بسلدونيموف ! أرى أنك قد عرفتنى .

ولكن الجنرال أدرك ما فى مناداته هذه من خراقة ، وأخذ يفهم أنه بسبيل ارتكاب حماقة هى من أضخم ما ارتكب فى حياته من حماقات.

تأتأ الموظف الصغير يقول :

ـ صا ... صاحب السعادة !

ـ مساؤك سعيد ، مساؤك سعيد يا صديقى ! هأنت ذا ترى أننى أصل مصادفةً تماماً ... ستحكم على الأمر بنفسك .

ولكن من الواضح أن بسلدونيموف كان عاجزاً عن أن يحكم على أى أمر من الأمور . لقد انعقد لسانه وتجمد جسمه ، وجحظت عيناه ، وتسمَّر فى مكانه على ذعر لا سبيل الى مغالبته .

ـ آمل أنك لن تطردنى ؟

وتابع ايفان ايلتش يقول وهو يشعر بازدياد اضطرابه :

ـ ان كرم الضيافة يوجب عليك أن تحتفظ بى ، سواء أسرك ذلك أم ساءك •

لم يستطع الموظف الصغير أن يخرج من ذهوله وخدره وظل يتأمل رئيسه بهيئة غبية كل الغباء ، بلهاء كل البلاهة •

خطر ببال ايفان ايلتش ، في لحظة من اللحظات أن يبتسم ، ولكنه لم يستطع ذلك ، ولاحظ عندئذ أن الحرج يزداد شيئاً بعد شيء • ان الحلم الجميل الذى بناه حين كان واقفاً على الرصيف أمام المنزل يبتعد الآن ويبتعد حاملاً معه الحكاية الفكاهية التى كان عليها أن تكسر الجليد وتلطف الجو •

وهذا تيار كهربائى يجتاز فوراً جسم الجنرال الذى توقع ، وهو منقبض الصدر ، أن يتحقق حتماً شيء غير منتظر ، شيء سخيف جداً لا يجرؤ حتى أن يتصوره •

ومع ذلك قام الجنرال بجهد يائس مستميت • ودمدم يقول :

ـ لعلنى أزعجك ••• أنا ذاهب •

واختنق صوته فى حلقه ، وارتعشت شفته السفلى فى تشنج •

فلما ثاب بسلدونيموف الى نفسه أخيراً ، انحنى نصفين ، مرة أولى فثانية ، فثالثة ، وجلجل يقول :

ـ صا ••• صاحب السعادة ••• أرجوك ••• من فضلك ••• تكرم ••• شرفنا •••

وانبثت فى نفسه على حين فجأة بطولة ما كان لأحد أن يتصورها فيه ، فهرع نحو الكنبة التى كانت قد أبعدت عن المائدة من أجل الرقص، وهى التى تلاصقها فى العادة •

قال المرءوس المسكين مجمجماً :

ـ تفضل فاجلس •

فهدأت نفس ايفان ايلتش قليلاً ، وتهالك على المقعد المتداعى •

وبنظرة ألقاها على القاعة أدرك أنه وحده الجالس • أما سائر الحفل ، وحتى السيدات ، فقد لبثوا واقفين • تطيَّر ايفان ايلتش من هذه الواقعة ، وقدَّر أنها تنذر بشر ، ولكنه لم يحاول شيئاً لتغيير هذه الحال ، لاعتقاده بأن ساعة التسامح لم يحن حينها بعد •

وظل المدعون يتراجعون ، وكان بسلدونيموف يشغل وسط الغرفة وعلى وجهه ابتسامة عقوق •

وكان الجنرال الشقى يتساءل : « رباه ! كيف السبيل الى الخروج من هذه الورطة ؟ ••• » •

والحق أن الانزعاج الذى كان يقاسى منه فى تلك اللحظة قد بلغ من الشدة أن غزوته التى تشبه غزوات هارون الرشيد ، والتى قررها وعزم أمره عليها فى سبيل مبدأ ، كان يمكن بسهولة أن تكون فى عداد أعمال التاريخ البطولية •

ولم يكن الخلاص مع ذلك بعيداً بعداً كبيراً •

فمنذ ذلك الحين كان هناك رجل قصير قد وقف قرب بسلدونيموف وهو يحيى تحيات كبيرة ••• فما كان أعظم سرور ايفان ايلتش بل وما كان أشد فرحه حين عرف فى هذا الرجل واحداً من رؤساء المكاتب فى دائرته : انه آكيم بتروفتش زوبيكوف الذى كان يعرف الجنرال أنه رجل كبير القيمة شديد الطاعة كثير الصمت •

فسرعان مانهض الجنرال مبتسماً فمد الى آكيم بتروفتش لا أصبعين

من أصابع يده فحسب ، بل مدّ اليه يده كلها • فشد آكيم على يد رئيسه بيديه المعروقتين كلتيهما • وكان وجهه المحلوق حلاقة ناعمة يعبّر عن أعمق الاحترام • لقد انقذ كل شيء •

لقد انتصر الجنرال • وها هو ذا يتنفس الآن بحرية • ان ظهور آكيم الذى أرسلته العناية الالهية يحمل الخلاص والنجاة : ان وجود رئيس المكتب الصغير هذا يمكن أن يكون كافياً كفاية تامة من حيث هو جمهور يستمع الى القصة الفكاهية • أما بسلدونيموف الذى أصبح منذ الآن فى المنزلة الثانية أو الثالثة ففى وسعه أن يحافظ على وضعه الغبى كل الغباء الأبله كل البلاهة • حتى ان هذا الوضع يمكن أن يُعد نوعاً من التعظيم والتبجيل • ولكن القصة أمر لا بد منه ولا غنى عنه مدخلاً الى الموضوع : لقد كان ايفان ايلتش يرى ذلك فى حب الاستطلاع الذى كان يظهره جمهور المستمعين الذى تضخم بانضمام عدد غفير اليه يتألف من الخادمات وغير الخادمات من أهل الدار ، الذين احتشدوا على الأبواب ينتظرون شيئاً ما •

ان العقبة الوحيدة التى تحول دون حسن سير الأمور انما هى الآن هذا الوضع المسرف فى الخضوع الذى يصطنعه الموظف العجوز اذ يصر على أن يبقى واقفاً •

قال له ايفان ايلتش وهو يشير الى مكان قربه :

ـ هيَّا اجلس ، ماذا تنتظر ؟

ـ عفوك • أنا هنا بخير •••

ولم يلبث آكيم بتروفتش أن أسرع يجلس على كرسى مده اليه بسلدونيموف •

بدأ ايفان بتروفتش يقول وهو يخاطب آكيم بتروفتش وحده :

ـ اسمع هذه القصة الخارقة التي وقعت لى منذ قليل !

كان صوته ما يزال يرتجف رغم أنه قد هدأ بعض الهدوء واطمأن بعض الاطمئنان .

انه يمط ألفاظه ، ويفصل بعضها عن بعض ، ويؤكد المقاطع ، ويلفظ الألف مائلة . كان الجنرال ، على شعوره بأنه يمثل تمثيلاً ، لا يفلح فى الوصول الى السيطرة على نفسه ... ان قوة خارجية كانت تحول بينه وبين ذلك ، وتجعله يتألم ألماً لا نهاية له . قال :

ـ تصور أننى آت من عند ستيفان نيكيفوروفتش الذى لا شك أنك سمعت عنه ... انه مستشار الدولة المعروف ...

انحنى آكيم بتروفيتش باحترام عظيم ، منثنياً نصفين ، كأنه يريد أن يقول : « هل يمكن لأحدٍ أن لا يعرفه » .

وتابع ايفان ايلتش كلامه مخاطباً بسلدونيموف من باب الكياسة قائلاً :

ـ هو الآن جارك !

ولكنه سرعان ما رأى فى عينى مرءوسه أن هذا الخبر لم يثر فى نفسه شيئاً ، بل تركه بارداً كل البرود ، فاتجه الجنرال الى رئيس المكتب من جديد قائلاً له :

ـ لقد ظل العجوز طوال حياته ، كما تعلم ، يحلم فى أن يكون له منزل يملكه . وها هو ذا قد اشترى المنزل . وهو فى الحق منزل جميل جداً ! وقد اتفق أيضاً أن جاء موعد هذا فى يوم عيد ميلاده الذى كان

قد حرص قبل ذلك زمناً طويلاً على أن يخفيه ، ربما عن بخل منه ... هيء هيء هيء ... ولكنه الآن قد بلغ من فرط سعادته بأن يرى نفسه مالكاً . انه دعانا الى منزله أنا وسيمن ايفانوفتش ... أغلب الظن أنك تعرف شيبولنكو .

عاد آكيم بتروفتش ينحنى بحماسة محمودة من شأنها أن تسر ايفان ايلتش وأن تبهج قلبه . وكان ايفان ايلتش قد أحس من قبل أن مرءوسه يريد أن يصطنع مظهر خطورة الشأن وعلو المنزلة باعتبار نفسه معيناً لصاحب السعادة لا غنى له عنه !

وأردف الجنرال يقول :

ـ وقد سقانا شمبانيا وتحدثنا كثيراً ... فى شئون الأعمال طبعاً ... حتى لقد تناقشنا بعض الشىء ... هيء هيء هيء .

رفع آكيم بتروفتش حاجبيه باحترام وتابع الجنرال كلامه فقال :

ـ لكن الأمر ليس هنا . لقد استأذنت بالانصراف ، فأنت لا تجهل طبعاً أن العجوز يأوى الى فراشه فى ساعة مبكرة .. ان للسنّ أحكامها وضروراتها كما تعلم ... وخرجت... فاذا بى لا أرى صاحبى تريفون فى انتظارى . وسألت عنه ، وقلقت متسائلاً عن عربتى : « أين ذهبت ؟ » فعلمت أسباب غياب تريفون . لقد ذهب هذا الحوذى الى حفلة زفاف أخت له أو قريبة ، لست أدرى ... وكان يحسب فى أغلب الظن أننى سأمكث عند صاحبى مدة أطول ... الخلاصة ... لقد ذهب به الشيطان ، به وبالعربة على السواء !...

هتف آكيم بتروفتش الذى كان يبدو عليه الهول والروع مما أباحه الحوذى لنفسه من حرية ، هتف يقول :

ـ رباه !

وسرت في الجمهور همهمة دهشة • ونظر الجنرال مرة أخرى الى بسلدونيموف ، فرأى وجهه جامداً لا يعبر عن معنى ، حتى لكأنه لا يكترث أي اكتراث لقصة المصائب التي نزلت برئيسه • حدّث الجنرال نفسه قائلاً : « لا شك أنه امرؤ لا قلب له ولا شفقة فيه » •

عاد الجنرال ينظر الى الضيوف ويخاطبهم قائلاً :

ـ فانظروا الى الظرف الذي صرت اليه ! لم يبق لي في الأمر حيلة • أصبح لا بد لي من الانصراف سيراً على القدمين • خطر ببالي أن أمضي ماشياً حتى « الشارع الكبير » عسى أن أجد هنالك عربة من العربات الحقيرة تقلني الى منزلي ••• هيء هيء هيء •

ـ هيء هيء هيء •

كذلك فعل آكيم بتروفتش يرافقه في قهقهته باحترام وتبجيل •

وهزّت الجمهورَ همهمةٌ جديدة ، ولكنها في هذه المرة أقرب الى الفرح وأدنى الى المرح •

وفي تلك اللحظة فرقعت زجاجة أحد المصابيح ، فسرعان ما هرع أحدهم يعيد ترتيب الأمور • وأفاق بسلدونيموف فجأة من خدره ، فنظر الى المصباح مروّعاً ، ولكن الجنرال لم يلحظ شيئاً ، وعاد كل شيء الى الهدوء •

استأنف الجنرال حكايته فقال :

ـ مشيت في الليل • والسرى في الليل جميل كما تعلمون • فاذا أنا أسمع في هدأته أصوات موسيقى ، فسألت شرطياً فقال لي : « انه بسلدونيموف يتزوج » •

توقف الجنرال عن الكلام ، ثم اتجه يخاطب فى هذه المرة بسلدونيموف قائلاً :

ـ هيه ياأخ ! انك تقيم احتفالات تُسمع أصواتها فى بطرسبورجسكايا ستورونا كلها . هأ ! هأ ! هأ ! .

وقهقه آكيم بتروفتش بعده ...

ـ هىء هىء هىء .

فكان من شأن ضجة هذه الضحكات أن أيقظت الضيوف ، فأطلقوا من حناجرهم أصواتاً مهذبة تنم عن الاحترام . ومع ذلك فان بطل الحفلة ، بسلدونيموف المسكين ، الذى كان ينحنى فى كل لحظة ، لم يفلح فى أن يبتسم ابتسامة واحدة . « أهو اذن من خشب ؟ » .

حدث ايفان ايلتش نفسه قائلاً : « ألا انه لأبله معتوه ! ان الحمار نفسه كان يمكن أن يضحك لو سمع قصة كهذه القصة ! آه ! ألا ليته يريد فحسب ، اذن لجرى كل شىء سمناً وعسلاً ! » .

ونفد صبر الجنرال ، وضاق صدره ، وتابع كلامه يقول :

ـ قلت لنفسى : « فلأدخل الى مرموسى . آمل ألا يطردنى ! ليكونن مضطراً الى استقبال الضيف سواء أسرّه ذلك أم ساءه ! » . معذرة يا أخ . قل لى : هل أزعجك فى شىء من الأشياء ؟ لأنصرفن فوراً اذا كنت أزعجك ... فانما أنا جئت لا لشىء غير أن أرى ما يجرى عندكم !...

لقد اتجه الجنرال بذلك السؤال الى بسلدونيموف ، فلما لم يجب هذا بشىء انبرى آكيم بتروفتش الذى كان يتأمل الجنرال برقة عظيمة ولطف كبير فقال :

ـ كيف يمكن أن يخطر ببال صاحب السعادة أنه يزعجنا !...

وتحرك الضيوف فظهرت عليهم أولى علامات الارتياح و « زوال الكلفة » وجلست جميع السيدات تقريباً . هذه اشارة طيبة وبشرى ممتازة . حتى أن الجريئات منهن أخرجن مناديلهن وأخذن يهوّين بها وجوههن . وهذه احداهن ترتدى ثوبا من مخمل مهترىء بعض الشيء ، تبيح لنفسها فوق ذلك أن تقول بعض الكلام بصوت مسموع . وقد أراد الضابط الذى خاطبته أن يجيبها بصوت أعلى من صوتها أيضاً ، ولكنهما أدركا من الصمت الشامل الذى أستُقبل به حديثهما أنهما وحدهما يتكلمان ، فسرعان ما لاذا بالصمت .

وكان الرجال ، وهم عدد من صغار الموظفين ومن الطلاب ، يتبادلون النظرات اختلاسا ، ويلكز بعضهم بعضاً بكوعه ، ويتحركون هنا وهناك فى كل اتجاه .

حتى اذا انقضى الخوف وذهبت الخشية أخذ الضيوف ينظرون الى الدخيل بشىء من عداوة ، وحاول الضابط الذى أدرك الآن ما أظهره من نقص الشجاعة منذ قليل ، أن يصلح الأمر ، فأخذ يقترب شيئاً فشيئاً من المائدة التى تجاور الكنبة .

قال ايفان ايلتش مخاطباً بسلدونيموف :

ـ هل لى أيها الأخ أن أسألك عن اسمك واسم أبيك ؟

فما أسرع ما انتصب بسلدونيموف واقفاً وقال فيما يشبه العواء :

ـ بورفير بتروفتش ، يا صاحب السعادة !

ـ هلاّ قدمتنى الى عروسك الشابة يا بورفير بتروفتش ! قدنى اليها ...

وهمّ الجنرال بالوقوف • ولكن بسلدونيموف كان قد أخذ يجرى فى الصالون جرياً سريعاً •

ان العروس الشابة التى ظلت طوال مدة المناقشة واقفة قرب الكنبة، أسرعت تختفى منذ أدركت أن الحديث قد دار الآن عليها ، ولكن احتياطها هذا لم يُجدها نفعاً فما هى الا دقيقة واحدة ، حتى كان بسلدونيموف عائداً نحو الجنرال يجر اليه عروسه من يدها • تنحى الجمهور ليفسح لهما مجال المرور ، ونهض ايفان ايلتش عن مقعده محتفلاً أشد الاحتفال ، ورسم على شفتيه ابتسامة لطيفة ودوداً ، وقال وهو يحييها تحية مؤدبة :

ـ اننى ليسعدنى أكبر السعادة أن تتاح لى معرفتك ••• ولا سيما فى يوم كهذا اليوم •••

قال ذلك وانمطت شفته بحركة صغيرة ماكرة تبعث على التفكير •• فرفعت السيدات رءوسهن مزدهيات فى لطف وظرف •

وقالت السيدة التى ترتدى ثوباً من مخمل :

ـ رائع •

ان العروس الشابة تستحق بسلدونيموف • هى فتاة فى نحو السابعة عشرة من عمرها ، قصيرة القامة ، هزيلة الجسم ، لها وجه نحيل شاحب يزينه أنف مستدق • كانت عيناها الصغيرتان المتحركتان تحدقان الى الجنرال بلا تحرج ، بل وتتفرسان فيه بشىء من خبث وشر •

كان عنقها النحيل الذى يخرج من ثوب من قماش الموسلين الأبيض المبطن ببطانة وردية اللون ، وكان كتفاها المستدقان وذراعاها

الهـزيلان المعـروقان ، كان ذلك كله يجعلها أشـبه بدجاجـة منتوفة الريش •

لم تعرف الفتاة بماذا ترد على ملاطفة الجنرال •

وأردف الجنرال يقول للعريس السعيد :

ـ انها لطيفة غاية اللطف ظريفة منتهى الظرف !

وكان الجنرال يتكلم بصوت عال بغية أن تسمع المرأة الشابة كلامه

لم يعجب بسلدونيموف بل انه فى هذه المرة لم يردّ حتى بتحية ! أكثر من ذلك : لقد لاحظ السيد برالنســكى فى عينى بسـلدونيموف شيئاً من محاولة الاخفاء وشعور البرودة وعاطفة العداوة • ومع ذلك كان لا بد له أن يفلح فى ايقاظ الثقــة مهما كلف الأمر • ألم تكن هذه هى الغاية الوحيدة التى جاء من أجلها الى هذا المكان ؟

وقال الجنرال يحدث نفسه : « يا لهما من زوجين ! نهايته !••• »

عاد السيد برالنسكى يكلم العروس الشابة التى جلست قربه على الكنبة • ولكن أجوبتها اقتصرت على كلمتى « نعم » و « لا » ترددهما بمناسبة وبغير مناسبة خابطةً خبط عشواء •

قال الجنرال لنفسه مثبط الهمة خائب الأمل : « لو أظهرت شيئاً من الخجل والاضطراب على الأقل ، اذن لحاولت أن أمازحها وأن أضحكها، أما الآن فاننى فى وضع حرج وفى مأزق لا مخرج منه » •

والحق أن وضع الجنرال كان حـرجا • ذلك أن آكيم بتروفتش كان قد صمت فهو لا ينبس بكلمــة ، فكان صمته هذا زيادة فى البــلاء ولئن لم يقصد هذا الصمت عامداً فان ذلك لا يطفف ذنبه •

فلما أصبح الجنرال في ذروة الحسرة واللوعة على هـذا النحو ولما أصبح لا يدرى ماذا يفعل ولا ماذا يقول اتجه الى الحفل كله يسأله :

ـ أيها السادة ! أصحيح أنني لا أزعجكم البتة ؟

وخيل اليه في هذه اللحظة أن راحتي يده قد تبللتا عرقاً •

أجاب الضابط يقول :

ـ أبداً ، يا صاحب السـعادة ، أبداً ! لا تقلق البتـة ! فانما نحن نستريح قليلاً بانتظار أن نستأنف ما كنا فيه •

وسرت في الحفل دمدمة استحسان تؤيد أقوال الضابط الذي كانت العروس تتأمله بلذة وسعادة ••• انه ما يزال في ريعان الشباب مرتدياً بزته العسكرية •

تنفس الجنرال ، ونظر الى بسـلدونيموف الذي كان ما يزال على مقربة منه وقد استطال أنفـه مزيداً من الاستطالة • انه واقف وقوف الخادم الذي يحمل بيده فراء الزائر منتظراً انتهاء حديث الوداع ليساعده في ارتدائه •

ان هذا التشبيه قد فرض نفسه على ايفان ايلتش نفسه الذي أصبح يرى أنه ضاع ضياعاً تاماً وأصبح لايستطيع التحرر من الاحساس بحرج ثقيل يجثم على صدره • كان يشعر أن الأرض تنسحب من تحت قدميه، وأنـه يغوص بأسـاً في ذلك المسـتنقع الذي رمى نفسـه فيه دون تبصر بالعواقب ، وأنه وقد أحاطت به الظلمات من كل صوب ، لن يستطيع أن يخرج من هذا المأزق قط !

لم يلاحظ الجنرال وهو غـارق في هذا العنـاد الأخـرس والعنت الثقيل أن الضـيوف ينتحون الآن فاسحين المجـال لمرور امرأة قصـيرة

بدينة مسنة ، هى امرأة يدل مظهرها على شيء من العناية بهندامها رغم بساطة ملابسها ... انها تعقد على عنقها منديلاً من حرير ، وتلف شعرها الأشيب بخمار من تخريم جميل كان واضحاً أنها لم تألف أن تزين رأسها به . وهى تحمل بيديها خوانا مستديرا عليه زجاجة شمبانيا تشبه أن تكون ممتلئة ، والى جانب الزجاجة قدحان .

أقول قدحين لأن النبيذ كان مقصوراً على المرموقين من الضيوف .

اقتربت السيدة من الجنرال ، وقالت له وهى تنحنى انحناء شديداً :

ـ لا تكن مسرفاً فى التشدد يا صاحب السعادة ! لقد شاءت شهامتك أن تشرف ابنى بحضور عرسه فتفضل على العروسين بأن تشرب نخب صحتهما .

هذا لوح نجاة حقاً ! فما أسرع ما تشبث به ايفان ايلتش مستميتاً. ليست السيدة طاعنة فى السن كثيراً ، هى فى الخامسة والأربعين من عمرها أو هى فى السادسة والأربعين على أكثر تقدير ، وان لها وجهاً فيه كثير من الطيبة والصراحة . هو وجه مستدير ، وجه روسى . انها تبتسم ابتسامة تزخر بصفاء السريرة ونبل القلب ، وقد ألقت تحيتها على نحو بلغ من البساطة أن ايفان ايلتش قد ارتدت اليه طمأنينته وعاد اليه أمله وأخذ يشعر بالراحة من جديد .

تمتم يقول وهو ينهض :

ـ لا شك ... لا شك ... أنك ... أم ... ابنك .. أليس كذلك ؟

تمتم بسلدونيموف يقول وهو يمط رقبته التى لا نهاية لطولها :

ـ نعم يا صاحب السعادة .

قال الجنرال :

ـ آه ... سعيد جداً بمعرفتك يا سيدتي ! ...

ـ هلمّ يا صاحب السعادة ! تفضل فشرفنا بشرب كأس !

ـ بسرور عظيم .

وُضع الخوان على مائدة جيء بها الى أمام الكنبة ، وهرع بسلدونيموف متوثباً يصب النبيذ . تناول ايفان ايلتش كأساً وهو مايزال واقفاً ، وتهيأ لالقاء خطاب قصير .

ـ أنا سعيد جداً ، سعيد سعادة عظمى ... يسعدني كثيراً ... أن أبرهن هنا ... أقصد ... لما كنت ... بوصفي رئيساً ... أتمنى لك يا سيدتي (هنا اتجه الجنرال بالكلام الى العروس) ولك يا صديقي بورفير (وهنا مال برأسه نحو الزوج) أتمنى لكما حياة مديدة سعيدة ... مديدة ...

قال السيد برالنسكي ذلك وأفرغ في جوفه كأس الخمر ، جيّاشَ العاطفة ، وكانت هي الكأس السابعة في خلال تلك السهرة . وقد بثّ الخمر شيئاً من مرح في مزاجه المكتئب . ولكن الجنرال ما ان رأى وجه بسلدونيموف الكالح مرة أخرى حتى تهدمت حالته النفسية وشعر بسيل دافق من الكره لهذا المخلوق الشاحب الوجه البائس الطبع .

وألقى الجنرال نظرة على الضابط فقال يحدث نفسه : « وذلك المتفكك المتخلع الذي يبقى هنالك ، أليس في وسعه أن يصبح مرحاً ، فاذا بكل شيء يجري على ما يرام ؟ » .

واتجهت الأم العجوز في هذه المرة الى رئيس المكتب فقالت له :
ـ وأنت أيضاً يا آكيم بتروفتش هلاّ تفضلت فتناولت كأساً ؟ أنت

الرئيس وابنى المرموس ، فلتكلأه برعايتك دائماً ••• ان أماً هى التى تسألك ذلك ، لا تنسنا فى المستقبل يا عزيزى الطيب آكيم بتروفتش ، أيها الانسان الحساس الكريم •

قال ايفان ايلتش بينه وبين نفسه : « ما أحسن هؤلاء النساء الروسيات ! لقد بثّت هذه المرأة روحاً ونشاطاً فى الحفل كله ! لطالما أحببت الشعب ! ••• » •

بهذه الكلمات ختم ايفان ايلتش قوله وقد فاضت نفسه حناناً • وفى تلك اللحظة جىء الى المائدة بخوان جديد •

جاءت به بنية صغيرة ترتدى تنورة فضفاضة مشدودةً بأسلاك ، مصنوعةً من قماش الكريتون ، لم تُغسل بعد ، فلها حين سير البنية حفيف مسموع• كانت البنية الخادمة تجد غير قليل من العناء فى الامساك بالخوان • هو خوان كبير ثقيل يحمل عدداً لا نهاية له من أطباق صغيرة مملوءة تفاحاً وعصائد ومربيات وجوزاً وما الى ذلك • كانت هذه الحلاوى الموقوفة على السيدات ، قد أُبقيت حتى ذلك الحين فى الصالون الصغير ، فكان وصول الجنرال عندئذ هو السبب فى نقلها من هناك •

ـ لا تزدرى حلاوانا الوضيعة يا صاحب السعادة ! فالمرء ، كما يقال ، لا يقدّم الا ما يقدر عليه !

وكانت السيدة العجوز لا تكف عن الانحناء وهى تدعوه الى أن يذوق حلواها بتلك الطريقة المهذبة الرقيقة •

ـ كيف لا ؟ يسرنى جداً يا سيدتى •••

كذلك أجاب ايفان ايلتش وهو يتناول جوزة ثم يحاول أن يكسرها بين أصابعه آملاً أن تجلب له هذه البادرة البسيطة مودة الناس وأن تحضهم على حبه •

وفجأة أطلقت العروس ضحكة صغيرة •

ـ ماذا حدث ؟

كذلك سأل ايفان ايلتش مبتسماً وقد أفرحتـه هذه الظاهرة التى تدل على أن الحياة قد عادت تدب فى الحفل •

أجابت الفتاة وهى تخفض رأسها :

ـ ان ايفان كاستنكينتش* هو الذى يضحكنى •

والواقع أن الجنرال قد لاحظ منذ هنيهة شاباً باهت الشـقرة غير دميم الوجه كان مختفياً وراء الكنبة يهمس فى أذن العروس بكلام ما •

ساد صمت ونهض الفتى خجلان وجلاً ، ودمدم يقول معتذراً :

ـ كنت أكلمها عن « مفتاح الأحلام » * •

فسأله ايفان ايلتش متلاطفاً متواضعاً :

ـ أى مفتاح للأحلام تعنى ؟

ـ هو كتاب ظهر منذ قليل يا صاحب السـعادة عنوانه : « مفتـاح الأحلام » ولقد كنت أقول للسيدة ان رؤية السيد بانايف * فى المنام معناه أن قهوة ستندلق فى جيب ردائه •

فما لبث ايفـان ايلتش أن عبس وجهـه من جديد وقال لنفسـه مستغرباً : « هذه سذاجة » •

أما الشاب فقد كان يبدو رغم احمـرار وجهه سـعيداً الى أقصى حدود السعادة من أنه استطاع أن يقول ذلك الكلام عن السيد بانايف •

قال صاحب السعادة وهو يخفى اعتكار مزاجه :

ـ نعم نعم ! فهمت !...

وقال صوت قريب جداً من الجنرال :

ـ لا بل هنالك ما هو خير من ذلك. يُطبع الآن معجم جديد سيسهم في تأليفه السيد كرايفسكى* بمقالات عن ألفراكى وآخرين ...

نطق بهذه العبارة الأخيرة شاب لم يكن غير متحرج فحسب بل كان كذلك منطلقاً على سجيته فى يسر وسهولة . انه يلبس رداءاً رسمياً وصدرة بيضاء ويمسك قبعته بيد ذات قفاز . وكان الشاب لا يرقص ، وكان ينظر الى الناس من عل ، لأنه يزعم أنه محرر فى الجريدة الهجائية «جولوفشكا» * .

انه هو أيضاً ضيف مرموق دُعى الى الحفلة بصفته صديقاً قديماً من أصدقاء بسلدونيموف قضى معه أياماً حالكة فى « غرف مؤثثة » تديرها سيدة ألمانية .

ولكن لئن كان زاهداً بالرقص ، لقد كان لا يكره أن يشرب . فهو من أجل ذلك يغيب من حين الى حين فى غرفة مجاورة وُضعت فيها الفودكا شراباً للرجال ، وهى غرفة كان الرجال جميعاً يعرفون الطريق اليها ولا يضلون .

لم يستلطف الجنرال صاحبنا الشاب هذا .

وتدخل الفتى الباهت الشقرة الذى تكلم منذ قليل عن الأحلام والذى ألقى عليه الصحفى بسبب ذلك نظرة مبغضة كارهة فقال من جديد :

ـ وأغرب ما فى الأمر أن السيد كرايفسكى يجهل قواعد الاملاء وأن ...

ولكن المسكين لم يتم عبارته ، لأنه أدرك أن الجنرال كان يعلم هذا

كله منذ زمن طويل . رأى ذلك في نظرة الجنرال الذى احمر وجهه غضباً لأنه تصور أنه يعد امرءا جاهلاً ترُوى له أمور يعلمها الناس كافة.

اضطرب الفتى أشد الاضطراب ، وخجل أشد الخجل ، وأسرع يختفى ، ثم لم تنبسط غضون جبينه ولم تتهلل أسارير وجهه لحظة بعد ذلك طوال السهرة .

ولا كذلك محرر جريدة « جوروفشكا » فانه قد ازداد اقتراباً من الجنرال وهمّ غيرَ مرةٍ أن يجلس الى جانب صاحب السعادة الذى كان واضحاً أن عدم التحرج هذا يسوءه ويزعجه .

ومن أجل أن يخفى الجنرال استياءه عزم أمره على أن يقول شيئاً ما :

ـ قل لى يابورفير : لماذا تسمّى «بسلدونيموف» لا «بسودونيموف»؟ لطالما أردت أن أسألك عن هذا الأمر .

تمتم المسكين يقول :

ـ لا يمكننى أن أجيب اجابة صحيحة دقيقة يا صاحب السعادة .

ورأى آكيم بتروفتش أن من الخير أن يتدخل فقال شارحاً :

ـ لا شك أن هذا خطأ ارتكب يوم سجل أبوه نفسه للخدمة العسكرية ، فاذا بصاحبنا بورفير بتروفتش ، يضطر الى تحمل نتائج ذلك الى الآن . ذلك يحدث أحياناً يا صاحب السعادة !...

هتف الجنرال يقول بحرارة :

ـ جائز جائز . ان اسم «بسودونيموف» مشتق من الكلمة الأدبية «بسودونيم» ، أما اسم « بسلدونيموف » فليس له معنى البتة .

همس آكيم بتروفتش يقول :

ـ هذا سببه الغباء .

ـ أي غباء تعني ؟

ـ غباء الشعب الروسي يا صاحب السعادة ! ان الغباء جعل هذا الشعب يبدل بعض الأحرف وينطق الألفاظ خطأً ، فالروس يقولون مثلاً : « نيفاليد » بدلاً من « أنفاليد » ...

ـ آه ... نعم ... صحيح جداً ... نعم ... نيفاليد ... هيء هيء هيء !...

ودوّى صوت الضابط الطويل فجأة يقول بعد أن لبث مدة طويلة يتربص فرصة الظهور والتحيز :

ـ ويقولون أيضاً « ممرة » .

ـ « ممرة » ؟

ـ بدلاً من « نمرة » numéro يا صاحب السعادة !

ـ آه ... نعم ... هم يقولون « ممرة » !... بدلاً من «نمرة» ... آه ! نعم ... هيء هيء هيء !...

هكذا اضطر ايفان ايلتش أن يضحك مجاراة للضابط ، فسُرَّ الضابط بذلك سروراً كبيراً ، ورفع يده الى رباط عنقه يعدل عقدته .

وتدخل محرر جريدة « جوروفشكا » فقال :

ـ ويقولون أيضاً ...

ولكن صاحب السعادة تظاهر بأنه لا يسمع ، لأنه كان لا يستطيع حقاً أن يضحك مجاراة لهذا الضيف !

وألح المحرر على اتمام جملته نافدَ الصبر فأضاف ...

ـ يقولون nalgré بدلاً من malgré

فرشقه ايفان ايلتش بنظرة قاسية .

وهمس بسلدونيموف يقول له :

ـ أما كفاك ازعاجاً له ؟

فقال المحرر غاضباً :

ـ ماذا ؟ أأصبح المرء لا يستطيع أن يتكلم ؟...

وصمت وقطّب حاجبيه ومضى بخطى ثابتة يدخل الغرفة الصغيرة التى وُضعت فيها منذ بداية الحفلة لاستعمال الراقصين مائدةٌ مفروشة بغطاء مزودة بنوعين من الفودكا وبأسماك المرنجة وبالكافيار وبنبيذ وطنى .

صب الصحفى لنفسه كأساً من النبيذ وقد امتلأ قلبه حنقاً وغيظاً . وفيما هو يفرغ الكأس اذا بطالب طبٍ يظهر على حين فجأة مشعَّث الشعر . انه أحسن راقص فى حفلة بسلدونيموف . أسرع الطالب يتناول ابريق الفودكا كأن ظمأ شديداً يحرق جوفه حرقاً .

وهتف يقول مسرعاً : « سنبدأ الرقص ... تعال انظر ... سأرقص منفرداً ... رافعاً ساقىّ فى الهواء !... »

وما ان شرب الكأس التى صبها حتى سكب كأساً أخرى .

ـ انها رائعة كليوباترا سيمينوفنا هذه ! في وسع المرء أن يجازف معها بكل شيء !•••

ـ انه رجعي •

كذلك أجاب الصحفي متجهم الوجه كالح الهيئة بعد أن بلع قدح الفودكا •

ـ من الرجعي الذي تعنيه ؟

ـ هو ذلك الشخص الذي وضعوا أمامه العصائد والجوز ! انه رجعي ••• أنا أقول لك ذلك •

وفي تلك اللحظة سمع الطالب اشارة بدء الرقص ، فأسرع يخرج من الغرفة الصغيرة قائلاً للصحفي :

ـ ـ هيا بنا ! هيا بنا !•••

لبث الصحفي وحده فصب لنفسه قدحاً آخر من الفودكا • لقد قرر أن يستحث كل ما يملك من شجاعة ، وأن يوقظ في نفسه كل ما فيها من مشاعر الاستقلال • شرب الفودكا ، وازدرد بضع شرائح من الرنجة ، فلو أبصره مستشار الدولة ايفان ايلتش برالنسكي عندئذ لرأى أمامه عدواً لدوداً رهيباً يختفي الآن في لباس شخصية محرر جريدة « جوروفشكا » •

وا آسفاه ! لم يخطر ببال المسكين ايفان ايلتش شيء البتة ! لا ولا دار في خلده لحظة أن حادثاً ضخماً آخر سيؤثر في العلاقات المتبادلة بينه وبين ضيوف السيد بسلدونيموف بعد هنيهة !

ان الشروح التي قدمها ايفان ايلتش في ايضاح الأسباب التي جعلته يحضر عرس مرؤوسه لم تقنع أحداً رغم أنها محتملة ، فظل

المدعوون جميعاً يشعرون بنوع من الحرج والتهيب الى أن تغير كل شيء على حين فجأة بما يشبه السحر • هي عبارة بسيطة أطلقها شخص لا أدري من هو ، لم تلبث أن هدّأت جميع الشكوك بغتةً ، فاذا بجميع الحاضرين يعودون الى ما كانوا فيه من ضحكات صاخبة وصيحات عالية وتلويات شديدة ، حتى لكأن الزائر الذى فاجأهم وصوله لا وجود له الآن بينهم !

وكان سبب هذا التبدل المباغت أن أحد الناس همس يقول فى لحظة من اللحظات : « الرجل ••• سكران » • ولئن بدا هذا القول فى أول الأمر افتئاتاً رهيباً وتجنياً كبيراً فقد لاح مع ذلك معقولاً وجائزاً •

اتضح اذن كل شيء ! وهذا هو الحفل يتحرر فوراً من كل ضغط وهذا هو الرقص الذى رأينا الطالب يهرع للانخراط فيه يستأنف بحماسة كبيرة وحرارة عظيمة •

وفى تلك اللحظة كان ايفان ايلتش يتجه الى العروس الشابة ليهمس فى أذنها قصيدة غنائية جميلة •

ولكنه لم يستطع أن يتم تلاوة قصيدته لأن الضابط الطويل لم يلبث أن تقدم نحوها بخطى ثابتة وجثا على ركبته أمامها يدعوها للرقص فى كثير من الأبهة والجلال ، فما لبثت أن هبت واقفة ، وطارت الى صفوف الراقصين • لم يقدم الضابط أى اعتذار ، ولم تتنازل العروس حتى أن تنظر الى الجنرال ، حتى لقد بدا عليها أنها سعيدة كل السعادة بتخلصها من مزعج يعكر صفوها • يا للهول ! ذهل الجنرال الطيب الشهم فى أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن ثاب الى نفسه محاولاً أن ينتحل للمرأة الشابة عذراً •

قال لنفسه : « هى معذورة ! ان هؤلاء الناس المساكين لا يعرفون شيئاً من قوانين الكياسة وسنن اللباقة » .

ثم اتجه الى بسلدونيموف فقال له :

ــ وأنت أيها الأخ بورفير ، اذا كان هنالك أوامر يجب عليك أن تصدرها فلا تتحرج وامض الى شأنك .

ثم قال بينه وبين نفسه : « لكأن هذا الخبيث الماكر يراقبنى حقاً ».

يجب أن نقول أن منظر هذا العنق المفرط فى الطول وهاتين العينين اللتين ما تنفكان تحدقان اليه وتتفرسان فيه قد أصبح أمراً لا يطيقه الجنرال ولا يحتمله . ولكن الجنرال ، رغم أن جميع الأشياء قد جرت على غير ما تمنى أن يراها ، كان ما يزال يصر اصراراً عنيداً على أن يرفض الاعتراف لنفسه بذلك .

وبدأ الرقص .

قال آكيم بتروفتش وهو يمسك الزجاجة بيده ويتهيأ لملء كأس الجنرال باحترام :

ــ هل تسمح يا صاحب السعادة ؟

ــ لا أدرى ... حقاً لا أدرى !...

ولكن آكيم بتروفتش ، وقد أشرق وجهه بتعظيم لا حدود له ، كان قد سكب الخمرة . وبعد أن ملأ كأس صاحب السعادة ، هدأت نفسه ، وانبسطت أساريره ، وملأ كأساً أخرى لنفسه خلسة كما يفعل لص من اللصوص ، ولكنه لم يملأ كأسه حتى حافتها ، وأغلب الظن أنه

تعمد ذلك اظهاراً لشعوره بأنه أقل من الجنرال شأناً وأدنى منزلة ٠

وها هو العجوز المسكين يجلس الآن قرب رئيسه جلسة امرأة فى المخاض ٠

كان يسأل نفسه قلقاً : « عمَّ يجب أن أحدثه ؟ فيم ينبغى أن أكلمه ؟ » ٠

كان لا بد له أن يسلى صاحب السعادة ، وأن يسرِّى عنه مهما كلف الأمر ، ما دام صاحب السعادة قد شرفه بقبوله جليساً له ، فكانت الشمبانيا اذن هى المخرج من ذلك الموقف الذى كان يبدو أنه لا مخرج منه ٠ وبدا صاحب السعادة مرتاحاً راضياً ، لا من الشمبانيا طبعاً ، لأنها كانت فاترة ، وكانت الى ذلك رديئة رداءةً ظاهرة ، وانما كان مرتاحاً وراضياً من مجرد هذا الانفراج النفسى الذى حمله اليه الاحتفال البسيط بالشراب ٠

حدث ايفان ايلتش نفسه قائلاً : « لا شك أن العجوز يحب أن يشرب ، ولكنه لا يجرؤ أن يشرب وحده ، وليس فى وسعى أن أمنعه مع ذلك من الشرب ٠٠٠ بل انه لمن السخف أن تبقى الزجاجة بيننا على حالها » ٠ هكذا شرب الجنرال ، وكان ذلك بطبيعة الحال خيراً من أن يبقى ساكناً لا يعمل شيئاً ولا يقوم بشىء ٠

وبدأ يقول مراعياً الوقفات متقيداً بالنبرات :

ـ لقد جئت الى هنا مصادفةً ان صح التعبير ٠٠٠ سيقول بعض الناس طبعاً ان مكانى ليس هذا المكان ٠٠٠ وانه ليس يليق بى أن أشهد اجتماعاً كهذا الاجتماع ٠٠٠

كان آكيم بتروفتش صامتاً يصغى باستطلاع ، خجلاً وجلاً ٠

وتابع الجنرال كلامه فقال :

ـ ولكنى آمل أن تفهم السبب الذى دعانى الى المجىء ... آمل أن لا يذهب بك الظن الى أن الخمرة وحدها تجذبنى ... هىء هىء .

حاول آكيم بتروفتش أن يضحك ، هو أيضاً ، اقتداءً بصاحب السعادة ، فلما لم يفلح فى ذلك ، أمسك فى منتصف الطريق دون أن يعثر على أيسر جملة يمكن أن يقولها .

وواصل الجنرال كلامه :

ـ أتيت ان صح التعبير ... بغية أن أشجع ... بغية أن أبيّن ان صح التعبير ... الهدف ... ان صح التعبير ... الهدف الأخلاقى...

وكان وضع آكيم بتروفتش أثناء اصغائه الى كلام الجنرال ينم فى نظر الجنرال عن بلاهة وغباء ، فاستعر غضب الجنرال ، وأوشك أن يقرّعه على ذلك ، ولكنه لم يلبث أن أدرك أن صاحبه المسكين كان خافضاً عينيه غاضاً بصره كأنه شاعر بذنبه مدرك لخطئه .

اضطرب الجنرال بعض الاضطراب ، فبلغ جرعة من الشمبانيا . ومن أجل أن ينقذ آكيم بتروفتش الموقف ، أسرع يتناول الزجاجة ويملأ كأس رئيسه مرةً أخرى .

قال ايفان ايلتش يحدث نفسه وهو يرشق مرءوسه المسكين بنظرة قاسية لكنها لا تخلو من شفقة وعطف : « انك لقليل الذكاء حقاً ! » .

قرر آكيم بتروفتش الذى كان يشعر بتعاظم غضب الجنرال تعاظماً متخفياً ، قرر أن يعتصم بالصمت فلا ينطق بكلمة . وعلى هذه الحال من الصمت لبث الرجلان أحدهما أمام الآخر مدة دقيقتين ، وهى مدة بدت لصاحبنا آكيم بتروفتش زمناً لا نهاية له ...

علينا أن نقول الآن بضع كلمات عن آكيم بتروفتش : هو رجل من الطراز القديم ، هادىء الطبع ، خـواف كدجـاجة ، نشـأ على احترام رؤسائه ، لا تعوزه طيبة السريرة ، بل ولا يعوزه نبل القلب •

هو واحد من أولئك الروس من سكان بطرسبرج الذين يولدون في العاصمة أبناءً عن آباء عن أجداد ، وينشأون فيها ولا يبارحونها في يوم من الأيام • ان هذا النموذج الروسى الخاص لا يملك أية فكرة عن روسيا ، ولا يعنيه هذا الأمر من قريب أو بعيد ، لأن اهتمام حياته كلها منوط ببطرسبرج ، ولا سيما بالمكان الذى يوجد فيه مكتبه • ولا تتعدى مشاغل هؤلاء الناس فى العادة لعبةً بالورق على دريهمات قليلة ، وذهاباً الى متجر البقالة الذى يقع فى ركن من الشـارع يشـترون منه ما هم فى حاجة اليه من غلال ، والتماسـاً للراتب الذى يمكّنهم من الحياة • انهم يجهلون كل شىء عن العادات الروسية • أما الأغانى الشعبية فانهم لا يعرفون منها فى العادة الا أغنية واحدة هى « البتولة » • ولئن عرفوها فما ذلك الا لأن جميع آلات الأرغن البربارية تعزفها بغير انقطاع •

خلاصـة القـول ان آكيم بتروفتش نمـوذج خاص من نمـاذج الحيوان ، هادىء الطبع لين العريكة ، خاضع الارادة ، مطواع ، نشـأ وتكوّن خلال هذه السنين الخمس والثلاثين الأخيرة •

على أن آكيم بتروفتش لم يكن شديد الغباء ، فلو قد سأله الجنرال عن شىء من اختصاصه لاستطاع أن يجيب ولأمكن أن يجرى بينه وبين الجنرال حديث ، ولكنه كان يرى أن الحشمة توجب على موظف مرءوس أن لا يتدخل فيما لا يعنيه ، وأن لا يجيب عن أسئلة ليست من شأنه • ومع ذلك كان العجوز يحترق شوقاً الى معرفة السبب الحقيقى الذى دفع صاحب السعادة الى هذه الزيارة •••

كان ايفان ايلتش يغوص مزيداً من الغوص فى هوة من الكآبة والذهول ، فيسرف مزيداً من الاسراف فى رشف جرعات من كأسه التى كانت بفضل عناية آكيم بتروفتش واخلاصه تظل ملأى حتى الحافة بغير انقطاع •

وسئم ايفان ايلتش من الصمت الثقيل ، فحاول أن يسرّى عن نفسه بمشاهدة الرقص ، فما لبث منظر الرقص أن احتكر انتباهه كله •

كانت الرقصات مرحة حقاً ••• ان الضيوف غارقون فى الفرح ، بكل ما فى قلوبهم من بساطة • ورغم أن المجيدين من الراقصين كانوا قلة ، فان الراقصين الخرْق كانوا يعوّضون نقص الرشاقة هذا بقرع الأرض بأعقاب أحذيتهم قرعاً يبلغ من الضجيج أن من يراهم يحسبهم أساتذة من أساتذة الباليه •

وكان الضابط يتميز فى الرقص تميزاً خاصاً ••• كان واضحاً أنه يحب أن يرقص رقصات منفردة ، فاذا بقى وحيداً مع مراقصته فى وسط القاعة ، اتخذ أوضاعاً خارقة : ففيما هو منتصب كالوتد اذا هو يميل الى جانب ميلاً يبلغ من القوة أن حركته هذه توهم من يراها أنه يوشك أن يسقط ، ولكنه ما يلبث أن ينتصب من جديد فى الخطوة التالية ليميل على الجانب الآخر ميلاً قوياً فلا تكاد الزاوية التى تتشكل بين قامة جسمه وأرض الغرفة تزيد على خمس وأربعين درجة •

وكان وجهه يعبّر عن جدٍ قوى ، وكان يرقص بايمان صادق واقتناع كامل يثير دهشة الجميع •

وهذا راقص آخر كانت حمولته من الشراب كاملة منذ بداية السهرة فى أغلب الظن ، فلذلك نام قرب سيدته فأصبحت المسكينة مضطرة أن ترقص وحدها • وهذا موظف شاب يراقص الفتاة ذات

الوشاح الأزرق فيكرر في رقصه حركة بعينها لا تتغير ، لاعتقاده طبعاً بأنها حركة فكهة جداً تبعث على الضحك وتثير المرح : انه يظل وراء سيدته ، يمسك بوشاحها ويظل يطبع عليه عشرات القبل ، والسيدة لا تلقى بالاً الى هذا الاحترام المتكرر ، وتمضى تتابع رقصها فى أبهة وجلال •

ولم يُخلف طالب الطب وعده ، فها هو ذا يرقص منفرداً ، رافعاً ساقيه فى الهواء ، مجتذباً اليه بذلك اعجاب الحفل كله •

خلاصة الأمر أن الجو قد زال منه التكلف وتحرر من الحرج •

وأثرت الخمرة تأثيراً سخياً على ايفان ايلتش فأخذ يبتسم • الا أنه أحس بشك مرير يتسلل الى نفسه على حين فجأة • ان تلك السهولة التى كان يتمناها من أعماق قلبه حين أخذ الضيوف يتراجعون أمامه ، ان تلك السهولة قد انقلبت الآن الى عدم تحرج والى زوال كلفة •

ويا له من اسراف فى عدم التحرج يا رب ! هذه على سبيل المثال سيدة ترتدى ثوباً من مخمل أزرق لا شك أنه مستعار ، قد عقدت ثوبها بدبوس على نحو يجعله أشبه بالسروال •

انها كليوباترا سيمينوفنا تلك نفسها التى قال الطالب عنها ان المرء يستطيع أن يجازف معها بكل شىء •

حدث الجنرال نفسه مستاءً بعض الاستياء متسائلاً : « كيف حدث هذا كله ؟ كانوا منذ قليل يتقهقرون ويتراجعون وها هم الآن يتحررون ويتحللون ! ••• » •

ان هذا التغير فى الموقف وهذا التبدل فى الوضع ، ان هذه السهولة اللطيفة التى كانت تتوق اليها نفسه توقاً شديداً ، ان هذا كله يبدو له الآن غريباً غرابة عظيمة ومهدِّداً تهديداً كبيراً • حتى ليكاد يرى

الجنرال فيه نذير أحداث أخطر من ذلك كثيراً ٠ لكأن هؤلاء الناس جميعاً قد نسوا حتى وجوده !٠

ومع ذلك ، رغم الشك القاتل الذى أخذ يجتاح نفس ايفان ايلتش شيئاً فشيئاً ، فقد كان ايفان ايلتش يضحك ويصفق ٠

وكان آكيم بتروفتش يبتسم باحترام ، مقتدياً برئيسه دون أن يخطر بباله أن قلب صاحب السعادة قد تسلل اليه شعور جديد يعكر صفوه ويسمم نفسه ٠

ـ أحسنت جداً أيها الفتى ! انك تجيد الرقص أيما اجادة !

كذلك صرخ الجنرال متجهاً بالكلام الى الطالب الذى كان يمر حينئذ بجانبه ٠

فما كان من الراقص الا أن التفت الى صاحب السعادة فجأة فجعَّد خده تجعيدة عجيبة وقَرب وجهه من وجهه وأطلق أمام أنفه صيحة فرحة يقلد بها صياح ديك ٠

هنا طفح الكيل! وها هو ذا ايفان ايلتش ينتصب واقفاً لهذه المزاحة الجريئة ! وانطلق الناس جميعاً يضحكون ضحكاً صاخباً لأن الطالب قد أحسن تقليد صياح الديك حقاً ، عدا أن تجعيدة خده كانت فوق ما يمكن وصفه ! ٠٠٠

وفيما كان الجنرال غارقاً فى ذهوله وهو ما يزال واقفاً ، وصل بسلدونيموف مع أمه ليعلنا للجنرال أن العشاء جاهز ٠

قالت العجوز وهى تنحنى :

ـ هب لنا هذا الشرف العظيم ، وهو أن تشاركنا وجبتنا المتواضعة !٠٠٠

ثانياً ايفان ايلتش يقول :

ـ حقـاً لا أدرى ... حقاً لا أدرى .. أنا لم أجيء لهنا ... أنا كنت أهمُّ أن أنصرف .

وكان الجنرال قد آلى على نفسه فعلاً أنه لن يمكث دقيقة أخرى واحدة . حتى لقد تناول قبعته بيده . ولكن ... لكن القدر كان هناك ... وها هو ذا ايفان ايلتش ... يبقى ... وبعد دقيقة كان الجنرال يقود الموكب الذاهب الى الوليمـة وقد أحاط به بسلدونيموف والعجوز الطيبـة . أُجلس الجنرال فى مكان الشرف من المائدة ، ووضعت أمامه زجاجة شمبانيا جديدة .

وبحركة خاطفة سرعان ما وجدها الجنرال نفسه غريبة جداً تناول زجاجة فودكا وصب لنفسه منها كأساً . واذ أنه لم يذق الفودكا حتى تلك اللحظة ، فانه ما ان شرب كأساً حتى شعر باحساس سريع غريب فى آن واحد : خيِّل اليه انه يتدحـرج من أعلى جبـل ، وأحس بأنه يهبط ، فأراد أن يتشبث بشيء ما ، ولكنه اضطر أن يعترف لنفسه بأن من المستحيل عليه أن يفعل ذلك !

أصبحت حالة الجنرال تزداد غرابة وشذوذاً شيئاً بعد شيء . الله وحده يعلم ما الذى صار اليه فى مدى ساعة ! كان حين دخل الى المنزل يمد ذراعيه لا الى مرءوسيه وحـدهم بل الى الانسـانية كلهـا ان صح التعبير ! وها هى ذى جميع آلام قلبـه وتبـاريح نفســه تضطره بعـد ساعة واحـدة الى أن يكره بسـلدونيموف ، وأن يلعنـه هو وعروسـه وزواجه . ثم ان هذا الكره كان يبدو متبادلاً : قرأ الجنرال ذلك فى عينى بسلدونيموف . ألم تكن نظرة الموظف المسكين تقـول : « شيطان يأخذك يا جنرال الشؤم ، يا جنرال النحس ! » .

ورغم هذه العداوة الواضحة كل الوضوح ، كان ايفـان ايلتش يؤثر أن يقطع يده على أن يعترف لا علانيةً فحسب بل فى سرِّه أيضاً ، بأن سلوكه كان فيه شىء من غباء فعلاً ... ان لحظة مؤاخذة النفس لم لم تكن قد حانت بعض !...

ولكنه كان يشعر بانقباض فى صدره ... كان يشعر بألم فى قلبه ... ويتمنى لو يندفع الى الهواء الطلق ، لو يخلد الى شىء من الراحة .

ان ايفان ايلتش الذى كان فى قرارة نفسه رجلاً طيباً شهماً يعلم حق العلم أنه كان عليه أن ينصرف منذ مدة طويلة ... لا أن ينصرف فحسب بل أن يولىّ هارباً بأقصى سرعة ! ذلك أنه كان يحس أن الواقع يختلف عما صوّرته له أحلامه حين كان واقفاً على الرصيف .

أخذ ايفان ايلتش يؤنب نفسه قائلاً وهو يرشف جرعة من شراب ويزدرد لقمة من طعام : « لماذا جئت الى هنا ؟ أنا ما جئت لآكل وأشرب »

وشيئاً فشيئاً وصل الجنرال الى مرحلة الانكار التام والنفى الكامل ... تسللت السخرية الى نفسه فى رفق وهدوء ... وأصبح العمـل البطولى المزعوم يبدو له الآن سخيفـاً مضحكاً ... وأصبح آخر الأمر لا يعرف لماذا جاء الى هذا المنزل !...

كان عليه أن يخرج ولكن كيف ؟.

ما عساهم يقولون فى هذا كله ؟ ان ألسنة السوء ستدّعى غداً أنه يقوم بجولات فى أماكن مشبوهة ! .

ووسوس له الشك : ماذا يقال غداً ؟ « ذلك أن كل شىء لا بد أن يُعرف ؟ ما الذى سيقوله ستيفان نيكيفوروفتش ، وسيمن ايفانوفتش ، وموظفو المكاتب ، ورواد الصالونات ، وآل شمبل وآل شوبين ؟ » .

وحدث الجنرال نفسه قائلاً : « لا أستطيع ان أنصرف مع ذلك قبل أن أشرح لهؤلاء الناس جميعاً لماذا أتيت . لا أستطيع أن أنصرف قبل أن أميط لهم اللثام عن الغاية الأخلاقية التى استهدفتها من زيارتى ... » . ولكن متى توافى اللحظة المؤثرة المناسبة ؟

وتابع المسكين اجترار أفكاره : « انهم لا يشعرون نحوى حتى بشىء من الاحترام ! لماذا تراهم يضحكون ؟... انهم لا يتحرجون أى تحرج حتى لكأنهم لا قلوب لهم !... لطالما ساورنى الشك فى الجيل الجديد فقلت انه لا قلب له !... ومع ذلك يجب ان لا أبقى هنا مهما يحدث من أمر !... ولكن من يدرى ؟ ها هم أولاء قد اجتمعوا على المائدة ، فربما استطعت أن أكلمهم فى أمور حيوية ، ربما استطعت أن أحدثهم عن الاصلاحات ، ربما استطعت أن أحدثهم عن عظمة روسيا فى المستقبل ... أيكون من المستحيل حقاً أن أنفخ فى نفوسهم شيئاً من حماسة ؟ لعل الفرصة لم تضع كلها بعد ... ولكن من يدرى ؟ هل يجب أن تجرى الأمور حقاً على هذا النحو ؟ ثم من أين أبدأ ؟ كيف أجتذب انتباههم ؟ كيف آسر قلوبهم ؟ ماذا يجب أن أقول ؟ ما الذى ينبغى أن ألفقه من كلام ؟... طاش صوابى يا رب ! ضاع عقلى ! ماذا يريدون منى ؟ ما الذى يرغبون فيه ؟ انى لأرى ضحكاتهم المكظومة ! أتراهم يستهزئون بى يا رب ؟ ولكن ما الذى أريده أنا ؟ لماذا أنا هنا ؟ لماذا أنا هنا ؟ لماذا لا أنصرف ؟... » .

هكذا كان يفكر الجنرال بينما كان شعورٌ بالخزى عميق ساحق يجتاح قلبه شيئاً بعد شىء .

وفى أثناء ذلك كانت الاحداث التى لا ترحم تتابع مجراها .

ما ان انقضى ربع ساعة على جلوس الحفل الى المائدة حتى سيطرت على فكر الجنرال فجأة فكرة رهيبة ... لقد أدرك المسكين ادراكاً تاماً أن السكر قد أخذ به كل مأخذ . ليس سكره الآن هو ذلك الثمل الخفيف الضاحك الذى كان مسيطراً عليه منذ قليل ، وانما هو سكر كامل حاسم لا برء منه ! وليس سبب هذا السكر الا ذلك القدح اللعين من الفودكا الذى تجرعه بعد الشمبانيا ففعل فعله فى نفسه فوراً .

ان ضعفاً غريباً يهده الآن هداً ، وان وهناً شديداً يدمره الآن تدميراً ! انه يلاحظ ذلك ويحسه . وها هو ذا عرق بارد يتقاطر على جبينه كحبات اللؤلؤ ! صحيح أن شجاعته كانت تزداد أثناء ذلك ، ولكن ضميره ما ينفك يعذبه عذاباً شديداً ، وما يبرح يصيح قائلاً له : « هذا شر ! هذا سوء ! بل هذا غير لائق البتة ! » .

وهو يحس تارة أن خواطره الرجراجة المترنحة لا تستطيع أن تثبت على نقطة وأن تتركز على فكرة ، وهو تارةً أخرى يشعر أن كيانه نفسه يزدوج ازدواجاً فكأنه اثنان لا واحد !.

هو من جهة أولى يشعر بالشجاعة وبالرغبة فى الانتصار وبارادة تحطيم العقبات وتدمير الحواجز وبالثقة الكاملة المستميتة بأنه ما يزال يستطيع أن يبلغ غايته ويحقق هدفه . وهو من جهة ثانية يشعر بألم شديد يحز فى نفسه وبوقفات مفاجئة تقطع نبضات قلبه !...

وفوق هذا كله كان يعذبه ذلك السؤال الرهيب الذى يتردد بلا مهادنة : كيف سينتهى هذا الأمر كله ؟ وما الذى سيحدث غداً ؟.

غداً ... غداً ... ان « غداً » هذا لا يبرح فكره !

قبل ذلك بقليل كان الجنرال قد تراءى له أن بين المدعوين خصوماً يناصبونه العداء . ولقد أراد عندئذ أن يبعد هذه الشبهة وأن يزيل ذلك الشك قائلاً لنفسه : « لعل ذلك يرجع الى أننى كنت ثملاً بعض الثمل حين وصلت » .

ولكن ما أشد ما يشعر به الآن من هول وروع بعد أن جعلته الأدلة الواضحة التى أمدته بها ملاحظاته ، يوقن من أنه محاط بأعداء ألداء !.

فكان يتساءل وقد امتلأ قلبه كمداً وكرباً : « ولماذا ؟ لماذا هذا كله ؟ » .

وكان يجلس الى المائدة نحو من ثلاثين شخصاً قد أخذ السكر من بعضهم كل مأخذ أيضاً . أما المدعوون الآخرون فكانوا منطلقين على سجيتهم انطلاقاً يدعو الى النفور والاشمئزاز ، فهم يصرخون صراخاً شديداً ، وهم يتكلمون معاً فى آن واحد ، وهم يقرعون الكؤوس بعضاً ببعض فى شرب الأنخاب ، وهم يقذفون السيدات بكرات من الخبز ..

ومنذ بداية المأدبة كان شخص كريه مشبوه يرتدى ردنجوتاً متسخاً قد سقط تحت المائدة ولبث هنالك لا يتحرك . وهذا شخص آخر تراوده نفسه فى كل لحظة أن يرتقى المائدة ويتجول بين الأطباق ليلقى خطاباً ، فيحول الضابط بينه وبين ذلك بشده من حافة ردائه .

ورغم أن الطاهى الذى أعد العشاء قد تخرج من منزل عظيم من العظماء فان قائمة الطعام لم يكن فيها كثير من تناسق : شرائح من لحم مجمد ، ولسان بقر مع بطاطس ، وأضلاع مع البامسلاء ، ثم اوزة هى الطبق المختار وتاج المائدة ، وعصيدة هى الحلوى التى تختتم بها وجبة العشاء .

أما الشراب فبيرة وفودكا ونبيذ وزجاجة شمبانيا وضعت أمام الجنرال وخُصّ بها دون غيره فهي تضطره الى أن يصب منها دون أن ينسى آكيم بتروفتش الذى كان قبل ذلك يخدمه في بحبوحة وسخاء ، ثم أصبح الآن لا يتجرأ أن يبادر الى ذلك • وكانت أنخاب المدعوين الذين هم من الطبقة الثانية خمرة من نبيذ القوقاز •

وكانت المائدة نفسها تتألف من عدد من موائد صغيرة متعددة الأنواع قد صُفّ بعضها الى جانب بعض ؛ وكان هنالك مائدة خضراء تُكمل عددها ؛ وكان هذا كله مفروشاً بأغطية متنوعة الأشكال مختلفة الألوان •

لم تشأ أم بسلدونيموف أن تجلس ، وذلك بحجة رغبتها فى العناية بخدمة الضيوف • ولكن ها هو ذا وجه امرأة مكفهر عابس لم يسبق للجنرال أن لاحظه قبل ذلك يظهر الآن على حين فجأة : انها امرأة ترتدى ثوباً من حرير يضرب لونه الى حمرة ، وعلى خدها ضماد • انها أم العروس ، استطاعت أخيراً أن تنتصر على الكره الذى تحمله لحماة ابنتها ، فقررت أن تبارح مخبأها وأن تجيء الى الصالون بمناسبة العشاء •

ان هذه السيدة التى كانت تنظر الى الجنرال بهيئة نصفها شر ونصفها مكر ، كان يبدو عليها أنها تخشى أن لا تُقدَّم الى الضيف الذى جاء بالمصادفة والذى كان من جهته لا يرتاح الى هيئتها ويشعر نحوها بشيء من الريبة • على أن السيدة ماميفيروف لم تكن الشخص الوحيد الذى يثير الشبهة والريبة فى نفس الجنرال : ان هنالك أفراداً آخرين كان الجنرال ينفر منهم ويشك فيهم ويشعر أمامهم بمخاوف واضحة • ولعله لم يكن مخطئاً • ذلك أن جميع هؤلاء الناس كان يبدو عليهم أنهم

يكيدون لصاحب السعادة ويدبرون مؤامرة عليه • ولقد انتهى الجنرال فعلاً الى ادراك ذلك اثناء العشاء !•

كان هنالك على وجه الخصوص سيدٌ له لحية صغيرة وله هيئة كهيئة رسام بوهيمى • ان هذا السيد قد التفت نحو جاره مراراً أثناء العشاء وتمتم فى أذنه بكلام ، وثمة شخص آخر لعله طالب كان يبدو مشبوهاً كذلك رغم أنه ثمل تماماً •

أما طالب الطب الذى كان يتقن تقليد صراخ الحيوانات ذلك الاتقان كله ، فلقد كان فى الواقع لا يوحى الا بقليل من الثقة ، وكذلك الضابط الذى كان ايفان ايلتش فى لحظة من اللحظات قد عقد عليه آخر الآمال وا آسفاه !

على أن أوضح كرهٍ انما كان يُقرأ فى وجه محرر جريدة «جوروفشكا» : ان طريقته فى التهالك على كرسيِّه ، وان نظرته الزاخرة بمعانى الزهو والصلف والتحدى والاستفزاز ، وان ما يصطنعه من عدم التحرج وقلة الاكتراث ، ان ذلك كله كان يثير فى نفس الجنرال هولاً ورعباً •

فرغم أن المدعوين الآخرين لا يبدو عليهم أنهم يقيمون وزناً كبيراً لهذا الرجل (الذى يجب أن نذكر مستطردين أنه لم يستطع أن ينشر فى المجلة المذكورة الا أربعة أبيات من الشعر) ، فان الجنرال لم يكن مطمئناً من ناحية هذا الرجل أى اطمئنان •

لذلك حين سقطت كرة من الخبز كانت تستهدف الجنرال طبعاً ، حين سقطت هذه الكرة قرب الجنرال ، اعتقد الجنرال اعتقاداً جازماً قاطعاً أن محرر المجلة هو الذى سمح لنفسه بهذه المزاحة الثقيلة •

فى وسعكم أن تفهموا اذن بسهولة ويسر أن ما ذكرناه الآن عن

جماعة الحفل لا بد أن يكون قد أثّر فى مزاج الجنرال تأثيراً سيئاً يؤسف له .

ثم ان ملاحظة جديدة لاحظها الجنرال قد أثرت فيه تأثيراً خاصاً : لقد أحس ايفان ايلتش فجأة أن لسانه يزداد ثقلاً وكثافةً ، حتى لقد أصبح يشعر بشىء من الصعوبة والعناء فى نطق الكلمات . لذلك اضطر أن يصمت رغم رغبته فى أن يقول أشياء كثيرة . يُضاف الى هذا أنه أصبح ينسى نفسه فى بعض اللحظات على حين فجأة ، فاذا هو يأخذ يضحك لا يدرى لماذا ! على أن هذه الحالة النفسية الأخيرة ما لبثت أن زالت بعد كأس جديد من الشمبانيا شربها دون شعور ، فكان من نتائجها رأساً أنه أصبح يرغب فى البكاء رغبةً لا سبيل الى مغالبتها .

فما لبث الجنرال ، وقد استبد به انفعال من أشد الانفعالات قوةً وعنفاً ، أن رجع الى ذلك الحب الكبير العظيم الذى كان يلف به الوجود بأسره ، حتى بسلدونيموف ، بل لقد امتدت هذه العاطفة الى أبعد من ذلك أيضاً ، فلم تستثن حتى محرر مجلة « جوروفشكا » !

أصبح ايفان ايلتش مستعداً لأن يعانق جميع البشر ، وأصبح يرغب رغبة قوية عنيفة فى أن ينسى الاساءات ، وأن يُحلّ السلام والوئام ! ولم يرضه هذا ، بل صار يحترق شوقاً الى أن يفتح نفسه لضيوف بسلدونيموف ، فيُطلع هؤلاء الناس جميعاً على مدى نبل قلبه وقوة مواهبه ، ويظهرهم على ما يستطيع أن يقدمه للوطن ، هو رجل الدولة المرموق ، من خدمات عظيمة .

وكان الجنرال الذى امتلأت نفسه توقاً الى الكلام لا يريد أن يغفل التحدث عن قدرته على تسلية السيدات واضحاكهن ، لا ولا أن يغفل التحدث عن حبه للتقدم خاصة . وكان يتهيأ ، فى هذه المناسبة نفسها ، لأن يكشف عن ميله الى التواضع مع من هم دونه ، وحتى مع أولئك

الذين يشغلون أدنى مراتب السلّم الاجتماعى ؟ وكان ينوى فى ختام خطابه أن يذكر بواعث مجيئه الى منزل بسلدونيموف وشربه الشمبانيا مكرّماً بحضوره حفلة زفاف مرءوسه الفقير .

« الحقيقة ، الحقيقة المقدسة وحدها ! ... بالصدق انما سأصل الى اقناعهم ! سوف يصدّقوننى . أنا على يقين من ذلك ! مهما ينظروا الىّ نظرة العداوة ، فلن يلبثوا أن يملئوا كئوسهم ويشربوا نخبى متى أفصحت لهم عن كل ما أشعر به . وبعد ذلك ، سيحطم الضابط كأسه فوق مهمازه ، على تلك العادة القديمة المعروفة فى الجيش ؟ ومن الجائز أن يأخذوا جميعاً عندئذ بالهتاف : مرحى ! مرحى ! ولن يسوءنى أن يرغبوا فى حملى على الأكتاف كما يُحمل المتصرون !... وسأطبع قبلةً أبوية على جبين العروس ، قبلةً لن تخلو من متعة فى الواقع. يخيَّل الىّ أيضاً أن آكيم بتروفتش رجل طيب جداً ، محبَّبٌ حقاً ! وانى لعلى يقين من أن بسلدونيموف نفسه سيصبح فى المستقبل رجلاً لائقاً (وانما يعوزه الآن شيء من آداب رجال المجتمع الراقى) . قد لا يكون جميع هؤلاء المدعوين الذين ينتمون الى الجيل الجديد ، قد لا يكونون متحلّين بما أرجوه لهم من رهافة الشعور ولطف الحس ورقة القلب ، ولكنهم سوف يفهموننى. سأحدثهم عن دور روسيا بين الدول الأوربية الكبرى، وسأحدثهم عن مشكلة الفلاحين أيضاً ، بطبيعة الحال . سوف يسمعون لى ويصغون الى كلامى ، وسوف أخرج من هذه السهرة بالظفر والمجد ! ... » .

ان هذه الأحلام كلها كانت لذيذة ، غير أن الشيء الذى لم يكن لذيذاً مثلها هو ما اكتشفه ايفان ايلتش على غير توقع منه : لقد اكتشف أنه أصبح لا يستطيع التحكم بلعابه ، فلعابه يسيل من فمه غزيراً . كان الجنرال قد أصبح يرشق من فمه لعاباً ، لا يدرى لماذا ولا يدرى كيف !

وقد لاحظ ذلك حين اتفق له أن رشّ بلعابه خدّ آكيم بتروفتش الذى منعه الاحترام من أن يمسح خده ، فلبث على حاله ينتظر فرصة مواتية من أجل أن يفعل ! فلما رآه ايفان ايلتش على هذه الحال تناول منشفةً وأخذ يدلك وجنة مرؤوسه المبللة باذلاً فى ذلك عنايةً لا حدود لها ، ثم سرعان ما بدا له هذا الفعل غبياً حتى لقد أدهشه أن يفعله .

وكان آكيم بتروفتش قد شرب هو أيضاً وساءت حاله واضطربت نفسه ، حتى لقد أدرك ايفان ايلتش أن المسكين ، على اصغائه مدة ربع ساعة الى هذيانات رئيسه ، كان يبدو خائفاً مذعوراً كأنه يخشى وقوع خطرٍ وشيك .

فلما لاحظ الجنرال ذلك التفت نحو بسلدونيموف الذى كان جالساً بقربه يمطُّ عنقه ويميل برأسه الى جانب ويصغى مقطبَ الجبين عابسَ الهيئة ، ولكن يبدو عليه أنه يراقب أمراً ما ! ترُى من ذا يراقب ؟ وماذا يراقب ؟ .

لم يكن الجنرال قد لاحظ فى وضع الضيوف شيئاً غير مألوف ، فاذا هو يدرك الآن على حين فجأة أن الأنظار متجهة اليه متركزة عليه ، حتى ان بعض المدعوين كان يتأمله ضاحكاً فى الخفاء . ولكن أغرب ما فى الأمر هو أن ايفان ايلتش ، بدلاً من أن يظهر عليه الاستياء ، بلع جرعةً جديدة من الشمبانيا ، ثم لم يلبث أن بدأ يتكلم بصوت عالٍ فقال :

ـ قلت الآن لآكيم بتروفتش ... قلت لآكيم بتروفتش ان روسيا ... نعم ... روسيا ... الخلاصة ... أنتم تفهمون ماذا أريد أن أقول ان روسيا تجتاز .. أنا مقتنع بهذا ... اقتناعاً عميقاً ... تجتاز مرحلة نزعة انسانية ...

ـ نز ... عة انسانية !

كذلك صاح يقول أحدهم فى آخر المائدة .

ـ تز ... تز !

ـ مز ... مز !

أمسك ايفان ايلتش عن الكلام . ووقف بسلدونيموف يتفحص الحضور بنظرة قاسية ليكتشف صانع الفوضى . وهزّ آكيم بتروفتش رأسه مشفقاً كأنما ليُخجل أولئك الذين يثون الاضطراب ويحدثون البلبلة . وقد لاحظ الجنرال تلك الصيحات السخيفة فلزم الصمت بضع لحظات على حالٍ هى أقرب ما تكون الى حال شهيد معذَّب .

ثم لم يلبث أن استأنف كلامه فقال بنوع من العناد :

ـ النزعة الانسانية ! لقد قلت هذا بعينه منذ قليل لستيفان نيكوفوروفتش ... نعم قلت له ... ان النهضة ان صح التعبير ...

عاد الصوت يصيح من أقصى المائدة :

ـ صاحب السعادة .

ـ ماذا تريد ؟

كذلك سأل ايفان ايلتش وهو يحاول أن يتعرف الشخص الذى يناديه ، فردد الصوت يقول :

ـ لا شيء ، لا شيء البتة يا صاحب السعادة . أكمل كلامك ... أكمل كلامك من فضلك ...

شعر ايفان ايلتش بهزة جديدة تجتاز كيانه كله فواصل كلامه يقول :

ـ ان النهضة ... ان صح التعبير ... فى هذه الأمور كلها ...

صاح الصوت مرة أخرى ينادى :

ـ يا صاحب السعادة !

ـ ماذا تريد ؟

ـ صباح الخير •

فى هذه المرة لم يستطع ايفان ايلتش أن يحتمل أكثر مما احتمل فقطع خطابه وأخذ يحدق الى الرجل الذى يسبب الفوضى ويخل بالنظام •

هو شاب فى ريعان الشباب لا شك أنه سكران • انه منذ مدة لا يزيد على أن يصرخ ، وقد كسر كأساً وصحنين زاعماً بالحجة والدليل أن هذه عادة لا بد منها ولا غنى عنها فى كل زفاف يحترم نفسه • وحين التفت ايفان ايلتش نحوه كان الضابط قد أخذ من جهته يؤنبه تأنيباً قاسياً ويعنفه تعنيفاً شديداً :

ـ ما هذا الزعيق والنهيق ؟ هل تريد أن نخرجك مطروداً ؟

ولكن الشاب العابث المتهالك على كرسيه ظل يصيح قائلاً :

ـ ليس هذا الكلام موجهاً اليك يا صاحب السعادة • لم أقصدك أنت يا صاحب السعادة • أكمل كلامك من فضلك ••• اننى أصغى اليك ••• واننى سعيد جداً بالسماع لك ••• أكمل ••• أكمل ! تحيتى وثنائى !•••

همس بسلدونيموف يقول :

ـ صبى سكران •

قال الجنرال :

ـ أرى أنه سكران ، ولكن •••

وحاول الضابط أن يشرح :

ـ اننى أتحمل بعض تبعة هذا الذنب يا صاحب السعادة • فقد رويت له منذ قليل نادرة مضحكة عن ملازم فى كتيبتنا كان أثناء أحاديثه

مع رؤسائه يستعمل أساليب لا شك أن هذا الصبي يريد تقليدها . كان ذلك المسكين كلما خاطبه رئيسٌ بكلمة يجيب قائلاً : «تحيتي وثنائي». وبسبب ذلك انما صُرف من الخدمة منذ عشر سنين .

ـ ماذا كان ذلك الملازم ؟

ـ هو ملازم من كتيبتي يا صاحب السعادة ! كان ذلك الجواب الذي يردده بلا انقطاع فكرة ثابتة في رأسه ، ولازمة لا تبرح ذهنه . أخذوا يؤنبونه في أول الأمر ، ثم أخذوا يحبسونه بعد ذلك . وكان الرئيس يعمد في معاملته الى وسائل أبوية شارحاً له أن أساليبه هذه ليست لائقة فكان المسكين لا يزيد على أن يجيب بقـوله : « تحيتي وثنائي ! تحيتي وثنائي ! » كانت حالته عجيبة توجب الحـزن وتبعث على الأسى حقـاً ! فلقد كان ضابطاً جميـلاً ، لا يقل طول قامتـه عن مترين ! أرادوا أن يحيلوه الى مجلس حـربي ، ولكنهم اكتشـفوا آخر الأمر أنه مجنون تماماً .

قال صاحب السعادة :

ـ هذه كلها صبيانيات. أنا من جهتي مستعد لأن أعفو وأصفح ...

واصل الضابط كلامه :

ـ حتى ان الطب قد اهتم بأمره وشُغِل به .

ـ هل شرّحوه ؟

ـ عفوك يا صاحب السعادة ... لقد كان ذلك الملازم حياً .

طفق جميع الضيوف يضحكون مقهقهين ، حتى أولئك الذين لم يقولوا كلمة واحدة من قبل .

استعر غضب ايفان ايلتش وصرخ يقول بصوت واضح مجلجل لم يبق فيه أثر من جمجمة أو غمغمة :

ـ أيها السادة ، أيها السادة ، ما زلت قادراً على أن أعرف أن الأحياء لا يُشرِّحون ! كل ما هنالك أنني ظننت أن الضابط قد بارح هذا العالم ... أقصد أنه مات ... أعني ... أريد أن أقول ... أريد أن أقول انكم لا تحبونني .. ومع ذلك فأنا ... من جهتي ... أحبكم جميعاً ... نعم أنا أحب بورفير ... أقول لكم هذا رغم أنني أُذلُّ بذلك نفسي ...

وفي تلك اللحظة اندلقت من فم ايفان ايلتش دفقة ضخمة من لعاب فسقطت على أبرز موضع من غطاء المائدة فهوى عليها بسلدونيموف بمنشفته يحاول مسحها ولكن هذه البلية الأخيرة صعقت الجنرال تماماً فخارت قواه وصاح يقول وهو في ذروة الكمد والكرب واليأس :

ـ هذا كثير أيها السادة !...

وعاد بسلدونيموف يقول :

ـ انه رجل سكران يا صاحب السعادة .

قال الجنرال :

ـ بورفير ، انني أرى أنكم ... أنكم جميعاً ... أنني .... قولوا لي ماذا فعلت حتى هان شأني وانخفضت منزلتي أمامكم .

قال الجنرال ذلك بصوت تكسِّره شهقات بكاء لا يكاد يستطيع كظمها .

فانطلقت أصوات فيها شفقة واحترام تحاول أن تواسيه وأن تعزيه :

ـ صاحب السعادة ! صاحب السعادة ! اسمع ياصاحب السعادة !..

ـ أخاطبك أنت يا بورفير ... قل له ... أنا انما جئت ... لئن جئت الى هذه الحفلة ... لقد كان لي هدف ... كنت أرمي الى التشجيع

... كنت أريد أن تشعروا ... قل لى هل هان شأنى فى نظركم ؟ هل ذلّت نفسى !

خيم صمت كصمت الموت ! كيف يسود مثل هذا الصمت أمام سؤال قاطع جازم الى هذا الحد ؟ أمر لا يصدق !...

تساءل الجنرال : « فما الذى يجب قوله اذن فى لحظة كهذه اللحظة ؟ » ولكن الضيوف كانوا لا يزيدون على أن ينظر بعضهم الى بعض . أما آكيم بتروفتش فلا هو حى ولا هو بالميت ، وأما بسلدونيموف فهو من شدة هلعه قد انعقد لسانه حتى أصبح كالأخرس ، وهو لا يبرح يردد فى ذهنه السؤال الذى يحاصره منذ مدة : « ما عسى ينالنى فى الغد ؟ » .

وفى تلك اللحظة انما نهض محرر جريدة «جوروفشكا» الذى لبث منذ مدة طويلة صامتاً عابساً ، نهض عند أقصى المائدة مشتعلَ النظرة بنارٍ متأججة ، والتفت نحو ايفان ايلتش ، وصاح يقول بصوت مرعد كأنه مكلف بالاجابة باسم الحضور جميعاً :

ــ نعم أنت هين الشأن منحط المنزلة فى نظرنا ! وها أنت ذا حسرت القناع عن وجهك وظهرت على حقيقتك أيها الرجعى ، أيها الرجعى .

ثم كرر قوله :

ــ رجعى ! رجعى !...

جمجم ايفان ايلتش وقد بلغ ذروة الغيظ والحنق يقول :

ــ أيها الشاب ، هل تعلم من ذا تخاطب ؟

فأجابه الآخر :

ـ أخاطبك أنت ! ثم انني لست بشاب يا سيد ! أنت انما جئت الى هنا لتمثل مسرحية بشعة ولتلتمس شعبية كاذبة !

صرخ ايفان ايلتش :

ـ بسلدونيموف !... بسلدونيموف !... ما هذا كله ؟... ما هذا كله ؟...

ولكن بسلدونيموف وقد استبد به ذعر رهيب وهلع فظيع لبث جامداً لا يتحرك ولا يدرى ماذا يصنع ! وخيم على الضيوف صمت كصمت الموت . كانوا هم أيضاً كالمصعوقين ، الا الفنان والطالب ، فقد أخذا يصفقان ويصيحان :

ـ مرحى !... مرحى !...

واشتدت عزيمة الصحفى بهذا التأييد على ضآلته ، فاستمر يقول مرعداً :

ـ نعم لقد جئتَ تعرض علينا نزعتك الانسانية فلم تزد على أن خرَّبت فرحنا الفقير ! وأترعت جوفك بالشمبانيا دون أن يخطر ببالك المبلغ الباهظ الذى يدفعه ثمناً لهذه الخمرة موظفٌ لا يزيد مرتبه على عشرة روبلات فى الشهر ! بل اننى لأعتقد فى قرارة نفسى أنك واحد من أولئك الرؤساء الذين يشبهون ولاة الفرس فى الزمان القديم ، ويسعون الى الحظوة بنساء مرؤوسيهم الشابات ! بل أكثر من ذلك أننى على يقين من أنك واحد من أنصار الرشوة !... نعم ... نعم ... هذا أنت يا سيد !...

حشرج ايفان ايلتش يقول :

ـ بسلدونيموف !... بسلدونيموف !...

كان ايفان ايلتش قد بلغ ذروة الكرب والقنوط ، فهو يمد ذراعيه

الى الموظف الصغير المسكين ضارعاً ، ويشعر بكل كلمة من كلمات الصحفى طعنةَ خنجرٍ تنفذ فى قلبه .

قال بسلدونيموف يحسم الأمر بصوت أصبح قوياً على حين فجأة :

ـ حالاً يا صاحب السعادة ، حالاً ! لا تخف ...

قال ذلك وانقضَّ على معكِّر صفو الحفلة فأمسك بتلابيبه وأبعده عن المائدة بقوة وعنف . ما كان لأحد أن يتصور قط أن رجلاً هزيلاً مثل بسلدونيموف يملك قوة جسمية كبيرةً الى هذا الحد .

على أن تفسير هذه المعجزة أمر سهل فلقد كان الصحفى سكران كل السكر ، على حين أن بسلدونيموف لم يكن قد أصاب شيئاً من شراب . وانتهى الحادث ببضع لكمات أنزلها بسلدونيموف على ظهر الصحفى الذى خرج من الباب وغاب وهو يزأر قائلاً من قبيل التوديع :

ـ أنتم جميعاً جبناء حقراء ! سأعرف كيف أُشهِّر بكم فى مجلة «جوروفشكا» !...

وقام الجمع كله قومة رجل واحد ، وصاح بسلدونيموف وأمه وعدد من الضيوف يقولون :

ـ صاحب السعادة ... صاحب السعادة ...

وها هم يحيطون الآن بالجنرال ويقولون له مواسين :

ـ هدىء نفسك يا صاحب السعادة !

ولكن السيد برالنسكى كان قد أخذ يبكى منتحباً ويقول :

ـ لا ، لا لقد تدمَّرت ... أنا انما جئت الى هنا ... كنت أريد ... ان صح التعبير ... أن أباركَكم ... ولهذا ...

وكانت نظرة الجنرال تتبع تهرب أحلامه وتشتتها ، وما هى الا

لحظة حتى تهاوى على كرسيه ماداً يديه على المائدة مسقطاً رأسه فوقها مغرقاً وجهه فى طبق الحلوى •

تحسب أننا لا حاجة بنا الى وصف حالة الذعر والانشداه التى استبدت بالضيوف بعد تلك اللحظة شيئاً فشيئاً •

ونهض الجنرال لينصرف ، ولكنه لم يلبث أن ترنح وتعثرت قدمه بقدم الكرسى ، فسقط على أرض الغرفة متمدداً ، وأخذ يشخر وينخر •••

ذلك ما يحدث عامة لأولئك الذين لم يألفوا الشراب : يحتفظون بوعيهم الى آخر لحظة ، ثم اذا هم يسقطون مهدّمين على حين فجأة •

ظل ايفان ايلتش راقداً على الأرض منتشياً عليه ، وأمامه يقف بسلدونيموف واضعاً يديه فى شعره الباهت وقد أوشك أن يموت غماً وقلقاً • وأخذ الضيوف يغادرون الغرفة واحداً اثر واحد ، وكلٌ منهم يعلق على الحادث على شاكلته • وكانت الساعة هى الثالثة صباحاً •

كانت أحوال بسلدونيموف على درجة كافية من السوء قبل ذلك ، دون أن يكون فى حاجة الى أن يرى الأمور تجرى على هذا النحو مجرى أسوأ • ان الحياة القديمة التى عاشها المسكين لا يمكن أن تقاس بوضعه الراهن رغم أن وضعه الراهن ليس باللامع كثيراً •

ولننتهز فرصة تمدد ايفان ايلتش على أرض الغرفة ، وحيرة بسلدونيموف الذى استولى عليه الكمد واليأس وأخذ يشد شعر رأسه ، لننتهز هذه الفرصة فنقطع قصتنا برهةً وجيزة ونلقى على شخصية العريس الحزين لمحة سريعة •

لقد جاء بسلدونيموف من مقاطعة فى الأقاليم كان أبوه يعمل فيها بأحد المكاتب • وقد مات الأب حين أوشك أن يحال الى المحاكمة •

فبعد أن ظل الشاب سنة كاملة يتسكع بمدينة بطرسبرج فى البؤس والفقر والشقاء ، استطاع أن يحصل أخيراً على هذه الوظيفة براتب قدره عشرة روبلات فى الشهر ، فأحس عندئذ أنه بُعث بعثاً جديداً ، وأصبح انساناً آخر • حدث هذا منذ أقل من خمسة أشهر •

ولم يكن فى العالم الا شخصان من أسرة بسلدونيموف : هو وأمه التى تركت الريف بعد وفاة زوجها فى السجن • لقد جاءت الى العاصمة لتلحق بابنها ، وأخذ الاثنان منذ ذلك اليوم يكافحان كفاحاً مريراً حتى لا يموتا من البرد وحتى يحصلا فى القليل النادر على طعام لا يكاد يسد الرمق ، حتى اذا حصل الابن على تلك الوظيفة استطاع أن يستأجر غرفة مؤثثة ، وأخذت الأم منذ ذلك الحين تتعاطى غسل الثياب لبعض الزبائن الذين يكلفونها بهذا العمل من حين الى حين ، بينما أخذ بورفير يستميت فى سبيل توفير بعض المدخرات الزهيدة بغية أن يشترى لنفسه معطفاً رسمياً وحذاءين •

ما أشد ما تحمل المسكين من آلام فى مكتبه ، حيث كان رؤساؤه يتحرشون به فى كل لحظة ليسألوه منذ متى لم يستحم ! وما أكثر ما كانت تذيع فى حقه الأقاويل وتروج الشائعات ! كان يُقال مثلاً ان القمل قد اتخذ من بطن ياقة قميصه أعشاشاً له !

ولكن بسلدونيموف كان صلب الارادة قوى الشكيمة ! هو صموت هادىء لم يصب من التعليم الا حظاً ضئيلاً جداً ؛ ولم يكد يسمعه أحد متكلماً فى يوم من الأيام • أتراه كان يفكر فى أمر ما ؟ أتراه كان يرسم خططاً أو ينشىء نظريات ؟ أتراه كان يحلم بمثل أعلى غير ملموس ؟ ما من أحد كان يستطيع أن يجيب عن هذه الأسئلة •

كل ما نعلمه أن رغبته الغريزية اللاشعورية في الوصول الى هدفه وفي الخروج من الحفرة كانت أشبه بعناد النملة التي تحاول أن تعيد بناء بيتها كلما هدمه أحد •

الخلاصة أن الرجل كان امرأً يتقيد بالنظام ويراعي دقائق الأمور ويحب أن يقبع في بيته لا يبارحه • وكان جبينه يحمل علامة مستقبله• فاذا نظرت اليه قرأت في جبهته الصلابة والعناد والاصرار وسائر المزايا التي تدل على أنه سيفلح في شق طريقه ، وسيبني بيته حجراً حجراً ، حتى لقد يستطيع أن يدخر شيئاً من مال ! وكانت أمه هي الانسان الوحيد على وجه الأرض الذي يحيطه بعاطفته • كانت الأم تحب ابنها اكثر مما تحب أي شيء في هذا العالم • هي امرأة قاسية الطبع ناشطة الهمة تحب العمل ولا تعرف التعب ، وكانت في معاملته طيبة رقيقة شفوقاً • وكان يمكن أن يعيش الاثنان على هذه الحال في غرفتهما المؤثثة خمس سنين أو ستاً الى أن يتغير حالهما ويتحسن وضعهما ، لولا أن تعرفا الى رجل يسمى ماميفروف هو موظف محال الى التقاعد كان في الماضي مرابياً • ان هذا الرجل الذي سبق أن عاش وعمل في الريف حيث أحسن اليه أبو بسلدونيموف فأحس بأنه مدين له بفضل ، قد أحيل منذ مدة قصيرة الى التقاعد ، واستقر مع أسرته في بطرسبرج • وكان الرجل يملك مالاً ، وان لم يكن ثرياً ••• ولكنه كان يبدو في يسر وبحبوحة • ليس في العالم أحد ، حتى ولا امرأته أو بنتاه ، يعرف مبلغ المال الذي ادخره هذا الموظف العجوز •

وكان يحب الشراب ، وكان عنيد الرأي مستبد الطبع (ناهيك عن المرض الذي كان يفتك بجسمه) وكانت احدى ابنتيه متزوجة فبدا له فجأة أن يزوج بسلدونيموف الابنة الصغرى • كان يقول :

ــ لقد عرفت أباه • كان أبوه رجلاً شهماً ، وان ابنه ليشبهه •

واذا كان يفرض سلطته ويملى ارادته على الجميع فقد تم كل شيء لى ما أحب واشتهى •

وكان سلوك العجوز واميفروف سلوكاً عجيباً : كان يقضى وقته كله جالساً في مقعد ، ويظل يشرب خلال أيام بكاملها رغم أنه قد فقد استعمال ساقيه وأصبح كسيحاً • وكان لا ينفك يصب على من حوله الاهانات تلو الاهانات ، ويمطرهم بهاجر القول وفاحش المزاح •

ان هذا الانسان القاسى المشاحن المناكد ، كان دائماً في حاجة الى شخص يضطهده ويسومه سوء العذاب ، فمن أجل أن يرضى هذا الهوى كان يُعيل فى منزله عدة قريبات له : أختاً ممراضاً مشاكسة ، وامرأتين هما عمتان لزوجته ، شريرتين ثرثارتين ، وعمةً عجوزة عرجاء شديدة الشراسة •

ومع ذلك لم تكفه هذه العشيرة ، فكان يؤوى امرأة طفيلية أخرى هى عجوز ألمانية أصبحت روسية ، وهى تنعم بموهبة نافعة جداً قوية كثيراً : فقد كانت تقص حكايات « ألف ليلة وليلة » ببراعة فائقة •

وكانت أكبر لذة يشعر بها العجوز هى أن يسيء معاملة هذه العصبة من النساء الشقيات البائسات ، وأن يرشقهن بكلمات نابية فظة غليظة ، دون أن تستطيع احداهن أن تجيبه بشيء في يوم من الأيام ، حتى ولا زوجته التى وُلدت وهى تعانى أوجاعاً فى الأضراس •

كان واميفروف يدبر مكائد ويحيك مؤامرات ويبتكر دسائس وينشر نمائم ويذيع أقاويل ، فيحرّض هاته النسوة بعضهن على بعض ، وكان فرحه يبلغ الذروة حين يأخذ يتأمل المشاجرات التى أثارها بينهن •

وقد سُرَّ مزيداً من السرور حين مات زوج ابنته الكبرى ،

الضابط الفقير ، فاضطرت الأرملة المسكينة أن تلجأ الى منزل أبيها مع أولادها الثلاثة • ولئن كان العجوز يكره الأطفال فى الواقع ، فان وجود هؤلاء الأولاد الثلاثة قد زاد عدد الضحايا الذين يستطيع أن يتسلى بتعذيبهم كل يوم •

هذا الرهط كله من النساء الشريرات والأولاد المراضين كان يتكدس فى المنزل الصغير المبنى من خشب • وكان الجلاد العجوز يسيطر سيطرة تامة على هذا العالم كله الذى لا يتاح له أن يأكل كلما جاع : كان الكسيح بخيلاً ، وكان يحسب ما ينفقه قرشاً قرشاً ، رغم أنه لا يحرم نفسه من الشراب • وكان أفراد هذا الرهط لا ينامون أيضاً ، لأن العجوز كثيراً ما يستبد به الأرق فلا بد له فى كل لحظة من أحد يسليّه ويساعده على تزجية الوقت •

الخلاصة أن أهل المنزل ، باستثناء سيّده ، كانوا جميعاً يعانون ألوان العذاب ويشكون من سوء الحظ ويلعنون ظلم الأقدار •

وفى ذلك الحين انما شاءت مصادفة خبيثة ماكرة أن تتسلى باتمام لقاء بين بسلدوتيموف وماميفروف • لقد أعجب العجوز الشاذ بطول أنف الشاب ، وأعجب بهيئته التى تشبه هيئة كلب خاضع ذليل •

كانت ابنته الصغرى ، وهى فتاة ضعيفة الجسم قليلة البشاشة ، قد بلغت السابعة عشرة من عمرها منذ برهة قصيرة ؟ ورغم أنها اختلفت بعض الوقت الى مدرسة ألمانية مغمورة ، فانها لم تحصّل الا قدراً ضئيلاً من المعرفة ، ولم تصب الا حظاً يسيراً من العلم • وحين خرجت من المدرسة مصابةً بفقر الدم مهيأة لمرض السل ، استأنفت حياتها فى جحيم هذا المنزل حيث تهددها عصا الأب وتسمم نفسها النمائم والأقاويل وأنواع التجسس وصنوف التخرص • لم يكن لها فى يوم من الأيام

صـديقات ، ولا برهنت فى يوم من الأيام على أنهـا ذات ذكاء ، ولكنها تشتهى منذ مدة طويلة أن تتزوج • ورغم انها صمدت حزينة أمام جميع الناس ، فلقد كانت تتصدى لأمها ولسائر النساء الطفيليات اللواتى يعشن فى هذا المنزل ، فتبرهن بذلك على أنها هى أيضـاً شريرة مشـاجرة ، مناكدة كبعوضة • وكانت لذتها هى أن توزع القرصات واللكمات على أولاد أختها ، وأن تشىَ بأيسر ما يرتكبونه من أخطاء وما يقترفونه من سرقات صغيرة لشىء من سكر أو خبز ، فكان ذلك يوقع بينها وبين أختها حرباً دائماً •

وقد تولى الأب بنفسه أن يعرض على بسلدونيموف ابنته ، فطلب الفتى أن يمهله العجوز بضعة أيام للتفكير ، رغم فقره الشديد ؛ وأخذ يتشاور مع أمه مدة طويلة ، ترددا خلالها كثيراً • على أن العرض كان لا يخلو من جوانب مغرية : فان مهر الفتاة منزلٌ ان كان عتيقاً فما يزال صالحاً للسـكنى ، هذا عدا اربعمـائة روبل هى مبلغ لو أراد الفتى أن يجمعه من مدّخراته الطفيفة لاحتاج الى سنين عديدة •

كان العجوز يصيح سائلاً فى تعجب :

ــ أتسألوننى لماذا أُسكن فى منزلى رجلاً ؟ فاعلموا اذن أن هاته الأناث جميعاً قد أُخذت تثير فى نفسى الاشمئزاز ! اننى أريد أن أصبح محسناً الى بسلدونيموف أيضاً ، بغية أن يخضع لارادتى • ولكننى أفعل ذلك خاصـةً من أجل أن أزعج الفسـاتين الكريهة التى تعارض هذا الزواج وتريد أن تمنعه • اننى أحب أن أناكدهنّ وأن أغيظهن ! هذا هو الأمر ! أما أنت يا بورفير ، فيجب أن تعـدنى ، متى صـارت ابنتى زوجتك ، بأن تعرف كيف تضربها ضرباً مبرحاً بعصا سأعطيك اياها • ان فيها ، منذ وُلدت ، سبعة شياطين لا بدّ من طردها مهما كلف الأمر ! ومن أجل ذلك سأهيىء لك هراوة ضخمة مناسبة !

وقبل الزفاف بثمانية أيام أقام بسلدونيموف وأمه فى منزل العجوز بعد أن اغتسلا وارتديا ثياباً جديدة وانتعلا أحذية جديدة • وها هو ذا العجوز الذى أصبح يرعاهما ويحميهما لأنه يحب المشاكسة ولأن سائر أفراد الأسرة كانوا يكرهون هذين الدخيلين ، ها هو ذا يدفع مبلغاً من المال للاحتفال بالزواج ، حتى لقد بلغ اعجابه بأم بسلدونيموف أنه كان لا يجرؤ أن يهينها أو أن يشتمها • أما الخطيب فقد اضطر قبل زواجه بثمانية أيام أن يرقص أمامه رقصة القوزاق •

فلما انتهت الرقصة قال له حموه :

ـ كفى ! فانما أردت أن أعرف أنك لا تعصى ارادتى وأنك تخضع لمشيئتى •

وكان المبلغ الذى دفعه ماميفروف لاقامة الحفلة ضئيلاً جداً فى الواقع ، ولكن العجوز فى مقابل ذلك قد دعا الى الحفلة جميع الأقارب والمعارف •

أما بسلدونيموف فلم يدع الا شخصين : صديقه محرر « جوروفشكا » ، وآكيم بتروفتش رئيس مكتبه ، الضيف المرموق • وكان الخطيب المسكين لا يجهل أن خطيبته تميل الى الضابط ، وتكره الزوج الذى فرض عليها كرهاً صادقاً • ولكنه كان يحتمل كل شىء ، لارتباطه بالوعد الذى قطعه على نفسه لامه •

وقد حفل يوم الزواج من أوله الى آخره بالصرخات والشتائم يطلقها العجوز الذى سكر منذ الصباح •

وحين اقترب المساء التجأت الأسرة كلها الى الغرف البعيدة التى

تملؤها رائحة موبوءة كريهة . أما الغرف الواقعة فى واجهة المنزل فقد أعدت للموائد والرقص . وفى نحو الساعة الحادية عشرة نام العجوز فهدأ غضب أم العروس قليلاً ، وأصبح مزاجها محتملاً مقبولاً ، فخرجت من حجرتها ، ومضت تنضم الى الطاعمين على مائدة العشاء .

ولكن وصول ايفان ايلتش كان قد قلب الأمور كلها رأساً على عقب .

اضطربت السيدة ماميفروف أشد الاضطراب وغضبت أشد الغضب لأنهم لم ينبئوها بزيارة الجنرال . ورغم أن صهرها قد أكد لها أن صاحب السعادة قد وصل فجأة على غير توقع وبدون دعوة ، فانها لم تشأ أن تصدق شيئاً وأصرت على تكذيب صهرها فى عناد غبى أبله .

وكانت قضية الشمبانيا قضية كبرى : كانت أم بسلدونيموف لا تملك الا روبلاً واحداً . أما العريس فقد أصبح لا يملك الا كوبكاً . لذلك اضطر الشاب المسكين أن يمضى ضارعاً الى حماته أن تعطيه ثمن زجاجة واحدة فى أول الأمر وثمن زجاجة ثانية بعد ذلك ، باسطاً لها الفوائد التى سوف يجنيها من ذلك فى وظيفته . ولكن الحماة لم تستجب لرجائه الا بعد أن بلغت من اغلاظ القول له أنه أخذ يرتعش غضباً مكظوماً ، وأنه ارتمى على السرير المخصص لمباهجه الزوجية المقبلة عدة مرات وهو يشد شعره فينتف منه خصلاً .

آه لو علم ايفان ايلتش كم كان ثمن هاتين الزجاجتين من شامبانيا جاكسون اللتين شربهما فى السهرة !

ولكن ما أشد ما أجتاح بسلدونيموف من هول ورعب حين رأى الأمر ينتهى هذه النهاية التى لم تكن فى الحسبان ! كان ينتظر ليلة زاخرة بالصرخات والملامات تطلقها أسرة بكاملها من الأغبياء ، وكان

رأسه قد ألم به صداع سلفاً ، وكانت عيناه قد غشيتهما ظلمات • ثم ها هو ذا مضطر أن يمضى فى الساعة الثالثة من الصباح باحثاً عن طبيب وعن مركبة فخمة تنقل الموظف الكبير الى منزله ، لأن شخصية خطيرة الشأن عالية القدر الى هذا الحد لا يمكن أن تركب عربة شعبية ، كما تدركون ذلك حق الادراك •

ولكن أين له بالمال يستأجر به مركبة ؟ ان السيدة ماميفروف العجوز التى أحنقها وأغاظها أن الجنرال لم يخاطبها بكلمة واحدة طوال السهرة قد رفضت رفضاً قاطعاً أن تعطيه شيئاً من المال ، وأعلنت له أنها لا تملك كوبكاً واحداً ، ولعلها كانت صادقة فيما زعمته على كل حال !•

فأين يبحث عن مال ؟ أين يجد المال ؟ أليس فى هذا ما يدعوه الى شد شعره ؟

بينما كانوا يرفعون الأطباق عن الموائد ويرتبون المنزل بعض الترتيب ، نُقل ايفان ايلتش الى كنبة منجدة بجلد ، فأُرقد عليها •

وكان بسلدونيموف المسكين يركض أثناء ذلك من غرفة الى غرفة بحثاً عن بعض النقود ! حاول أن يقترض من الخادمات ، ولكن محاولاته هذه لم تجده نفعاً ، وجازف فالتمس قرضاً من آكيم بتروفتش الذى بقى فى البيت بعد انصراف سائر المدعوين ، ولكن رئيس المكتب ، رغم أنه رجل طيب القلب شهم يحب خدمة الناس ويهب الى نجدتهم ، اضطرب واحتار وارتبك من هذا الطلب الذى لم يكن يتوقعه وأخذ يجمجم بأعذار غير مفهومة قائلاً :

– فى يوم آخر ••• ما كنت لأقول شيء ••• كان يسرنى أن ••• أما الآن ••• فأرجو أن تعذرنى •••

وتناول رئيس المكتب طاقيته المصنوعة من فراء ، وولى هارباً !

وكان الشاب الذى تكلم أثناء السهرة عن « تفسير الأحلام » قد لبث فى المنزل هو أيضاً بعد انصراف الآخرين ، يشارك فى المصيبة التى نزلت على آل بسلدونيموف ، ويتمنى صادقاً أن يستطيع تقديم خدمة ما.

وقرر الثلاثة ، الأم وبسلدونيموف والشاب ، قرروا بعد التشاور أن لا يزعجوا طبيباً ، ورأوا أن من الأفضل أن ينقل المريض الى منزله بسرعة .

وبانتظار ذلك أُسعف المريض بالوسائل المتاحة : كمّادات ماء بارد على الصدغين ، جليد على الجمجمة ، الخ ... كان ذلك هو الدور الذى قامت به أم بسيلدونيموف ، أما الشاب فقد انطلق راكضاً يبحث عن عربة .

ولكن العربات كانت قد أوت الى مرائبها ، فمن الصعب فى مثل هذه الساعة العشور على أية مركبة ، فاضطر الشاب أن يذهب الى الضواحى ليوقظ حوذياً من نومه . وتمت المساومة بينه وبين الحوذى . ان أجرة العربة لا يمكن أن تقل فى مثل هذه الظروف عن خمسة روبلات ومع ذلك تم الاتفاق أخيراً على أجرة قدرها ثلاثة روبلات .

ولكن حين وصل الشاب فى نحو الساعة الرابعة من الصباح الى منزل آل بسلدونيموف ، كان الابن وأمه قد غيّرا رأيهما منذ مدة طويلة . لقد كان واضحاً أن ايفان ايلتش لا يمكن نقله : انه يئن أنيناً متصلاً ويتخبط على مرقده بغير انقطاع .

تساءل بسلدونيموف وقد خارت قواه وبارحته شجاعته : « ما الذى سنصير اليه ؟ » .

ما العمل ؟... هذا سؤال جديد يقوم : اذا كان ينبغى أن يبقى

المريض هنا فأين يوضع ؟ ان المنزل كله ليس فيه الا سريران : الأول ينام عليهماميفروف وزوجته ؛ والثاني مخصص للعروسين وهو سرير جميل من خشب الجوز الملمع قد اشترى حديثاً .

أما سكان المنزل الآخرون فانهم ينامون أرضاً على ألحفة عتيقة كريهة الرائحة محدودة العدد . وقد يمكن الحصول على لحاف منها عند الاقتضاء ، ولكن أين يمكن فرشه لارقاد المريض عليه ؟

كان لا يمكن وضع مضجع الجنرال الا في الصالون ، لأنه أبعد الحجرات عن مغارة الأسرة ، ولأن له مدخلاً خاصاً . ولكن على أي شيء يوضع اللحاف ؟ أيوضع على كراسي ؟ ذلك مستحيل : ان مرقداً كهذا المرقد يصلح في أكثر تقدير لطلاب من المدارس الثانوية جاءوا لقضاء يومي السبت والأحد عند أسرهم . أما شخصية كشخصية إيفان ايلتش فلا يمكن أن ترضى به . وقد رفض بسلدونيموف حتى أن يتصور هذا الأمر وأن يناقش هذه الفكرة . فلم يبق اذن الا حل واحد هو أن يُنقل الموظف العظيم الى سرير العرس المنصوب في غرفة صغيرة قرب قاعة الطعام .

كان على هذا السرير ، المشترى حديثاً كما ذكرنا ، فراش جديد وأربع مخدات ذات أغطية وردية اللون مزدانة بتخاريم ؛ وكانت تظلل السرير مظلة مثبتة بدبابيس مذهبة . الخلاصة أن السرير قطعة أثاث لا عيب فيها ولا مأخذ عليها ! والمدعوون الذين مروا جميعاً بتلك الحجرة قد أثنوا على ترتيب هذا المهجع ثناءً كثيراً .

والعروس ، رغم ما تحمله لعريسها من كره واحتقار ، لم يفتها أن تتسلل الى الغرفة خلسة عدة مرات لتتأملها معجبة ، فما كان أشد غضبها اذن حين علمت أن سرير العرس سينام عليه ويوسخه مريض يشبه أن يكون مصاباً بالكوليرا من شدة القيء والاسهال !...

وسرعان ما انضمت أمها اليها تدافع عنها ، وتنثر الشتائم ، وتهدد بأن تقول لزوجها المحترم كل شيء ، وأن تطلعه على كل ما جرى . ولكن بسلدونيموف ظل صامداً لا ينثني عن عزمه ، فأُرقد ايفان ايلتش في الغرفة الصغيرة ، وأصبح على العروسين أن يرضيا بسرير اخترع اختراعاً في غرفة الطعام برصّ عدد من الكراسي بعضها الى جانب بعض .

وقد انفجرت العروس الشابة باكيةً منتحبة ، ولكنها لم تجرؤ أن تدخل في تمرد صريح وعصيان ظاهر ، لأنها كانت لا تجهل وجود عصا أبيها ، ولأنها كانت تعلم أن أباها لن يفوته في الغد أن يطلب تقريراً مفصلاً عن أحداث السهرة . وكان يعزيها على كل حال أن السرير قد زُيّن بغطاء جميل وردي اللون وبوسائد مزدانة بتخاريم .

في تلك اللحظة وصل الشاب أخيراً مع العربة ، فلما علم أنهم أصبحوا في غير حاجة اليها اصفر وجهه اصفراراً شديداً . لقد وقع كل شيء على رأسه هو الذي لم يملك طوال حياته عشرين كوبكاً ، اذ اعترف له سلدونيموف بأنه ليس معه شيء من مال البتة ! ولم تجده المشاجرات مع الحوذي نفعاً . كان الحوذي يريد أن يدفع له أجره ، وأخذ يطرق الباب طرقاً شديداً . لا أدري على وجه الدقة كيف انتهى هذا الأمر . ولكنني سمعت أن الشاب ظل سجين العربة مدةً ، ثم مضى بها الى ضاحية بيسكي ، حيث كان يأمل العثور على طالب من أصدقائه ربما استطاع أن يقرضه مبلغاً صغيراً .

وكانت الساعة هي الخامسة من الصباح حين اختلى العروسان أخيراً .

وتطوعت العجوز المسكينة ، السيدة بسلدونيموف ، بالسهر على المريض ، فتمددت فوق خرقة بالية ، والتحفت فروتها الهزيلة . ولم

تستطيع أن تنام طبعاً ، لأنها كانت تُضطر الى النهوض في كل لحظة بسبب الاسهال الشديد الذى انتاب ايفان ايلتش • ان السيدة بسلدونيموف امرأة كريمة الخلق قوية الجسم ، وقد خلعت عن الموظف العظيم ملابسه ، وأرقدته على السرير ، وراحت تعامله كأنه ابنها ، ولم تنقطع طوال الليل عن الركض من الغرفة الى الدهليز ومن الدهليز الى الغرفة• على أن مصائب تلك الليلة لم تقف عند هذا الحد !•••

ما ان انقضت عشر دقائق على حبس العروسين فى غرفتهما حتى سُمعت صرخة حادة ليست صرخةً فرحة بل مذعورة ، ثم سرعان ما دوّت ضجة رهيبة هى قرقعةٌ وطقطقةٌ وضوضاءُ كراسى تتهاوى على الأرض ، فما هى الا لحظة حتى هرعت الى غرفة العروسين جمهرة من النساء تعول وتولول مرتديةً أنواعاً شتى من قمصان النوم : هنَّ أمُّ العروس الشابة ، وأختها الكبرى التى اسرعت تاركةً أولادها المرضى ، وعماتُها الثلاث حتى العرجاء منهن ؛ ووصلت الطباخة أيضاً تتبعها الألمانية العجوز التى كانت مهنتها قصَّ حكايات « الف ليلة وليلة » • ان هذه الألمانية العجوز قد أُخذ منها فراشها الذى هو أحسن فراش فى المنزل كله والذى كان كلَّ ما تملك من حطام الدنيا ؛ ومع ذلك جاءت الآن بغير حقد ولا ضغينة • ان جميع هاته النساء المحترمات اللواتى يتربصن منذ ربع ساعة عند قفل الباب ، كان يلتهمهن فضول خبيث شرير •

وفجأةً أشعل أحدٌ نوراً ، فاذا بمنظر ليس فى الحسبان يعرض الآن للأبصار : ان الكراسى المتلاصقة لم تستطع أن تحمل وزن العروسين مجتمعين فتهاوت وسقط اللحاف على الأرض • وها هى ذى العروس

تبكي وتغلي غضباً ، وتشعر أنها قد أهينت حقاً ، وها هو ذا بسلدونيموف قد تحطمت نفســه تمــاماً ، فجمــد على وضع مجــرم فوجيء متلبساً بالجرم . وهو لا يحاول حتى أن يردّ على هــذا الموقف بشيء ، فكأنه لا يشعر بأصوات الصراخ والعويل التي أخذت تنصب عليه .

واجتذبت هذه الجلبة أمّ بسلدونيموف أخيراً . ولكن الحماة هي التي كانت لها الغلبة في هذه المرة . لقد صُعقت الحماة ، وخرجت عن طورها ، فأخذت تصبُّ على بسلدونيموف ملاماتٍ غريبةً ظالمةً في آنٍ واحــد : « أي زوج أنت ؟ لأي شيءٍ تصــلح بعد هــذا ؟ الخ » . ثم أمســكت يدَ ابنتها وجــرّتها الى غرفتها وهي تعد بأن تقصّ على الأب الأسباب التي دعتها الى أن تتصرف هذا التصرف قائلةً ان الأب لا بد أن يغضب أشد الغضب . وتبعتها بقيــة الجمع ، وهي تهز رأســها وتطلق الآهات حزناً وكمداً ، فبقي بســلدونيموف وحيداً مع أمّه التي راحت تحاول أن تواسيه وتعزيه ، ولكنه لم يلبث أن صرفها . وما كان لأنواع التعزيات أن تسرّي عنه وأن تخفف كربه على كل حال ! ...

ومضى الى الكنبة غارقاً في تأملاتٍ كالحةٍ حزينة . ولبث على هذه الحال مدةً طويلة حافي القدمين عاري الجسم الا من بعض الملابس الداخلية التي لا بد منها ولا غنى عنها . وأخذت الأفكار والخواطر تتصــادم في رأسه المسكين . وكان في بعض اللحظات يلتقي بصره عرضاً بالغــرفة التي كان جمهور الراقصين المسعور يتخبط فيها منذ ساعات قليلة ، والتي ما تزال مشبعةً برائحة التبغ . ان أعقاب السجائر وأغلفة السكاكر ماتزال تغشى الأرض الرطبةَ القــذرة . وكان حطام سرير العرس والكراسي المنقلبة تمثل في نظر الشاب المســكين بطلان الآمال والأحــلام في هذه الحياة الدنيا كلها !

لبث على هذه الحال أكثر من ساعة . ان رأسه يعج بصــورٍ ثقيلة

وتهاويل مرهقة . من ذلك أنه كان يتساءل : ما الذى ينتظره فى المكتب؟ كان يدرك حق الادراك أن عليه أن يبدل الدائرة التى يعمل فيها . ذلك أنه لا يستطيع بعد الذى حدث فى هذه الليلة أن يبقى فى مكتب الجنرال. وطافت برأسه ذكرى مامیفروف فأزعجته أيضاً : ترى ألن يحمله حموه على أن يرقص رقصة القوزاق لا لشيء الا أن يقتنع بطواعيته ؟ ثم ألمت برأسه تلك الفكرة الرهيبة ، وهى أن حماه لم يتقدم حتى الآن إلا خمسين روبلاً أنفقها هو كلها ثم لم يجيء حموه بعد ذلك قط على ذكر الأربعمائة روبل الأخرى من المهر . كما أن بسلدونيموف لم يمتلك المنزلَ أيضاً . ثم فكر بسلدونيموف فى امرأته التى تركته منذ برهة فى أحوج لحظة من لحظات حياته . وتراءى للمسكين ذلك الضابط الذى كان يركع أمام زوجه . ان بسلدونيموف قد لاحظ ذلك فى حينه ، فشعر بغضب اضطر أن يكظمه . وفكر أخيراً فى الشياطين السبعة التى تسكن جسم امرأته الشابة ، على ما أكده أبوها ، والتى لا بد له من طردها بالعصا التى أعدها العجوز ماميفروف لهذا الغرض .

لا شك أن بسلدونيموف كان يعتقد أنه قادرٌ على احتمال كثيرٍ من الاهانات والاساءات وأنواع الأذى . ولكن ألم يكن القدر مسرفاً فى القسوةِ عليه والظلم له حين أرهقه هذا الارهاق فجأةً كأنما ليهدّم آخر قواه مزيداً من التهديم وليجهز عليه اجهازاً كاملاً ؟

هكذا راح بسلدونيموف يتعذب ويجتر آمه ومصائبه بينما كانت الشمعة الذائبة تُحتَضر على المائدة . ان الضوء الضعيف الكابى الذى كان يسقط على وجه الشاب المهجور الحزين من جانب ، كان يرسم على الجدار صورة جسم ضخم ، معقوف الأنف ، طويل الرقبة ، على رأسه خصلتان من الشعر كأنهما قرنان .

وهبّت عليه طراوة الصباح فارتعش وارتجف . ونهض متجهم

النفس مكدود الجسم خائر القوة ومضى الى اللحاف المكوّم بين الكراسى المتقلبة فاستلقى عليه دون أن يصلح شيئاً من الفوضى ، وحتى دون أن يضع تحت رأسه وسادة . وما لبث أن اجتاحه نومٌ ثقيلٌ كالرصاص ، فغاب عن الدنيا وهو يحس باحساس من حكم عليه بالاعدام .

ومن جهةٍ أخرى ، بماذا نستطيع أن نشبه الليلة التى قضاها ايفان ايلتش على سرير العرس الذى كان معداً للمسكين بسلدونيموف وعروسه ؟

ان آلام الرأس واندفاعات التقيؤ ونوباتٍ أخرى أشد ازعاجاً لم تنقطع عن ارهاقه طوال الوقت . لقد كان فى جحيم من العذاب . وكانت ومضات الوعى التى تومض فى رأسه من حين الى حين تكشف له عن هوّة من الهول والروع ، وتريه مناظر مظلمةً كريهة تبلغ من البشاعة أن بقاءه غائباً عن الوعى كان خيراً له من اليقظة فليته لا يفيق أبداً !.. على أن كل شىء كان يختلط فى ذهنه ويتداخل ويتشابك . ومع ذلك كان يتعرف أمّ بسلدونيموف . كان يسمع أقوالها المتجَّمة وكلماتها المواسية :

ـ تحمل قليلاً يا عزيزى ! تحمل يا أخى ! سينقضى هذا كله !.

كان يتعرفها دون أن يفهم مع ذلك لماذا تقوم هذه المرأة عليه ولماذا تسهر بجانبه .

وكانت أشباحٌ غريبة وأطيافٌ عجيبة تنبجس فى خياله بدون انقطاع : كان سيمن ايفانوفتش يتراءى له فى أكثر الأحيان حتى اذا أمرع يمعن النظر فيه بمزيد من الانتباه رأى أنف بسلدونيموف ثم تراءى له الفنان والضابط والمرأة المضمَّدة الخد يرقصون أمامه رقصةً محتدمة عنيفة .

غير أن ما كان يحيِّره أكثر من أى شيء آخر انما هو الحلقة المذهبة فى سماء السرير فوق رأسه : كان المريض رغم أنه يرى هذه الحلقة رؤيةً واضحةً متميزة تسطع فى الضوء المهتز الصادر عن الشمعة الذائبة ، لا يستطيع أن يدرك ماهو هذا الشيء الغريب المعلق فى الأعالى، ولا يعرف ما عمله هنالك ! وقد سأل السيدة العجوز مراراً ، ولكن أغلب الظن أنه كان لا يفصح فى سؤاله بوضوحٍ كافٍ ، لأن العجوز لم تفلح فى أن تفهمه قط !... وحين اقترب الصبح انقطعت نوبات القيء والاسهال فنام بغير أحلام ساعة كاملة !...

فلما استيقظ واعياً كل الوعى ، شعر بألمٍ حادٍ فى رأسه وبمذاق غثيان فى فمه ، وأحسَّ بلسانه كأنه خرقة بالية .

هبَّ منتصباً على سريره ، وألقى حواليه نظراتٍ مدهوشة . وكان الضوء الشاحب الذى يخترق شقوق المصاريع عند طلوع النهار ، يهتز ويتراقص على الجدار . لا بد أن الساعة لم تكن بعيدةً عن السابعة .

حتى اذا أدرك فى آخر الأمر ادراكاً واضحاً ما جرى ، وتذكر جميع الأحداث التى ازدانت بها مأدبة العشاء ، وتذكر عمله البطولى المخفق ، والخطاب الذى ألقاه على المائدة ، وتصور بكل ما أمكنه من وضوحٍ وجلاء النتائج التى نجمت عن اقتحامته الباسلة ، ورأى أخيراً الحالة التى صار اليها مضجع عرس مرءوسه المسكين ، شعر عندئذ فقط ، بالعار والخزى يجتاحان نفسه ، وبالهول والروع يستبدان به ، فاذا هو يطلق صرخةً من أعماق صدره ، ويغطى وجهه بيديه ، ويهوى ساقطاً بين الوسائد . ثم اذا هو بعد لحظةٍ واحدة يثب فينزل عن السرير . وعلى أحد الكراسى رأى ثيابه مرتبةً مطويةً منظفةً بالفرشاة ، فأسرع يرتديها وهو يلقى على ماحوله نظراتٍ زائغة . وفوق كرسىٍ آخر على مقربةٍ منه كان يرقد فراؤه وقبعته وقفازاه الأصفران ، فسرعان ما خطر

بباله أن يولى هارباً على الفور، ولكن ها هو ذا الباب يُفتح ، وها هى ذى العجوز بسلدونيموف تدخل حاملةً بين ذراعيها طشتاً من فخار ، وعلى كتفها منشفةٌ نظيفة . وضعت السيدة بسلدونيموف الطشت على منضدة الزينـة وألزمت المريض بأن يغسـل وجهـه دون أن تكثر من الكلام قائلةً له :

ـ هلمَّ يا عزيزى ! لا يمكنك أن تخـرج من هنا دون أن تغسـل وجهك !...

أدرك ايفان ايلتش أنه اذا كان هنالك انسانٌ ليس عليه أن يحمرَّ أمامه خجلاً ، فهو هذه العجوز الطيبة . وهكذا غسـل وجهه ، فشعر بشيء من الانتعاش .

ان الجنرال سيظل زمناً طويلاً ، أثناء الساعات العصية من الحياة ، أثناء الساعات التى يعاود الانسـانَ فيها تأنيبُ الضـمير ، سيظل يتذكر هذا الجو الذى أحاط به عند استيقاظه : ابريقُ الخزف ؟ الطشتُ الذى يملؤه ماءٌ بارد وتسبح فيه قطع من جليد ؟ الصابونةُ البيضاوية المغلفة بورق وردى اللون ، التى يساوى ثمنها نحو خمسة عشر كوبكاً والتى لا شـك أنها اشـتُريت للعروسـين فاضـطر أن يكون هـو أول من يستعملها ؟ العجوزُ الطيبة وهى تحمل المنشفة على كتفها اليسرى .

أنعش الماء البارد ذهنه وأيقظ فكره . وتنـاول الجنرال المنشـفة فجفف وجهه ثم أخذ قبعته وألقى على كتفيه فراءه ثم اندفع يخرج الى الدهليز حتى دون أن يشكر ممرضته . اجتاز المطبخ الذى كانت تموء فيه قطة ، فلما رأته الطباخة التى كانت ما تزال مندسةً فى مضجعها ، انتصبت لتلقى عليه نظرة استطلاع غريبة . ووصل أخيراً الى الشارع ، فنادى عربةً كانت عندئذ مارة ، ووثب الى داخلها بسرعة وقوة .

كان الصباح بارداً ، وكان ضبابٌ ضاربٌ الى صفرة يحجب المنازل . رفع ايفان ايلتش ياقة معطفه يخفي بها وجهه : كان يقدّر أن جميع الناس يتعرفونه ويأخذون عليه سلوكه ...

***

خلال ثمانية أيام لم يخرج الجنرال من منزله ولم يذهب الى مكتبه . لقد كان مريضاً ، كان مريضاً فى نفسه أكثر مما كان مريضاً فى جسمه . عانى فى هذا الأسبوع عذاباً من عذاب جهنم : لا شك أن آلامه هذه قد حُسبت له فى الآخرة !

فى بعض اللحظات ، كان يخطر بباله أن يدخل الدير ، ويشرد خياله أحياناً فاذا هو يسمع أناشيد مخنوقة كأنها تخرج من سراديب تحت الأرض ، واذا هو يرى قبراً محفوراً ، ويرى الحياة فى حجرة ضيقةٍ منعزلةٍ فى المناسك داخل الغابات . ولكنه ما يلبث أن يهز هذه الأشباح، فيعترف لنفسه بأن هذه الأحلام كلها لم تكن الا مبالغات مرضية ، فسرعان ما يشعر من ذلك بخجل وعار .

وفى مراتٍ أخرى ، كانت تعتريه نوبات حسرات ولوعات . كان يعتقد عندئذٍ أن حياته قد أخفقت . فاذا صحا ذهنه بعد ذلك قليلاً طفق يقاوم سيطرة هذه الهواجس على نفسه ، ويحاول أن يطرد تلك الذكريات البغيضة .

ثم تعود صورٌ أخرى تخطر فى ذهنه من جديد : ماعساهم يقولون عنه حين يرجع الى المكتب ؟ ألن تضطهده وتعذّبه دمدماتٌ ساخرة متهكمة طول سنة بكاملها ، بل خلال عشر سنين ، بل مدى حياته بأسرها ؟

وكانت هذه الفكرة تجعله جباناً رعديداً ، فاذا هو مستعدٌ لأن

يذهب الى سيمن ايفانوفتش يسأله الصفح والعفو والمغفرة ويبتهل اليه بعد ذلك أن لا يحرمه من صداقته • أما هو فلا يحاول أن يبرىء نفسه وانما هو يتهمها ولا يجد أي عذر يغفر له ، بل هو يزداد هبوطاً في هاوية الشعور بالعار والخجل من نفسه •

وكان يخطر بباله أحياناً أن يقدّم استقالته من وظيفته معتزلاً حياة الناس الذين أراد أن يقف حياته على خدمتهم • وكان قد قرر على كل حال أن يغيّر حلقة أصدقائه ومعارفه بغية أن يمحو من نفوسهم حتى ذكراه • ولكنه سرعان ما رأى أن هذا الحل الأخير حل غبي ، وسرعان ما قال لنفسه ان الشدة الكبيرة في معاملة مرءوسيه كفيلةٌ بأن تطفىء ذكرى هذه القضية آخر الأمر ، فما يبقى منها في الأذهان أثر ، وكان من شأن هذه الفكرة أن وهبت له أملاً وبثّت فيه قوة •

وأخيراً بعد ثمانية أيامٍ قضاها في آلامٍ وشكوك ، أصبح لا يطيق احتمال هذا القلق الذي يشيعه المجهول في نفس الانسان ، فاذا هو يذهب في ذات صباح الى مكتبه •

وقبل ذلك ، أثناء مكوثه في المنزل ، كان قد حاول ألف مرة أن يتصور عودته هذه الى المكتب ، فكان يتملكه الرعب مما يتوقع أن يسمعه من دمدمات مشبوهة وأن يراه من وجوهٍ استطالت رغم اصطناعها قلة الاكتراث كذباً وزيفاً ، وأن يلمحه من ابتسامات مفتعلةٍ سوف تتلقاه بالتحية •

فما كان أشد دهشته حين لم يبصر من هذا كله شيئاً البتة ! استقبله الموظفون بكثيرٍ من الاحترام وحيّوه منحنين انحناءً شديداً ، وكانوا جميعاً جادين كل الجد ، منهمكين في عملهم كل الانهماك •

امتلأ قلب الجنرال فرحاً ومضى الى غرفته الخاصة وشرع يصرّف

الأعمال فوراً بكل ما تقتضيه رتبته العالية من وقار وجد وفخامة . أصغى الى التقارير واستمع لشروح وأملى قرارات ، فكان يشعر أثناء ذلك أنه لم يسبق له فى يوم من الأيام أن اتخذ قرارات تبلغ من الذكاء ما بلغته القرارات التى اتخذها فى هذا الصباح . وقد لاحظ أن الموظفين قد سُرُّوا بعودته وأنهم يحترمونه وأنهم يخاطبونه بكثير من التعظيم والتبجيل . والحق أنه ما كان لأحد أن يكتشف فى سلوكهم شيئاً مهما بلغ من سرعة التأذى وشدة الحساسية . كان كل شىء يجرى مجرى رائعاً .

واستقبل الجنرال أخيراً آكيم بتروفتش الذى جاء يحمل كدسة كبيرة من الأوراق ، فقرص ظهوره قلب ايفان ايلتش ، ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة . وعمل الجنرال مع مدير مكتبه ، وكلمه فى جد ، وأشار عليه باجراءات شتى . والأمر الوحيد الذى لاحظه هو أنه كان يحس برغبة فى تحاشى نظرة مرءوسه وأن مرءوسه يحاول هو أيضاً أن يتقى نظرته بغير انقطاع .

فلما انتهى الموظف العجوز من عمله جمع أوراقه وهم بالانصراف . لكنه تلبث قليلاً ، وقال يخاطب الجنرال بصوت أجش :

ـ هنالك طلب أخير : ان الموظف بسلدونيموف يلتمس نقله الى مكتب آخر ... وقد تفضل صاحب السعادة سيمن ايفانوفتش فوعده بوظيفة . وهو لذلك يتمنى أن تتكرم عليه يا صاحب السعادة بموافقتك على ذلك .

قال ايفان ايلتش :

ـ آ ... يطلب استبدال الوظيفة !

وشعر الجنرال بأن قلبه يتخفف من حمل ثقيل • ورفع عينيه الى آكيم بتروفتش فالتقت نظرتا الرجلين لأول مرة •

وأضاف الجنرال يقول :

ـ طيب ! من جهتى ••• سـأحاول أن ••• أنا مستعدٌ لمنحه موافقتى !•••

كان واضحاً أن آكيم بتروفتش أصبح لا ينشد الآن الا شيئاً واحداً هو أن يهرب بأقصى سرعة ، ولكن ايفان ايلتش أصبح يريد أن يظهر نبل نفسه وسمو طبعه ، ولعله يريد خاصة أن يوضح الموقف توضيحاً حاسماً •

فرشق الموظفَ العجوز بنظرةٍ ملأى بدلالةٍ عميقة وقال له :

ـ أكّدباسمى لصاحبك بسلدونيموف أننى لا أريد به شراً ••• أننى لا أحقد عليه البتة !••• بالعكس : أنا مستعدٌ لأن أنسى الماضى••• لأن أنسى كل شيء ••• كل شيء !•••

ولكن أثر هـذا الكلام فى آكيم بتروفتش اختلف كل الاختلاف عما كان يفترضه ايفان ايلتش : فان آكيم بتروفتش الذى كان يبدو حتى ذلك الحين رجلاً عاقلاً رصيناً قد استحال الآن الى انسانٍ أبله كل البلاهة فهو بدلاً من أن يصغى الى كلام الجنرال هادئاً ، احمر وجهه على حين فجأةٍ احمراراً لا يتصوره الخيال ، وراح يمطر رئيسه بتحياتٍ صغيرةٍ متعاقبة يمكن أن توصف بأنها غير لائقة ، وطفق يسير الى وراء بخطى متقهقرة محاولاً أن يبلغ الباب ليخرج • كان احترامه هذا كله يعبّر عن رغبة فى الاختفاء تحت الأرض ، أو قل فى الوصول الى مكتبه والالتجاء اليه والاعتصام به •

فلما أصبح ايفان ايلتش وحيداً نهض عن مكانه وقد اعتراه اضطراب لا يقاوم ، ونظر الى نفسه فى المرآة فلم يكد يتعرف وجهه •

ــ لا ! ليس هناك الا الشدة ، الشدة ، الشدة ! •••

كذلك دمدم يقول على غير وعى تقريباً •

واجتاحت وجهه حمرةٌ مفاجئة • ان شعوراً بالخزى والعار يرهق نفسه ، وان ضيقاً ثقيلاً يجثم على صدره ويشنّج جسمه كله ، ضيقاً أقوى من الضيق الذى استبد به طيلة أيام مرضه الثمانية •

قال لنفسه وهو يتهالك على كرسيه :

ــ لم أحسن التصرف •

ذكريات شتاء
عن مشاعر صيف
١٨٦٣

« ذكريات شتاء عن مشاعر صيف » ،ظهرت فى مجلة « الزمان » سنة ١٨٦٣ ؛ فاما الفصول ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ففى عدد شهر شباط (فبراير) ، وأما الفصول ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ففى عدد شهر آذار (مارس)

الفصل الأول

بمثابة مقدمة

منذ أشهر عدة ، توحون الىّ ، يا أصدقائى ، بأن أصف لكم أخيراً ما أحسست به فى البلاد الأجنبية ، وما تركته تلك البلاد فى نفسى من آثار ؛ توحون الىّ بذلك دون أن يخطر ببالكم أن هذا الطلب يزجنى فى طريق مسدودة غير نافذة . فما عسانى أكتب أو أحكى من أمور جديدة مجهولة ؟ مَنْ منا ، نحن معشر الروس ، أعنى أولئك الذين يقرأون الصحف والمجلات على الأقل ، لا يعرف أوروبا أكثر مما يعرف روسيا مرتين فى أقل تقدير . أقول مرتين من باب التأدب ، ولو قلت عشر مرات لكنت أصدق . وعدا هذه الاعتبارات العامة ، فانكم تعلمون حق العلم أننى لا أملك ما أقصه وما أصفه على نحو منظم ، لأننى لم أر شيئاً من الأشياء على نحو منظم ، لأننى لم يتسع وقتى لأن أنعم النظر فيما رأيت . لقد زرت برلين ، ودرسدن ، وفسبادن ، وبادن بادن ، وكولونيا ، وباريس ، ولندن ، ولوسرن ، وجنيف ، وجنوه ، وفلورنسا ، وميلانو ، والبندقية ، وفيينا ؛ حتى لقد زرت بعض الأماكن مرتين . وهذه الجولة كلها قد أتممتها فى شهرين ونصف شهر تماماً . فهل يستطيع المرء أن يدرس الأمور كما ينبغى أن تُدرس حين يقوم بجولة كهذه الجولة فى غضون شهرين ونصف

شهر ؟ تتذكرون أنني رسمت مسار رحلتي قبل أن أغادر بطرسبرج .
لم يسبق لي أن سافرت الى الخارج قبل ذلك قط : كنت أحلم بذلك منذ طفولتي الأولى ، حين كنت أصغي ، فاغراً الفم ، ممتلىء القلب حماسة وهولاً ، أثناء ليالي الشتاء الطويلة ، لجهلي بالقراءة ، الى أبوي وهما يقرءان قبل النوم روايات مسز رادكليف * التي كانت تسلمني بعد ذلك الى أحلام ثقيلة وكوابيس رهيبة . واذ أنني لم أستطع أن أفلت أخيراً الا وقد بلغت الأربعين من عمري ، فقد أردت طبعاً أن أرى كل مايمكنني أن أراه ، بل وأن أرى كل شيء ، كل شيء على الاطلاق ، رغم أن الزمن محدود . يُضاف الى ذلك أنني كنت عاجزاً عجزاً كاملاً عن اختيار الأماكن بهدوء وغير مبالاة ! رباه ! لشد ما كنت أمنّي نفسي بهذه الرحلة ! كنت أقول لنفسي : « هبني لم أنعم النظر في كل شيء تفصيلاً ، فسأكون قد طفت بكل مكان ، وسأستمد من ذلك رؤية اجمالية ، سأحظى من ذلك باطلالة من فوق. سأرى بلاد « العجائب المقدسة » * دفعة واحدة ، بنظرة تشبه نظرة الطائر من علياء السماء ، أو تشبه نظرة الانسان يتطلع الى أرض الميعاد من على ذروة جبل . أي سوف أشعر باحساس جديد ، قوي ، رائع .

والآن ، بعد أن رجعت الى منزلي ، هل تعلمون ما الذي يحزنني أكثر مما يحزنني أي شيء آخر ، حين أتذكر أسفاري الصيفية تلك ؟ ليس الذي يحزنني أكثر مما يحزنني أي شيء آخر هو أن رؤيتي للأمور كانت رؤية سطحية ، بل انني زرت كل مكان ، الا روما . ومهما يكن من أمر ، فلعلني لو ذهبت الى روما لفاتني البابا ... الخلاصة أنني أشعر بظمأ محرق الى الأشياء الجديدة ، وتغيير الأماكن ، والمشاعر الكلية المركبة الاجمالية . فماذا تنتظرون مني بعد مثل الاعترافات ؟ ماذا أقص وماذا أصف ؟ أمناظر يراها رجل يطل من أعلى طائراً كعصفور ؟ ألا انكم

ستكونون أول من يقول لى اننى كنت مسرفاً فى التحليق أثناء الرؤية . ثم اننى امرؤ يعد نفسه شديد التعلق بالدقة فى الصدق حتى من حيث أنه سائح .واذا شرعت فى أن أصف لكم ولو منظراً أطل عليه من فوق ، فلا بد لى أن أكذب حتماً ، ولا بد لى أن أكذب لا من حيث أننى سائح ، بل لهذا السبب البسيط وهو أننى يستحيل علىَّ فى الوضع الذى أنا فيه الا أن أكذب . ألا ترون معى هذا الرأى ؟

ان مدينة برلين ، مثلاً ، قد تركت فى نفسى أثراً بالغ الحموضة ولم أمكث فيها الا أربعاً وعشرين ساعة . اننى أشعر الآن بأننى آثم فى حق برلين : لست أجرؤ أن أزعم أنها تخلّف فى النفس أثراً حامضاً ولو قلت انها تخلف فى النفس أثراً « حامضاً عذباً » لكان ذلك أصدق فى أحسن تقديـر . فما مبعث خطئى الحتمى ذاك ؟ مبعثـه أننى ، وأنا مريضٌ أعـانى آلاماً فى الكبـد ، قد لبثت يومين كاملين أرتج فى حافلة القطار بين منظر الأمطار والضـباب الى أن وصلت برلين ، فلمـا بلغتها شاحب الوجه مخلّع الأعضاء محطّم الجسم لاحظت أن هذه المدينة تشبه سان بطرسبرج شبهاً عجيباً : فالشوارع الممدودة هنا هى نفس الشوارع الممدودة هناك ، والروائح هى نفس الروائح ، و ... وكذلك سائر وجوه الشبه الأخرى ! قلت لنفسى : « رباه ! أكان يستحق هذا منى أن أضنى جسمى فى القطار يومين كاملين فى سبيل أن أرى ما أنا هارب منه ؟ » . حتى شارع أشجار الزيزفون * لم يعجبنى ، مع أن ساكن برلين مستعد لأن يضحى فى سبيل المحافظة عليه بأعز ما يملك ، وربما ضحى فى سبيله بالدستور . هذا الى أن هيئـات أهـل برلين ، من أولهم الى آخرهم ، كانت جميعها هيئات ألمانية تبلغ من ألمانيتها أننى زهدت فى مشاهدة صور الجدران التى رسمها كالباخ * (يا للهول !) وأسرعت أهرب الى

درسدن مقتنعاً اقتناعاً عميقاً بأن عليّ أن أتعود على الألماني أولاً ، والا كان يصعب عليّ جداً أن أحتمله فى جمهور .

وفى درسدن أسأت الى الألمانيات أنفسهن : لقد بدا لى ، منذ وطئت قدمى الشارع ، أن نساء درسدن هنّ أدعى ما فى العالم الى الاشمئزاز ، وأن شاعر الحب نفسه ، فزيفولود كريستوفسكى * ، وهو أكثر الشعراء الروس اقتناعاً وطرباً ، لا بد أن يطيش هنا صوابه فاذا هو يشك فى رسالته الشعرية . وسرعان ما شعرت طبعاً أننى انما أقول سخفاً ، لأن هذا الشاعر لا يمكن أن يشك فى رسالته بحال من الأحوال . وما انقضت ساعتان حتى فسّرت لنفسى كل شىء : فاننى حين عدت الى غرفتى بالفندق فمددت لسانى أمام المرآة ، اقتنعت بأن رأيى فى نساء درسدن ليس الا تجنياً رديئاً واساءة بالغة . لقد كان لسانى أصفر اللون تغشاه طبقة من ... فقلت لنفسى : « رباه ! أيمكن أن يكون الانسان ، وهو ملك الكون ، رهناً بحالة كبده الى هذا الحد ! يا للشقاء !... » .

ثم مضيت الى كولونيا ممتلئاً بهذه الأفكار التى تعزى النفس . واعترف لكم بأننى كنت أتوقع من الكاتدرائية أشياء كثيرة . لقد رسمت هذه الكاتدرائية بكثير من التقديس والتبجيل فى شبابى، أيام كنت أدرس هندسة العمارة * . وحين مررت بمدينة كولونيا ثانيةً أثناء عودتى الى باريس ، فرأيت الكاتدرائية مرةً أخرى ، أردت أن « أجثو على ركبتى أمامها » مستغفراً اياها أننى لم أدرك جمالها فوراً فى المرة الأولى ، تماماً كما فعل كارامازين * حين ركع أمام شلال نهر الراين . ان كاتدرائية كولونيا لم تعجبنى حين رأيتها أول مرة . قلت لنفسى حينذاك : « هى دانتيلا لا أكثر ... ما هى الا دانتيلا ... ما أشبهها بلعبة من لعب الأطفال !.. ما أشبهها بضاغطة ورق طولها مائتا ذراع ! » . حكمٌ

شبيه كل الشبه بالحكم الذى كان أجدادنا يصدرونه فى حق بوشكين حين يقولون : « ان فى نظمه اسرافاً فى السهولة . انه تعوزه الرفعة وينقصه السمو ! » .

أحسب أن هناك ظرفين قد كان لهما تأثير فى ذلك الحكم الأول. فأما الظرف الأول فهو ماء الكولونيا . لقد كان مصنع جان مارى فارينا قرب الكاتدرائية . وأياً كان الفندق الذى أنت فيه ، وأياً كان المزاج الذى أنت عليه ، وأيةً كانت براعتك فى الهروب من أعدائك ومن جان مارى فارينا ، فان بائعيه لا يفوتهم أن يكتشفوا المكان الذى اعتصمت به ولجأت اليه ، وأن يبادروك بقولهم : « حياتك أو ماءَ الكولونيا » . لا أستطيع أن أقول جازماً انهم كانوا ينطقون بهذه الكلمات نفسها : « حياتك أو ماءَ الكولونيا ! » ولكن من يدرى ؟ جائز جداً أنهم كانوا يقولون ذلك بعينه . وعلى كل حال فاننى أتذكر أن الأمر كان هماً يحاصر نفسى فى كل لحظة. وأما السبب الثانى للحنق الذى استولى علىّ فهو الجسر الجديد فى مدينة كولونيا. هو فى الحقيقة جسر رائع، والمدينة كلها تفتخر به ، ولافتخارها ما يبرره فى الواقع ، ولكن هذا الافتخار كان يبدو لى مسرفاً مفرطاً . فسرعان ما أغضبنى هذا طبعاً . ثم ان محصّل الرسوم على ذلك الجسر الرائع ما كان له أن يحصّل منى الرسوم (رغم أنها رسوم عادلة والحق يقال) كمن يفرض علىّ غرامةً لمخالفة ارتكبتها أو جنحة قارفتها. لقد أحسست أن هذا الألمانى متغطرس متجبر . قلت لنفسى : « لا شك أنه حزر أننى أجنبى وأننى روسى » كانت عيناه على الأقل تشبهان أن تقولا : « هل ترى جسرنا أيها الروسى المسكين ؟ ألا فاعلم أنك لست الا دويدة حقيرة بالقياس اليه ، وبالقياس الى أى ألمانى ، اذ ليس فى بلادك جسر يشبه هذا الجسر » . اعترفوا أن هذا أمر مزعج يثير الأعصاب ويستفز النفس . صحيح أن الألمانى

لم ينطق بهذه الجملة ، ولعلها لم تخطر له على بال . ولكن ذلك لا يعنيني كثيراً . فانما المهم أنني بلغت عندئذ من الثقة بأنه يريد أن يقولها أنني غضبت غضباً شديداً . قلت لنفسي : « يا له من وقح ! نحن أيضاً قد اخترعنا السماور ، ولدينا مجلات ، ونصنع بضائع للضباط . نحن ... » . الخلاصة أنني زعلت في غير داع الى زعل ، وتزودت بزجاجة من ماء الكولونيا (لم أستطع من شرائها فكاكاً) ، وسافرت فوراً الى باريس آملا أن يكون الفرنسيون أكثر لباقة وكياسة ، وأن أجد فيهم مما يشوقني ويثير اهتمامي أكثر مما وجدت من ذلك لدى الألمان .

فاحكموا الآن على الأمر بأنفسكم : لو قد سيطرت على نفسي وتحكمت بعواطفي ، فقضيت ثمانية أيام في برلين ، ومثلها في درسدن ، وقضيت ثلاثة أيام في كولونيا أو يومين على الأقل ، اذن لنظرت حتماً بعين أخرى الى الأشياء نفسها مرةً ثانية فثالثة ، ولكوَّنت عن هذه الأشياء فكرة أسلم ورأياً أصدق . كان يمكن لشعاع من شمس ، لشعاع بسيط من شمس ، أن يحدث أثراً كبيراً وأن يكون له شأن خطير : لو كانت أشعة الشمس تغمر كاتدرائية كولونيا أثناء زيارتي الأولى لها في ذلك الصباح القاتم الممطر ، كما كانت تغمرها أثناء زيارتي الثانية ، لرأيت ذلك المبنى رؤية تختلف عن رؤيتي الأولى التي أيقظت في نفسي افراطاً في التعصب الوطني . على أن هذا ليس معناه أن رداءة الطقس وحدها تولد العاطفة الوطنية . هكذا ترون يا أصدقائي أنه يستحيل على المرء في غضون شهرين ونصف شهر أن يدرس جميع الأشياء على نحو مناسب . فلا يمكنني اذن أن أمدكم بمعلومات دقيقة كل الدقة صحيحة كل الصحة . ولسوف أجدني مضطراً في بعض الأحيان الى أن أكذب أيضاً ...

ولكن هأنتم تستوقفونني هنا قائلين : « لا حاجة بنا في هذه المرة الى معلومات دقيقة صحيحة . ولو شئنا لوجدنا هذه المعلومات في « دليل رايخارد » . وانما ينبغي لكل مسافر أن ينشد الصدق لا الحقيقة المطلقة ، وذلك أمر يفوته في جميع الأحيان تقريباً . ينبغي له أن لا يخشى البوح بأي شيء عن مشاعره وانطباعاته ومغامراته ، ولو كانت لا تجلب له مجداً كبيراً . ينبغي له أن لا يستشير بعض السلطات ليكون له عندها شأن ومنزلة . ان كل ما نرغب فيه هو أن تعبّر لنا عن مشاعرك وانطباعاتك شريطة أن تكون صادقة » .

آ ... أنتم تريدون اذن ثرثرة لا أكثر ، أنتم تطلبون لمحات سريعة ، وانطباعات شخصية عابرة . فليكن لكم ما تشاءون . سوف أعود الى دفتري الذي دوّنت فيه بعض الملاحظات . ولكنني أرجوكم أن تتذكروا أن جزءاً كبيراً مما سأكتبه قد يشتمل على أخطاء . لا كل ما سأكتبه طبعاً . فمن المستحيل مثلاً أن يخطيء المرء في وقائع ثابتة مثل «نوتردام دوباري» ، ومرقص «مابيل» . وهذه الواقعة الأخيرة خاصةً يشهد بها جميع الروس الذين كتبوا عن باريس ، بحيث يكاد يستحيل وضعها موضع الشك . لعلني غير مخطيء في هذا . ومع ذلك لا أتحمل تبعة كاملةً صارمة . ذلك أنه يقال انه يستحيل على المرء أن يذهب الى روما دون أن يرى كنيسة القديس بطرس . ومع ذلك فقد ذهبت أنا الى لندن دون أن أرى كنيسة القديس بولس . يميناً انني لم أرها ! صحيح أن هناك فرقاً بين كنيسة القديس بطرس وكنيسة القديس بولس . ومع ذلك فان اغفال رؤية كنيسة القديس بطرس ليست أقل بعداً عن اللباقة من اغفال رؤية كنيسة القديس بولس .

تلكم هي مغامرتي الأولى التي تشرفني كثيراً . الحق انني لمحت

كنيســة القديس بولس من على مســافة نحو كيلومتر ،أثناء ذهابى الى باتنونفيل • ولكننى أغفلت زيارتها من فرط ما كنت فيه من عجلة •

ولكن ••• بالمناسبة ! ••• اعلموا أننى لم أقتصر على الطواف السريع وعلى رؤية جميع الأشــياء كرؤية الطائر (ليس يعنى قولنا « كرؤية الطائر » رؤية « من فوق » ، فذلك اصطلاح من اصطلاحات هندســة العمارة كما تعلمون) • لقد عشت فى باريس شــهراً كاملاً الا ثمانية أيام قضيتها فى لندن • فسأحدثكم اذن عن باريس ، لأننى رأيتهــا خيراً مما رأيت كاتدرائيــة القديس بولس ، وخيراً مما رأيت سيدات درسدن • فهلموا معى اذن الى باريس •

الفصل الثاني

في القطار

« الفرنسي محروم من العقل ، ولو أوتي عقلاً لعدّ ذلك أكبر شقاء يصيبه »« ان هذه الجملة قد كتبها منذ القرن الماضي فونفيزين* • والله وحده يعلم كم كان فرحاً مرحاً حين كتبها • انى لأراهن على أن قلبه كانت تدغدغه لذة كبيرة حين دبجت يراعه هذه العبارة • ومن يدرى ؟ لعلنا جميعاً ، بعد فونفيزين ، خلال ثلاثة أجيال أو أربعة ، لا نقرأ هذه العبارة الا ونشعر بشىء من متعة • ان جميع الاقوال الطريفة التى من هذا النوع والتى يتهجم فيها قائلوها على الأجانب ما تزال تشتمل حتى الآن ، فى نظرنا ، نحن معشر الروس ، على فتنةٍ لا سبيل الى مقاومتها ، فتنةٍ خفية طبعاً نشعر بها على غير علمٍ منا فى بعض الأحيان • ان فى هذا نوعاً من الثأر للماضى مؤسف • ولئن كانت هذه العاطفة مؤسفة هى أيضاً فاننى لعلى يقين من أنها قائمة فى نفس كل واحد منا • صحيح أننا نظهر شيئاً من الاستياء والغضب اذا نحن وُصمنا بها ، وأننا نفعل هذا صادقين مخلصين • ومع ذلك فأنا أعتقد أن بيلنسكى * نفسه كان بهذا المعنى من المتعصبين للسلافية فى قرارة نفسه•

منذ خمسة عشر عاماً ، أيامٍ كنت أتردد الى ندوة بيلنسكى ، أذكر

أن أفراد تلك الندوة جميعاً كانوا ينحنــون احتراماً للغــرب ، أعنى لفرنسا بوجه خاص ، مع تقديس يبلغ حد الغرابة • كانت فرنسا أيامئذ على « الموضة » : وكان ذلك فى عــام ١٨٤٦ ؟ كانوا لا يكتفون بعبــادة أسماء جورج صاند وبرودون وغيرهما ، ولا يكتفون باحترام اسماء لوى بلان ولودرو رولان وأمثالهما ؟ بل كانوا كذلك يعظّمون أشدّ التعظيم اشخاصاً لا قيمة لهم ولا شأن ، أشخاصاً هم ثمار جافة يابسة ، أشخاصاً لم يلبثوا أن انهاروا ولم يصمدوا منذ وضعوا فى موضع الامتحان • فمن هؤلاء أيضاً كانوا ينتظرون أموراً عظيمــة فى مرحلة الزندقة المتســمة بطابع النزعة الانسانية الطالعة فى ذلك الأوان • وكانوا يتهامســون عن بعضهم فيما بينهم باحترام كبير ••• ثم ماذا ؟ ثم لم ألتق خلال حياتى كلها برجل أشد اندفاعاً فى تعلقه بروســيته مثل بيلنسكى ، رغم أن تشــادايف * كان قد انفجر فى كثير من الحذق والبراعة وفى كثير من المماوة أحياناً ، يشهّر بكثير من خصــائصنا القــومية ، ويحتقر فى أغلب الظن كل ما هو روسى • ان هناك وقائع معينة وذكريات محدّدة تحملنى على اصدار هذا الحكم واطلاق هذا الرأى • ومن يدرى ؟ لعل الجملة التى قالها فونفيزين لم تصدم بيلنسكى نفســه كثيراً فى بعض الأحيان «هناك لحظات لا يحب فيها المرء الوصاية ولا يرضى بها ولو كانت وصاية نبيلة مشروعة • أوه ! لا تحسبوا أن محبة الانسان وطنه تعنى أن يحمل على الأجانب ، وأننى من هذا الرأى ••• يؤسفنى أن الوقت لا يتسع لى الآن من أجل أن أفصح عما بنفسى بمزيد من الوضوح •••

بالمناسبة : لعلكم ستظنون أننى بدلاً من أن أحدثكم عن باريس ، أندفع فى الــكلام على الأدب الروسى ، وأكتب مقــالة فى النقد ، أليس كذلك ؟ ولكن لا ••• فانما حدث هذا عرضاً •••

واذا رجعت الى دفتر مذكراتى ، وجدت أننى الآن فى القطار ،

وانني أستعد غداً لاجتياز الحدود في آيدتكونن * ، أي أتهيأ لمعاناة شعوري الأول بأنني في بلد أجنبي ، وأن قلبي يرتعش في بعض اللحـظات . أخيراً سـأرى اذن أوروبا ، أنا الذي ظللت طوال أربعين عاماً على وجه التقريب ، أحلم بها في غير طائل ، منذ السادسة عشرة من عمري ، أحلم بها جاداً كل الجد ، مهتماً كل الاهتمام ، مثل بيلوبياتكين * الذي أجرى نكراسوف على لسانه هذا البيت من الشعر :

احب ان اهرب الى سويسرا

دون أن أسـتطيع تحقيق هـذا الحلم . هـآنا ذا اذن في الطريق الى « بلاد العجائب المقدسة » التي طالما تنهدت تحرقاً الى زيارتها ، وظللت ثابتاً على ايماني بها .

انني ليتفق لي أحياناً أن أتساءل حتى وأنا في هذا القطار نفسه : « أنحن روس حقاً يا رب ؟ أنحن روس حقاً ؟ لماذا تحدث فينا أوروبا هذه الفتنة كلها ولماذا تستهوينا هذا الاستهواء كله ، أيا كنا ؟ » وحين أقول كلمة « نحن » ، فلست أقصد أولئك الذين لبثوا هنالك فحسب ، أولئك الروس البسطاء الذين يبلغ عددهم خمسين مليوناً ، أولئك الروس الذين لا نعدهم نحن الذين يبلغ عددنا مائة ألف ، لا نعدهم حتى الآن شيئاً مذكوراً ، وما تزال صحفنا الساخرة العميقة تستهزىء بهم وتتهكم عليهم ، لأن هؤلاء الناس الطيبين لا يحلقون لحاهم . لا ، فانما أنا أتكلم عن صفوتنا الممتازة المرموقة ! ذلك أن كل ما نملكه تقريبـاً من تطور في ميدان العلم والفن والحضارة والانسانية انما يأتينـا من هنـاك ، من « بلاد العجائب المقدسة » ! ذلك أن حياتنا كلها ، منذ نعومة أظفارنا ، انما تشكلت على النمط الأوروبي ! كيف يمكن لأحد منا أن يقاوم هذا التأثير ، وأن لا يستجيب لهذا النداء ، وأن يصمد أمام هذا الضغط ؟ كيف لم نتحـول بعـد الى أوروبيين تمـاماً ؟ أغلب ظني أن هنـاك أمراً

يسلّم به جميع الناس ، بعضهم على فرح وابتهاج وبعضهم على أسف وحسرة ، وهو أننا لم تنضج بعدُ النضج الذى يؤهلنا لهذا التحول . على أن هذه قضية أخرى . حسبى أن أقرر هذه الواقعة وهى أننا لم نتحول ذلك التحول رغم المؤثرات التى تبلغ هذا المبلغ من القوة التى لا سبيل الى مقاومتها . اننى عاجز عن فهم هذا الأمر ، وتعليل هذه الواقعة. ذلك أن مربياتنا وحاضناتنا ومرضعاتنا لسن هنّ اللواتى حُلْن بيننا وبين هذا التحول . انه لمن المحزن والمضحك حقاً أن نقدّر أننا ربما ماكان ليظهر فينا شاعرنا بوشكين لولا آرينا روديونوفنا *، مربية بوشكين! رب قائل يقول : هذا باطل ! ولكن ما قولكم اذا لم يكن باطلاً فى واقع الأمر ! ان كثيراً من الأطفال الروس يؤخذون الآن الى فرنسا لتربيتهم. فماعسى يحدث لو أُخذ الى فرنسا بوشكين آخر تعوزه هنالك مربية مثل آرينا روديونوفنا ، وتعوزه اللغة الروسية منذ المهد ؟ ومع ذلك فأىّ روسى كان بوشكين ! لقد استطاع هذا الشاعر الذى كان أبوه سيداً من السادة ، استطاع أن يدرك نفس بوجاتشيف* وأن ينفذ الىروحه فىعصر لم يكن فيه أحد قد نفذ الى أى موضع . لقد استطاع هذا الارستقراطى أن يتحد بشخصية بيلكين* . لقد استطاع بقوة فنه أن ينفصل عن بيئته وأن يدينها جهاراً فى قصته الشعرية «أوجنين» * من وجهة النظر القومية. ذلك أنه كان نبياً وكان رائداً . هل يمكن حقاً أن يكون ثمة علاقة كيميائية بين فكر الانسان وتراب الوطن ، وأن يكون الانسلاخ عن تراب الوطن مستحيلاً ، فما ان ينسلخ المرء عنه ويتحرر منه حتى يرتد اليه ؟ الحقيقة أن عقيدة التعلق بالسلافية لم تهبط علينا من السماء . ورغم أن هذه العقيدة قد تجسدت بعد ذلك فى الغرائب التى تعلق بها أهل موسكو ، فان أساس هذه العقيدة أوسع من الصيغة الموسكوفية . ولعل لها فى بعض القلوب جذوراً أعمق كثيراً مما يتراءى لأول نظرة . وهذا

يصدق على أهل موسكو أنفسهم . ما أصعب أن يفصح المرء عن نفسه افصاحاً واضحاً من أول وهلة ولو أمام نفسه ! رب أجيال ثلاثة لا تكفى لتوضيح فكرة تبلغ هذا المبلغ من الحياة والقوة ، فاذا النهاية تختلف فى بعض الأحيان اختلافاً تاماً عن البداية ...

ان جميع هذه الأفكار الشاردة ، التى كان الضجر والفراغ هما اللذان أوحيا الىّ ببعضها ، قد لاحقتنى وطاردتنى رغم ارادتى وأنا فى القطار على عتبة أوروبا ... على المرء أن يكون صريحاً ! ان الأشخاص الوحيدين الذين يفكرون فى مثل هذه الموضوعات فى بلادنا ما يزالون حتى الآن هم الأشخاص الذين لا عمل لهم ! آه ما أشد الضجر والسأم اللذين يستوليان على الانسان حين يكون فى القطار عاطلاً عن العمل ! ان هذا الفراغ يثير من الضجر والسأم فى النفس مثل الذى تثيره منهما حياة الفراغ فى بلادنا الطيبة روسيا . فرغم أن المرء فى القطار يُنقل ويُعتنى به ويدلّل بحيث لا يبقى له ما يشتهيه ويتمناه ، فان هناك قلقاً يظل يلاحقه ، لا لشىء الا لأنه لا يعمل شيئاً ، ولأنه يُعتنى به كثيراً ، ولأنه ليس عليه الا ينتظر الوصول . يميناً لقد أوشكت أن أتمنى فى بعض اللحظات أن أثب من القطار فآخذَ أركض الى جانبه قرب القاطرة! كنت أقول لنفسى : « ألا فليكن هذا أسوأ وأنكى ، ألا فلأتعب لأننى لم أتعود الركض ، ألا فلأضلّ الطريق ، ألا فلأبذل جهداً لا فائدة منه ولا نفع فيه ! ولكننى فى مقابل ذلك سوف أسير بنفسى ، سوف أسير بوسائلى أنا ، سوف أكون قد وجدت عملاً يشغلنى ... واذا حدث صدام ، فعلى الأقل لن أبقى مكتوف اليدين أدفع حياتى ثمناً لأخطاء غيرى .... » .

لا يعلم الله ما يخطر ببالك أحياناً فى ساعات الفراغ ...

وفى أثناء ذلك كان الليل يهبط . فأشعلت الأضواء . وكان أمامى

شخصان متقدمان فى السن من ملاَّكى الأطيان ، لهما وجهان لطيفان محبَّبان . كانا ذاهبين الى معرض لندن* لقضاء بضعة أيام بعد أن تركا أسرتيهما فى المنزل . وعلى يمينى كان يجلس رجل روسى هو موظف فى مؤسسة تجارية بلندن منذ عشر سنين. لقد قضى خمسة عشر يوماً فى سان بطرسبرج لقضاء بعض الأعمال ، وكان يبدو عليه أنه تخلص من آلام الحنين الى الوطن تخلصاً تاماً . وعلى يسارى كان يجلس انجليزى قح ، أحمر اللون ، مفروق الشعر على طريقة الانجليز ، رصين رصانة لا يهزها شىء . انه طوال السفرة لم يبادل أى واحد منا كلمة واحدة بأى لغة من اللغات . ولبث من أول النهار الى آخره مكباً على القراءة فى كتاب مطبوع بأحرف صغيرة دقيقة لا يطيقها الا الانجليز وحدهم ، بل هم يطرونها ويثنون عليها . حتى اذا صارت الساعة الى العاشرة خلع حذاءيه وانتعل خفين : أغلب الظن أنه يفعل ذلك طول حياته ولا يريد أن يغير فى القطار شيئاً من عاداته . وما لبث الجميع أن نعسوا وناموا : ان طلقات الصفارة ولهثات القاطرة تحض على النوم . وأخذت أنا أفكر ، فلا أدرى كيف قادتنى تأملاتى الى هذه الفكرة : « أن الفرنسى محروم من العقل » ، وهى العبارة التى استهللت بها هذا الفصل .

ولكن هل تعلمون أننى أشتهى كثيراً ، بانتظار الوصول الى باريس ، أن أنقل اليكم الخواطر التى راودتنى فى القطار ؟ نعم أشتهى أن أنقل اليكم تلك الخواطر ، هكذا ، من قبيل الانسانية . « لقد مللت كثيراً فى القطار ، والآن جاء دوركم » . ولما كان من الضرورى أن أراعى بقية القراء ، فسأجمع تلك الخواطر كلها فى فصل مستقل أجعل عنوانه « أمور نافلة » . لئن كان على الكاتب أن يدارى قراءه ، فمن الممكن أن يفعل ذلك مع أصدقائه بمزيد من الفروسية .

الفصل الثالث

أمور نافلة تماماً

الحق أن تلك الخواطر لم تكن أفكاراً بل كانت تأملات ، كانت تصورات تجرى على غير هدى ، بل وكانت أحلام يقظة « فى هذا الموضوع وفى ذاك » وفى غير موضوع أكثرَ الأحيان . رجعت أولاً الى الماضى وفكرت فى الرجل الذى أصدر ذلك الرأى المتعجل فى عقل الفرنسيين ، فكرت فيه فجأة بمناسبة رأيه هذا . لقد كان ذلك الرجل فى زمانه من كبار اللبراليين ، وقد ظل طوال حياته يرتدى رداءً على الزىّ انفرنسى ، لا يعلم الا الله لماذا ، وكان يحمل بارودا ، ويضع على جنبه سيفاً قاطعاً ، ليدل على أنه من سلالة فرسان (رغم أنه لم يكن فى روسيا فرسان فى يوم من الأيام) ، وليدافع عن شرفه الشخصى فى حجرة المدخل من منزل بوتيومكين . ومع ذلك فانه ما ان وضع أنفه فى الخارج حتى ندّد بباريس باسم جميع نصوص التوراة ، وحتى قرر أن « الفرنسى محروم من العقل ولو أوتى عقلاً لعدّ ذلك أكبر شقاء يصيبه » . بالمناسبة : لقد تظنون أننى ذكرت السيف القاطع ورداء المخمل من قبيل مؤاخذة فونفيزين ، أليس كذلك ؟ فلا يذهبن بكم الظن الى هذا . ان فونفيزين لم يكن فى وسعه أن يرتدى قفطاناً روسياً ، فحتى فى زماننا هذا هناك أشخاص أرادوا أن يكونوا روساً بل وأن يختلطوا

وسيقول شخص آخر : « ــ رحماك ! ما هذا الذى تتصه علينا . لقد كان موضوع الحديث باريس ، فما انتقالك هذا الى الكلام عن عقوبة الجلد ؟ ما هى العلاقة بين الأمرين ؟

وسيضيف ثالثٌ قوله : « ثم انك قد أعلنت أنك عرفت هذا كله منذ قليل ، وأنت انما قمت برحلتك فى الصيف الماضى ، فكيف أن أمكن أن يدور عليه تفكيرك حينذاك فى القطار ؟ » .

جوابى على هذا السؤال هو أن تلك مشكلة حقاً . ولكن اسمحوا لى : هذه ذكريات شتاء عن مشاعر صيف . لذلك تسللت اليها واندست فيها مشاعر شتاء . يضاف الى هذا أننى ، حين كان يقترب بى القطار من آيدتكونن ، كنت أفكر ــ ما زلت أتذكر هــذا ــ كنت أفــكر فى كل تراثنا القومى الذى أبرحه الى أوروبا ، فكان بعض أحلامى يدور على هذه الأمور . وكنت أفكر فى هذا الموضوع بالذات : بأية طريقة أثرت فينا أوروبا فى عصور مختلفة محاولةً أن تفرض علينا حضارتها دائماً ؟ الى أى مدى تحضرنا ؟ ما عــدد الذين أصبحوا منا متحضرين ؟ والآن أدرك أنا نفسى أن ذلك كله كان نافلاً . ثم اننى قد أنبأتكم من قبل أن هذا الفصل كله نافل لا لزوم له ولا حاجة اليــه . بالمناســبة : الى أين وصلت من حديثى ؟ ها ... نعم ... كنت أتكلم عن الرداء على الزى الفرنسى !

طيب ! ان أحــد أولئك الذين كانوا يرتدون الرداء الفــرنسى قد كتب حينذاك مسرحية « البريجادير » . كانت هذه المسرحية فى زمانها شيئاً رائعاً أحدث أثراً خارقاً : « مت يا دنيس ، فلن تكتب شيئاً خيراً من هذا » ، كذلك صاح يقول بوتيومكين* نفسه. لقد أُخــرج الجميع من خدرهم وكسلهم . تساءلت مواصلاً تأملى على ما يريد لى خيالى : « هل يمكن أن يكون الناس منذ ذلك العصر قد ســئموا القعود عن العمل ،

بالشعب ، فلم يرتدوا قفطاناً وانما خاطوا لأنفسهم رداء باليه يكاد يشبه الرداء الذي يلبسه على المسرح ، في الأوبرات الروسية الشعبية ، أبطال اسمهم أوسلاد، مأخوذون بحبيباتهم اللواتي يُسَمَّيْن لودميلا ويضعن على رءوسهن كوكوشنيك* . لا ، لا ، ان الزى الفرنسى كان يفهمه الشعب فى ذلك الزمان أكثر مما يفهم ذلك الرداء ، فالشعب يقول: « هذا سيد من الأشراف فليس يُعقل أن يرتدى قفطاناً » . وقد سمعت فى الآونة الأخيرة عن أحد مالكى الأطيان أنه أراد أيضاً أن يتحد بالشعب ، فارتدى هو أيضاً «اللباس الروسى» * ليحضر اجتماعات المجالس الاقليمية فكان الفلاحون حين يرونه يقول بعضهم لبعض : « ما مجىء هذا الرجل المتنكر الينا ؟ » . ذلك رجل من مالكى الأطيان لم يتحد بالشعب .

قال لى شخص آخر فى ذات يوم : « ـ لن أتنازل أى تنازل . سأحلق لحيتى عامداً وسأرتدى الرداء الأوروبى اذا لزم الأمر . سأتصنع التشدد . سأكون السيد ، سأكون بخيلاً حيسوباً ، حتى لقد أعمد الى الظلم والسلب والاغتصاب عند الاقتضاء . فيزدادون احتراماً لى . وانما المهم ، كما تعلم ، أن يوحى المرء باحترامه دفعةً واحدة » .

قلت لنفسى : « ـ لكأنهم يستعدون لقتال أجانب . ما هذه الا نصيحة حرب » .

وقال لى ثالث ، وهو شخص محبب والحق يقال : « ـ سوف أسجل نفسى فى جمعية قروية ، ولكن ما عسى يحدث اذا صدر من مجلس الجمعية حكم بتوقيع عقوبة الجلد علىَّ ؟ » .

أردت أن أجيبه قائلاً : « ـ هب هذا حدث (ولكننى امتنعت عن الكلام جبناً . لماذا نخشى أن نعبِّر عن آرائنا فى بعض الأحيان) ... هب هذا حدث ... هبهم جلدوه ... فما قيمة ذلك ؟ ان أمثال هذه

الحوادث الاليمة يطلق عليها أساتذة فلسفة الفن وعلم الجمال اسم « عنصر الفاجعة أو المأساة فى الحياة » . ذلك كل شيء . فهل يجب على المرء ، لهذا السبب وحده ، أن يعيش منعزلاً عن جميع الناس ؟ لا ... فانما ينبغى للمرء أن يعيش مع جميع البشر بغير استثناء أو أن يعتزل اعتزالاً كاملاً . ان نساءً ضعيفات وأطفالاً صغاراً قد قاسوا فى أمكنة أخرى أهوالاً أشد .

لو قلت لمحدثى ذلك الكلام لكان يمكن أن يصيح قائلا : « ـ رحماك ! ما حديثك هذا عن النساء الضعيفات والأطفال الصغار ! ان الجمعية يمكن أن تحكم علىّ بالجلد بدون تعقل ، بدون سبب آخر غير توغل بقرة صغيرة فى بستان شخص آخر ، كأن الأمر قضية من قضايا الدولة !

« ـ لا شك أن هذا سخف . القضية نفسها سخيفة ، تبعث على النفور وتثير الاشمئزاز ، حتى أن الحديث غير لائق . بارك الله فيهم : ألا فليُضربوا جميعاً ! أنا لا شأن لى بالأمر ! » .

ولكننى من جهتى أراهن بكل ما تريدون على أن هذا الرجل الذى يناقشنى ويعارض آرائى ما كان ليتلقى جلدةً واحدة حتى ولو أمكن أن يصدر ذلك الحكم عليه . لأن المجلس سيقول بلسان رئيسه : « سنفرض عليه غرامة مالية أيها الأخوة ، لأنه سيد من السادة النبلاء حتى فى هذه الحالة ؛ ولا كذلك نحن ، فنحن أناس ان كان لنا قفا فمن أجل أن نجلد بالسوط » ، كما نرى ذلك فى كتاب شتدرين « صور من الأرياف » *.

لا شك أن أحداً سيصيح قائلاً عند قراءة هذا الكلام : « ـ انه رجعى التفكير ! انه من أنصار عقوبة الجلد ! » . أؤكد لكم أن أحداً سيستخرج من كلامى أننى أنادى بعقوبة الجلد وأطريها وأثنى عليها) .

وضجروا من السير مربوطين بأزمّة يقودهم بها غيرهم ؟ لا أقصد الأزمّة الفرنسية وحدها حينذاك ، وأحرص على أن أضيف أننا ، بسبب طيب سريرتنا وسذاجة قلوبنا ، شعب سريع التصديق الى أبعد الحدود . مثال ذلك أن نكون جميعاً قاعدين عن العمل ، فاذا خيّل الينا على حين فجأة أن أحداً قد قال شيئاً أو فعل شيئاً ، وأن فكرنا الشخصي ينكشف ويتجلى ، وأن شاغلاً يعرض لنا وعملاً يمثل أمامنا ، اندفعنا واثبين وثبة رجل واحد ، مقتنعين بأن الأمور ستسير وأن هذه هي البداية . تمر ذبابة فنحسبها فيلاً . ماذا تريدون ؟ ان مرد ذلك الى قلة الخبرة والتجربة بحكم الشباب ، والى الجوع فوق ذلك . لقد بدأ هذا ، على مقياس صغير طبعاً ، من قبل « البريجادير » ، وما يزال مستمراً حتى هذه الساعة : وجدنا عملاً يشغلنا فأخذنا نصوّت من فرط الحماسة . ان الصراخ الطويل والحماسة الشديدة هما الشيء الرئيسي عندنا . ولكننا بعد سنتين تتفرق وتتبعثر خافضي الرءوس . ولكننا لا نكل أبداً ، ولو كان علينا أن نستأنف مائة مرة .

أما الأزمّة الأخرى فقد كان هنالك في عهد فونفيزين ما يشبه الاجماع على احترامها وتقديسها ، وكان الناس يجدون هذه الوصاية فاتنة أخاذة . صحيح أن الريّابين هم في أيامنا هذه أيضاً قلة ضئيلة . فان حزبنا التقدمي كله متعلق أشد التعلق بهذه الأزمّة الأجنبية . ولكن الايمان بأية أزمّة أيامذاك قد بلغ من شدة الحماسة والامتداد أن المرء يُدهش كيف لم تنقل الجبال من أماكنها ، وكيف أن روابي آلاون وذرى بارجولوفو وأطواد فالدي قد بقيت في مواضعها . صحيح أن شاعراً من شعراء ذلك العصر قد قال* :

يقف على الجبال فتنشق الجبال
ويرمي الأبراج بيده فتجتاز السحاب

ولكن ذلك لم يكن في اغلب الظن الا مجازاً •

وبهذه المناسبة يا أصدقائي : لاحظوا أنني لا أتكلم الا عن الأدب • فمن خلال الأدب انما أريد أن أدرس الأثر الحسن الذي أحدثته أوروبا في وطننا شيئاً فشيئاً • حين يفكر المرء في الكتب التي كانت تُطبع وتُقرأ حينذاك (قبل « مسرحية البريجادير » وفي زمانها) ، فانه لا يستطيع أن يحمي نفسه من شيء من الافتتان والزهو • ان عندنا الآن كاتباً من أبرز الكتاب ، هو زينة عصرنا ، يسمى كوزما بروتكوف * • ان العيب الوحيد في هذا الكاتب هو تواضعه الذي لا سبيل الى فهمه : انه لم يطبع حتى الآن « أعماله الكاملة » • لقد نشر هذا الكاتب ، منذ بعض الوقت ، في ركن « المتنوعات » من مجلة « المعاصر » ، عملاً أدبياً عنوانه « دفتر جدي » • تصوروا ما عسى يكتبه هذا الجد الذي عاصر كاترين ، وبلغ من العمر سبعين عاماً ، وكان على جانب عظيم من السمنة والبدانة ، وطاف العالم ، وشهد استقبالات البلاط ، وحارب في أوتشاكوف ، فلما رجع الى أراضيه بعد ذلك كله أخذ يستعرض ذكرياته ! ان المادة لا بد أن تكون شائقة : ما أكثر الأشياء التي رآها كاتب ذلك الدفتر ! فانظروا مع ذلك الى نوادر كالنوادر التالية هي كل ما ضمه دفتره •

جواب فكه للفارس مونتبازون : في ذات يوم ، بحضور الملك ، اتجهت امرأة شابة جميلة جداً ، اتجهت بالكلام الى الفارس مونتبازون فسألته : « قل لي يا سيدي : أيهما مرتبط بالآخر ، ألكلب بالذنب أم الذنب بالكلب ؟ » فأجابها الفارس ، وكان حاضر البديهة سريع الرد ، أجابها قائلاً : « لا يُحظر على أحد يا سيدتي أن يمسك الكلب من ذنبه أو من رأسه » • وقد سُرَّ الملك بهذه الاجابة سروراً عظيماً ، فلم يفته أن يأمر لصاحبها بمكافأة •

قد تظنون أننى أضللكم مازحاً ، وأن هذه خزعبلة من الخزعبلات، وأن شيئاً من هذا لم يحدث فى يوم من الأيام ! ولكننى أحلف لكم أننى أنا نفسى ، فى طفولتى ، حين كان عمرى عشر سنين ، قد قرأت كتاباً من عهد كاترين ، تُروى فيه النادرة التالية ، فحفظتها يومئذ على ظهر القلب من شدة افتتانى بها ، ثم لم أنسها بعد ذلك قط .

جواب فكه للفارس رووان : تعرفون أن رائحة فم الفارس رووان كانت كريهة جداً ، ففى ذات مرة ، بينما كان الأمير دى كونديه ينهض ، قال الأمير للفارس « ابتعد أيها الفارس ، لأن رائحة فمك كريهة جداً » ، فسرعان ما أجابه الفارس بقوله : « هذه الرائحة ليست منى يا مولاى ، بل منك أنت ، لأنك نهضت » .

تخيلوا هذا المالك من مالكى الأطيان : انه محارب قديم (وربما كان فاقداً أحد أعضائه) يختم حياته قرب امرأته العجوز ، بين ذرية كبيرة العدد ، وخدم أكبر عدداً من ذلك أيضاً ؛ ويذهب فى كل يوم من أيام السبت الى حمامات البخار فيظل يتعرق الى أن يغمى عليه . انه ، وقد وضع على عينيه نظارتين ضخمتين ، يروى أمثال هذه النوادر متلذذاً ، ويعدها حقيقة صافية ، ويكاد يحسبها واجباً من واجبات الخدمة . وما كان أقوى الايمان الساذج ، السائد حينذاك ، بأن أمثال هذه الأقاصيص أو الأنباء الأوروبية لائقة ومفيدة ! « تعرفون أن رائحة فم الفارس رووان كانت كريهة جداً ... » . من ذا الذى يعرف ذلك ؟ فى أى ركن بعيد من أركان اقليم تامبوف يهتم أحد بهذا ؟ ولكن الرجل الطيب لم يعبأ بأسئلة تبلغ هذا المبلغ من التجرؤ والتجاسر . انه يعتقد ، مؤمناً ايمان الأطفال ، بأن هذه « المجموعة من الأقوال الظريفة » معروفة فى البلاط ، وهذا حسبه ! نعم ، صحيح أننا كنا فى ذلك العهد نتمثل أوروبا بسهولة ، من الناحية المادية طبعاً . ولكن الأمور

لم تكن تتم من الناحية الروحية بغير اللجوء الى السياط • كان الناس يلبسون جوارب من حرير ، ويضعون على رءوسهم باروكات شعر ، ويحملون على جنوبهم أسيافاً ، فيصبحون أوروبيين بثمن بخس • ولكن لا شيء يكون في الواقع قد تغير : فان أجدادنا ، بعد أن يدعوا فارس رووان وشأنه (وكانوا لا يعرفون عنه الا أن رائحة فمه كريهة) ، وبعد أن يخلعوا نظاراتهم الضخمة ، كانوا يسيئون معاملة خدمهم ، ويسرفون في فرض سلطانهم على أهلهم ، واذا أبدى الجار شيئاً من غلظة جروه الى الاسطبل وأخذوا يضربونه ضرباً مبرّحاً ، بينا هم يزحفون على بطونهم أمام من هم أعلى منهم شأنا وأرفع مقاماً • وكان الفلاح نفسه يفضّل هذا • كانوا لا يحتقرونه بمقدار ما يحتقرونه الآن ، وكانوا لا يزدرون عاداته بمقدار ما يزدرونها الآن ، كانوا يعرفونه أكثر مما يعرفونه الآن ، لم يكونوا أجانب عنه بمقدار ما هم أجانب عنه الآن • أما عن اصطناع التعالي والعظمة في معاملته ، فكيف كان يمكن أن يفعل سيد من الأشراف غير ذلك ؟ ألم يكن هذا دوره ؟ لقد كان أولئك السادة أقرب الى قلوب أبناء الشعب من سادة هذا الزمان ؟ رغم أنهم كانوا يضربونهم حتى الموت ، ذلك أنهم كانوا يشبهونهم أكثر مما يشبهونهم الآن • الخلاصة أن أولئك الملأ جميعاً كانوا أناساً بسطاء جفاة : كانوا لا يواربون ، فهم ينهبون ، ويضربون ، ويسرقون ، ويتذللون ، في رقة وحنان ، ويعيشون حياة هادئة رضية في :

انحلال سذاج طيب السريرة *

بل انني لأعتقد أن أولئك الأجداد الطيبين لم يكونوا سذّجاً الى ذلك الحد ، حتى فيما يتعلق بأمثال رووان وموتتبازون •

لعلهم كانوا في قرارة أنفسهم ريابين متمردين على جميع تلك

التأثيرات الأوروبية الآتية من أعلى . فتلك الملابس التنكرية كلها ، وتلك الأردية على الزى الفرنسى كلها ، وتلك الأكمام والباروكات والسيوف، وتلك السيقان اليسرى المحبوسة فى جوارب من حرير ، وأولئك الجنود الذين يضعون على رءوسهم شعراً مستعاراً ويضعون على أحذيتهم مسماة على الطريقة الألمانية ، ذلك كله انما كان فى رأيى خداعاً كبيراً ومكراً ذليلاً ، حتى ان الشعب كان فى بعض الأحيان يلاحظ ذلك ويفهمه . لا شك فى أن المرء يمكن أن يكون مشاكساً ومخادعاً وبريجاديراً مع بقائه مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن فارس رووان هو « ألطف اللطف » . ولكن ذلك لم يكن يزعج أحداً : فأمثال جفوزديلون يظلون يضربون كما كانوا يضربون ، وفرسان رووان منا يكادون يُجلدون فى الاسطبل من قبل بوتيومكين ومنافسيه ، وأضراب مونتبازون يسرقون الأحياء والأموات ؛ والأيدى التى تزينها الأكمام والأقدام التى تلبس جوارب الحرير تظل تُنزل اللطمات والركلات على الرقاب والكلى ، وحاملوا ألقاب المركيز بيننا يهرعون خفافاً الى استقبالات البلاط

مضحين بأقفية رقابهم فى شجاعة *

الخلاصة أن أوروبا تلك كلها قد تلاءمت عندنا بسهولة مدهشة ، ابتداء من سان بطرسبرج المدينة العجيبة التى لها تاريخ هو أغرب من تاريخ أية مدينة على وجه الأرض .

ولكن الأمر الآن لم يبق كما كان ، وقد انتصفت سان بطرسبرج لنفسها . ها نحن قد أصبحنا أوروبيين تماماً . الآن أصبح جفوزديلوف نفسه يبرهن على كياسة حين يكون عليه أن يضرب . انه يراعى قواعد اللباقة ، ويستحيل الى « بورجوازى » فرنسى ، ولن يلبث أن يؤيد بالنصوص ضرورة تجارة الرقيق ، كما يفعل أمريكى من الولايات

الجنوبيـة . والتأييد بالنصـــوص يهاجر الآن من الولايات المتحدة الى أوروبا . قلت لنفسى : « متى وصلت الى هناك فسأرى الأمر بعينى . فليس الخبر كالعيان ، وليس يتعلم الانسان من الكتب ما يراه بعينيه » .

بالمناســـبة : هناك كلمة أخيرة عن جفوزديلوف : لماذا يُسند فونفيزين أبرز جملة من جمل مسرحيته « البريجادير » ، لماذا يُسند هذه الجملة لا الى صوفيا الناطقة بلسان الميول النبيلة والنزعات الانسانية ، بل الى تلك المرأة الغبية ، زوجة البريجادير التى يرسم لها هو نفسه صورة تبلغ من الغباء والرجعية أن جميع الكلمات والسخافات التى تقولها تبدو كأنها ليست صادرةً عنها بل عن شخص مختبىء وراءها ؟ ومع ذلك نرى المؤلف ، حين وجب قول الحقيقة ، لا يكل أمر القيام بهذه المهمة الى صـوفيا بل الى امرأة البريجادير هـذه . لقد جعل من هذه المرأة لا امرأة غبية بلهاء ، بل امرأة خبيثة شريرة . ومع ذلك يبدو أنه كان يخشى بل يرى أن من المستحيل ، من الناحية الفنية ، أن تخرج عبارة كهذه العبارة من فم آنسة أُحكمت تربيتها وتنشئتها ، واعتقد أن الأقرب الى الطبيعة أن تنطق هذه الجملة مخلوقةٌ بلهاء . هذا أمر شائق جداً ، لا لشيء الا لأن هذا الكلام قد كُتب بدون أية نية خاصة أو فكرة ميتة ، وانما كتب ببراءة وسذاجة ، بل ولعله كتب عن سهو وغفلة . تقول زوجة البريجادير لصوفيا :

« ... كان فى السرية الأولى من كتيبتنا نقيب اسمه جفوزديلوف. وكانت امرأته شابة ولطيفة . ففى بعض الأحيان ، أثنـاء نوبة غضب ، ولا سيما اذا سكر ، كان يضربها ضرباً مبرحاً ــ هل تصدقين يا عزيزتى ؟ ــ بلا أى سبب . طبعـاً ... ذلك أمر لا يعنينـا ، ولكننا كنـا نبكى حين ننظر اليها » .

صوفيا : « رحماك يا سيدتي ، كفّي عن رواية أمور تهين الانسانية » .

زوجة البريجادير : « أرأيت يا عزيزتي الطيبة ؟ أنت لا تريدين أن تسمعي عن هذا الضرب المبرّح سماعاً ، فكيف كانت زوجة النقيب تحتمله عذاباً في جسمها ؟ » .

هكذا ترى امرأة بسيطة تُفحم فتاة متحذلقة رفيعة التربية رقيقة العاطفة . ذلك عند فونفيزين جواب سريع مدهش ، وليس لديه ما هو أقرب منه الى الصدق ، وأدنى الى الانسانية ... وأبعد عن التوقع . وما أكثر مايوجد حتى الآن من هؤلاء التقدميين بين رسلنا المندفعين الذين تفتنهم عاطفيتهم الرقيقة ! ولكن أعجب ما في الأمر أن أمثال جفوزديلوف ما يزالون يضربون نساءهم ، وربما كانوا يضربونهم بمزيد من الهمة والنشاط والحماسة أيضاً . يميناً ان هذا لهو الواقع ! يقال ان الناس في الماضي كانوا يمارسون هذه العادة من قبيل التذوق ، من قبيل التعلق . « فمن أحسنَ الحبَّ أحسن القصاص » ؟ حتى ان النساء ، فيما يقال ، كان يُقلقهن أن لا يُضربن : فما لم يكن ضرب لا يكون حب . ولكن ذلك كله فطري ، بدائي ، أولي » .

ولكن هذا قد تطور أيضاً . ان جفوزديلوف يضرب الآن من باب التقيد بالمبدأ تقريباً ، ولأنه غبي أيضاً ، أي لأنه رجل من رجال العهد البائد يجهل العادات الجديدة . ان العادات الجديدة تتيح تدبر الأمر على نحو أفضل دون اللجوء الى الضرب . واذا كنت لا أفيض في الكلام على جفوزديلوف ، فلأن الكتاب ما يزالون يكتبون عنه عبارات زاخرة بالعمق والروح الانسانية ، ويبلغون من ذلك حدَّ اضجار الجمهور وبعث السأم والملل في نفوس الناس . ورغم جميع المقالات ، فان جفوزديلوف فيه من الحيوية ما يكاد يجعله خالداً . نعم ، انه حي

معاق ، وثمل شبمان . هو الآن تنقصه ذراع وساق ؟ وهو ، مثل الكابتن كوبتكين ، « قد سفح دمه ان صح التعبير » . ومنذ زمن طويل كفت زوجته عن أن تكون « شابة ولطيفة » . لقد شاخت . ان وجهها الخاسف الشاحب تخدّده التجاعيد ويغضّنه الألم . ولكن يكفي أن يمرض زوجها الفظ حتى تلازمه فما تفارقه ، وحتى تقضي ليالي طوالاً ساهرةً لا يغمض لها جفن ، وحتى تواسيه وتعزيه وتشد أزره وتسكب بسببه دموعاً سخينة كاوية ، وحتى تناديه بقولها : يا فارسي اللطيف ، ياصقري الساطع ، يا قائدي الجميل ، . صحيح أن هذا يصدم المرء من جهة . ولكن عاشت المرأة الروسية من جهة أخرى ! ليس في عالمنا الروسي شيء أفضل من حبها ، ليس فيه شيء أفضل من هذا الحب الزاخر برحمة لا نهاية لها ولا حدود . أليس هذا صحيحاً ؟ لا سيما وأن جفوزديلوف لا يضرب الآن زوجته دائماً قبل أن يشرب . فهو يراعي قواعد الكياسة ، حتى لقد يقول لها في بعض الأحيان كلمة طيبة . لقد شعر في شيخوخته بأنه لا يستطيع الاستغناء عنها . انه جيسوب ، انه « بورجوازي » ، واذا اتفق أن كان ما يزال يضربها ، فانه لا يضربها الا وهو سكران ، أو حين يستبد به الضجر فتستيقظ فيه العادة القديمة . وهذا تقدم ، تقدم يعزى المرء ، شئتم أم أبيتم !...

نعم ، نحن الآن متعزّون تماماً ، متعزون بأنفسنا . هل يضيرنا أن ننظر حولنا فلا نرى أن كل شيء لامع كثيراً حتى الآن ؟ اننا فيمقابل ذلك نبلغ من الكمال ومن التمدن والتحضر ومن كوننا أوروبيين أن الشعب يشعر بغثيان حين ينظر الينا . ان الشعب ينظر الينا الآن نظرته الى أجانب ، ولا يفهم شيئاً من أقوالنا ، ومن كتبنا ، ومن أفكارنا ... وذلك كله تقدم . هو تقدمٌ ، شئتم أم أبيتم . ونحن الآن نحتقر الشعب والمبادىء الشعبية احتقاراً يبلغ من العمق أننا نحس باشمئزاز لم يكن

معروفاً قبل اليوم حتى فى عهد أصحابنا مونتبازون وروان ـ وذلك تقدم آخر • وفى مقابل هذا ، ما أعظم ثقتنا التمدينية ، وما أشد القطع والجزم والحسم فى اجابتنا عن أخطر المسائل من فوق : « لا شعب ولا أرض • ما القومية الا نظام معيَّن من أنظمة الضرائب • النفس صفحة بيضاء ، النفس شمع تستطيع أن تصنع منه على الفور انساناً حقيقياً مقدوداً على غرار المثال الشامل • يكفى أن تستعمل ثمرات الحضارة الأوروبية والمدنية الأوروبية وأن تقرأ كتابين أو ثلاثة • • • وفى مقابل ذلك ، ما أعظم هدوءنا وما أعظم أبهتنا فى هذا الهدوء ! ذلك أننا لا نشك فى شىء ، فقد حللنا جميع المسائل • ما أشدَّ ما شعرنا به من اكتفاء بالنفس هادىء حين جلدنا تورجنيف ، مثلاً ، الذى تجرأ أن يشك فينا ، ولم يكتف بشخصياتنا ذات الفخامة والجلال ، ورفض أن يتخذها مثلاً أعلى ، وأراد أن يسمى الى ما هو أفضل ••• الى ما هو أفضل منا ••• يا رب السماء ! هل على وجه الأرض كلها أناس أحسن منا وأبعد عن الخطأ وأكثر عصمةً من الزلل ؟ وقد أنَّبناه وقرَّعناه أيضاً بسبب شخصية بارازوف* ، الانسان القلق المغموم (دلالةً على أنه ذو قلب كبير) ، رغم كل نزعته العدمية • حتى لقد جلدنا تورجنيف بسبب شخصية المرأة كوكشينا *، هذه القملة التقدمية التى استخرجها تورجنيف من الواقع الروسى ليظهرنا عليها ويرينا اياها • ثم اتهمناه أيضاً بأنه يعادى تحرير المرأة • فهذا كله تقدم ••• هو تقدم ، شئتم أم أبيتم ! نحن الآن ننظر الى الشعب من فوق ، ونشعر بزهو كزهو عريف فى الجيش ، كزهو فارس من الفرسان المرتزقة الذين يعملون فى جيش بلاد أخرى ويحسبون أنهم يحملون اليها المدنية والحضارة • انه لمنظر يسرُّ الانسانَ أن يراه : نضع أيدينا على خواصرنا ، ونلقى نظرة تحد واستفزاز ، ونمثل دور مصارعى الثيران ونقول باصقين : « ماذا

تستطيع أن تعلّمنا أيها الموجيك (الفلاح) الشعبي الأخرق ؟ ان المعنى البرجعي ليس فى حقيقة الأمر شيئاً آخر غير قاعدة الضرائب ! » . ألا انه لا يحسن بنا أن نستسلم للأوهام !...

آ ... بالمناسبة ... لنفترض ، لحظة ، يا أصدقائى ، أننى قد ختمت رحلتى وأننى عدت الى روسيا . دعونى أقص عليكم قصة صغيرة . فى ذات مرة ، هذا الشتاء ، تناولت جريدة من الجرائد . انها من أكثر الجرائد تقدمية . فاذا أنا أقع على خبر من موسكو . العنوان : « من بقايا الهمجية أيضاً » (أو شيء من هذا القبيل . العنوان حي جداً على كل حال . يؤسفنى أن الجريدة ليست تحت بصرى) . ففى ذلك المقال يُروى أنه فى صباح من أصباح الخريف وقعت الأنظار على عربة تركبها امرأة من الخاطبات ، سكرى ، تلبس ثياباً مزركشة ، وتتزين بأشرطة ملونة ، ويصدح صوتها بالغناء . والحوذى سكران أيضاً ، يلبس هو الآخر ثياباً مزركشة ، ويدندن أغنية . والحصان نفسه مزيّن مجمّل كذلك . ولكننى لا أدرى أهو سكران أم لا . أغلب الظن أنه سكران . والخاطبة تحمل صرّة كانت ذاهبة لعرضها على أهل العروس بعد ليلة الزفاف ، وكانت سعيدة بطبيعة الحال. ومعروف أن الصرّة تضم اللباس الخفيف الذى اعتاد الناس فى الطبقات الشعبية الدنيا أن يظهروا عليه أهل العروس غداة الزفاف . وكان الناس يضحكون من منظر الخاطبة : كان ذلك موضوع مزاح وتندر . والجريدة تستهجن هذه الهمجية الفظيعة وتستنكرها استنكاراً شديداً ، وتعدها « بقيةً من بقايا الماضى ما تزال موجودة رغم أنواع التقدم التى حققتها الحضارة » ! لا أكتمكم يا سادتى أننى انفجرت ضاحكاً . لا يذهبن بكم الظن الى أننى أدافع عن أكل لحم البشر ، وعن اللباس الخفيف ، وعن الحجب ، وما الى ذلك . فهذا كله شر ، هذا كله ابتعاد عن الحشمة ، هذا كله

شذوذ غريب ، على الطريقة السلافية ... أنا أعرف هذه الحقيقة ، أنا موافق على صدق رأيكم ، رغم أنه مما لا شك فيه أن ذلك كله كان يمارَس بدون سوء نية ، بل وكان يمارس تكريماً للعروس وتمجيداً لها ، كان يُمارس بقلب سليم وبساطة تامة ، لجهل الناس بأن هناك عادات أفضل ، عادات أكرم وأليق ، عادات أقرب الى المدنية الأوروبية. لا ، وانما إنا ضحكت لشيء آخر . لقد تذكرت ، على حين فجأة ، سيداتنا ومتاجر النوفوته . صحيح أن سيداتنا المتمدنات أصبحن لا يرسلن الى أهلهن ألبسة خفيفة . ولكن اذا أردن أن يوصين بثوب مثلاً ، فما أبرع فنهن وما أكبر حذقهن في وضع شيء من القطن في مواضع معينة من ثوبهن الأوربي الفاتن ! لماذا القطن ؟ هو طبعاً للأناقة ، للجمال ، من أجل أن يظهرن ... وليس هذا كل شيء . ان بناتهن ، هذه المخلوقات البريئة اللواتي هنّ في السابعة عشرة من العمر ، ما ان يتخرجن من المدرسة الثانوية ، حتى يعرفن القطن أيضاً ، وحتى يعرفن فائدته ، ويعرفن أين يجب أن يوضع ، ويعرفن الهدف الذي يستعمل هذا كله من أجله ... قلت لنفسي وأنا أضحك : « هل هذا الاهتمام كله وهذا الاحتفال كله ، وهذه العناية كلها بتدوير الجسم بالقطن ، هل هذا كله أقرب الى الطهر والأخلاق والعفة من ذلك اللباس الشقي الذي يُرسَل الى الأهل على ثقة بريئة واقتناع ساذج بأن في هذا التصرف حشمة وأخلاقاً ؟ » .

صدقوا ، يا أصحابي ، أنني لن استطرد استطراداً طويلاً لأبيّن أن هذه المدنية ليست هي التطور ، بل وأنها في الأزمنة الأخيرة قد كانت في أوروبا عائقاً يعوق كل تطور بالسوط والسجن . لن أبيّن أن الناس لدينا يخلطون خلطاً فاحشاً بين هذه المدنية وبين قوانين التطور السليم الواقعي ، وأن هذه المدنية قد أصبحت في الغرب نفسه مدانة منذ زمن

طويل ، وأن أصحاب الأملاك وحدهم هم أنصارها انقاذاً لأموالهم ، رغم أن جميع الناس هنالك يملكون أو يتوقون الى أن يملكوا ٠ لا ولن أبيّن أن النفس الانسانية ليست صفحة بيضاء أو عجينةً يمكن أن تشكل منها انساناً نموذجاً ، وأن ذلك يتطلب الطبيعة أولاً ، والعلم ثانياً ، ويتطلب بعد ذلك حياة مستقلة لا تعوقها عوائق ، حياة قريبة من الأرض ، ويتطلب ايمان الأمة بقواها القومية الخاصة ٠ لا ولن أزعم أننى أجهل أن التقدميين بيننا (ولكن لا جميعهم بل بعضهم) لا يستحسنون وضع القطن فى أثواب النساء وانما هم يستهجنونه استهجانهم الحجب الخفيفة ٠ لا ٠٠٠ فان كل ما أريد أن أقوله هو ما يلى : ان مقالة الجريدة لم تستنكر الحجب ولم تلعنها بلهجة بريئة ، انها لم تقتصر على أن تقول ان هذا همجية ، وانما كان واضحاً أنها تندد بالهمجية الشعبية ، القومية ، البدائية ، التى تتنافى تنافياً فاضحاً مع الحضارة الأوروبية التى أخذت بها طبقاتنا الراقية ٠ ان مقالة تلك الجريدة تتغطرس وتتظاهر بأنها تجهل أن النقاد العتاة أنفسهم ربما كانوا أسوأ ألف مرة ، وأننا لم نزد على أن أحللنا محل بعض الأوهام والمخازى أوهاماً ومخازى أخرى أبشع وأردأ ٠ كان لا يبدو أن المقالة تلاحظ ما لدينا نحن من أوهام سخيفة وعيوب مخزية كثيرة ٠ لماذا ننظر الى الشعب هذه النظرية المتعالية ، لماذا ننظر الى الشعب من فوق ، واضعين أيدينا فى خواصرنا على أوضاع مصارعى الثيران ؟ ان ثقة المرء بأنه معصوم من الزلل وبأن تشهيره وتنديده ونقده أمور مشروعة ، ان هذه الثقة فيها كثير من الفظاظة ٠ ليست هذه الثقة الا استخفافاً بالشعب وازدراءً له ، أو هى أخيراً تعظيم أعمى ذليل للأشكال الأوربية من المدنية ، وفى ذلك فظاظة أدهى ٠

وفيم الالحاح ؟ ان المرء يلتقى كل يوم بألوف الوقائع المماثلة ٠ فاغفروا لى أننى صدعت رءوسكم بسرد هذه القصة القصيرة ٠

ثم انني أتيه عن هدفي • نعم • ذلك ناشيء عن أنني قفزت من الأجداد الى الأحفاد قفزاً مسرفاً في السرعة • وهناك فواصل • تذكروا تشاتسكي* • ليس تشاتسكي سلفاً ماكراً على سذاجة ، وليس خلفاً مغروراً يمثل دور مصارع الثيران منفصلاً عن كل ماعداه • ان تشاتسكي نموذج خاص جداً بروسيا الأوربية ، نموذج جذاب متحمس شغوف يدعو دائماً لروسيا الأوروبية ، وللأرض ، ولكنه مع ذلك يسافر الى أوروبا حين يريد أن يلتمس

ملاذاً للعاطفة الجريحة المهانة •

هو ، باختصار ، نموذج لا فائدة منه البتة في هذه الأيام ، ولكنه كان في الماضي مفيداً جداً • انه رجل ينشيء عبارات ويدبج جملاً ، يلقي أحاديث ويقول خطباً ، ولكنه يفعل ذلك كله صادقاً مخلصاً ، ويقلقه أنه لا فائدة منه ولا نفع له • انه ينبعث في الجيل الجديد ، ونحن نؤمن بالقوى الفتية ، ونؤمن بأنه سيعود الى الظهور قريباً ، ولكنه لن يعود عودة رجل شديد الحميا مندفع العاطفة ، كما في حفلة فاموسوف الراقصة ، وانما سيعود عودة منتصر فخور قوي رفيق محب • وسيعترف عدا ذلك بأن ملاذ العاطفة الجريحة المهانة ليس في أوروبا ، بل قد يكون تحت أنفه • سوف يجد مهمة يقوم بها ، وسوف يشرع في تحقيق هذه المهمة • وبهذه المناسبة : أنا على يقين من أن عندنا الآن شيئاً آخر غير أولئك « السامودور »* •

أنا واثق ، أنا أدعي الانسان الجديد قد وُلد ••• ولكننا سنتحدث عن هذا الأمر مرة أخرى • وانما أريد أن أقول كلمتين أخريين عن تشاتسكي • ان هناك نقطة واحدة تربكني وتحيّرني • لقد كان تشاتسكي رجلاً على جانب عظيم من الذكاء • فكيف أمكن أن

لا يجد مثل هذا الرجل عملاً يقوم به ؟ ذلك أنه لا هو ولا أضرابه قد وجدوا عملاً يقومون به خلال جيلين أو ثلاثة أجيال . تلك واقعة ، ولا اعتراض على واقعة . ولكن يخيَّل الىَّ أن فى امكاننا أن نطرح سؤالاً من باب حب الاطلاع . انني لا أفهم أن لا يستطيع انسان ذكي، فى أى وقت من الأوقات ، وأيةً كانت الظروف ، أن يجد عملاً يقوم به . يقال ان هذه النقطة محل خلاف. ولكنني فى قرارة قلبي لا أصدّق هذا الكلام . ان الانسان يملك الذكاء من أجل أن يبلغ ما يريد بلوغه. اذا كنت لا تستطيع أن تقطع فراسخ ، فاقطع مائة خطوة على الأقل ، فذلك يظل أفضل من أن لا تقطع شيئاً البتة ، ان ذلك يقرّبك من الهدف. فاذا اصررت على أن تصل الى الهدف بخطوة واحدة ، لم يكن ذلك ذكاءً فى رأيى ، حتى ليمكن أن يوصف بأنه وصولية . ان العمل لا يحلو لنا. اننا لم نتعود أن نسير خطوةً خطوة. الأفضل عندنا أن نصل الى الهدف بخطوة واحدة أو نصير الى ما صار اليه ريجولوس . تلكم هي الوصولية فى رأيى. على أن تشاتسكى قد أحسن صنعاً حين انسحب الى أوروبا. ولقد كان فى وسعه أن ينتظر قليلاً وأن يمضى لا الى الغرب بل الى الشرق . ولكن الناس فى بلادنا يحبون الغرب ، وهم جميعاً يمضون الى الغرب متى اضطروا الى التطرف . وأنا أيضاً أذهب الى الغرب . « ولكن شأني شأن آخر » . لقد رأيتهم جميعاً هناك . ليس يُحصى عددهم . وكأنهم جميعاً ينشدون « ملاذاً للعاطفة الجريحة المهانة » . أو هم على الأقل ينشدون شيئاً ما . فى أوانٍ لاحق على أوان حفلة فاموسوف الراقصة ، تكاثر جيل تشاتسكى من الجنسين فى الغرب تكاثر رمل البحر . وليس أمثال تشاتسكى بالوحيدين : لقد ترك الجميع موسكو الى الغرب. ما أكثر أمثال ريبتلوف* هناك الآن، وما أكثر أمثال سكالوزوبوف، الذين تركوا الخدمة وأُرسلوا الى مدن المياه المعدنية باعتبارهم كسحاء ! ان

ناتاليا ومتريفنا وزوجها أعضاء دائمون هناك • وفى كل سنة تُنقل الى هناك الكونتيسة خلستوفا • جميع هؤلاء السادة قد ضاقوا ذرعاً حتى بموسكو • مولتشالين وحده ليس موجوداً : لقد دبَّر أمره بطريقة أخرى وبقى فى مكانه ، ناذراً نفسه للبلاد ، للوطن ••• يستحيل عليك أن تقاربه الآن ، انه لن يرضى الآن أن يستقبل فاموسوف فى حجرة المدخل من منزله : « هما جاران فى الريف : والناس فى المدينة لا تحييهما » • ان مولتشالين منهمك فى الأعمال ، وقد وجد عمله • هو الآن فى بطرسبرج ••• وقد نجح • « انه يعرف روسيا ، وروسيا تعرفه » * • نعم ، انها تعرفه جيداً ، وستظل تذكره زمناً طويلاً • حتى انه فى هذه الأيام أصبح لا يلتزم الصمت • بالعكس : انه يتكلم بغير انقطاع • ما على الناس الا أن يسحبوا السلّم بعده •

ولكن حسبنا ما قلناه عنه • لقد ذكرت أنهم جميعاً ينشدون فى أوروبا ملاذاً يهدىء نفوسهم ، ولقد أظن حقاً أن حالهم هناك أحسن • ولكن ما أشد القلق الذى يراه المرء فى وجوههم !••• يا لهم من تعساء! ما أقوى الاضطراب الدائم المستمر فى نفوسهم ، وما أكثر ما يتحركون تحركاً مرضياً مغموماً مهموماً !••• هأنت ذا تراهم يسيرون ممسكين الدليل بأيديهم ، ويسارعون فى كل مدينة الى مشاهدة طرائفها كأنهم يقومون بواجب ، كأنهم ما يزالون فى خدمة وطنهم • انهم لا يُغفلون قصراً ذا ثلاث نوافذ ، ما دام مذكوراً فى الدليل ، ولا يغفلون داراً من دور البلدية تذكّر بمنزل عادى من منازل موسكو أو بطرسبرج • انهم يقفون متأملين أمام لوحات روبنس التى تصوّر نساءً عاريات ، ويعدونها آلهة الجمال الثلاث فى أساطير الاغريق ، لأن الدليل يأمر بذلك • وهم يهرعون الى مادونا سان سيكست ويلبثون أمامها على حالة انتظار مبهور : سيحدث شىء ما ، سيخرج أحد من تحت البلاط فيبدد قلقهم الغامض

وسأمهم الشديد • ثم ينصرفون مدهوشين من أن شيئاً من ذلك لم يحدث • ان حالتهم لا تشبه حالة الاستطلاع النافع الآلى ، حالة السائحين الانجليز الذين ينظرون فى الدليل أكثر مما ينظرون الى الطرائف ، ولا يتوقعون شيئاً مدهشاً ، وانما هم يقتصرون على التأكد من أن الشيء الذى يرونه موصوف فى الدليل على هذا النحو حقاً ، ويقتصرون على التأكد من علوه أو وزنه • لا ••• ان استطلاعنا نحن استطلاع عجيب ، استطلاع عصبى ، حار ، عنيف ، عدا أنه مقتنع سلفاً بأنه لن يحدث شيء قط ، الى أن تمر ذبابة طبعاً ، فمتى مرت ذبابة عاد يستيقظ ••• لست أتحدث الآن الا عن الأشخاص الذين أوتوا فكراً • أما الآخرون فلا داعى الى الاهتمام بهم : أسأل الله أن يحمى الجميع • لا ولا أنا أتحدث عن أولئك الذين استقر بهم المقام فى الغرب ، فنسوا لغتهم ، وأخذوا يصيخون بأسماعهم الى أقوال الكهنة الكاثوليك •

مهما يكن من أمر ، فاليكم ما يمكن أن يقال عن جملة الناس : اننا متى اجتزنا الحدود أصبحنا نشبه شبهاً عجيباً تلك الكلاب الصغيرة البائسة التى تركض باحثة عن أصحابها • ولكن لعلكم تحسبون أننى أسخر ، وأننى أتهم أحداً : « فى هذه اللحظة ، بينما ••• الخ ••• فقد أصبحتم فى الخارج ! المشكلة الزراعية تُطرح ، وأنتم الآن فى الخارج ! الخ الخ ! » ••• لا ، لا ، اننى لا أتهم أحداً البتة ! ومن أنا حتى أتهم ؟ أتهم بماذا وأتهم من ؟ « نكون سعداء لو عملنا شيئاً ، ولكن لا يوجد شيء نعمله ؛ واذا وُجد شيء فانه يُعمل بدوننا • الأماكن مشغولة ، ولا أمل فى شغور أماكن • فعلام تحشر أنوفنا حيث لا نُطلب منا ذلك ؟ » • ذلكم هو الانهزام • وكفى الآن • اننا نعرف هذا الانهزام على ظهر القلب •

ولكن أراني أندفع وأتحمس ! أين اتسع وقتي لأن أرى روسيين في الخارج ؟ ذلك أننا ما زلنا على الحدود ... اللهم الا أن نكون قد اجتزناها ؟ نعم اجتزناها حتى لقد تجاوزنا برلين ودرسدن وكولونيا . الحق أنني ما زلت في القطار . ولكن أمامنا محطة آيدتكونن ، واركولين ، ثم ندخل فرنسا . وباريس ، باريس التي كنت أريد الكلام عنها ثم نسيتها ؟ لقد أسرفت في التأمل في أوروبا الروسية . هذا شيء يغتفر للمرء حين يكون ذاهباً بنفسه لزيارة أوروبا الحقيقية . ولكن علام الاستغفار ؟ ان هذا الفصل الذي كتبته زائد نافل .

الفصل السابع

أمور غير نافلة بالنسبة الى مسافرين

حل نهائي لهذا السؤال : « هل الفرنسي محروم من العقل حقا ؟ »

ساءلت نفسي قائلاً وأنا أنظر الى أربعة مسافرين فرنسيين ركبوا القطار منذ قليل : « غريب ... لماذا يكون الفرنسي محروماً من العقل ؟ » . ان هؤلاء المسافرين الذي ركبوا القطار منذ هنيهة هم أوائل من لقيت من الفرنسيين على أرض وطنهم ، عدا رجال الجمرك الذين تركناهم منذ قليل في اركولين . لقد كان رجال الجمرك لطافاً مهذبين جداً ، برهنوا على سرعة في انجاز العمل ، وقد عدت أركب القطار مسروراً كل السرور ببداياتي في فرنسا . حتى محطة اركولين ، لم تكن حجرتنا بالقطار ، وهي حجرة تتسع لثمانية أشخاص ، لم تكن تضم الا اثنين هما أنا ورجل سويسري ، بسيط متواضع ، متوسط السن ، محدث بارع لم أنقطع عن الثرثرة معه خلال ساعتين . وها قد أصبحنا الآن ستة ، فما كان أشد دهشتي حين رأيت صاحبي السويسري يصمت فجأة حين ركب الرفاق الجدد ، فأصبح لا ينطق بكلمة . أردت أن استأنف حديثنا السابق ، ولكنه أسرع يقطع الحديث محاذراً ، وأجابني اجابة من يريد التهرب من الكلام ، وذلك بلهجة جافة توشك أن تكون خشنة ، ثم التفت

نحو النافذة يتأمل منظر الطبيعة . وما هي الا دقيقة حتى أخرج من جيبه دليله الألماني فاستغرق في قراءته . فتركته وشأنه ، وانصرفت باهتمامي صامتاً الى رفاقنا الجدد . انهم أناس يثيرون الاستغراب . كانت أيديهم فارغة ، فهم لا يشبهون المسافرين في شيء . ليس معهم صرة واحدة وليس في ملابسهم ما يدل على أيسر دلالة على أنهم سائحون . كانوا جميعاً يرتدون ردنجوتات مهترئة رثة كالتي نراها على أتباع الضباط من الجنود أو حتى على خدم سادة من الريف ، ولكنها أفضل منها قليلاً . وكانت قمصانهم وسخة ، وكذلك كرافتاتهم ذات الألوان الصارخة . وكانت تحيط بعنق واحد منهم بقية منديل حريري من تلك المناديل التي لا تُترك قط فتتشرب رطلاً من الدهن بعد التصاقها بجسم صاحبها مدة خمسة عشر عاماً . وكان لكمَّي هذا الشخص نفسه زرّان من زائف الماس بحجم بندقة . على أن وضعهم جميعاً كان فيه شيء من غطرسة . وهم يظهرون في سن واحدة ــ حوالي خمسة وثلاثين عاماً ــ كما أنهم يتشابهون كثيراً رغم اختلاف وجوههم ، فكل منهم مشدود السحنة ، ولكل منهم لحية صغيرة تحت الشفة السفلى . ان المرء يلاحظ أن هؤلاء الناس قد عانوا أحوالاً متقلبة كثيرة ، فاكتسبوا الى الأبد هيئة جادة لكنها شرسة . وقد بدا لي أيضاً أنهم يعرف بعضهم بعضاً ، ولكني لا أتذكر أنهم تبادلوا كلمة واحدة ! وكانوا يتظاهرون بأنهم لا يلاحظوننا أنا والسويسري ، فانما هم ينظرون من خلال النافذة باصرار متصل ، ويصفرون في أثناء ذلك باهمال وقلة اكتراث . أشعلتُ سيجارة ، وأخذت أنعم النظر فيهم وأتساءل : « أي نوع من الناس يمكن أن يكون هؤلاء ؟ لا هم عمال ولا هم بورجوازيون . أتراهم عسكريين محالين على التقاعد ، أو شيئاً من هذا القبيل ؟ . على أن أمرهم لم يكن يعنيني كثيراً . وما هي الا عشر دقائق حتى نزلوا واحداً بعد آخر في أول محطة تالية .

وأغلق الباب واستأنف القطار سيره ! ان الوقفات قصيرة جداً على هذا الخط ، لا تدوم الا دقيقتين أو ثلاث دقائق فى أكثر تقدير . والقطار يجرى بسرعة رائعة حقاً .

وما ان صرنا وحيدين حتى أسرع السويسرى يطوى كتابه ويضعه جانباً ، ويرمقنى بنظرة ارتياح وقد ظهر عليه أنه يرغب فى استئناف الحديث .

قلت وأنا أتأمله مستطلعاً :

ـ لم يبق هؤلاء السادة مدة طويلة .

فقال :

ـ ليست المسافة التى يجب عليهم أن يقطعوها طويلة : من محطة الى المحطة التى تليها .

ـ أأنت تعرفهم ؟

ـ هم ؟ انهم من رجال الشرطة ...

فسألته مدهوشاً :

ـ كيف ؟ من رجال الشرطة ؟ أية شرطة ؟

ـ لاحظتُ فعلاً منذ قليل أنك لم تحزر ذلك .

سألته وأنا ما أزال أرفض أن أصدّقه :

ـ أيمكن أن يكونوا جواسيس حقاً ؟

ـ نعم . ومن أجلنا انما ركبوا القطار .

ـ أأنت واثق من ذلك ؟

ـ لا يخالجنى فى هذا أدنى شك . سبق أن قطعت هذه المسافة مراراً . وقد أشير لهم الينا فى الجمرك أثناء النظر فى جوازات السفر ، وذكرت لهم أسماؤنا ، الخ . فركبوا ليرافقونا .

ـ ولكن فيم يرافقوننا وقد رأونا وانتهى الأمر • ألم تقل انهم قد أشير لهم الينا فلاحظونا ؟

ـ نعم ، وذُكرت لهم أسماؤنا • ولكن ذلك لا يكفي • وهم الآن قد دققوا النظر فينا تفصيلاً : الوجه ، الملابس ، حقيبة السفر ، مظهرنا كله • لقد لاحظوا حتى أزرار أكمامنا • وأنت قد أخرجت علبة سيجاراتك ، فلم يفتهم أن يلاحظوها • الخلاصة ••• لقد لاحظوا وسجلوا في ذاكرتهم أكبر عدد ممكن من التفاصيل • فمتى اتفق أن تهت في باريس أو غيرت اسمك (اذا كنت مشبوهاً) ساعدت هذه التفاصيل الى الاهتداء اليك أو القبض عليك • لقد أُرسلت هذه التفاصيل برقياً الى باريس • وهناك يُحتفظ بها للطوارىء • هذا الى أن أصحاب الفنادق مجبرون على أن يسجلوا أدق الصفات الخاصة ، المتصلة بالأجانب الذين ينزلون فنادقهم •

سألته مرةً أخرى وأنا ما أزال ذاهلاً بعض الذهول :

ـ ولكن لماذا كان عددهم أربعة ؟

ـ أوه ! انهم هنا كثير ! لعل عدد الأجانب في هذه المرة لم يكن كبيراً ، فلولا ذلك لتوزعوا على عربات القطار •

ـ ولكن لا حظ أنهم لم يتأملونا البتة ، وانما كانوا ينظرون الى الخارج من خلال النافذة •

ـ لا تخف ••• لقد دققوا في كل شيء ••• ومن أجلنا انما ركبوا القطار •

قلت أحدث نفسي : « هيء هيء ! ويقولون « ان الفرنسي محروم من العقل ! » • انني لأخجل أن أعترف بذلك • لقد نظرت الى السويسري خلسة وأنا في شك من أمره :

« ألا يمكن أن تكون متواطئاً معهم يا رفيق ، ألا يمكن أن يكون غرضك تضليلي ؟ » ، ذلك ما خطر ببالي ، ولكنه لم يخطر ببالي الا لحظة قصيرة ، أؤكد لكم ... وكان هذا الخاطر سخيفاً غير معقول . ولكن ما حيلتي ؟ ان المرء يفكر رغماً عنه .

لم يخدعني السويسري. ففي الفندق الذي نزلته سرعان ماسُجِّلت صفاتي تفصيلاً ، ثم أرسلت الى من يجب ارسالها اليه . وفي وسعك أن تستنتج من شدة التدقيق في ملاحظة صفاتك بغية تسجيلها ، أن حياتك كلها في الفندق بعد ذلك ، وسائر ما ستقوم به من أعمال وما ستخطوه من خطوات مهما يكن يسيراً ، سوف يلاحَظ وسوف يسجَّل على نحو دقيق . على أنني لم أضايَق كثيراً في أول فندق نزلته ، فقد سُجِّلت صفاتي دون أن أقول كلمة واحدة ، عدا الاجابات الخطية عن الأسئلة التي يتضمنها دفتر السجل ، وقد دوَّنتها بنفسي : الهوية ، البلد الذي وصلت منه ، هدف الرحلة ، الخ . ولكن ، في الفندق الثاني الذي نزلته بعد ثمانية أيام قضيتها بانجلترا ، حين لم أجد غرفة في « فندق كوكير » ، عمد صاحبا الفندق الى طريقة أصرح كثيراً . كان هذا الفندق الثاني يسمى « فندق الأباطرة » ، ويتصف جوه بأنه عائلي من جميع النواحي . كان صاحباه انسانين طيبين حقاً ، وهما رجل وزوجته متقدمان في السن ، يفيضان لطفاً وذوقاً في معاملة نزلاء الفندق ، ففي المساء من يوم وصولي رجتني صاحبة الفندق ، حين لقيتني في الدهليز ، أن أدخل الى المكتب . وكان زوجها هناك . ولكن كان واضحاً أنها هي التي تتولى ادارة الفندق .

بدأت تقول بلطف وأدب :

ـ معذرة يا سيدي ، ولكن لا بد لنا من تسجيل بيان عنك .

قلت :

ـ البيان عندكم ... فقد أعطيتكم جواز سفرى .

ـ نعم ، ولكن ... ما هى صفتك ؟

صفتى ؟ هذا أمر غامض طالما ساءنى . ولكن ما عساى أكتب ؟ مسافر ؟ ان كلمة مسافر تعوزها الدقة ... أأكتب كلمة « أديب » ؟ انهم لن يقيموا لى عندئذ أى وزن ، ولن يولونى أى اعتبار .

قالت صاحبة الفندق :

ـ أوثر لك أن تكتب أنك « مالك أطيان » ، ما رأيك ؟ هذا أفضل .

فقال زوجها مؤيداً ومحبذاً :

ـ نعم نعم ، هذا أفضل .

ـ والآن ما هى الغاية من مجيئك الى باريس ؟

ـ السياحة طبعاً !

ـ هِمْ ... نعم ... « مشاهدة باريس » . اسمح لى يا سيدى ، ما طول قامتك ؟

ـ طول قامتى ؟

ـ كم طولك ؟

ـ أنا متوسط الطول كما ترى ؟

ـ طبعاً يا سيدى ، ولكننى أريد أن أعرف طولك على نحو أدق ..

كذلك قالت السيدة ، ثم أضافت مرتبكة بعض الارتباك وهى تسأل زوجها بنظرتها :

ـ أظن ...

فقال زوجها حاسماً وقد حدّد طولى بالنظر :

ـ أظن أن طوله « كذا وكذا » .

سألت :

ـ ولكن ما حاجتكم الى معرفة هذا ؟

فأجابت السيدة :

ـ أوه ! هذا ضر ... و ... رى !

قالت ذلك مشدّدة على هذه الكلمة بينما هى تسجل طول قامتى فى الدفتر . ثم سألتنى :

ـ والآن يا سيدى ، شعرك ؟ هو أشقر ، أميل الى أن يكون فاتحاً ... مقصوص كالفرشاة ....

وسجلت أوصاف الشعر . ثم تابعت تقول وهى تضع القلم وتنهض وتقترب منى فى تودد ولطف :

ـ اسمح لى يا سيدى ... هل لك أن تسير معى خطوتين نحو النافذة . يجب أن أفحص الآن لون عينيك . همْ ... هما فاتحتان !..

وسألت زوجها بنظراتها . كان واضحاً أنهما يحب كل منهما الآخر .

قال الرجل بلهجة جادة :

ـ أميل الى تكونا شهباوين .

ـ صحيح ...

وبغمزة من عينيه دلّ زوجته على شيء فوق حاجبيّ ، فأدركت فوراً ما يقصد . ان في جبيني ندبةً ، وهو يريد أن تسجل امرأته هذه العلامة الفارقة .

قلت للسيدة بعد أن انتهى فحصي :

ـ اسمحي لي بسؤال يا سيدتي : هل صحيح أنهم يطلبون منكم هذا التدقيق كله ؟

قالت :

ـ أوه ! يا سيدي ! هذا « ضر ... و ... ري » .

وقال زوجها بعدها كأن كلامه رجع الصدى ، قال بلهجة ذات دلالة :

ـ سيدي !...

قلت :

ـ ولكني لم أُسأل في فندق « كوكير » أيّ سؤال .

قالت السيدة بحماسة :

ـ مستحيل ، والا نالهم من ذلك أذى . لعلهم فحصوك صامتين ، ولكنهم فحصوك حتماً ما في ذلك ريب . أما نحن فنعامل نزلاء فندقنا معاملةً أصرح ، نعاملهم معاملة أقرباء . ستُسر منا . سوف ترى ...

قال الرجل مؤيداً في أبهة :

ـ أوه ! سيدي !...

وعبّر وجهه عن رقة توشك أن تكون عاطفة حنان .

انهما زوجان شريفان جداً ، لطيفان جـداً ، على الأقل اذا صدق ما عرفته فيهما بعـد ذلك • غير أن كلمـة « ضر ••• و ••• ری » لم تُلفظ بلهجة فيها اعتـذار أو فيها تلطيف • بالعكس : لقد كانت تحمل معنى الضرورة المطلقة وتوشك أن تطابق قناعتهما الشخصية •

اذن ، هأنا ذا في باريس •

الفصل الخامس

بعل

هأنذا

اذن فى باريس !... لا تحسبوا مع ذلك أننى سأحدثكم كثيرا عن هذه المدينة . ذلك أننى أقدّر أنكم قد شبعتم قراءةً عنها باللغة الروسية . ثم انكم قد ذهبتم اليها بأنفسكم ، فلا شك أنكم لاحظتموها خيراً مما لاحظتها أنا . فأنا فى الخارج لا أطيق أن أقوم بزيارة المدينة التى أزورها مستهدياً بالدليل ، كمسافرٍ ملزم بواجب . لهذا أغفل فى بعض الأماكن أشياءَ من المخجل أن لا أراها . وهذا ما حدث لى بباريس . لن أحدثكم عن شىء من ذلك ، ولكن اعلموا أننى وجدت لمدينة باريس تعريفاً ، وأننى زينتها بنعت ما أزال أنعتها به : انها أكثر مدن الأرض تجملاً بالأخلاق والفضيلة . يا له من نظام ! يا لها من حكمة ! يا لها من علاقات محدّدة وطيدة ! ان كل شىء فى باريس مضمون ومرتب سلفاً . ان كل الناس فيها مسرورون سعداء كل السعادة ، حتى لقد انتهى بهم الأمر ، من حسن نيتهم وصدق عزيمتهم ، الى الاقتناع بأنهم كذلك حقاً ... وهم مكتفون بهذا مقتصرون عليه لا يريدون شيئاً عداه . أنتم لا تريدون أن تصدقوا أنهم مكتفون بذلك مقتصرون عليه . أنتم تزعمون أننى أبالغ ، وأن ما أقوله هو من باب التشنيع الحاقد الذى يدفع اليه التعصب الوطنى ، ولا يمكن أن يكون صحيحاً . ولكننى نبهتكم منذ البداية ، يا أصدقائى ، الى أننى قد أكذب

فأسرف فى الكذب . فلا تنزعجوا اذن . ولعلكم تعلمون أيضاً أننى اذا كذبت فليس ينفى ذلك اقتناعى بأننى لا أكذب . وحسبى هذا الكلام !.. واتركوا ذراعىَّ طليقتين فلا تغلوهما .

نعم ، باريس مدينة مدهشة . ويا له من ترف ! ويا لها أنواعا من الرخاء يتمتع بها أولئك الذين يحق لهم أن يتمتعوا بها ! ومرةً أخرى ، يا له من نظام ! يا له من ركود فى النظام ان صح التعبير ! اننى أعود دائماً الى الكلام على النظام ، على الترتيب . حقاً ، ان باريس لن تلبث أن تصبح مدينة جامعية ألمانية صغيرة ، متجمدة على الهدوء والسكينة ، كمدينة هايدلبرج مثلاً . انها تجنح نحو هذا ، وتتجه اليه . ألا يمكن أن توجد هايدلبرج أخرى ضخمة الأبعاد ! ويا لها من أنظمة ! افهموا عنى : أنا لا أتكلم الآن عن أنظمة خارجية ، وهى يسيرة (نسبياً بطبيعة الحال) ، وانما أتكلم عن ذلك التنظيم الضخم ، الداخلى ، المعنوى ، الذى يصدر عن النفس ، عن الروح . ان باريس تتضيَّق وتقلُّ ، طواعيةً ، عن حب : انها تتقلص بعاطفة ، بحنان . ما أكبر الفرق بينها وبين لندن مثلاً !

لم أقض فى لندن الا ثمانية أيام ؛ فيا لها من لوحات واسعة ذات بروز ، يا لها من مستويات مضيئة أصيلة واضحة ، تلك التى انحفرت ذكراها فى نفسى ! ان كل شىء فى لندن ضخم ، ان كل شىء فيها حاد قاطع فى أصالته ! حتى لقد يخطىء ظن المرء فى هذه الأصالة . ان كل نقيض ، مهما يكن بارزاً ، يتلاءم فى لندن مع نقيضه ، فاذا النقيضان ينسجمان فى عناد ، ويتناقضان دون أن ينفى أحدهما الآخر . يبدو أن كل نقيض يؤكد وجوده الخاص باصرار ، دون أن يلوح أن أحد النقيضين يضايق الآخر أو يزعجه . ومع ذلك ففى لندن أيضاً يتلاحق ذلك الصراع العارم نفسه ، ذلك الصراع القوى الذى أصبح منذ الآن

متأصلاً قديماً ، أعني الصراع المستميت بين المبدأ الفردي الذي يشترك فيه الغرب كله وبين ضرورة التلاؤم كيفما اتفق ، أعني ضرورة قيام جماعة متماسكة على أي نحو من الأنحاء ، وانتظام المجموع في مجتمع يشبه أن يكون بيوت النمل ، بل والتحول الى مجتمع نمل ، ولكن على شرط طبعاً ، هو شرط أن يلتهم الأعضاء بعضهم بعضاً ، والا أصبحوا من أكلة لحوم البشر ! على أننا من هذه الناحية نلاحظ نفس ما نلاحظه في باريس . نلاحظ ذلك الجهد المستميت نفسه في سبيل الاكتفاء بالحالة الراهنة والاقتصار عليها ، واستئصال المرء من نفسه جميع الرغبات وجميع الآمال ، وأن يلعن مستقبله الذي ربما كان روّاد التقدم أنفسهم لا يؤمنون به كثيراً ، وأن يعبد « بعل » . ومع ذلك لا تدعوا لهذا الأسلوب الرفيع أن يفتنكم : ان هذا كله لا يُلاحظ على حالة الوعي الا لدى التقدميين الواعين . ولكن المرء يلاحظه على حالة اللاوعي ، على حالة اللاشعور ، على الحالة الغريزية ، في الوظائف الحياتية لدى الجمهور بأجمعه . فالبورجوازي الباريسي مثلاً يكاد يكون مقتنعاً اقتناعاً واعياً بأنه ليس في الامكان ابدع مما كان ، وأن كل شيء في هذا العالم على خير ما يرام ، حتى لقد يضربك اذا أنت شككت في ذلك ، لأنه رغم ثقته ما تزال تراوده مخاوف . ولئن كان الأمر على هذا النحو في لندن ، فما أكبر الفرق رغم كل شيء : يا لها من لوحات واسعة ، مرهقة ، هنالك ! ما أكبر الفرق ، حتى من ناحية المظهر الخارجي ، بين باريس ولندن ، هذه المدينة المنهمكة نهاراً وليلاً ، الواسعة كالبحر ، مع هذه الضجة التي لا تنقطع ، وقرقعة الآلات المستمرة ، وهذه السكك الحديدية التي تمر فوق المنازل (وتحت المنازل قريباً) ، وهذه المبادرة الجريئة الجسور ، وهذه الفوضى الظاهرية التي هي في حقيقة الأمر النظامُ البورجوازي وقد بلغ أوجه ، وهذا النهر المتسمم ، نهر التاميز ،

وهذا الهواء المشبع بالفحم ، وهذه الميادين والحدائق الرائعة ، وهذه الأحياء الكالحة ، كحي " هوايتشابل وسكانه أنصاف العراة الشرهين الساغبين ، و « المدينة » بملايينها وتجارتها الشاملة ، و « قصر الكريستال » و « المعرض » ...

نعم ، ان « المعرض » فخم . تحسُّون أن قوة رهيبة قد جمعت هنا ذلك الجمهور الذي لا يحصى عدده ، والذي جاء من جميع أنحاء العالم فالتقى قطيعاً واحداً . تشعرون بأن نتيجة " قد تحققت ، تشعرون بالانتصار ، بالظفر . حتى لقد تأخذون تخافون لا أدري من أي شيء ! مهما تملكوا من الاستقلال ، فان الخوف يجتاح نفوسكم ! أليس هذا هو بلوغ المثل الأعلى حقاً ، أليس هو النهاية والخاتمة ؟ أليس هذا هو «القطيع الواحد» في الواقع ؟ ألا يجب على المرء أن يسلّم بهذا على أنه الحقيقة الكلية ، وأن يصمت الى الأبد ؟ ان ذلك كله ليبلغ من الفخامة والجلال والأبهة والافتخار والانتصار أنكم تأخذون تشعرون بفكركم مضغوطاً مثقلاً " . تنظرون الى هذه المئات من الألوف ، الى هذه الملايين من البشر الذين جاءت بهم الى هذا المكان من جميع أركان العالم فكرة وحيدة ، فازدحموا فيه هادئين عنيدين صامتين في هذا القصر الفخم ، فتشعرون عندئذ أن شيئاً ما قد تحقق تحققاً نهائياً . هذه لوحة من التوراة ، هذه صورة من بابل ، هذه نبوءة رؤيا يوحنا تتحقق أمام أبصارنا . تشعرون أنكم في حاجة الى قدرة هائلة على المقاومة والانكار والنفي حتى لا تخضعوا ، حتى لا تستسلموا لذلك الشعور ، حتى لا تنحنوا أمام الواقع وتعبدوا «بعل» ، أي حتى لا تحسبوا أن هذا الواقع هو المثل الأعلى ...

قد تقولون لي : « ولكن هذا الكلام سخف ؛ انه ثمرة المرض ، انه نتيجة تعب الأعصاب ، انه ناشيء عن الغلو والمبالغة . ما من أحد يتوقف على هذا ، وما من أحد يعده مثلاً " أعلى . ثم ان الجوع والعبودية

ليس فيهما ما يجذب ، وهما يحضان أكثر من أى شيء آخر على الانكار والجحود ، ويولدان الشك والريب . أما الهواة الشبعون الذين يتنزهون نشداناً للمتعة ، ففي وسعهم طبعاً أن يؤلفوا لوحات من رؤيا يوحنا ، وأن يفرّجوا عن أنفسهم وأن يسلّوا أعصابهم مضخمين كل حادثة من الحوادث ، باحثين فيها عما يثير فى نفوسهم احساسات قوية ... » .

سوف أجيبكم عندئذ قائلاً : « طيب . لنسلّم بأنني قد فتنت بالديكور . ولكن لو رأيتم زهو الفكر القوى الذى خلق هذا الديكور الضخم الفخم ، لو رأيتم ثقته واعتزازه بانتصاره وظفره ، لارتجفتم من غطرسته ومن عناده ومن عماوته ، ولارتعشتم اشفاقاً على أولئك الذين يحلق فوقهم ويسيطر عليهم ويتحكم فيهم هذا الفكر المتعالى المتكبر . فأمام هذا الصلف الواسع الكبير ، أمام هذا الفكر المتسلط ، أمام هذا الانتصار الحاسم الذى تحققه ابداعاته ، تتهاوى النفس الساغبة أحياناً ، وتتذلل ، وتخضع ، وتنشد الخلاص والسلامة فى خمرة « الجين » وفى الدعارة والفحش والمجون ، وتأخذ تؤمن بأن هذه الحالة مشروعة . ان الظاهرة واضحة ، فالجمهور يصاب بالشلل ويصبح عاطلاً عن الحركة ، أو هو ، اذا خضع للريبة ، ينشد الخلاص والسلامة فى مذهب كالمورمونية ، متجهم الروح كالح النفس قد ضُربت عليه اللعنة . وفى لندن يستطيع المرء أن يلاحظ الجمهور بحجوم وبيئة لا توجد فى أى مكان آخر .

قيل لى مثلاً ان نصف مليون من العمال والعاملات مع أولادهم ينتشرون فى أرجاء المدينة كلها ، أيام السبت مساء ، كبحر متلاطم الأمواج ؛ وهم يؤثرون أن يتجمعوا فى بعض الأحياء خاصة يحتفلون فيها بعيد السبت حتى الساعة الخامسة من الصباح ، أى يفرطون فى الأكل والسكر كالبهائم لسائر الأسبوع . هكذا يبدد هذا الجمهور مدّخراته

التي حصّلها خلال أيام طويلة بعمل شاق وجهد كبير . ان دكاكين الجزارين وحوانيت الأطعمة والمآكل التي تسطع فيها أنوار الغاز تسكب في الشوارع أمواجاً من ضياء . كأن المرء يشهد حفلة رقص أقيمت لهؤلاء الزنوج البيض . الشعب يتزاحم في الحانات ، وفي الشوارع . الناس يأكلون ويشربون حيث يوجدون . محلات شرب البيرة مزدانة كأنها قصور . الحشد سكران ، ولكن سكره خال من الفرح والمرح . انه متجهم ، ثقيل ، صامت صمتاً عجيباً غريباً . ولا ينقطع هذا الصمت المريب الا من حين الى حين ، تقطعه شتائم ولكمات دامية تملأ نفسك حزناً . ان الجميع يسرعون الى السكر حتى يفقدوا الوعي . والنساء لا يتخلفن في هذا عن أزواجهن ، بل يسكرن معهم. والأولاد يركضون ويسبحون بين أهلهم هنا وهناك : في ليلة كهذه الليلة ، في الساعة الثانية من الصباح ، ضللت طريقي ، فضربت في الشوارع زمناً طويلاً بين هذه الجمهرة التي لا يحصى عددها من الشعب المتجهم العابس ، سائلاً عن الطريق بالاشارات تقريباً ، لأنني لا أعرف من اللغة الانجليزية كلمة واحدة . واهتديت الى طريقي ، غير أن الشعور الذي خلّفه في نفسي ما رأيته من مشاهد ظل يلاحقني طوال أيام ثلاثة . الشعب واحد طبعاً في كل مكان ، ولكن اللوحة هنا تبلغ من الفخامة والشدة أنك تشعر أنك كنت في الماضي تتخيل تخيلاً لا أكثر . أنت هنا لا ترى حتى الشعب ، وانما ترى الحال المطرد المنتظم المذعن المشجّع . وأنت تشعر حين تتأمل هؤلاء المنبوذين أنه سيمضي زمن طويل قبل أن تتحقق النبوءة بالنسبة اليهم ، وانه سينقضي زمن طويل أيضاً قبل أن يعطيهم أحد لا أغصان نخيل ولا ثياباً بيضاء ، وأنهم الى أن يحين ذلك الحين سيظلون يبتهلون الى عرش الرب قائلين : « الى متى أيها الرب ؟ »*. هم أنفسهم يعرفون هذا ، فهم بانتظار ذلك ينتقمون من المجتمع بالانتماء الى ملل سرية : كملة

المورمونيين ، أو ملة الارتعاش أو غيرها من ملل الاشراق . اننا نندهش من هذه الغباوة فى أن يصبح المرء ارتعاشياً أو اشراقياً ، ولا يخطر ببالنا أن ذلك انما هو رفض لصيغتنا الاجتماعية ، رفض عنيد لا شعورى ، رفض غريزى يهدف منه صاحبه الى انقاذ نفسه بأى ثمن ، رفض يدخل فيه اشمئزاز منا وكره لنا . ان هذه الملايين من البشر المهجورين المطرودين من وليمة الحياة ، يتزاحمون ويتصادمون فى ظلمات الأقبية التى دفعهم اليها اخوتهم الكبار ، فهم يقرعون بالتلمس باباً ما ، ويبحثون عن مخرج ما ، حتى لا يختنقوا فى الكهف المظلم . هذه محاولة أخيرة يائسة مستميتة فى سبيل أن يكونوا عصبة على حدة ، فى سبيل أن ينفصلوا عن كل شىء ، ولو عن الشكل الانسانى ، شريطة أن يعيشوا على ما يشاء لهم هواهم ، وأن لا يكونوا معا ...

ورأيت فى لندن جمهوراً آخر شبيهاً بهذه الحجوم . هذا ديكور آخر فى نوعه . ان من زار انجلترا قد ذهب الى هايماركت مرة واحدة على الأقل . ان هايماركت هو الحى الذى تتجمع الموسسات فى بعض شوارعه ألوفاً . الشوارع مضاءة بمصابيح غاز ، ليس لدينا فكرة عنها فى بلادنا . وعند كل خطوة تخطوها تطالعك مقاه رائعة تزدان بمرايا كثيرة وأثاث مذهب ، ففى هذه المقاهى يجتمع الناس واليها يلجئون وبها يعتصمون . من الصعب على المرء أن يختلط بهذا الجمهور . ان تركيبه غريب . فيه نساء عجائز ، وفيه صبايا ذوات جمال تقف أمامه مبهوراً . ليس فى العالم كله نموذج امرأة يبلغ مبلغ جمال المرأة الانجليزية . والجمهور المتراص يتجول بصعوبة ومشقة . الأرصفة لا تكفيه فهو يغزو أرض الشارع . جميع هاته النساء يحرقهن ظمأ شديد الى غنيمة ، وهن يحاولن اغراء أول قادم بوقاحة واستهتار لا يصدهن عن ذلك أى خجل . الملابس الفاخرة والزينات الباهرة تجاورها ثياب تكاد تكون أسمالاً رثة

وخرقاً بالية . وهذا التناقض نفسه قائم بين الأعمار . كل شيء مختلط . انك تجد فى هذا الجمهور العجيب رجلاً متشرداً سكران ، كما تجد فيه ثرياً من الأثرياء يحمل لقباً من أرفع الالقاب . وتسمع شتائم ومشاجرات ونداءات ، كما تسمع همساً يدعوك من فتاة ما تزال خجولة . وما أروع الجمال الذى يقع عليه بصرك فى بعض الأحيان ! لكأن هذه الوجوه مستعارة من كتاب صور.! أذكر أننى دخلت الى كازينو . كانت الموسيقى تصدح ، وكان الناس يرقصون . وكان هنالك حشد كبير . الديكور رائع فخم . ولكن الانجليز يظلون عابسين حتى حين يلهون ويتسلون . انهم يرقصون في جد ، بل انهم يرقصون فى مثل التجهم ، فكأنهم يحركون أقدامهم بالخطوات اللازمة قياماً بواجب . لاحظت فى الشرفة فتاة ، فاذا أنا أتجمد مذهولاً . لم أر فى حياتى جمالاً أمثل من هذا الجمال . كانت جالسةً الى مائدة مع فتى يبدو أنه جنتلمان ثرى أكثر مما يبدو أنه واحد من الذين اعتادوا ارتياد الكازينو . أتراه يلتقى بها بعد غياب طويل ؟ اتراهما اتفقا على موعد للقاء فى هذا المكان ؟ كان لا يكلمها الا قليلاً ، وعلى نحو متقطع ، فكأن فى رأس كل منهما مشاغل أخرى وهموماً أخرى . كانت هى أيضاً شديدة الحزن . ان قسماتها دقيقة وملامحها لطيفة . وان نظرتها الرائعة التى فيها شيء من عزة وخيلاء تكشف عن كآبة خفية ، عن تفكير وقلق لا أدرى ما هما ! أغلب الظن أنها مصابة بالسل. لا بد أنها أعلى من هذه الجمهرة من النساء الشقيات: والا فمَّ يمكن أن يعبر الوجه الانسانى؟ ومع ذلك كانت تشرب هنالك خمرة «الجين» ، وقد دفع الفتى ثمن الخمرة . وأخيراً نهض الفتى فصافحها وافترق الاثنان . وخرج الفتى من الكازينو ، أما هى فمضت تغيب فى تلك الجمهرة من النساء الساعيات الى المال ، مضت تغيب بينهن وقد اصطبغ خداها الشاحبان ببقع حمراء من تأثير الشراب .

وفي هايماركت رأيت أمهات يقدن بناتهن ليتاجرن بهن • صبيات في الثانية عشرة من أعمارهن يمسكن ذراعك ويسألنك أن تتبعهن • أذكر أنني رأيت في الجمهور بنيةً عمرها ست سنين في أكثر تقدير ، بنيةً ترتدي أسمالاً ممزقة ، وهي وسخة حافية القدمين شاحبة شحوب المرض محطمة • ان المرء يرى بقعاً زرقاً في جسمها من خلال أسمالها الممزقة• كانت تسير كالغائبة عن نفسها ، دون أن تحث خطاها ، لا يدري الا الله لماذا تسير بين هذا الحشد من الناس • أتراها كانت جائعة ؟ لم يكن ينتبه اليها أحد • ولكن الشيء الذي خطف بصري أكثر من أي شيء آخر هو أن هيئتها كانت تدل على حزن عظيم وكرب شديد ويأس هائل لا يملك المرء حين يراه الا أن يقول انه لأمر شاذ مؤلم أن يقع بصر الانسان على مخلوقة صغيرة أُثقلت منذ الآن بكل هذا العذاب وأُحاقت بها كل هذه اللعنة • كان تهزُّ رأسها الأشعث كأنما لتناقش أحداً ، وتباعد يديها الصغيرتين ، وتحركهما باشارات شتى ثم تصفق احداهما بالأخرى وتشدهما الى صدرها العاري • رجعت الى وراء وأعطيتها قطعة نقدية قدرها ستة بنسات ، فتناولتها ونظرت اليَّ محدقة في عينيَّ بدهشة خائفة ، ثم ولَّت هاربة بخطى سريعة كأنها تخشى أن استرد منها المال • نعم ، ان المرء ليرى هنا أموراً غريبة •

وفي مرة أخرى ، استوقفتني ليلاً بين هذا الجمهور من النساء الضائعات والرجال الفجرة امرأة كانت تسير حثيثة الخطى بين الأمواج المضطربة من البشر • كانت ترتدي ثياباً سوداء ، وعلى رأسها قبعة تكاد تخفي وجهها • لم أستطع كثيراً أن أتفرس فيها وأن أفحصها ، ولست أتذكر الا نظرتها الثابتة • قالت لي ، بلغة فرنسية رديئة ، بضع كلمات لم أفهمها ، ودسَّت في يدي ورقة ، ثم ابتعدت مسرعة • وقفت أمام واجهة مضاءة هي واجهة أحد المقاهي ، ونظرت في الورقة : هي ورقة

صغيرة مربعة طُبعت على احدى زواياها هــذه الجملة : « هل تصــدق هذا ؟ » وطبعت على ظهرها ، باللغة الفرنســية أيضــاً ، هذه العبارة : « أنا البعث والحياة » ... وبضعة أسطرٍ أخرى من ذلك النص . لا بد لكم أن توافقوني على أن في هذا جدةً وغرابة . ولقد ذ كر لي بعد ذلك في شرح هذا الأمر أن هذه هي الدعاية الكاثوليكية تتسلل الى كل مكان مصرةً عنيــدة لا تتعب . وفي الشــارع توزَّع تارةً أوراقٌ من هــذا النوع ، وتارةً منشورات تضم مختارات من الانجيل والتوراة . يوزعونها عليك مجاناً ، يجبرونك على أخذها ، يدسُّونها في يدك دساً . والقائمون بأمر هذه الدعاية كثيرون من الجنسين ، لا يُحصى عــددهم !.. وهذه الدعاية محسوبة بمهارة وبراعة . هذا كاهن كاثوليكي يكتشف بنفســه أسرةً معوزة هي أسرة عامل من العمال ، فاذا هو يتسلل اليها ، فيجد بين أفرادها ، مثلاً ، مريضاً راقداً على حصيرة فوق الأرض الرطبة ، تحيط به امــرأةٌ هي في أكثر الأحيــان ثملة ، وأولادٌ هــدَّهم البرد والجوع. فيأخذ الكاهن الكاثوليكي يطعم الأسرة كلها ويكسوها ويدفئها، ويأخذ يعالج المريض ويشــتري له أدوية ، ثم ينتهي بأن يُدخل أفراد الأسرة في الديانة الكاثوليكية . على أنه يحدث في بعض الأحيان ، بعد شفاء المريض ، أن يُطرد الكاهن بلكمات وشتائم . ولا يتعب الكاهن ، ولا يكل ولا يمل ، وانمــا هو يمضي الى أسرة أخــرى . وقد يطرد ؛ ولكنــه يحتمــل كل شيء ، ولا بد أن يظفر أخــيراً بادخــال أحــد في الكاثوليكيــة . ان الــكاهن الانجليكاني لا يزور الفقــراء . والفقــراء لا يدخلون الكنيسة ، لأنهم لا يملكون ما يدفعون به ثمن أماكنهم فيها.

وارتبــاط الرجل بالمرأة كثيراً ما يكون في صفوف العمــال وفي صفوف المعوزين بوجه عــام ، ارتبــاطاً غير شرعي ، لأن الزواج يكلف نفقات باهظة . بالمناسبة : ان كثيراً من هؤلاء الأزواج يضربون نســاءهم ضرباً

رهيباً ، وقد يصيبونهن من شدة الضرب بعاهات ، والأداة التي يستعملونها في ضربهن هي مجرفة الحطب خاصة • هذه هي أداة الضرب عندهم، الجرائد على الأقل ، في زواية المشاجرات العائلية التي تقع فيها اصابات بالغة ويحدث فيها قتل ، تذكر مجرفة الحطب هذه دائماً • أما أولاد هذه الأسر ، فما ان يشبوا عن الطوق ، حتى يمضوا الى الشارع ، ويختلطوا بالجمهور ، ثم لا يعودون بعد ذلك الى ذويهم قط •

ان الكهنة والأساقفة الانجليكانيين متكبرون وأغنياء • انهم يعيشون حياة ثرية ويسمنون في هدوء كامل ودعة تامة، وهم أناس أدعياء مثقفون جداً ، مقتنعون اقتناعاً عميقاً بعلو مكانتهم وبحقهم في أن يحظوا بأخلاق وادعة مطمئنة ، وبأن يسمنوا ويعيشوا للأغنياء • هذه ديانة الذين يملكون، هي كذلك صراحة بغير قناع • في هذا منطق وصراحة على الأقل • ولأساتذة الدين هؤلاء ، المقتنعين الى حد البلاهة ، تسلية طريفة يزجون بها الوقت : ألا وهي الارساليات أي البعثات الدينية • انهم يجوبون الأرض ، فيعثرون في آخر افريقيا على فرد يدخلونه في دينهم ، وينسون ملايين الهمج في لندن ، لأن هؤلاء لا يملكون ما يدفعونه لهم • ولكن الانجليز الأغنياء ، وعجول الذهب في هذه البلاد بوجه عام ، متدينون الى أقصى حدود التدين على طريقتهم الخاصة ، العابسة المتجهمة • ان الشعراء الانجليز يحبون منذ عهد بعيد أن يتغنوا ببيوت الكهنة في الريف ، تظللها أشجار السنديان والدردار التي عمرها مئات الأعوام ، وأن يمدحوا زوجات القسس وبناتهن الشقراوات ذوات العيون الزرق والجمال الأمثل.

ولكن ما ان ينقض الليل ويرجع النهار حتى ترى ذلك الفكر المتجهم المتكبر يسيطر على المدينة الواسعة سيطرة صارمة من جديد • فلا هو يتذكر ما جرى خلال الليل ، ولا هو يرى ما يجري حوله أثناء النهار • ان « بعل » يحكم ولا يطلب حتى الخضوع ، لأنه واثق منه

سلفاً . ان ثقته بنفسه لا حدود لها . انه بروحه المتكبرة المحتقرة الباردة ، يبذل صدقات منظمة لا لشيء الا أن يتخلص ويرتاح . حتى اذا بذل تلك الصدقات لم يكن في امكان أي شيء أن يزعزع طمأنينته . ان « بعل » لا يختبيء بعيداً عنه ، كما يحدث في باريس مثلاً ، بعض المظاهر الغريبة المريبة المخيفة من الحياة . فلا فقر الجمهور ولا عذابه ولا دمدماته ولا تخبله ، لا شيء من هذا كله يعكر هدوءه أو يوقظ فيه قلقاً . انه يسمح لهذه المظاهر المريبة المشئومة أن توجد الى جانبه ، على يمينه ويساره ، في وضح النهار ، يسمح لها بذلك في ازدراء واحتقار . هو لا يحاول خائفاً كالباريسي ، أن يوهم نفسه ، وأن يعزي نفسه ، وأن يزعم لنفسه أن كل شيء يجري على ما يرام . هو لا يخبيء الفقراء ، كما في باريس ، مخافة أن يعكر الفقراء صفو نومه وأن يقلقوه . الباريسي يحب كالنعامة أن يخفي رأسه في الرمل حتى لا يرى الصيادين الذين يهمون أن يدركوه . في باريس ... ولكنني لست بباريس الآن ... ما هذا الخلط ؟ متى يا رب أعتاد التزام الترتيب والنظام فيما أقول من كلام ؟...

الفصل السادس

بحث في البرجوازي

لماذا يتقلص هنا كل شيء ، لماذا يريد النـاس هنا أن يصغُـروا ، أن يضيقوا ، أن يمَّحوا: «أنا لا وجود لى البتـة ، لقد اختبـأت ، اعبرْ من فضـلك ، لا يبدونْ عليك أنك تلاحظنى ، مرُّوا ، مرُّوا

«ــ ولكن عمَّن تتكلم ؟ من الذى يتقلص ويتضيق ؟

«ــ البورجوازى طبعاً .

«رحماك ! ان البورجوازى ملك ، انه كل شيء ــ «هو الدولـة الثالثة» ، هو كل شيء ــ أفتدعى بعد ذلك أنه يتلقص ويتضيَّق ؟! » .

نعم ، ولـكن لماذا اختبـأ فى الأرض ذلك الاختبـاء تحت حـكم الامبراطور نابوليون ؟ لماذا نسى ، فى مجلس النواب ، ذلك الأسـلوب الرفيع الذى كان يحبـه فى الماضى حبـاً جماً ؟ لماذا لا يريد أن لا يتذكر شيئاً ، لماذا يهزُّ كتفيه حين يذكِّره أحد بالزمان الماضى ؟ لماذا يكشف فكره وتكشف نظرته وأقواله عن القلق فوراً متى تجـرأ آخـرون أن يتمنوا أمامه شيئاً من الأشياء ؟ لماذا يرتعش ، حين يطيش هو نفسه فيعرب عن رغبة ما ، ثم يأخذ بالتقلص ؟ «ما هذا الذى خطر ببالى يا رب ؟» . كذلك هو يتساءل ، ثم يحاول بعدئذ عامداً واعياً ، خلال مدة طويلة ،

أن يكفّر عن سلوكه بحماسته وطاعته ؟ لماذا تدل هيئته على أنه يقول : « اليوم سأتاجر قليلاً في دكاني ، وغداً ، بمعونة الله ، وربما بعد غد اذا وهب لى الله هذه النعمة ... ؟ المهم أن أجمع شيئاً من المال بأقصى سرعة !... ومن بعدى الطوفان » ... لماذا يختفى جميع الفقراء فى مكان ما ويؤكد أن ليس ثمة فقراء ؟ لماذا يكتفى بالأدب الرسمى ؟ لماذا يريد الى هذا الحد أن يقتنع بأن جرائده طاهرة لا يمكن أن يداخلها الفساد ؟ لماذا يقبل أن يعطى الجواسيس مالاً كثيراً ، لماذا لا يجرؤ أن ينبس بحرف عن غزوة المكسيك ؟ لماذا يمثّل جميع عشاق الزوجات فى صورة صعاليك لا يملكون منزلة ولا ينعمون بحماية ، فهم بائعون فى محلات تجارية ، أو هم رسّامون ، وهم أناس مساكين فقراء على كل حال ؟ لماذا يحلم بأن جميع الزوجات « وفيات » الى أقصى حدود الوفاء ، وبأن القِدْرَ ينضج طعامها على لهب الفضيلة ، وبأن تصفيف الشعر هو أحسن مظهر يمكن تخيله ؟ أما عن تصفيف الشعر فذلك أمر مفروغ منه ، متفق عليه ضمناً . لقد تقرر من تلقاء نفسه . ورغم أن الشوارع الكبرى تجتازها فى كل لحظة مركبات مسدلة الستائر ، ورغم أن فى كل مكان مأوى لجميع الملذات الأساسية ، ورغم أن زينات « الحليلات » تكلف حتى فى أحيان كثيرة نفقات تفوق الموارد التى يمكن أن يفترضها الأزواج ، فان ذلك قد صدر فيه قرار موقّع ، فماذا تريدون أكثر من هذا ؟

ولكن لماذا كان الأمر على هذا النحو ؟ كيف لا : لو لم يكن الأمر على هذا النحو فلربما ظُنّ أن المثل الأعلى لم يتحقق ، وأن باريس ليست الفردوس الأرضى تماماً ، وأنه ما يزال هنالك شىء ناقص يتمنى المرء تحققه ، وأن البورجوازى نفسه ليس راضياً كل الرضى اذن عن النظام الذى يدافع عنه ويفرضه على الجميع ، وأن فى المجتمع شقوقاً يجب اصلاحها وصدوعاً يجب رأبها . ذلكم هو السبب فى أن البورجوازى

يضع حجراً على ثقوب حذاءيه حتى لا يلاحظها أحد ، لا سمح الله ! ولكن « الحليلات » يشترين مربيات لذيذة ويلبسن قفازات جميلة ، بحيث أن السيدات الروسيات في بطرسبرج البعيدة يحسدنهنّ حسداً شديداً حتى لتصيبهنّ من ذلك الحسد نوبات عصبية . ان الحليلات هنا يكشفن عن أفخاذهن ويشمرن أثوابهن برشاقة في الشوارع الكبرى. فماذا تريدون أكثر من هـذا لتحقق السـعادة الكاملة ؟ ذلكم هو السبب في أن عنوان رواية كهذا العنوان «الزوجة والزوج وعشيق الزوجة»* أصبح مستحيلاً في الظروف الحالية ، ذلك أن عشاق الزوجات لم يبق لهم وجود ولا يمكن أن يكون لهم وجود . وهبهم وُجدوا في باريس بعـدد حبـات رمل البحر (ولعلهم أكثر من ذلك عدداً) ، فانهم مع ذلك ليس لهم وجود ، ولا يمكن أن يكون لهم وجود ، لأن الفضيلة تسطع في كل مكان ، ويجب أن يسـاهم كل شيء في سـطوع الفضيلة . لو رأيت حديقـة « الباليه رويال » في المساء حتى الساعة الحادية عشرة ، فلا بد أن يرقّ قلبك وأن تشعر بعواطف الحنان الى درجـة ذرف الدموع . انك تشـاهد أزواجاً لا يُحصى عددهم يتنزهون هنالك متأبطين أذرع حليلاتهم . وأولادهم يلعبون من حولهم لعباً لطيفاً . وتوافير الماء تخرّ خريراً جميلاً وتدفقها الرتيب يحـدث في النفس احسـاسات هـادئة وادعة سـاكنة متصلة ، احساسات من نوع الاحساسات التي تستيقظ في نفسك بمدينة هايدلبرج. وليست هذه النافورة بالنافورة الوحيدة التي تخـر مياهها خريراً جميلاً على هذا النحو في باريس: ان بباريس نوافير كثيرة، وفي كل مكان تطالعك هذه المناظر نفسها ، فيبتهج قلبك .

ان الحاجة الى الفضيلة هي في باريس حاجة لا تنطفيء ولا تخمد. والفرنسي الآن جاد رصين ، بل ان عواطف الحنان تغزو قلبه في كثير من الأحيان . لذلك لا أفهم لماذا ما يزال يخشى شـيئاً ما الى هذا الحـد من

الخشبة ، رغم « المجد العسكرى » الذى يزدهر فى فرنسا ويكلف « جاك بونوم » نفقات باهظة الى هذه الدرجة . والباريسى يحب الأعمال. ولكن كأنه ، حين يتاجر فيقشر جلدك فى حانوته ، لا يفعل ذلك فى سبيل المنفعة وحدها ، كما كان يحدث فى الماضى ، وانما هو يفعل ذلك من أجل الفضيلة وباسم ضرورة مقدسة . ان جمع ثروة كبيرة وامتلاك أكبر عدد ممكن من الأشياء قد أصبحا القانون الرئيسى للأخلاق ، أصبحا ديانة الباريسى . لئن صحّ أن الأمر كان على هذا النحو دائماً ، فلقد صار الآن مبدأً مقدساً . كان الناس فى الماضى يحبون المال ويحبون أشياء أخرى غير المال ، بحيث كان يستطيع انسان محروم من الثراء أن يتوقع شيئاً من الاعتبار والاحترام . أما الآن فلا !... فاذا شئت الآن أن يكون لك فى نظر الناس اعتبار ، فلا بد أن تجمع ثروة وأن تكسب أكبر عدد ممكن من الأشياء . والا لم يكن فى وسعك أن تطمع فى أن يحترمك الناس ، بل ولم يكن فى وسعك أن تطمع فى أن تحترم نفسك أيضاً . ان الباريسى يعد نفسه أقل من « لا شىء » حين تكون جيوبه خالية ، وذلك عن وعى دقيق واقتناع عميق . الناس يتسامحون معك تسامحاً مدهشاً شريطة أن تملك مالاً . ليس سقراط الفقير الا رجلاً أبله وثرثاراً مفسداً ، يُحترم على خشبة المسرح فى أكثر تقدير ، لأن البورجوازى ما يزال يحب أن يحترم الفضيلة على خشبة المسرح .

عجيب أمر هذا البورجوازى : ينادى بأن المال هو الفضيلة القصوى وهو واجب الانسانية ، ولكنه يظل مع ذلك يتظاهر بالعواطف النبيلة . ان لجميع الفرنسيين هيئةً نبيلةً نبلاً مدهشاً . فى نفس اللحظة التى يعمد فيها أردأ فرنسى الى أن يبيعك أباه بعشرين فلساً ، مضيفاً الى أبيه شيئاً آخر من تلقاء نفسه ، تراه يظهر لك بمظهر يبلغ من النبل أنك تقف أمامه مكتوف الأيدى . ادخل الى مخزن لتشترى بعض الأشياء :

ان أصغر مستخدم يرهقك بنبله الذى لا يوصف ، وهؤلاء المستخدمون هم الذين يتخذون نموذجاً لممثلينا فى « مسرح ميشيل » ، انك تشعر أمام هذا المستخدم بأنك مذنب فى حقه ، لقد جئت لتشترى أشياء بعشرة فرنكات مثلاً ، فاذا هو يستقبلك كما لو كان يستقبل اللورد دوفونشير، انك تشعر عندئذ بعذاب حاد فى ضميرك ، وتود لو تسارع فتشرح له أنك لست اللورد دوفونشير ، وانما أنت مسافر بسيط جئت تشترى أشياء بعشرة فرنكات ، ولكن الشاب الرائع المظهر ، الذى ينعم بنبل روحى لا يوصف ، والذى تصبح مستعداً أمامه لأن تحتقر نفسك (من شدة نبله !) ، ولكن هذا الشاب يأخذ يعرض لك بضائع قيمتها عشرة آلاف فرنك ، ففى مثل لمح البصر سرعةً ، تراه يراكم البضائع على البسطة لتراها ، فاذا تصورت العناء الذى سيلقاه المسكين فى اعادة طى هذه البضائع بعد انصرافك ، العناء الذى سيلقاه هو جراندیزون أو السنيباد أو مونمورانسى ، بعد انصرافك أنت ، أنت الذى تجرأت رغم عقوق مظهرك وكثرة رذائلك وعيوبك ، أن تزعج من أجل عشرة فرنكات حقيرة ، سيداً عظيماً مثله ، أقول اذا تصورت ما سيلقاه من عناء ، أخذت، رغم ارادتك ، تحتقر نفسك أمام البسطة ، وندمت على ما فعلت ، ولعنت الحظ الذى جعل جيبك خالياً الا من مائة فرنك ، ولكن الشاب يلف لك البضاعة التى اشتريتها بمائتك الحقيرة ، يلفها لفاً كريماً ، ويغفر لك ما أحدثته فى المخزن من اضطراب وازعاج ، فاذا أنت تسارع الى الخروج والغياب عن بصره ، حتى اذا عدتَ الى بيتك ، ذُهلتَ من أنك اشتريت بمائة فرنك بدلاً من عشرة ، كم من مرة ، وأنا أمر بالشوارع الكبرى أو بشارع فيفين ، حيث توجد مخازن كبرى كثيرة لبيع الأقمشة والملابس ، قلت بينى وبين نفسى : « لو أتيح للسيدات الروسيات أن يدخلن هنا وأن ، ... غير أن ما سيعقب ذلك انما يعرفه ناظرو الأملاك

وأصحاب الأطيان في أوريل وتامبوف حق المعرفة • ان الروسى يعشق أن يُظهر في المخازن أن لديه مالاً وفيرا • وهناك في مقابل ذلك برودة كبرودة الانجليزيات اللواتى لا يكفيهن أنهن لا يستحين من أن ينشر لهن آدونيس أو جيُوم تل أصناف البضائع على البسطة ، وأن يقلب لهن المخزن رأساً على عقب ، بل يزدن على ذلك أن يأخذن يساومن في الأسعار ، يا للهول ! ، في سبيل عشرة فرنكات • ولكن جيوم تل لايقف مكتوف الأيدى ، بل يثأر لنفسه ، فاذا هو يبيع الشال الذى سعره ألف وخمسمائة فرنك ، اذا هو يبيعه للسيدة الانجليزية باثنى عشر ألف فرنك ، وهو يتم هذه الصفقة على نحو يجعلها تخرج من المخزن راضية مفتونة •

ومع ذلك فان البورجوازى يحب النبل الهائل حباً شديداً • هو في المسرح يريد أن تعرض عليه شخصيات مبرأة من المنفعة • ان على جوستاف أن يسطع ببريق نبله وحده ، حتى لترى البورجوازى يذرف الدموع عندئذ من فرط الحنان • وليس يمكنه ، بدون هذا النبل ، أن ينام هادىء البال • أما أن يبيع باثنى عشر ألف فرنك ما قيمته ألف وخمسمائة ، فذلك أمر ينبغى أن يعد حتى واجباً : لقد فعله البورجوازى بدافع الفضيلة • ان السرقة فعل سيء مقزز ، ترسل صاحبها الى السجن. والبورجوازى ، المتسامح في شئون كثيرة ، لا يغفر لك أن تسرق ، ولو كان عليك أن تموت جوعاً أنت وأولادك • أما اذا سرقت بدافع الفضيلة ••• آه ••• فان لك عندئذ كل المغفرة • ذلك أنك تريد اذن أن « تجنى ثروة » وأن تحصل على أشياء كثيرة ،أى أنك تقوم بالواجب الذى تمليه الطبيعة والانسانية • هذا هو السبب في أن القانون يميّز تمييزاً واضحاً كل الوضوح بين السرقة التى تدفع اليها دوافع دنيئة ، كأن تسرق في سبيل الحصول على قطعة خبز ، وبين السرقة التى تنشأ

عن فضيلة عليا ـ فهذه السرقة الأخيرة محمية ، والناس يشجعونها ، ولها نظام راسخ وطيد متين .

وأخيراً ـ هأنا ذا أعود الى أسئلتي ـ لماذا يبدو على البورجوازي أنه ما يزال يخاف من شيء ما ، كأنه لا يشعر براحة ؟ من ذا الذي لعله يزعجه ويصدّع رأسه ؟ أهم الذين ينمقون الكلام ويدبجون العبارات ؟ ألا انه ليرسل هؤلاء جميعاً الى الشيطان بركلة من قدمه ! هل حجج العقل المحض هي التي تصدّع رأسه ؟ ألا أن العقل قد انهزم أمام الواقع . ثم ان أعقل العقلاء وأعلم العلماء قد أخذوا هم أنفسهم يقولون ان العقل المحض لا وجود له ، وان المنطق المجرد لا ينطبق على الانسانية ، وان هناك عقلاً لزيد وعقلاً لعمرو وعقلاً لخالد (جان ، بير ، جوستاف) ، أما العقل المحض فلم يوجد في يوم من الأيام ، وانه اختراع خطأ من اختراعات القرن الثامن عشر . من ذا يخافون ؟ أيخافون العمال ؟ ألا ان العمال أيضاً هم جميعاً مالكون ، في قرارة أنفسهم : ان مثلهم الأعلى الوحيد هو أن يصبحوا مالكين ، هو أن يجمعوا أكبر مقدار ممكن . تلكم هي طبيعتهم ، والطبيعة لا تُكتسب بالمجان ، وانما هي ثمرة تطور وتربية على مدى قرون . ان أخلاق الأمة لا تتحول بسهولة . ان التخلص من العادات الموغلة في القدم ، الداخلة في اللحم ، المخالطة للدم ، أمر صعب . أيخافون اذن من المزارعين ؟ ولكن المزارعين الفرنسيين مالكون كبار . انهم أثقل المالكين ، أي هم المثل الأعلى ، هم أكمل وأحسن مثل أعلى يمكن تخيله . أهم يخافون من الشيوعيين ؟ من الاشتراكيين أخيراً ؟ ولكن هذا الحزب قد أصيب في زمانه باخفاق كبير ، والبورجوازي يحتقره في قرارة نفسه . هو يحتقره ، ولكنه يخشاه في الوقت نفسه . نعم ، ذلك هو الحزب الذي يخشاه البورجوازي حتى الآن . ولكن ما الذي يخشاه منه في حقيقة الأمر ؟ ألم يتنبأ القس سييس ، في كتيبه الشهير ،

بأن البورجوازى سوف يصبح كل شيء ؟ « ما الحالة الثالثة ؟ لا شيء . ماذا يجب أن تكون ؟ كل شيء » . ولقد جاءت الأحداث مصدِّقة لما تنبأ به . ان أقواله هي ، بين جميع الأقوال التى قيلت فى ذلك العصر ، الأقوال الوحيدة التى تحققت . وهي الأقوال الوحيدة التى بقيت .

ولكن البورجوازى ما يزال يشعر بشكوك ، رغم أن كل ما قيل بعد سييس قد أجهض وزال كفقاعات صابون . لقد نودى بعدد مثلاً بهذا الشعار : الحرية ، المساواة ، الأخوة . عظيم ! فما هي الحرية المقصودة ؟ ان الحرية تساوى فى نظر جميع الناس أن يفعلوا كل ما يحلو لهم ، فى حدود القانون . متى يستطيع المرء أن يفعل كل ما يحلو له ؟ حين يملك مليوناً . هل تهب الحرية مليوناً لجميع الناس ؟ لا ، طبعاً ! ما انسان بدون مليون ؟ ان الانسان الذى لا يملك مليوناً ليس ذلك الذى يفعل كل ما يحلو له ، وانما هو الانسان الذى يُفعل به كل ما يُراد . ماذا ينشأ عن ذلك ؟ ينشأ عن ذلك أنه ، عدا الحرية ، هناك المساواة ، أو قل لمزيد من الدقة والوضوح : هناك المساواة أمام القانون . وكل ما نستطيع أن نقوله عن هذه المساواة أمام القانون هو أن كل فرنسى ، على النحو الذى تُطبَّق عليه المساواة الآن ، يستطيع بل يجب عليه أن يعدها اهانةً شخصية . ماذا بقى من الشعار ؟ الأخوة . ولكن هذا البند هو أخص البنود ، وعلينا أن نعترف بأنه ما يزال يشكّل ، فى الغرب ، حجر العثرة الكبرى .

ان الغربى يفهم الأخوة على أنها قوة كبيرة محركة للانسانية ، دون أن يخطر بباله أنه ليس بالمستطاع أخذها من أى مكان اذا هى لم توجد فى الواقع . فما العمل ؟ يجب خلق الأخوة مهما كلف الأمر .

ولكن خلق الاخوة مستحيل ، فالاخوة تخلق نفسها بنفسها ، وتوجد فى الطبيعة ، ويتم الحصول عليها فى الطبيعة . ونحن نرى فى الطبيعه الفرنسيه ، وفى الطبيعة الغربيه على وجه العموم ، ان الاخوة انما يوجد فى مكانها المبدأ الفردى ، مبدا تعزيز المحافظة على الذات ، مبدأ النشاط الشخصى ، مبدأ تقرير الفرد مصيره فى « ذاته » الخاصة ، مبدأ تعارض هذه الذات مع الطبيعة كلها والمجتمع كله من حيث هى عنصر مستقل متميز يساوى تماماً ويعادل كلّ ما يوجد فى خارجه . ولا يمكن أن تنشأ الأخوة عن تعارض كهذا التعارض . لماذا ؟ لأنه فى الأخوة ، فى الأخوة الحقة ، ليست الشخصية المتميزة ، ليست « الذات » هى التى يجب أن تفرض حقها فى المساواة وفى التعادل على كل « ما عداها » ، بل ان « ما عداها » هذا هو الذى ينبغى له أن يجيء من تلقاء نفسه الى هذه الشخصية المطالبة بحق ، أن يجيء الى هذه الذات المتميزة ، فيعترف لها ، دون أن تطلب هى ذلك ، بأنها مساوية ومعادلة فى الحقوق له ، أى لكل « ما عداها » مما هو موجود . وأكثر من ذلك أن هذه الشخصية التى تثور وتطالب ينبغى لها قبل كل شيء أن تضحى بكل ذاتها للمجتمع . لا يقتصر واجبها على أن لا تطالب بحقها ، وانما ينبغى لها أيضاً أن تتنازل عن هذا الحق للمجتمع بدون أى شرط . ولكن الشخصية الغربية لم تألف هذه الطريقة فى التصرف : انها تطالب فى كثير من القوة والصرامة ، تطالب بحقوقها ، تطالب بالاقتسام ــ وليس يؤدى هذا الى الأخوة . صحيح أن الانبعاث الذى يغير النفوس ممكن. ولكن هذا الانبعاث يتطلب ألوف السنين ، لأن هذه المعانى لا بد أن تنفذ الى اللحم والدم قبل أن تصبح واقعاً . لعلكم قائلون لى : فهل يجب على الانسان أن يكون مجرداً من الشخصية اذن حتى يكون سعيداً ؟ أهذا هو الخلاص ؟ ولكننى أقول : بالعكس ، فليس المطلوب أن يتجرد

الانسان من الشخصية ، وانما المطلوب نقيض هذا ، المطلوب أن يصبح شخصية ، وأن يصبح شخصية الى درجة من الشدة تفوق الدرجة التى وصل اليها تكون الشخصية فى الغرب الآن. ألا فافهموا عنى حق الفهم : ان التضحية الارادية ، التضحية الواعية وعياً تاماً ، لا المفروضة فرضاً ، هذه التضحية التى يضحى الانسان فيها بوجوده كله فى سبيل المجموع، هى التى تدل فى رأيى على نحو الشخصيـــة الى الحد الأقصى ، وعلى قوة الشخصية قوةً عليا ، وعلى الدرجة القصوى من تحكم الانسان بنفســه وحرية ارادته . لأن يضحى المرء بحياته طوعاً فى سبيل جميع الناس ، لأن يصعد التل الذى نُصب عليه الصليب ، لأن يعتلى كومة الحطب التى سيُحرق عليها ، فذلك لا يكون ممكناً الا كانت الشخصية قد نمت الى أقصى درجة من النمو . ان الشخصية النامية نمواً قوياً ، المقتنعة اقتناعاً كاملاً بحقها فى الحياة ، الشخصية التى لا تخاف على نفســها من شىء ، لا يمكن أن تنذر ذاتها لشىء غير أن تهب نفسها للجميع ، بغية أن يكون سائر الناس شخصيات مستقلة سعيدة مثلها . ذلكم هو قانون الطبيعة . ان الانسان الســوىّ محمــول على هــذا مدفوع اليه . ومع ذلك فرب شعرة ضئيلة ، رب شعرة ضئيلة جداً تخرّب الآلة اذا هى اندست فيها. سأشرح ما أريد أن أقوله : انه لمؤذٍ جداً فى هذه المناســبة أن يجــرى المرء أقل حساب فى سبيل الحصـــول على منفعة شخصية . مثال : هبنى أنذر نفسى للمجتمع وأضحى بنفسى فى سبيل المجتمع . ان هذه التضحية يجب أن تكون كاملة ، وأن تكون حاســمة ، يجب أن لا يخالطها أى تفكير فى فائدة ، يجب أن لا أقدّر أن المجتمع سيكافئنى على ذلك بأن يضع نفسه تحت تصرفى . يجب على المرء أن يضحى بنفسه تضحية تامة دون أى أمل فى ثواب ، ودون أن يدفع أحد فداءً . فكيف السبيل الى هذا ؟ ان ذلك يذكر بقصة الدب الأبيض الذى يحاول المرء أن لا يتذكره

قط . فلو حاولتم ، على سبيل التجربة ، نسيان هذا الحيوان لرأيتم أن الملعون ما ينفك يوافي ذاكرتكم في كل لحظة . فماذا نفعل اذن ؟ ان من المستحيل أن نفعل هذا الأمر ، وانما « ينبغي لهذا الأمر أن يُفعل من تلقاء ذاته ، وأن يكون موجوداً في الطبيعة » ، منقوشاً نقشاً لاشعورياً في نفس أمة بأسرها ، أي يجب باختصار أن يوجد مبدأ أخوة ، أن يوجد مبدأ حب : يجب أن نحب . يجب أن نصبو بالغريزة والفطرة الى الأخوة ، والى المشاركة الجماعية ، والى الوفاق ، رغم الآلام التي عانتها الأمة قروناً طويلة ، ورغم الغلظة الهمجية المتأصلة ، والجهل الشديد الراسخ ، رغم العبودية القديمة والغزوات الأجنبية . وبعبارة واحدة : يجب أن تكون الحاجة الى الصلة الأخوية فطرية في الانسان ، أو مكتسبة منذ الأزل . فما عسى تكون هذه الأخوة اذا نحن أردنا أن نترجمها الى لغة معقولة واعية ؟ انما تكون هذه الأخوة في أن تأتي كلُّ شخصية متميزة ، أن تأتي الى المجتمع بدون أي اكراه وبدون أية منفعة لها ، فتقول لهذا المجتمع : « ان الاتحاد وحده يصنع قوتنا ، فخذني كلي اذا كنت في حاجة اليَّ ، ولا تعبأ بي حين تضع قوانينك ، وليس عليك أن تداريني ، فانني أتنازل لك عن جميع حقوقي وأضع نفسي تحت تصرفك . ان السعادة القصوى عندي هي أن أضحي لك بكل شيء ، دون أن يلحقك من ذلك أي ضرر . سوف أفني نفسي ، وأذوب رابطة الجأش ، شريطة أن تزدهر أنت وأن تبقى » ... غير أن على المجتمع أن يقول لها من جهته : « انك تعطينا كثيراً . وما تعطينا اياه لا يحق لنا أن نرفضه ، لأنك تقولين أنت نفسك ان في هذا سعادتك ، ولكن ما حيلتنا اذا كنا من جهتنا نعذب أنفسنا في سبيل سعادتك . خذي منا كل شيء أيضاً . وبكل ما نملك من قوة سوف نحاول دائماً أن تملكي الحد الأقصى من الحرية الشخصية ومن الاستقلال . لم يبق هناك أعداء

تخافين منهم الآن ، لا البشر ولا الطبيعة • نحن جميعاً ندافع عنك ، نحن جميعاً نكفل لك الأمن والسلامة ، سنجهد فى سبيلك بدون انقطاع ، لأننا جميعاً اخوة ؟ نحن جميعاً اخوتك ، نحن كثيرون وأقوياء • كونى هادئة كل الهدوء واثقة كل الثقة ؟ لا تخشى شيئاً ، واعتمدى علينا » •

وبعد ذلك طبعاً لا يكون هنالك شىء يجب اقتسامه ، وانما يُقتسم كل شىء من تلقاء نفسه • « أحبوا بعضكم بعضاً • وجميع هذه الأشياء ستوهب لكم زيادة » * •

يا لها من مثالية فى الواقع يا أصدقائى ! ان كل شىء مبنى على العاطفة ، على الطبيعة ، لا على العقل • وهذا يُعدُّ حتى نوعاً من المذلة للعقل • فما رأيكم ؟ أهى مثالية أم لا ؟

واليكم ضربة أخرى : ما الذى يستطيع أن يفعله الاشتراكى اذا لم يوجد لدى الغربى مبدأ الأخوة ، وانما وُجد لديه المبدأ الفردى ، الشخصى ، الذى ينعزل بغير انقطاع ، ويطالب بحقوقه مشهراً سيفه ؟ ان الاشتراكى اذ يرى أن الأخوة غير موجودة ، يأخذ ينادى بها ، ويدعو اليها • فهو لفقدان الأخوة يريد أن يخلق الأخوة ، أن يبعث الأخوة • فمن أجل أن تطبخ يخنة بلحم الأرنب ، لا بد لنا أولاً من أرنب • ولكن الأرنب غير موجود ، أعنى أنه لا وجود لطبيعة مؤهلة للأخوة ، لا وجود لطبيعة تؤمن بالأخوة وترنو اليها من تلقاء نفسها ! حتى اذا يئس الاشتراكى من الأمر أخذ يبنى ويعرّف المجتمع المقبل ، حاسباً بالوزن والكيل • وها هو ذا يعتمد على مبدأ المنفعة ، فيشرح ويعلّم ويعرض المنافع التى تتحقق فى ذلك المجتمع ، والفائدة التى يجنيها كل فرد • انه يوضح دور وتطلعات كل شخص • انه يحصى الخيرات الأرضية سلفاً ، ويحسب مقدار استحقاق كل واحد لها ، ومقدار ما يجب على كل واحد أن يضحى به منها طوعاً فى مقابل ذلك • فاى أخوة يمكن

أن توجد هنا اذا كنا نقتسم هذه الخيرات منذ البداية ونحدد ما يستحقه كلُ واحد • ثم لقد وُضعت الصيغة : « كل واحد للجميع ، والجميع لكل واحد » * • لا يمكن أن يتصور المرء صيغة أفضل من هذه الصيغة طبعاً ، لا سيما وأنها مستمدة من كتاب يعرفه الجميع • ولكن هذا نفر من الناس قد أخذوا بتطبيق هذه الصيغة ، فما هي الا ستة أشهر حتى عمد الاخوة الى احالة مؤسس المجتمع ، كابيه ، الى المحاكمة • ولقد حاول أنصار مذهب فورييه ، فيما يقال ، حاولوا بآخر ما بقي معهم ، وهو مبلغ تسعمائة ألف فرنك ، أن ينشئوا جماعة اشتراكية • ولم تؤد المحاولة الى أية نتيجة • صحيح أنه أمر جميل أخاذ أن يعيش الناس على أساس من العقل ان لم يكن على أساس من الأخوة • بتعبير آخر : انه لشيء حسن أن يحميك الجميع وأن لا يطالبوك الا بالعمل والوفاق • ولكن هنا ينبجس لغز من جديد : يبدو أنهم يهبون لانسان جميع الضمانات الممكنة ، فيتعهدون باطعامه وبتأمين عمل له ، طالبين في مقابل ذلك ، من أجل المصلحة المشتركة والخير العام ، أن يتنازل عن جزء يسير من حريته الشخصية • فماذا لو لم يشأ هذا الانسان أن يعيش في هذه الشروط ؟ ان افتقاده حتى هذا الجزء اليسير من حريته يشق على نفسه• هو يتخيل ، لغبائه ، أن هذا حبس ، وأن من الأفضل له أن يعيش على ما يريد له هواه حراً كل الحرية • ولكنه في الحرية يُضرب ، ولا يجد عملاً ، ويموت جوعاً ، ولا ينعم بأي استقلال • ومع ذلك يظن هذا الانسان العجيب أن الحرية أفضل • والاشتراكي لا يملك عندئذ الا أن يستاء ، وأن يعده انساناً أبله ، شخصاً متخلف العقل لايدرك مصلحته الشخصية نفسها • وهو يضرب له عندئذ مثالاً بالنملة المحرومة من النطق ، يضرب له مثالاً بنملة هزيلة ، قائلاً له انها أذكى منه ، لأن كل

شيء في قرية النمل منظم ، فأفراد النمل جميعاً شبعة سعيدة ، وكل فرد من أفراد النمل يعرف عمله ، وما أوسع الشقة بين الانسان وقرية النمل !

وبتعبير آخر : اذا كانت الاشتراكية ممكنة ، فليس ذلك في فرنسا حتماً .

وعندئذ تنادى الاشتراكية بالصيغة التالية ، كآخر مورد تلجأ اليه : « اما الحرية والمساواة والأخوة ، واما الموت » . ولا جدوى من المناقشة في هذه الحالة . وينتصر البورجوازي انتصاراً نهائياً .

ولكن لئن انتصر البورجوازي ، فان صيغة سييس لم تتحقق اذن تحققاً حرفياً دقيقاً . سييس يقول : ان البورجوازي كل شيء . فلماذا يشعر البورجوازي اذن بانزعاج ، لماذا يتقلص ، ماذا يخشى ؟ الجميع تراجعوا ، الجميع انهزموا أمامه . قبل ذلك ، في عهد لويس فيليب مثلاً ، لم يكن البورجوازي مرتبكاً هذا الارتباك ، وجلاً هذا الوجل ، مع أنه كان يحكم منذ ذلك الحين . ولكنه كان ما يزال يكافح ويناضل ، وكان يحس أن له أعداء ، أعداء انتصر عليهم منذ أيام حزيران (يونيه)* بالبندقية والحربة . حتى اذا انتهت المعركة لاحظ البورجوازي أنه وحده على الأرض ، وأنه ليس هناك من هو أحسن منه ، وأنه المثل الأعلى ، وأنه أصبح بعد الآن في غير حاجة الى أن يؤكد هذه الحقيقة التي لا سبيل الى جحودها ، وأن كل ما بقي عليه أن يعمله هو أن يصطنع وضعاً مهيباً وجلالاً هادئاً أمام العالم بأجمعه في مظهر الجمال الأقصى ، وجميع أنواع الكمال . هذا موقف مربك ، شئتم أم لم تشاءوا . ولقد انقذه نابوليون الثالث من الارتباك والحرج . جاء نابوليون الثالث كالهابط من

السماء ان صح التعبير ، جاء مخرجاً وحيدا من المصاعب ، جاء امكانية وحيدة حينـذاك • وعندئذ ازدهر حـال البورجوازى ولكنه يدفع ثمن هذا الازدهار وهذا الرخاء غالياً ، فهو يخشى كل شىء ، لا لسبب الا لأنه وصل الى كل شىء • فمتى وصل المرء الى كل شىء ، أصبح يخـاف أن يفقد كل شىء • يترتب على هذا يا أصدقائى أن المرء تزداد خشيته بمقدار ما يزداد ازدهاره ورخاؤه •

لا تضحكوا ، أرجوكم • فاننى آسال أخيرا هذا السؤال : ما هو البورجوازى الآن ؟

الفصل السابع

تتمة ما تقدم

ولماذا يوجد « بين البورجوازيين نفوس كنفوس العبيد بهذا القدر الكبير » ، وذلك رغم مظهرهم الذى يبلغ ذلك المبلغ كله من النبالة ؟ رحماكم ! لا تتهمونى ، لا تصرخوا قائلين ان هذا الكلام غلو ومبالغة ، وانه نميمة وتجن ، وانه ثمرة الغيرة والحسد . الغيرة من أى شىء ، والحسد على أى شىء ؟ ان بين البورجوازيين خدماً كثيرين ، هذا كل ما فى الأمر ، أقوله ببساطة . ان العبودية تجتاح طبيعة البورجوازى مزيداً من الاجتياح وتتحول الى فضيلة من الفضائل يوماً بعد يوم . وتلكم نتيجة طبيعية وحتمية لما صارت اليه الأحوال الآن . والطبيعة ، الطبيعة خاصة ، تساهم فى هذا . لن أمضى الى حد الادعاء ، مثلاً ، أن التجسس الفطرى يسيطر لدى البورجوازى . أى خليل نبيل القلب نبلاً مثالياً لا يسارع الى أن يبيع رسائل صديقته وأن يشى بها لزوجها فى سبيل عشرة آلاف فرنك ، اللهم الا أن يكون قد فرغ من جمع ثروة ؟ ربما كنت أبالغ ، ولكن ربما كان قولى يستند الى وقائع محددة معينة . والفرنسى يعشق أن يكون مرموقاً فى نظر السلطة الحاكمة ، وأن يبرهن أمامها على عبوديته ، ولو على نحو مبرأ من المنفعة ، ولو دون أن ينتظر مكافأة مباشرة ، بل مكافأة تحسب له ديناً ، وتقيد له

فى حسابه الجـارى ان صح التعبير . تذكروا جميع أولئك السـاعين الى المناصب مثلاً عند حدوث تلك التغيرات الكثيرة فى أنظمة الحكم بفرنساء تذكروا مكائدهم ومؤامراتهم ، تذكروا مجاملاتهم المفرطة التى لا يرون داعياً حتى الى اخفائها ، تذكروا قصيدةً للشاعر باربييه فى هذا الموضوع.

فى ذات يوم تناولت وأنا فى المقهى جريدة اليوم الثـالث من تموز (يوليو) . فوقع بصرى على رسالةٍ من مدينـة فيشي . كان الامبراطور يقيم هنالك أيامئذ ، وكذلك البلاطُ طبعاً . وجـرت جولات على ظهور الجياد ونزهات . فهذا هو مراسل الجريدة يصف ذلك كله ، فيبدأ كلامه بما يلى :

« عندنا هنا كوكبة من ألمع الفرسان . ولا شك أنكم حزرتم على الفور من هو ألمع هؤلاء الفرسان . ان صاحب الجلالة يتروَّض كل يوم بصحبة حاشيته ، الخ ، الخ ... » .

ان المرء يفهم أن يكون المراسل متحمساً للمزايا اللامعة التى يمتاز بها امبراطوره . ففى وسعه أن يطرى فكره وعقله وسداد آرائه وكمال صفاته ،الخ . ومن المســتحيل على المرء ازاء هذه الحماســة أن يصمه بالرياء . فلو وصـمته بالرياء لكان فى وسـعه أن يجيبك قائلا : « هذا اقتناعى » ، كما يفعل بعض صحفيينا المـاصرين . لاحظوا جيـداً أنه مكفول مأمون : ان عنده ما يرد به عليكم ليسكتكم ويفحمكم . وفى طليعة ذلك حرية الاعتقاد والرأى ، وهى الحرية الأسـاسية . ولكن ما الذى يمـكن أن يجيبكم به فى هذه الحـالة ؟ انه لا يقيم أى وزن لقـوانين الطبيعة ، انه يدوس بقدمه كل معقولية ، وذلك لهدف يريده . ولكن هل يجعله هذا الهدف على حق ؟ ان احداً لن يصدقه ، والفارس نفسه لن يقرأ هذه الورقة حتماً ، وهبْه قرأها فهل المراسل الذى كتب هذه الرسالة الصحفية ، وهل الجريدة التى نشرتها ، وهل مدير هذه الجريدة ،

هل هؤلاء جميعاً يمكن أن يبلغوا من الغباء مبلغاً لا يدركون معه أن العاهل ليس في حاجة كبيرة الى أن يُشتهر بأنه أول فارس في فرنسا ، ولا يدركون معه أن العاهل يقف على عتبة الشيخوخة ، وأنه لا يعوّل كثيراً على تلك الشهرة ، ولن يصدّق حتماً أنه أول فارس في فرنسا ولو أكدوا له ذلك ، لأنه رجل ذكي جداً فيما يقال ؟ ولكن لا ... ان هناك حساباً آخر . صحيح أن ما كتبه المراسل غير معقول ، وأنه سخف مضحك ، وأن الامبراطور لن يولي هذه المقالة الصغيرة الا ابتسامة فيها ازدراء . ولكن ، في مقابل ذلك ، سيكون تحت بصره مثال للخضوع الأعمى والعبودية التي ليس لها حدود . هي عبودية سخيفة غير معقولة ، صحيح ، ولكنها عبودية ، وذلك هو الشيء الأساسي .

فاحكموا الآن : لو لم يكن هذا مطابقاً لروح الأمة ، لو كان مثل هذا التملق لا يُعدُّ ممكناً وعادياً ومن طبيعة الأشياء تماماً ، أفكان يمكن أن تُنشر تلك الرسالة ؟ في أي بلد آخر من بلاد العالم تسف الصحافة الى هذا الدرك ، وتبرهن على مثل هذا الصغار ؟ ولئن قلت : روح الأمة ، فلأن هذه الميول ليست ميول جريدة واحدة ، بل هي ميول أكثر الجرائد ، الا اثنتين أو ثلاثاً تحتفظ ببقية استقلال .

وُجدت في ذات يوم صيفاً على مائدة . كان ذلك في ايطاليا والحق يقال ، غير أن المائدة ضمت عدداً كبيراً من الفرنسيين . وكان الحديث يجري على غاريبالدي . كان جميع الناس يتحدثون عن غاريبالدي في ذلك الأوان . كان ذلك قبل حدوث ما حدث في آسبرومونت بخمسة عشر يوماً * . وكان الحاضرون يتكلمون بألغاز طبعاً ، فبعضهم يصمتون ولا يريدون أن يبدوا آراءهم ، وبعضهم يهزون رءوسهم . وكانوا على وجه العموم يرون أن غاريبالدي قد تورط في مغامرة محفوفة بالمخاطر ، بل وفي مغامرة طائشة تنافي العقل والحكمة . ومع ذلك كانوا يعبرون

عن هذا الرأى بتحفظات ، لان غاريبالدى رجل يبلغ من علو الشأن أن ما يعده الناس تهورا يبدو فيه هو عقلاً . وشيئاً فشيئاً انتقل الحديث الى الكلام على شخصية غاريبالدى . فأخذوا يحصون مزاياه . فكان الحكم أميل الى اطراء هذا البطل الايطالى .

وها هو ذا رجل فرنسى فى نحو الثلاثين من عمره ، مهيب المنظر لطيف المظهر منطبع الهيئة بتلك النبالة الخارقة التى تفجؤك لدى الفرنسيين الى حد الوقاحة ، ها هو ذا يقول بصوت عال :

ـ هنالك شىء يدهشنى فى غاريبالدى . نعم ، أعترف بذلك ، هنالك واقعة أذهلتنى فيه .

التفت جميع الحضور طبعاً نحو المتحدث باهتمام مستطلعين .

لا بد للصفة الجديدة المكتشفة فى غاريبالدى أن تثير اهتمام الجميع .

وتابع الفرنسى كلامه يقول :

ـ سنة ١٨٦٠ ، تمتع غاريبالدى خلال بعض الوقت فى مدينة نابولى بسلطة غير محدودة ولا رقابة عليها * . فكان فى يده مبلغ عشرين مليوناً من أموال الدولة ! ولم يكن عليه أن يقدم كشف حساب لأحد ! كان يملك أن يأخذ هذا المال لنفسه ، وأن يتصرف فيه على ما يشاء له هواه ، دون أن يخشى أية مطالبة . فبدلاً من أن يأخذ شيئاً لنفسه ردّ المال كله الى الحكومة حتى آخر قرش . ذلك أمر لا يكاد يصدقه العقل !

وكانت عينا المتحدث تسطعان سطوعاً قوياً أثناء كلامه عن هذه العشرين مليوناً .

من الممكن طبعاً أن يقص المرء كل مايشاء أن يقصه عن غاريبالدى. أما أن يوازن بينه وبين أولئك الناس الذين يسطون على أموال الدولة، فذلك أمر لا يستطيعه الا فرنسى . وما أكبر السذاجة والبساطة اللتين

ظهرتا عليه وهو ينطق بهذا الكلام ! ان المرء يغفر للسذاجة كل شيء طبعاً ، يغفر لها حتى فقدان الاحساس الحقيقي بالشرف والامانة . ولكنني لم أملك وأنا أتأمل الشخص الذي يعبث هذا العبث ويمزح هذا المزاح وهو يتذكر مبلغ العشرين مليوناً ، الا أن أقول بيني وبين نفسي :

« هيه ، هيه ، أيها الرجل الشهم الشجاع ! ماذا لو كنت ممسكاً بالدفة عندئذ في مكان غاريبالدي ! ... » .

ستقولون لي انني ظالم مرةً أخرى ، فهذه حالات خاصة ، وأمثلة فردية ؛ وستقولون لي ان في بلادنا حالات كهذه الحالات ، وليس من حقي أن أعمِّم هذا التعميم . أنا لا أتكلم عن جميع الفرنسيين طبعاً . فالنبالة التي لا توصف موجودة في كل مكان . ولعلنا رأينا في بلادنا ما هو شر من ذلك أيضاً . ولكن لماذا يجعلون من هذا فضيلة ؟ هل تريدون أن أفصح لكم عن رأيي ؟ قد يكون أحد الناس نذلاً دون أن يفقد الاحساس بالشرف . وهناك طائفة كبيرة من ناس شرفاء ، لكنهم في مقابل ذلك فقدوا الاحساس بالشرف ، فهم لذلك يرتكبون أعمالاً دنيئة ، دون أن يعلموا انهم يتصرفون بدافع الفضيلة . فالفئة الأولى أفسد من الثانية طبعاً ، ولكن الفئة الثانية أجدر بالاحتقار شئتم أم أبيتم. ان مثل هذا التعليم للفضائل هو عرض من أعراض المرض في حياة أمة . أما ما قلتموه عن الحالات الخاصة فلست أريد أن أناقشكم فيه . هل تتألف الأمة الا من حالات خاصة ؟ أصحيح هذا أم غير صحيح ؟

لا بل اليكم رأيي . لعلني قد أخطأت أيضاً وجافيت الصواب حين زعمت أن البورجوازي يتقلص ، وأنه ما يزال يخشى شيئاً ما . صحيح أنه يغضب وأنه يشعر بمخاوف . ولكن اذا وضعنا قائمة بالأمور وجدنا أن البورجوازي يزدهر ازدهاراً كاملاً . ورغم أنه يضل هو نفسه فيكرر قائلاً لنفسه في كل لحظة ان كل شيء يجري على ما يرام ،

فان ذلك لا يفسد ما يبدو عليه فى الظاهر من ثقة . أكثر من ذلك : انه حتى فى قرارة ضميره واثق من نفسه الى أبعد حدود الثقة حين يهتاج.

كيف يجتمع هذا كله فى نفسه ؟ كيف يتصالح هذا كله فى نفسه؟ ذلك سؤال يلقيه الآن حقاً . ولكن هذا هو الواقع . هكذا هى الأمور. ليس البورجوازى على وجه العموم بالغبى ، فكره قصير جداً ، كأنه جزء من فكر . انه يملك مئونة ضخمة من الأفكار الجاهزة ، كمئونة الحطب التى ندخرها للشتاء البارد ؛ وهو يعول جاداً على أن يعيش بها ألف سنة اذا لزم الأمر . ولكن ماذا أقول ؟ ان البورجوازى قلّما يتكلم عن ألف عام ، اللهم الا حين يستسلم للفصاحة والبلاغة فى أكثر تقدير . والقول المأثور « من بعدى الطوفان » مطبَّق فى أحيان أكثر .

وما أقل اكتراثه بكل شىء ، وما أشد اهتمامه بالترهات الباطلة ! ضمنى مجتمع بباريس فى منزل كان يرتاده عندئذ عدد كبير من الناس. كان يبدو على الجميع أنهم يخشون أن يعالجوا أى موضوع يخرج عن المألوف ، وأن يتحدثوا ، بدلاً من حديثهم فى الترهات ، أن يتحدثوا فى مسائل عامة لها شأن اجتماعى . فى رأيى أن الخوف من الجواسيس لم يكن له دخل فى موقفهم هذا . كل ما فى الأمر أنهم جميعاً قد فقدوا القدرة على أن يفكروا وأن يتكلموا فى أمور جدية . وكان هناك من جهة أخرى أناس اهتموا كثيراً بانطباعاتى عن باريس ، فأخذوا يستطلعون مدى اعجابى بها ، ودهشتى منها ، وانسحاقى تحت وطأتها ، وانعدامى بتأثير روعتها . ان الفرنسى ما يزال يعتقد أنه قادر روحياً على أن يسحق وعلى أن يُعدم . ذلك أيضاً عرض من أعراض مرض يبعث على الضحك . وانى لأتذكر على وجه الخصوص شيخاً قصيراً رائعاً قد محضته عاطفة صادقة . كان ينظر الىَّ محدقاً ويسألنى عن رأيى فى باريس ، فيشعر بحزن حين لا يرى أن حماستى لباريس

شديدة . كان وجهه الطبيب يعبّر عندئذ عن ألم حقيقى ، لست أبالغ .
أوه ! عزيزى م ... ر ! انك لن تستطيع فى يوم من الأيام أن تجرد أىّ
فرنسى ، أعنى أىّ باريسى (ذلك أن جميع الفرنسيين باريسيون فى
حقيقة الأمر) ، من فكرة أنه أول انسان على وجه الكرة الأرضية .
وهو ، من جهة أخرى ، لا يعرف من الكرة الأرضية الا قليلاً جداً
باستثناء باريس ، ولا يحرص على أن يعرفها أىّ حرص .

على ان الخاصة التى تميّز الفرنسى أكثر مما تميّزه أية خاصة
أخرى انما هى البلاغة أو الفصاحة . ان حب بلاغة اللسان وحسن البيان
لا ينطفىء أواره فى نفس الفرنسى ولا يزداد بتقدم السنين الا تأججاً .
وددت لو أعرف متى بدأ حب بلاغة اللسان وحسن البيان هذا فى فرنسا .
لا شك أنه قد اتسع اتساعاً كبيراً فى عهد لويس الرابع عشر . من
الأمور البارزة أن كل شىء فى فرنسا يرجع تاريخه الى عهد لويس
الرابع عشر . غير أن ما هو أبرز من ذلك أن كل شىء يرجع تاريخه
فى أوروبا كلها أيضاً الى عهد لويس الرابع عشر . اننى لا أصل الى فهم
قوة الاغراء والفتنة فى هذا الملك ! ذلك أنه لا يفوق كثيراً سائر الملوك
الذين سبقوه . ألأنه كان أول من قال : « الدولة هى أنا » ؟ لقد نالت هذه
الكلمة اعجاباً ضخماً وانتشرت فى أوروبا كلها . أظن أن هذا وحده
قد جعله شهيراً . حتى فى بلادنا عرفها الناس بسرعة مدهشة . لقد كان
هذا الملك ، لويس الرابع عشر ، قومياً الى أبعد حد ، يمثل الروح
الفرنسية كل التمثيل ، بحيث أننى لا أفهم حتى كيف أمكن أن تحدث
فى فرنسا جميع تلك « الشيطنات » * ... فى آخر ذلك القرن نفسه .
وقد عاد الناس بعد جنون متكرر الى الروح القديمة . انهم يميلون اليها
ويتجهون نحوها . ولكن بلاغة اللسان ... آ ... بلاغة اللسان ...
هى حجر عثرة بالنسبة الى الباريسى . ان الباريسى مستعد لأن ينسى من

الماضي كل شيء ، كل شيء تماماً ؛ مستعد لأن يُجرى أحاديث معقولة الى أبعد حد ، وأن يكون من أطوع التلاميذ وأكثرهم جداً واجتهاداً. ولكن بلاغة اللسان، بلاغة اللسان وحدها لا يمكن حتى الآن أن تمحى من ذاكرته. انه يشتاق الى بلاغة اللسان ، ويصبو اليها ويتلهف عليها . انه يتذكر تيير ، وجيزو ، وأوديلون بارو ؛ ويقول لنفسه أحياناً وهو يتنهد « كانوا بلغاء فى ذلك الزمان » ، ثم يطرق واجماً مفكراً . وقد أدرك نابوليون الثالث هذه الحقيقة ، فسرعان ما قرر أن على جاك بونوم أن لا يطرق واجماً مفكراً ، وسرعان ما عمل على اصلاح حال البلاغة . ومن أجل هذا يحتفظون فى « الهيئة التشريعية » بستة نواب لبراليين ، أى ستة نواب قد يكونون أناساً لا يمكن افسادهم ، ومع ذلك فان عددهم ستة ، ولم يكونوا الا ستة ، ولن يكونوا الا ستة . لن يزيد عددهم ولن ينقص ، اطمئنوا ! ان هذا يبدو معقداً جداً من أول نظرة . ولكن الأمر أبسط من ذلك كثيراً فى الواقع ، وهو يتم بواسطة « الاقتراع العام » . صحيح أن جميع الاجراءات المناسبة تتخذ من أجل منعهم من الافاضة فى الكلام كثيراً . ولكنهم يُسمح لهم بأن يثرثروا . فى كل سنة ، تناقش فى الوقت المناسب ، المسائل السياسية الهامة ، فيتأثر الباريسى تأثراً ناعماً ، وتهتز نفسه اهتزازاً رفيقاً . هو يعلم أنه سيسمع كلاماً فصيحاً ، وسينعم بلغة بليغة ، فيبتهج بذلك ويغتبط . صحيح أنه لا يجهل أن كل شيء سيقتصر على طوفان من الكلمات التى لن تؤدى الى أية نتيجة . ولكنه سعيد بذلك . وهو نفسه أول من يجد هذا كله معقولاً جداً . وان خطب بعض هؤلاء الأعضاء الستة تتمتع بشعبية خاصة . والعضو مستعد دائماً لأن يسهب فى الخطابة ليسلى الجمهور . شيء غريب : انه مقتنع هو نفسه بأن خطبه لن تؤدى الى شيء ، وأن الأمر

كله لا يعدو أن يكون مزاحة ، أو لعبة بريئة ، أو حفلة مرح . ومع ذلك فهو يتكلم ، يتكلم عدة سنين متتالية ، ويحسن الكلام ، حتى ليشعر بلذة قوية . وزملاؤه يتهللون طرباً عند سماعه . « انه يحسن الكلام ! » . والرئيس يطرب ، وفرنسا كلها تطرب . ولكن العضو ينهى خطابه ، فاذا بمربى هؤلاء الأطفال الطيبين المهذبين ينهض هو أيضاً ، فيعلن أن « الانشاء » الذى دبجته يراعة العضو عن الموضوع المطروح ، وهو : « شروق الشمس » ، قد أجاد العضو المحترم معالجته وبحثه ، واننا « أُعجبنا بموهبة الخطيب المحترم ، وبآرائه وبما تدل عليه هذه الآراء من سلوك ممتاز ، وأننا جميعاً قد أُخذنا وفُتنا ... ولكن رغم أن العضو المحترم جدير حقاً بمكافأة على حسن السلوك والجد والاجتهاد ، فان خطاب العضو المحترم ، يا أيها السادة ، هو بسبب اعتبارات عليا عديم القيمة لا يساوى شيئاً . آمل ، أيها السادة ، أن تكونوا على اتفاق معى فى الرأى » . وهو فى تلك اللحظة يلتفت الى أعضاء المجلس وتقسو نظرته ، فاذا بالأعضاء الذين كانوا يتهللون طرباً منذ قليل ، يصفقون للمربى بحماسة عارمة ، ولكن هذا لا يمنعهم من أن يصافحوا زميلهم اللبرالى مهنئين ، وأن يشكروا له ما أتاحه لهم من متعة ، وأن يرجوه تكرار هذه المتعة فى المرة القادمة ، باذن من المربى . ويوافق المربى على ذلك هاشاً باشاً . ويخرج كاتب موضوع « شروق الشمس » معتزاً بما أصاب من توفيق وحقق من نجاح ؛ ويعود الأعضاء الى أسرهم وهم يتلمظون ؛ ومن شدة فرحهم يقومون عند المساء بنزهة فى « الباليه رويال » متأبطين أذرع حليلاتهم ، مصغين الى خرير المياه المتدفقة من نوافير الماء التى ترطّب الجو ، بينما يصرح المربى لفرنسا كلها ، بعد أن يكون قد كتب تقريراً لمن يجب أن يكتب له التقرير ، يصرح لفرنسا كلها أن كل شىء يجرى على خير حال .

ويحدث من جهة أخرى فى بعض الأحيان ، متى كان الأمر أمر أمر قضايا أهم ، أن يعمدوا الى اللعبة الكبرى ، فيؤتى الى احدى الجلسات بالأمير نابوليون نفسه * ، فيأخذ الأمير نابوليون فجأة بالمعارضة ، فيجزع جميع هؤلاء التلاميذ الصغار ..يسود الفصلَ صمتٌ مهيب . يمثل الأمير دور اللبرالى . الأمير ليس على اتفاق مع الحكومة . هو يرى كيت وكيت . الأمير ينتقد الحكومة .. انه ، باختصار ، يقول ما كان يمكن أن يقوله (فيما يُفترض) هؤلاء الأولاد اللطاف ، لو ترك المعلمُ الفصلَ لحظةً من اللحظات . يقوله هو أيضاً باعتدال طبعاً . ولكن هذا الافتراض باطل ، لأن جميع هؤلاء الأولاد اللطاف يبلغون من حسن الأدب وكمال التهذيب أنهم لا يتحركون ولو غاب المعلم أسبوعاً كاملاً . حتى اذا انتهى الأمير نابوليون من كلامه ، نهض المعلم وأعلن فى مهابة وفخامة أن موضوع « الانشاء » ، وهو : « شروق الشمس » ، قد عولج من قبل الخطيب معالجة كاملة وبُحث بحثاً ممتازاً . لقد أُعجبنا بموهبة الأمير ، وبآرائه التى عبَّر عنها تعبيراً بليغاً ، وبالفضائل التى يتحلى بها... فنحن مستعدون لأن نهدى اليه جائزة المواظبة وحسن الاجتهاد ، ولكن ... الخ (راجع ما سبق) . فيصفق جميع تلاميذ الفصل طبعاً ، بحماسة تبلغ حد الجنون . ويُعاد الأمير الى بيته . ويترك التلاميذ المؤدبون المدرسة ، كقديسين صغار ، ويتنزهون فى المساء مع حليلاتهم فى « الباليه رويال » ، منصتين الى تدفق المياه من النوافير التى ترطب مياهها الجو ، الخ ، الخ ... أى ، باختصار ، يسود نظام مدهش .

فى مرة من المرات ، ضللنا طريقنا فى « قاعة الخطى التائهة » من قصر العدل ، فبدلاً من أن نصل الى محكمة التأديب وصلنا الى المحكمة المدنية . كان هناك محام مجعَّد الشعر يرتدى ثوب المحاماة والقلنسوة ، وكان المحامى بسبيل القاء مرافعة ، فكان ينثر لآلىء من البلاغة والفصاحة ،

وكان جمهور المستمعين يرتعشون حماسة • ان صمتاً دينياً يرين على الجو • دخلنا سائرين على رءوس أصابع الأقدام • كانت القضية التى يترافع فيها المحامى قضية ميراث • وكان عدد من الرهبان داخلين فى القضية • ان الآباء الروحيين يدخلون الآن فى بعض القضايا كل لحظة ، ولا سيما فى قضايا المواريث • ذُكرت وقائع فاضحة مقززة • ولكن الجمهور صامت لا يُظهر استياء من الفضائح ، لأن الرهبان قد نالوا سلطة كبيرة ، والبورجوازى رجل فاضل الى أبعد حد • ان الآباء الروحيين يشاركون مزيداً من المشاركة كل يوم فى الرأى القائل بأن رأس مال يملكه المرء خير من جميع الأحلام التى تراود خياله ، وخير من البلاغة نفسها ، وأنه يكفى المرء أن يجمع مالاً حتى يكون قوياً ، على حين أن البلاغة ••• البلاغة وحدها ••• عاجزة عن أن تكفل نجاحاً • ولكنهم يخطئون قليلاً فى هذه الحالة الأخيرة فى رأيى• صحيح أن امتلاك رأس مال أمر يجب أن لا يستخف به ، ولكن المرء يستطيع أن يحصل من الرجل الفرنسى على أشياء كثيرة بالبلاغة • والحليلات خاصة يخضعن لسلطان الآباء الروحيين ، بل انهن ليخضعن الآن لهذا السلطان أكثر مما كن يخضعن له فى الماضى • ومن الجائز جداً أن يلتفت البورجوازى الى هذه الناحية أيضاً • أظهرت المحاكمة كيف أن الآباء الروحيين قد استطاعوا بضغط بارع حاذق (انهم علماء فى هذا الباب) ، خلال أعوام ، أن يخدعوا سيدة لطيفة غنية جداً ، حتى اذا استقرت فى دير من الأديرة بفضل حيلهم ومكائدهم راحوا يرهبونها الى أن أصبحت من ذلك مريضة ، وصارت توافيها نوبات عصبية ، وكل ذلك انما فعله أولئك الآباء الروحيون محسوباً حساباً دقيقاً ، وفعلوه بتدرج ماهر بارع • وأخيراً ، بعد أن جعلوها شبه بلهاء ، خيّلوا اليها أنها تأثم اثماً كبيراً أمام الله اذا هى رأت أبويها ، ثم أبعدوا جميع أفراد

أسرتها شيئاً بعد شيء • « حتى ابنة أختها ، التى تبلغ الخامسة عشرة من عمرها ، والتى هى ملاك من ملائكة الطهارة والبراءة ، والتى كانت تحب خالتها أكثر مما تحب أى شيء فى هذا العالم ، أصبحت لا تجرؤ أن تدخل حجرة خالتها العزيزة التى تحبها أكثر من أى شيء فى هذا العالم ، وأصبحت الخالة لا تستطيع ، بعد مكائد غامضة مريبة ، أن تطبع قبلةً على « جبينها العذراوى » الذى يستقر فيه الملاك الأبيض ، ملاك الطهارة والبراءة ••• » • باختصار ، كان الأسلوب كله يجرى هذا المجرى : أسلوب معجز ! كان المحامى يتهلل طرباً ويطير فرحاً لاجادته الكلام هذه الاجادة ، وكان رئيس المحكمة والحاضرون يتهللون طرباً ويطيرون فرحاً كذلك • هكذا فقد الآباء الروحيون قضيتهم بسبب البلاغة وحدها • ولكن الآباء الروحيين لا يرضون أن يُجندلوا : لئن خسروا قضية ، انهم ليربحون خمس عشرة قضية •

سألت طالباً شاباً كان بين الحضور المحترمين :

— من هذا المحامى ؟

كان فى المحكمة عدد غفير من الطلاب ، وكانت تبدو عليهم جميعاً مظاهر الجد والاهتمام •

نظر الىَّ الطالب مدهوشاً • ثم أجابنى أخيراً وقد ظهرت فى وجهه معانى اشفاق فيه احتقار أخجلنى ، أجابنى بقوله :

— جول فافر * •

هكذا أتيح لى أن أعرف زهرات البلاغة الفرنسية ، وأن أقع على هذه البلاغة الفرنسية فى منبعها الرئيسى ان صح التعبير •

ولكن هذه المنابع كثيرة لا يُحصى عددها • ان البورجوازى مُشبَع بالبلاغة حتى أطراف أظافره • ذهبنا ذات يوم الى البانتيون

لنرى العظماء • ذهبنا فى ساعة ليست هى ساعة الزيارة فدفعنا فرنكين اثنين • نهض أحد مشوّهى الحرب فتناول المفاتيح وقادنا الى آقبية الكنيسة • فكان أثناء الطريق ما يزال يتكلم كما يتكلم سائر الناس ، على شيء من المغمغمة بسبب فقدانه أسنانه • ولكن ما ان صرنا فى الآقبية ، حتى أخذ يتدفق فى الكلام منذ وقفنا أمام أول ضريح :

ـ « هنا يرقد فولتير ، فولتير ، تلك العبقرية العظمى من عبقريات فرنسا الجميلة • لقد اجتث الأوهام ، وهدّم الجهل ، وصارع شيطان الظلام ، وأمسك شعلة الضياء • بلغ فى تراجيدياته ذروة الروعة ، رغم أن فرنسا كانت تملك قبله شاعرها كورنيّ » •

واضح أن الرجل كان يلقى درساً حفظه على ظهر القلب • ان أحداً قد كتب له هذه العبارات الطويلة على ورقة ، فحفظها ليرددها الى آخر حياته • حتى لقد كان وجهه العجوز يشرق رضى وسروراً وفرحاً منذ أن بدأ يتلو أمامنا عباراته الجميلة تلك •

وتابع كلامه قائلاً وهو يقترب من ضريح آخر :

ـ « هنا يرقد جان جاك روسو ، جان جاك روسو رجل الطبيعة والحقيقة » * •

شعرت فجأة برغبة فى أن أضحك • ان كل شيء يمكن جعله بالأسلوب النبيل الرفيع تافهاً مبتذلاً • ولكن كان واضحاً أن العجوز المسكين لم يكن أثناء كلامه عن « الطبيعة والحقيقة » يفهم من الأمر شيئاً •

قلت له :

ـ شيء غريب : ان أحد هذين الرجلين كان يصف الآخر طوال حياته بأنه كاذب وشرير ، بينما كان الثانى يصف الأول بأنه غبى لا أكثر ، ثم ها هما الآن يرقدان جنباً الى جنب •

أراد المسكين أن يجيب ، فقال :

ـ مسيو ، مسيو ...

ولكنه سرعان ما صمت وقادنا بسرعة الى ضريح آخر .

وقال بصوت مرعد من جديد :

ـ هنا يرقد « لان » ، الماريشال لان ، وهو واحد من أعظم الأبطال الذين أنجبتهم فرنسا ، وما أكثر ما أنجبت فرنسا من أبطال !.. لم يكن ماريشالاً عظيماً فحسب ، لم يكن أبرع قادة الامبراطور فحسب ، بل كان ينعم الى ذلك بثراء طائل . وكان صديق ...

قلت رغبةً في اختصار خطابه :

ـ نعم ، كان صديق نابوليون ...

فقاطعني الرجل قائلاً بلهجة تنم عن شيء من الاستياء :

ـ مسيو ... مسيو ... دعني أتمم كلامي .

ـ تكلم ، تكلم ، أنا مصغ اليك .

ـ بل كان ينعم الى ذلك بثراء طائل ، وكان صديق الامبراطور . ما من أحد بين جميع ماريشالات الامبراطور حظي بأن يكون صديق الامبراطور . الماريشال « لان » وحده استحق هذا الشرف . وحين سقط في ساحة الوغى في سبيل وطنه ...

ـ نعم ، نعم ، تحطمت ساقاه بقنبلة ...

صاح الرجل يقول بصوت يوشك أن يعبر عن شكاة وضراعة :

ـ مسيو ، مسيو ... دع لي أن أتكلم أنا ... وربما كنتَ تعرف هذا كله ... ولكن دع لي أن أتكلم أنا أيضاً !.

كان هذا الانسان العجيب يحترق شوقاً الى أن يتكلم ، رغم أننا نعرف جميعاً كل ما سيرويه •

استأنف يقول :

ــ وحين سقط فى ساحة الوغى فى سبيل وطنه تأثر الامبراطور تأثراً شديداً ، وبكى حزناً على فقده ، و •••

لم أستطع أن أمتنع عن الكلام ، فقلت مكملاً :

ــ وجاء يودّعه ••••

ولكننى سرعان ما شعرت بخطئى ، حتى لقد خجلت •

قال الشيخ متوسلاً متضرعاً ، وهو يحدجنى بنظرة عتب رقيق ويهز رأسه الأشيب :

ــ مسيو ، مسيو ••• أنا أعلم ••• أنا على يقين من أنكم تعرفون هذا كله ، وربما كنتم تعرفونه خيراً مما أعرفه • ولكنكم اخترتمونى من تلقاء أنفسكم دليلاً لكم • فاتركونى أتكلم • لن يطول كلامى الآن••• اذن تأثر الامبراطور تأثراً شديداً ، وبكى حزناً على فقده (بكى حيث لا ينفع بكاء وا أسفاه !) ، كما تأثر وحزن الجيش كله ، وكما تأثرت وحزنت فرنسا كلها ، ودنا الامبراطور من سرير المحتضر ، فخفف حضوره هذا آلام القائد الذى لم يلبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة على مرأى من الامبراطور تقريباً •

ثم أضاف الرجل يقول بنظرة لوم وعتب :

ــ انتهى كلامى يا سيدى •

وانتقل الى مكان آخر • وأردف يقول وهو يومىء برأسه الى قبور أخرى توجد على مقربة منا :

ـ وهذه مقبرة أخرى ... انها تضم رفات عدد من أعضاء مجلس الشيوخ ...

قال ذلك بلهجة تدل على قلة الاكتراث . لقد استنفد بلاغته كلها فى الكلام على فولتير وجان جاك روسو والماريشال « لان » .

كان ذلك مثالاً مباشراً ، مثاراً شعبياً ان صح التعبير ، على حب البلاغة لدى الفرنسيين . أصحيح أن جميع هذه الخطب التى ألقاها خطباء المجلس الوطنى ومجلس الثورة والنوادى ، والتى كان يشارك فيها الشعب مشاركة تكاد تكون مباشرة والتى كانت تعيد تربية الشعب تربيةً جديدة ، أصحيح أن هذه الخطب لم تترك فى الشعب الا أثراً واحداً : حب البلاغة للبلاغة ؟

الفصل الثامن

حبيبي وغزالتي

والقرينات

القرينات تزدهر حالهن ويعلو شأنهن كما سبق أن قلت . بالمناسبة : سوف تسألونني لماذا أقول القرينات بدلاً من أن أقول الزوجات ؟ السبب هو الأسلوب الرفيع يا سادتي ! ان البورجوازي يقول دائما : « قرينتي » ، حين يتكلم بأسلوب رفيع نبيل . ورغم أن الناس في الطبقات الاجتماعية الأخرى ، كما في كل مكان ، يقولون : الزوجة ، فان من الأفضل أن نتبع الروح القومية لدى الأكثرية ، وأن نتبع البيان الرفيع . ذلك أقرب الى ابراز خصائص المجتمع الذي نتحدث عنه . على أن هناك تسميات أخرى . فحين يريد البورجوازي أن يصطنع العاطفة أو أن يخون زوجته فانه يخاطبها دائماً بقوله : « يا غزالتي » . وكذلك فان الزوجة التي لها عشيق تخاطب زوجها البورجوازي العزيز بقولها « يا حبيبي » حين تستبد بها نوبة فرح رقيق ، وهذا أمر يرضى عنه البورجوازي كثيراً من جهته . ان كلمتي « حبيبي » و « غزالتي » رائجتان مزدهرتان الآن أكثر من أي وقت مضى ! واذا صرفنا النظر عن أن « حبيبي » و « غزالتي » ، المتفق (ضمناً على وجه التقريب) على أنهما يمثلان الفضيلة والوفاق وطهارة الحب في عصرنا المعذب هذا ، على

نقيض رأى أولئك الأوغاد الشيوعيين الكريهين ، اذا صرفنا النظر عن هذا ، فان « حبيبى » يصبح أكثر ليونة وأشد طواعية وسهولة من الناحية الزوجية سنة بعد سنة • انه يدرك أن جميع أنواع التوبيخ الشديد والتقريع القاسى ، وجميع صنوف الاحتياط والحذر ، عاجزةٌ عن أن تصدَّ « غزالتى » ، وأن الباريسية انما خُلقت للعشيق ، وأن الزوج لا حيلة له فى أن يتحاشى أن يكون له قرنان • فهو لذلك يصمت • ولكنه انما يصمت قبل أن يجمع مبلغاً كبيراً وأن يقتني أشياء كثيرة • حتى اذا توافر له هذا الشرطان ، أعنى المبلغ الكبير والأشياء الكثيرة ، فان « حبيبى » يصبح أكثر تشدداً ، لأنه يأخذ يحترم نفسه احتراماً كبيراً ويقدر نفسه قدراً عظيماً • وعندئذ انما يأخذ ينظر الى جوستاف بعين أخرى ، لا سيما اذا كان جوستاف وغداً من الأوغاد •

نستطيع أن نقول على وجه العموم ان الباريسى الذى يملك ايراداً ولو ضئيلاً ، انما يبحث ، حين يرغب فى الزواج ، عن خطيبة مناسبة من الناحية المالية • أكثر من ذلك أنهم يضعون كشفاً بالايرادات فى أول الأمر ، فاذا كانت ايرادات كل من الطرفين مكافئةً لايرادات الآخر تم الزواج • فاذا فرضنا مثلاً أن رأس مال الخطيبة أكبر ولو قليلاً من رأس مال الخطيب رُفض الخطيب ، وجرى البحث عن رجل أنسب • يضاف الى ذلك أن الزواج القائم على الحب يصبح مستحيلاً أكثر فأكثر ، حتى ليكاد يعد زواجاً غير لائق • وقلما يخرج أحد على هذه القاعدة الحكيمة أو يخلُّ بها ، أعنى قاعدة التساوى المطلق بين محتويات جيب كل من الخطيبين واتحاد رأس مال كل منهما برأس مال الآخر ، او قولوا على الأقل ان الاخلال بهذه القاعدة أندر هنا منه فى أى مكان آخر • ان البورجوازى قد نظَّم التمتع برأس مال زوجته لمصلحته • وذلكم هو السبب فى أنه مستعد لأن يغضى فى مناسبات كثيرة جداً عن المغامرات

التى تقوم بها « غزالتى » ، ولأن لا يلاحظ بعض الأشياء التى تسوء ملاحظتها ، والا فلو تم الانفصال بينه وبين زوجته لكان من الممكن أن تثار قضية المال الذى دفعته الزوجة مهراً . واذا ظهرت على « غزالتى » فى بعض الأحيان أناقة فوق مستوى موارد الأسرة فان « حبيبى » يغضى عن ذلك ، لأن « غزالتى » ستطالبه من أجل زينتها بمبالغ أقل ، وستكون أكثر اراحة له وأقل ازعاجاً . واذ كان الزواج اتحاد رأس مال برأس مال الى حد بعيد ، واذ كانت العاطفة المتبادلة ليس لها شأن كبير ، فان « حبيبى » لا يكره أن يتطلع الى غزالات أخرى غير غزالته . لذلك كان الأفضل أن لا يضايق أحد الزوجين صاحبه . وبهذا يسود الأسرة وفاق أعظم ، ويتبادل الزوجان ألقاباً أرق وأجمل . ثم ان « حبيبى » قد عرف كيف يضمن الأمور لنفسه . ان مفوّض الشرطة فى خدمته دائماً ، وذلك وفقاً للقوانين التى منحها هو لنفسه . فيستطيع ، فى أسوأ الأحوال ، اذا هو فاجأ العشيقين « متلبسين بالجرم » ، أن يقتلهما دون أن تقع عليه أية مسئولية . و « غزالتى » تعرف هذا ولا ترى فيه ضيراً . ان وصاية طويلة الأمد قد شكلت « غزالتى » على صورة معينة ، فهى لا تتذمر ، ولا تحلم (كما فى بعض البلاد الهمجية المضحكة) أن تتعلم فى الجامعة مثلاً ، وأن يكون لها مناصب فى النوادى أو مقاعد بين النواب . انها تؤثر أن تظل فى وضعها الطليق الحر الراهن ، كطائر الكنارى . انهم يزيّنونها ، ويلبسونها أجمل الحلل ، ويقودونها الى النزهات . وهى ترقص ، وتقضم سكاكر ، وهى تُستقبل فى الظاهر كما تُستقبل ملكة ، والرجل فى الظاهر جاث عند قدميها . ان هذا الشكل من العلاقات قد رتّب ترتيباً موفقاً مناسباً فى آن واحد . هذه علاقات تسيطر عليها روح الفروسية . فماذا تريدون أكثر من ذلك ؟ لن ينتزعوا من المرأة عشيقها جوستاف ، وهى لا تتوق الى أهداف سامية نبيلة فى الحياة ، الخ . وانها فى حقيقة الأمر رأسمالية ومقترة كزوجها .

حتى اذا انقضى عهد طائر الكنارى ، أى حين تصل الزوجة الى النقطة التى يستحيل عليها عندها أن تخون زوجها ، وأن تظن نفسها طائر كنارى ، حين يبدو لها أن العثور على جوستاف جديد أمر يستحيل أن يتخيله أحرُ خيال وأطوع خيال ، فان « غزالتى » تتبدل عندئذ تبدلاً مفاجئاً موسفاً . وداعاً عهدَ الغندرة والغنج والدلال والتزين والفرح ! انها تصبح فى كثير من الأحيان حادة الطبع ، مقترةً ، ترتاد الكنائس ، تدّخر المال مع زوجها ؛ ان نوعاً من الاستهتار يغزوها من كل صوب . وعندئذ تظهر السآمة ، والحسرة ، والغرائز الفظة ، وغرور الحياة ، والأحاديث البذيئة . حتى أن بعض النساء يهملن أنفسهن حينذاك . غير أن هناك حالات أكثر ابهاجاً بطبيعة الحال . وصحيح أن أمثال هذه العلاقات الاجتماعية موجودة فى كل مكان ، ولكن ... هى هنا أقرب الى طبيعة الأمور ، هى هنا أكثر أصالةً وعفوية ، هى هنا أشد وأقوى ، هى هنا قومية أكثر مما هى كذلك فى أى مكان آخر . هنا منبع وبذرة ذلك الشكل البورجوازى للمجتمع ، ذلك الشكل الذى يسود العالم كله الآن على صور تقليدٍ مستمر ودائم للأمة الكبرى .

نعم ، ان « غزالتى » ملكة فى الظاهر . ان من الصعب على المرء أن يتصور ما تحاط به فى كل مكان من أدب لطيف ورعاية مزعجة ، فى المجتمع والشارع . ويبلغ هذا كله من شدة الرهافة ، ويبلغ احياناً من فرط البشاعة أن النفس المستقيمة الصادقة لا يمكن أن تطيقه . ذلك أن المخادعة الواضحة فى هذا الرياء السافر لا بد أن تسوءها حتى أعماق القلب . ولكن « غزالتى » نفسها مخادعةٌ كبرى ... فهى لا تطلب شيئاً آخر غير المخادعة والغش ... انها تؤثر المكر دائماً على الأساليب المستقيمة التى ليس فيها لف ولا دوران ولا التواء : ذلك فى رأيى

أضمن ، فهو يدع للعب مجالاً أكبر . واللعب ، في نظري « غزالتي » يفوق كل شيء ؟ اللعب والمكر هما في المقام الأول .

وفي مقابل ذلك ، انظر الى ملابسها ، انظر كيف تخطر في الشارع! ان « غزالتي » تحب الأوضاع المصنوعة المتكلفة الخالية من كل ما هو طبيعي . ولكن هذا أيضاً يثير الاعجاب ، ولا سيما اعجاب الفاسدين ، الفاسقين بعض الفسق ، الذين فقدوا حب الجمال الغض النضر الطبيعي. و « غزالتي » ليست الا على خط ضئيل جداً من النمو . ان لها دماغ عصفور وقلب عصفور . ولكن ما أرشقها في مقابل ذلك . ان لديها مخزناً زاخراً بالأسلحة المصطنعة ، فما ان تستول عليك حتى تتبعها كما تتبع شيئاً جديداً لاذع النكهة . يندر أن تكون جميلة . حتى أن وجهها يتسم بالخبث والشر . ولكن أي بأس في هذا ؟ ان في هذا الوجه حركة وبشراً ، وهو يجيد اصطناع العاطفة وافتعال الطبيعة اجادة تبلغ درجة الكمال . ربما لم تكن هذه المحاكاة للطبيعة هي التي تعجبك فيها، ولكن الذي يعجبك فيها هو حسن تدبرها للأمر . ان فنها هو الذي يفتنك . وفي أكثر الأحيان يكون التظاهر بالحب مساوياً للحب الحقيقي في نظر الباريسي ، حتى لقد يرضيه التظاهر بالحب ارضاءً أكبر . هناك طريقة شرقية في النظر الى الأمور تظهر مزيداً من الظهور في باريس يوماً بعد يوم : ان غادات الكاميليا تروج « موضتهن » أكثر فأكثر . « خذي المال ، وأجيدي الخداع ، أي برهني عليه أو تظاهري به » . ذلك ما يُطلب منهن . ولا يكاد يطلب أحد من « قرينته » أكثر من هذا ، أو هو يكتفي به على الأقل . لذلك يُقبل العشيق جوستاف بتسامح ضمني . زد على ذلك أن البورجوازي يعرف أن « غزالتي » ستنذر حياتها كلها لمصالحه حين تدلف الى الشيخوخة ، وأنها ستكون نعمَ العون له على كنز المال وجمع الثراء . وهي تعينه حتى أثناء

شبابها . فهي في بعض الأحيان تتولى تجارةً بكاملها وتجتذب الزبائن ، أي تكون ساعده الأيمن وتكون في محل البائع الأول . فكيف لا يغفر والحالة هذه أن يكون لها خليل اسمه جوستاف ؟ المرأة في الشارع لا تُمس . ما من أحد يسيء اليها . جميع الناس يقدِّمونها على أنفسهم ، خلافاً لما يجري في بلادنا روسيا حيث لا تستطيع امرأة ، اللهم الا أن تكون عجوزاً ، لا تستطيع أن تخطو في الشارع خطوتين دون أن يحملق فيها دون جوانٌ ما ، ويعرض عليها التعارف .

على أن الشكل العادي المألوف للعلاقات بين «حبيبي» و «غزالتي» ، رغم امكان وجود عشيق اسمه جوستاف ، هو شكل لطيف جداً ، حتى لقد يكون ساذجاً في كثير من الأحيان . ولقد فاجأني هذا الأمر بوجه عام : يكاد يكون جميع الأجانب أسذج كثيراً من الروس . يصعب شرح هذا بمزيد من التفصيل : وانما ينبغي للمرء أن يلاحظه بنفسه . « ان الروسي ريَّاب ساخر » : هذا ما يقوله عنا الفرنسيون . وهو حق . نحن أكثر استخفافاً ، نحن أقل تعلقاً بتراثنا ، حتى اننا لا نحب هذا التراث ، أو نحن على الأقل لا نحترمه الى الدرجة القصوى من الاحترام ، دون ان نعرف ما هو الأمر . نحن ننخرط في اهتمامات أوروبية ، مشتركة بين الانسانية جمعاء ، اهتمامات لا تخص أي أمة بعينها ، والنتيجة الطبيعية لهذا أننا نعالج كل شيء ببرود أكبر وفتور أشد ، كأنما نحن نعالج هذا الشيء من باب القيام بواجب من الواجبات ، ونعالجه معالجة فيها استقلال أكبر وانفصال أشد على كل حال . ولكن فلنعد الى الموضوع الذي كنا بصدده . ان « حبيبي » ساذج الى أقصى حدود السذاجة في بعض الأحيان . انه حين يتنزه مثلاً حول نوافير المياه يأخذ يحدث « غزالتي » فيشرح لها لماذا يرتفع الماء من النافورة عمودياً ... انه يشرح لها قوانين الطبيعة ، ويشعر في حضورها بالعزة

الوطنية والكبرياء القومية من جمال غابة بولونيا ، ومن جمال الاضاءة ، ومن روعة تراقص « المياه الكبرى » في حدائق قصر فرساى ، ومن انتصارات الامبراطور نابوليون ، ومن « المجد الحربى » . وهو يجد لذة كبيرة حين يراها تصغى اليه مستطلعة ، ويجد سعادة عظيمة وفتنة كبرى حين يلاحظ أنها مبتهجة مغتبطة . وان أمكر « غزالة » تبرهن لزوجها على عاطفة رقيقة وحنان كبير ، لا تظاهراً وتصنعاً ، فان حنانها خالص لوجه الحنان مبرأ من المنفعة رغم القرنين اللذين حملته اياهما على رأسه. لست أطمع طبعاً ، كما فعل الشيطان « لوساج » أن أزيح أسطح المنازل. وانما أنا أروي ما خطف بصرى فاستطعت أن ألاحظه . تقول لك « الغزالة » فلانة : « ان زوجي لم ير البحر حتى الآن » ، ويعبر صوتها عندئذ عن شفقة ساذجة صادقة . معنى قولها أن زوجها لم يذهب بعد الى برست أو الى بولونى ليرى البحر .

يجب أن نعرف أن للبورجوازى حاجات شديدة السذاجة والبراءة ، عظيمة الجد والخطورة ، حاجات كادت تصبح عادة عامة . مثال ذلك أن له ، عدا الحاجة الى جمع المال والحاجة الى البلاغة ، حاجتين اثنتين مشروعتين جداً ، كرّستهما العادة ، فهو ينظر اليهما نظرة جادة تكاد تشتمل على كثير من التأثر والعاطفة . فأما الحاجة الأولى فهى « أن يرى البحر » . يمكث البورجوازى فى باريس طوال حياته احياناً بسبب انشغاله بالتجارة ، فلا يرى البحر . لماذا يجب عليه أن يرى البحر ؟ هو نفسه لا يعرف جواباً عن هذا السؤال ، ولكن رغبته فى رؤية البحر رغبة حارة عنيفة قوية جامحة . ومع ذلك تراه يرجىء السفر من سنة الى سنة ، بسبب أعماله . وهو يحزن من ذلك حزناً شديداً ، وتشاطره زوجته حزنه . ان العاطفة تلعب هنا دوراً كبيراً على وجه العموم ، وأنا أقدّر هذا وأحترمه . وأخيراً يفلح فى أن يجد الوقت

والمال ، فيعد عدته ويهيىء نفسه ويمضى « يرى البحر » بضعة أيام . فاذا عاد من رحلته راح يروى مشاعره وانطباعاته بكثير من الحرارة والحماسة ، لزوجته وأقربائه وأصدقائه ، ويظل يتذكر بكثير من السرور والسعادة ، طوال حياته ، أنه رأى البحر .

وأما الحاجة الثانية المشروعة التى لا تقل عن الأولى قوة وعنفاً لدى البورجوازى ، فهى أن « يتقلب على العشب » . ان الباريسى ، متى خرج من مدينته ، يحب كثيراً أن يتمدد على العشب ، بل انه يرى ذلك واجباً من الواجبات التى تقع على عاتقه ، فهو يقوم بهذا الواجب بوقار ومهابة ، شاعراً أنه بذلك يتواصل « مع الطبيعة » ، ويحب كذلك أن يراه الناس ويلاحظوه وهو على هذه الحال . ويمكننا أن نقول بوجه عام ان الباريسى سرعان ما يحس حين يخرج من المدينة أن من واجبه أن يصبح أكثر انطلاقاً وأقل تحرجاً وتقيداً ، وأشد فرحاً ومرحاً ، بل وأعظم جرأة وجسارة ، أى أن يبدو أبعد عن التصنع وأقرب الى الطبيعة . انه يريد أن يصبح « انسان الطبيعة والحقيقة » . ألم يظهر « حب الطبيعة » لدى البورجوازى منذ أيام جان جاك روسو ؟ على أن البورجوازى لا يحقق هاتين الحاجتين كثيراً ـ أعنى رؤية البحر والتدحرج على العشب ـ الا بعد أن يكون قد جمع ثروة ، أى بعد أن يكون قد أخذ يقدر نفسه ويحترم نفسه . ثم أن « التدحرج على العشب » يكون أمتع وألذّ كثيراً حين يقوم به البورجوازى على أرض هو صاحبها ، على أرض أشتراها بما ادخر من مال . والبورجوازى على وجه العموم ، حين ينسحب من حلبة الأعمال ، يحب أن يملك أرضاً ، بل وأن يكون له منزله وحديقته وسياجه ودجاجاته وبقرته . وهو ما ينفك يردد لنفسه ولضيوفه قوله : « شجرتى » ، « جدارى » ، ويظل على هذه الحال الى آخر أيام حياته . فالتقلب على العشب انما يحلو للبورجوازى اذن حين

تكون الأرض أرضه • ومن أجل أن يقوم بهذا الواجب نراه ينشىء أمام منزله مرجاً • وقد رُوى لى أن الحشيش رفض أن ينبت عند أحد البورجوازيين فى المكان الذى حدّده لانشاء المرج • فرغم جميع ما بذله البورجوازى من نشاط فى زرع حشيش جاء به من موضع آخر ، وفى سقاية هذا الحشيش والعناية به فان الحشيش كان ما يلبث أن يذوى ويموت • تلك كانت طبيعة الأرض أمام المنزل • فما كان من الرجل الا أن اشترى حشيشاً صناعياً • ذهب خصيصاً الى باريس فأوصى على بساط مستدير من حشيش صناعى ، قطرُه عدة أمتار ، حتى اذا صار البساط عنده أخذ يمده كل يوم بعد الظهيرة على الأرض ليتوهم أنه عشب فيرضى حاجته المشروعة الى التقلب على العشب • ليس بعيداً عن بورجوازى ما يزال ثملاً من امتلاك أرض اقتناها بحق ، ليس بعيداً عنه أن يتصرف هذا التصرف ، وليس فى عمله ذلك شىء غير معقول من الناحية النفسية •

ولكن فلنتكلم قليلاً عن جوستاف • ان جوستاف شبيه طبعاً بالبورجوازى ، فهو بائع أو تاجر أو موظف أو « أديب » أو ضابط • هو « حبيبى » نفسه ، لكنه عازب • وليس هذا هو الأمر الهام على كل حال ، وانما الأمر الهام زينة جوستاف ووضعه الراهن وهيئته وهندامه• ان الصورة المثلى للعشيق جوستاف تختلف باختلاف الزوجات ، وهو يظهر على المسرح دائماً فى الصورة التى هو عليها فى المجتمع • ان البورجوازى يحب التمثيليات الهزلية (الفودفيل) ، ولكنه يحب الميلودراما أكثر من ذلك أيضاً • فالمسرحية الهزلية البسيطة المرحة ــ وهى الانتاج الفنى الوحيد الذى يستحيل نقل غراسه من أرض الى أرض ، ويستحيل نباته فى غير موطنه ، ويستحيل أن يعيش فى غير المكان الذى وُلد فيه ، أى باريس ــ أقول ان المسرحية الهزلية هذه

لا تُعجب البورجوازى اعجاباً كاملاً تاماً ، وان كانت ترضيه وتتملقه . انه يعدها من السفاسف . انه ينشد الروعة ، ينشد « النبل الذى لا يوصف » ، ينشد الحساسية . والميلودراما تضم ذلك كله . الميلودراما شىء لا غنى للباريسى عنه . وستبقى الميلودراما ما بقى البورجوازى . شىء غريب : ان المسرحية الهزلية نفسها يصيبها الآن تغير وتحول . فرغم أنها ما تزال مرحة مضحكة ، فان عنصراً آخر هو الوعظ الأخلاقى يتسلل اليها ويندس فيها شيئاً بعد شىء . ان البورجوازى يحب الوعظ الأخلاقى فى كل لحظة ، من أجله ومن أجل « غزالته » . ذلك فى نظره واجب مقدس ، ذلك فى نظره شىء جوهرى . وما دام البورجوازى يسيطر الآن بلا حدود ، ما دام هو القوة ، وما دام كتاب المسرحيات الهزلية والميلودرامات خاضعين دائماً للقوة ، تستعبدهم ويتملقونها ، لذلك نرى البورجوازى ينتصر رغم أن الضحك يدور عليه وأن السخرية تتناوله ؛ ولذلك نرى المسرحية تعلن له فى النهاية أن كل شىء يجرى على ما يرام . لا بد أن هذه النسب تطمئن البورجوازى كثيراً . ان كل من يستبد به الجبن فلا يكون مقتنعاً بأن عمله ناجح ، يحس بحاجة أليمة الى أن يخدع نفسه بالوهم ، الى أن يعزى نفسه ، الى أن يهدىء روعه ، حتى لقد يأخذ يصدّق البشائر . والأمر على هذا النحو هنا . فى الميلودراما تظهر على المسرح صفات كريمة وقدوات رائعة . ليس هذا هزلاً . انه انتصار مؤثر لكل ما يحبه « حبيبى » كثيراً . ان « حبيبى » يحترم خاصةً الهدوء السياسى وحق الانسان فى أن يجمع المال لينظم بيته على أهدأ نحو ممكن . فهذا هو اتجاه الميلودراما الحالية ؛ وان طبع جوستاف يناسب هذا الاتجاه . فمن النظر الى جوستاف نستطيع دائماً أن نتحقق من المثل الأعلى للنبل العظيم فى نظر « حبيبى » ، فى لحظة معينة * .

كان جوستاف ، فى الزمان الماضى ، البعيد ، يظهر على المسرح

شاعراً أو رسّاماً أو عبقرية مجهولة مغبونة مظلومة هى ضحية الاضطهاد • كان جوستاف يناضل ويكافح فى نبل ، وكانت المسرحية تنتهى دائماً بأن نرى الفيكونتيسة ، المفتونة به سراً رغم أنها تقابله بقلة المبالاة وعدم الاكتراث ، تزوجه اليتيمة التى هى وصية عليها ، أقصد الفتاة القاصر سيسيل التى لا تملك قرشاً واحدا ولكن يتضح فجأة أنها غنية غنى عظيما • كان جوستاف فى العادة يتمرد ويرفض المال • ولكن ها هو ذا عمله يتوّج فى « الصالون » بالنجاح • ها هم أولاء ثلاثة أثرياء مضحكون يظهرون فجأة عنده فيعرض كل واحد منهم عليه مائة ألف فرنك ثمناً للوحة مقبلة يرسمها • ويسخر منهم جوستاف باحتقار ، ويعلن بيأس مر ان البشر جميعاً أوغاد لا يستحقون ريشته ، وأنه لن يهب الفن ، الفن المقدس ، لأناس تافهين لا يعرفون قدر الفن ، أناس ظلوا يجهلون عبقريته حتى الآن • ولكن ها هى ذى الفيكونتيسة تظهر فتعلن له أن سيسيل تموت حباً به وأن عليه اذن أن يرسم لوحات • عندئذ يحزر جوستاف أن الفيكونتيسة ، التى كانت قبل ذلك عدوته والتى كانت مساعيها هى التى جعلت لوحاته تُرفض فى « الصالون » ، يحزر أنها تحبه سراً ، وانها انما كانت تنتقم بدافع الغيرة • ويقبل جوستاف المال من الأثرياء الثلاثة طبعاً ، بعد أن يكون قد شتمهم وأهانهم ، وذلك أمر يُسرُّون هم منه ويظلون مفتونين به ؛ ثم يهرع الى عند سيسيل فيقبل أن يأخذ المليون الذى تملكه ، ويغفر للفيكونتيسة التى تعتزل الحياة بعد ذلك فى أطيانها • هكذا يتزوج جوستاف زواجاً شرعياً ، ويأخذ ينجب ذرية ، ويرتدى صدرة أنيقة وقبعة جميلة ، ويتنزه فى المساء مع « غزالته » قرب نوافير المياه التى ترطب الجو والتى لا بد أن يذكره خريرها الهادىء بما تتصف به سعادته على هذه الأرض من دوام وبقاء ، وصلابة ومتانة ، وهدوء وسكينة •

وبدلاً من أن يكون جوستاف مستخدماً في محل تجاري ، يحدث أحياناً أن يكون يتيماً مضطهداً تُساء معاملته ، ولكن روحه تفيض « نبلاً لا يوصف » • وفجأة يُكتشف أنه ليس يتيماً ، وانما هو الابن الشرعي للثري الكبير روتشيلد ، وها هي ذي الملايين تهوي اليه وتتساقط عليه * • ويرفضها جوستاف بأنفة وشمم واباء • لماذا ؟ لأن البلاغة توجب ذلك •

عندئذ تظهر مدام بوبريه ، زوجة صاحب البنك الذي يعمل جوستاف مستخدماً عنده ، وهي مولهة بحبه • ها هي ذي تعلن له أن سيسيل تموت من شدة حبها له ، وأن عليه أن يمضي اليها لانقاذها • فيحزر جوستاف أن مدام بوبريه تحبه ، فيأخذ الملايين ، وبعد أن يشتم ويهين جميع الناس بأسوأ الكلام ، لأنه لا يوجد في الانسانية كلها نبل عظيم كنبله ، يمضي الى سيسيل ويتزوجها • وتنسحب زوجة صاحب البنك الى أطيانها • لقد انتصر بوبريه ، لأن زوجته التي كادت تسقط ، ما تزال عفة طاهرة الذيل • وينجب جوستاف ذرية ، ويمضي يتنزه في المساء قرب نوافير المياه التي ترطب الجو والتي لا بد أن يذكره خريرها الهادىء .. الخ الخ.

كذلك كان الأمر في الماضي • أما الآن فان النبل العظيم « الذي لا يوصف » انما يمثله في أكثر الأحيان ضابط من سلاح الهندسة أو غيره ، يحمل وسام صليب الشرف طبعاً ، وهو وسام « دفع ثمنه من دمه » • بالمناسبة : ان هذا الشريط الذي يزدان به صدر صاحب الوسام قد أصبح لا يُحتمل ولا يطاق • ان من يحمل هذا الوسام يبلغ من الغرور أنك لا تكاد تستطيع أن تقاربه أو أن تكلمه أو أن تصحبه في سفر أو في مسرح ، أو أن تصادفه في مطعم • انه يزدريك ويحتقرك علانية بوقاحة ، حتى ليكاد يبصق في وجهك • انه يلهث ويختنق تكبراً وصلفاً وزهواً ، حتى لتشعر من ذلك بغثيان ، ويزيد افراز الصفراء في جسمك ، وتضطر الى الاستغاثة بطبيب • ولكن الفرنسيين يحبون هذا

كثيراً . ومن الأمور البارزة أيضاً أن مسيو بوبريه قد أصبح المسرح يهتم به اهتماماً شديداً مفرطاً أو قل على الأقل ان المسرح قد أصبح يهتم به الآن اهتماماً أوضح من اهتمامه به في الماضي . ان مسيو بوبريه قد جمع مالاً كثيراً بطبيعة الحال ، واقتنى أشياء كثيرة . هو صريح ، بسيط . عاداته البورجوازية وصفته الزوجية تجعله مضحكا بعض الشيء ، ولكنه طيب مستقيم رفيع النفس نبيل « نبلاً لا يوصف » في ذلك المشهد من المسرحية ، الذى يتألم فيه ألماً شديداً من شبهة خيانة « غزالته » له . ومع ذلك فهو يقرر أن يغفر لها بكرم وسخاء . سوف يُكتشف طبعاً أنها طاهرة كحمامة ، وأن كل ما فعلته هو أنها لعبت قليلاً ، هو أنها شُغفت بجوستاف بعض الشغف ، ولكن « حبيبى » الذى ترهقها عظمة نفسه هو أعزُّ عندها من كل شيء . أما سيسيل فهى ، كما في السابق ، فقيرة لا تملك قرشاً واحداً ، ولكن ذلك لا يكون الا في المشهد الأول من المسرحية ، ثم تملك بعد ذلك مليوناً . وجوستاف نبيل النفس ذو أنفة وكبرياء ، كما هو دائماً ، ولكنه أكثر غطرسة ، لأنه عسكرى . وهو يحرص على وسامه أكثر من حرصه على أى شيء آخر ، يحرص على هذا الوسام الذى « دفع ثمنه من دمه » ، ويحرص كذلك على سيف أبيه ، ولا ينفك يتحدث عن هذا السيف قائلاً « سيف أبى » . انه يتكلم عن هذا السيف بمناسبة وبغير مناسبة ، حتى لقد لا تفهم عمَّ يتكلم وماذا يريد أن يقول . وهو يشتم ، ويبصق ، ولكن الجميع يحبونه ، بينما المشاهدون يبكون ويصفقون (يبكون فعلاً) . وهو لا يملك قرشاً واحداً بطبيعة الحال : ذلك شرط لا بد منه . ومدام بوبريه مولّهة بحبه طبعاً . وكذلك سيسيل . ولكنه لا يفطن الى حب سيسيل ولا يخطر له هذا الحب على بال . وتظل سيسيل تحترق حباً خلال خمسة فصول من المسرحية . وأخيراً يتساقط ثلج أو شيء من هذا

القبيل . وتريد سيسيل أن ترمى نفسها من النافذة . ولكن يُدوِّى في الخارج انفجاران . ويدخل جوستاف الى المسرح ببطء ، ممتقعَ الوجه معصوب اليد . ان الشريط « الذي دفع جوستاف ثمنه من دمه » يلتمع على معطفه . لقد عوقب الشخص الذى اذاع الوشايات عن سيسيل وأخواها . وينسى جوستاف أخيراً أن سيسيل تحبه ، وأنّ هذه كلها مكائد من مدام بوبريه . ولكن مدام بوبريه صفراء الوجه مذعورة . ويحزر جوستاف أنها تحبه . ويدوِّى انفجار جديد . أغلب الظن أن بوبريه قد انتحر يأساً وقنوطاً . وتطلق مدام بوبريه صرخة وتهرع نحو الباب ، ولكن بوبريه يظهر بنفسه وقد حمل ثعلباً مقتولاً أو حيواناً آخر ما . لقد لُقِّنَ الدرس ، وظهرت العبرة . ان « غزالتى » لن تنساه في يوم من الأيام . وها هي ذى ترتمى على عنق « حبيبى » الذى يغفر كل شيء . ولكن يتضح فجأة أن سيسيل تملك مليوناً ، فيثور جوستاف من جديد . انه لا يريد أن يتزوج . وها هو ذا يصطنع أوضاعاً ويلفظ شتائم . لا بد حتماً من أن يصطنع جوستاف أوضاعاً ومن أن يحتقر المليون . والا لم يغفر له البورجوازى قط ، ولما كان هنالك قدر كافٍ من « النبل العظيم الذى لا يوصف » . رحماكم ! لا يذهبنْ بكم الظن الى أن البورجوازى يتناقض . لا تقلقوا : ان المليون لن يفلت من الزوجين السعيدين . انه لا غنى عنه ، وهو يظهر دائماً في الخاتمة مكافأة على الفضيلة . ان البورجوازى يظل وفياً لنفسه . وينتهى جوستاف الى قبول المليون وسيسيل . وبعد ذلك تبدأ النزهات التى لا بد منها قرب النوافير ، ونرى القبعات الجميلة ، ونسمع خرير المياه ، الخ ، الخ . هكذا تنتصر العواطف الحساسة ، ولا سيما « النبل العظيم الذى

لا يوصف » ، وينتصر بوبريه ، وينتصر المليـون خاصـةً ، ينتصر فى صورة قدر محتم ، فى صورة قانون من قوانين الطبيعـة يرجع اليه كل الشرف والمجد والاحترام ، الخ الخ • ويخرج « حبيبى » و « غزالتى » من المسرح مفتونين وقد هدأت نفساهما وتعززت روحاهمـا • ويرافقهما جوستاف ، وفيما هو يساعد « غزالتى » على ركوب العربة ، يقبّل يدها الصغيرة خلسةً ! ••• ليس فى الامكان أبدع مما كان ••• كل شىء ، فى هذا العالم الذى هو أحسن عالم ، يجرى على أحسن نحو •

التمساح

١٨٦٥

التمســـاح (Krocodil) ظهرت فى مجلة « العصر » التى أصــدرها دوستويفسكى ، العدد الثانى من ســنة ١٨٦٥ ، ولم تكتمل بسبب احتجاب هذه المجلة ٠

حادثة خارقة

او القصة الحقيقية التى تروى كيف ان سيداً متقدما فى السن محترما جداً قد ابتلعه، وهو حى، تمساح « الممر » ، وما الذى نشأ عن ذلك •

لا مبير ؟ أين لا مبير ؟ هــل رأيت
لا مبير ؟

١

هو اليوم الثالث عشر من شهر كانون الثانى (يناير) سنة ألف وثمانمائة وخمسة وستين ، فى الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً . فى تلك الساعة من ذلك اليوم انما شعرت ايلينا ايفانوفنا (زوجة ايفان ماتفئتش ، صديقى العالم الذى أستطيع أن أقول عنه ايضاً انه صاحبى ورفيقى كما أنه قريبى فى الوقت نفسه) برغبة مفاجئة فى أن نرى التمساح الذى كان يُعرض فى « الممر » * .

وقد اتفق أن كان ايفان ما تفئتش حراً فى ذلك اليوم نفسه ، لأنه كان قد حصل على اجازة ؛ حتى لقد كان فى جيبه تذكرة سفر الى الخارج بالقطار ، وكان يريد أن يقوم بهذه الرحلة لأنه يشتهى أن يرى أشياء جديدة ، لا لأنه يريد العلاج من مرض . ولم يعارض أية معارضة فى ارضاء حب الاطلاع الشديد الذى استبد بنفس امرأته ، لأنه كان يشاطرها حب الاطلاع هذا فى حقيقة الأمر .

قال بلهجة راضية :

ـ هذه فكرة رائعة ! هلمى نَرَ التمساح . ففى الوقت الذى نستعد فيه للقيام برحلة الى الخارج ، لا يكون من غير المستحسن أن نطلع منذ الآن فى بلادنا نفسها على السكان الأصليين لتلك البلاد .

قال ذلك ، وقدم ذراعه لامرأته ، فاتجه الاثنان نحو « الممر » .

وقد شاركتهما هذه النزهة بصفتي صديقاً للأسرة ، وعملاً بعادة ألفناها فلم نخرج عليها ولا تخلفنا عنها .

لم أرَ ايفان ماتفئتش ، في يوم من الأيام ، مشرق المزاج مرح النفس ، كما رأيته في ظهر ذلك اليوم الذى لا سبيل الى نسيانه . آه ! ... اننا لا نقرأ المستقبل ، ولا نعلم الغيب !

ما ان دخل ايفان ماتفئتش « الممر » حتى شعر بنشوة عظيمة وأحس باعجاب شديد حين رأى عظمة المكان ، فلما وصل الى حيث كان يُعرض التمساح الذى جيء به الى العاصمة ، أظهر رغبة في أن يدفع الخمسة وعشرين كوبكاً التي هي ثمن تذكرة دخولي أنا ، وذلك أمر لم يسبق أن فعله قبل هذا اليوم قط .

فلما صرنا في القاعة الصغيرة التي يُعرض فيها التمساح لاحظنا أن القاعة لا تضم التمساح فحسب ، بل تضم كذلك ببغاوات من نوع « الكاكاتوس » ، وعدداً من القرود في قفص موضوع في آخر القاعة . وقربَ المدخل ، على طول الجدار الأيسر ، كان يوجد حوض كبير من التوتياء تغطيه شبكة من أسلاك الحديد ويحتوى قليلاً من الماء . فكان هذا الحوض مسكناً لتمساح كبير قد رقد فيه جامداً لا يتحرك أكثر مما تتحرك صقالة خشبية ، وكأنه قد فقد جميع قواه الطبيعية منذ أصبح يعيش في جونا الرطب الذى لا يناسب الأجانب البتة .

ان لقاءنا الأول هذا بالمخلوق العجيب لم يثر أنفسنا ، ولم يهزّ اهتمامنا .

قالت ايلينا ايفانوفنا بلهجة ممطوطة تعبر عن خيبة الأمل :

ـ أهذا هو التمساح ؟ انني لم أكن أتخيله في هذه الصورة !

أغلب الظن أنها كانت تحسب التمساح جواهر ماس . وكان

صاحب التمســاح ، وهو رجل ألمانى ، قد جاء يقف أمامنا وينظر الينـا فى زهو وعُجْب وكبرياء •

همس ايفان ماتفئتش فى أذنى يقول :

ـ من حقه أن يشعر بكبرياء ، لأنه يعرف أنه الوحيد الذى يعرض على الناس تمساحاً فى روسيا •

فعزوت هذا الملاحظة التافهة الى ما كان عليــه صديقى من اشراق المزاج ومرح النفس ، لأن طبعه فى العادة أميل الى الحسد والغيرة •

ـ لا يظهر على تمساحك هذا أنه حى •

كذلك عادت تقول ايلينا ايفانوفنا التى ساءتها ثقة صاحب التمساح بنفسه ، وجرأته ووقاحته فى النظر الى غيره • وقد قالت له هذه العبارة وهى توجه اليه ابتسامة لطيفة رقيقة ، أملاً منها فى أن تخفف من غلوائه وأن تكسر من حدة وقاحته ، وتلك وسيلة مألوفة لدى النساء •

فأجابها الرجل بلغة روسية مكسَّرة تكسيراً رهيباً :

ـ عفوك يا سيدتى !

ثم أسرع يرفع شبكة الأسلاك الحديدية ، وأخذ يشاكس التمساح بعصـا كانت فى يده • فمن أجل أن يظهر التمســاح أنه حى ، حرَّك قدميه وذيله قليلاً ، ورفع بوزه ، وأخرج صوتاً يشبه أن يكون زفرة طويلة •

فقـال الألمـانى برفق وقد بدا عليــه ما يبــدو على امرىء أرضى غروره :

ـ طيب طيب ، لا تزعل يا كارلشن !

ودمدمت ايلينا ايفانوفنا تقول في غنج ودلال :

ـ ما أخبثه ، هذا التمساح ! لقد أخافني ! لقد أخافني ! أنا واثقة بأنني سأراه في المنام .

قال الألماني ملاطفاً :

ـ لن يستطيع أن يعضّك في المنام يا سيدتي !

ثم أخذ يضحك ، ولكن ضحكه لم يجد صدى .

قالت ايلينا ايفانوفنا تخاطبني وحدي :

ـ هيّا بنا نَرَ القرود يا سيميون سيميوفتش . انني أحب القرود كثيراً . أنا أعبد القرود . وها هنا قرود لطيفة جداً . أما هذا التمساح فهو رهيب !

صاح ايفان ماتفئتش يقول لها وهو يتمايل ويظهر أمامها جماله :

ـ لا تخشي شيئاً يا عزيزتي . ان هذا الساكن الوسنان من سكان مملكة الفراعنة لن يلحق بنا أي أذى !

وبقي ايفان ماتفئتش قرب حوض الماء . ثم لم يلبث أن أخذ يدغدغ منخري التمســاح بطرف قفازه بغيــة أن يحمله على أن يزفر زفيراً صاخباً ، كما اعترف لنا بذلك فيما بعد .

وســار صاحب التمســاح وراء ايلينــا ايفــانوفنا يتبعها نحو قفص القرود . أليست ايلينا ايفانوفنا سيدة ؟!... هكذا جرى كل شيء اذن على خير ما يرام ، ولم يكن في وسع أحد أن يتنبأ بوقوع أي حادث .

افتتنت ايلينا ايفانوفنا بالقــرود ، وأولتها كل انتباهها ووقفت عليها كل اهتمــامها . وكانت تطلق صرخات صــغيرة فرحة ، وتتظاهر بأنهــا

لا ترى التمساح ، وتتسلى باكتشاف مشابهات بين هذا أو ذاك من هذه الحيوانات وبين فلان أو فلان من أصدقائها ومعارفها • وكنت أبتهج بذلك معها ، لأن تلك المشابهات كانت واضحة بارزة دائماً • أما الألماني فانه لم يعرف هل كان يجب عليه أن يضحك أو أن لا يضحك ، ولكنه أصبح عابس الهيئة كالح المزاج آخر الأمر •

وفي تلك اللحظة بعينها دوَّت في القاعة صرخة رهيبة ، بل صرخة يمكن أن أصفها بأنها خارقة للطبيعة • واذ لم أعرف كيف أفكر ولا ماذا أقدِّر ، فقد لبثت متجمداً في مكاني ، حتى اذا رأيت ايلينا ايفانوفنا تصرخ هي أيضاً ، أسرعت ألتفت ، فماذا رأيت ؟

يا لهول ما رأيت ! رأيت ايفان ماتفئتش العاثر الحظ قد أمسكه التمساحُ بفكيه من وسط جسمه ، ورفعه الى فوق ، فأخذ المسكين يحرك ساقيه في الفضاء حركات أفقية • وسرعان ما اختفى • ولكنني استطعت ، بسبب بقائي ساكناً جامداً لا أتحرك ، استطعت أن ألاحظ جميع تفاصيل الحادث بانتباه شديد ، واستطلاع محموم لم أشعر بمثله في يوم من أيام حياتي • لذلك سوف أستطيع أن أرويه لكم رواية دقيقة •

قلت لنفسي : « لشد ما كان سيزعجني أن أكون في محل ايفان ماتفئتش ! » •

ولكن فلنمض الى الوقائع : رأيت التمساح يحرك فكيه الرهيبين ببراعة وحذق ، فيشد اليه في أول الأمر قدمي المسكين ايفان ماتفئتش ، ثم رأيته يسمح له بأن يُفلت قليلاً ، لأن صديقي العالم كان يحاول أن ينجو وكان يتشبث بالحوض ، فما ان أفلت صديقي من بين فكي التمساح حتى عاد التمساح يبتلعه بسرعة حتى الحزام • ثم تركه يفلت مرة ثانية ، واستمر يبلعه مرةً بعد مرة تدريجياً ، بحيث رأينا ايفان ماتفئتش يغيب عن

أعيننا شيئاً بعد شيء ، الى أن بلعه كله في مرة أخيرة ، فكنا نستطيع أن نميِّز كيف كان يدخل في جوف التمساح قليلاً قليلاً .

وكدت أصرخ أنا أيضاً لولا أن القدر شاء أن يبذل التمساح جهداً آخر - ولعله فعل ذلك لتضايقه من ضخامة لقمة الغذاء هذه التي لم يألف مثلها - فاذا هو يفتح فمه الفظيع مرة أخيرة ، واذا نحن نستطيع أن نرى وجه قريبي العزيز المصاب الذي سقطت نظارتاه في بحيرة الماء وغارتا الى القاع . لكأن هذا الرأس لم يعد الى الظهور الا ليلقي نظرة أخيرة على أشياء هذه الأرض وأن يودِّع أفراح الحياة آخر وداع .

ولكن رأس قريبي لم يستطع حتى أن يحقق هذا الهدف ، فان التمساح سرعان ما استرد عزيمته ، وبذل كل ما يستطيع من جهد ، فاذا بالرأس يختفي الى الأبد . ان عودة هذا الرأس الانساني الى الظهور ، حياً في أغلب الظن ، منظر رهيب شنيع ، ومع ذلك فقد كان في هذا كله - تُرى أهي سرعة الاخفاء أم هو سقوط النظارتين - أقول لقد كان في هذا كله عنصر يبلغ من قوة الاضحاك أنني لم أستطع الا أن انفجر ضاحكاً . ولكنني اذ لاحظت أن الضحك في لحظة كهذه اللحظة خالٍ من الاحتشام - ألست صديق الأسرة ؟ - أسرعت أهتف قائلاً لايلينا ايفانوفنا في تعاطف حزين :

- ضاع عزيزنا ايفان ماتفئتش !

لن أحاول أن أصف شدة الانفعال الذي اجتاح المرأة الشابة أثناء وقوع هذه الحادثة . وحسبي أن أذكر أنها بعد أن أطلقت تلك الصرخة الأولى ، قد بدت متجمدة مشلولة ، فهي تنظر الى ما يحدث محملقة لا أكثر ، وكأنها غير مبالية ، ثم لم تلبث أن انفجرت تبكي في نحيب ونشيج ، فأمسكت يديها .

أما صاحب التمساح فقد جُنّ جنونه في تلك اللحظة من هول الضربة ، فأخذ يقرع يديه احداهما بالأخرى ، وراح يصيح رافعاً بصره الى السماء :

ــ آه ... آه ... تمساحي ! عزيزي كارل ! أمي ! أمي ! أمي !

فلما نادى صاحب التمساح هذا النداء ، فُتح الباب الذي يقع في آخر المكان ، وظهرت الأم واضعةً على رأسها قبعة . انها امرأة متقدمة في السن ، ترتدي ثياباً زاهية الألوان ولكنها مشعثة . وهرعت الأم نحو ابنها الألماني وهي تطلق صرخات حادة .

وكانت جلبةٌ رهيبة وضوضاء فظيعة . وكأن ايلينا قد مسّها جن أو أصابت عقلها لوثة ، فهي لا تزيد على أن تصرخ قائلة : « اقتلوه ! اقتلوه ! » ؛ وهي تندفع تارةً نحو الألماني وتارةً نحو أمه ، ضارعةً على غير شعور منها في أغلب الظن ، أن يقتلوا لا أدري من ، ولا أدري لماذا ! أما صاحب التمساح وأمه ، فلم يوليانا أي اهتمام ، ولم يلتفتا الينا أي التفات ، وانما هما يبكيان على طول الحوض كما يبكي عجلان .

ــ لقد هلك ! سوف ينفجر بين لحظة وأخرى ! بلع موظفاً بكامله !

كذلك كان يهتف صاحب التمساح . فتعول الأم قائلة :

ــ عزيزنا كارل ! عزيزنا كارل !

فيضيف صاحب التمساح :

ــ ها نحن أصبحنا أيتاماً بغير خبز !...

وتستمر ايلينا ايفانوفنا صائحة بغير كلال ولا ملال ، وهي تتشبث بطرف ردنجوت الألماني :

ــ اقتلوه ! اقتلوه !

فيقول الألماني وهو يتملص منها :

ـ وكان يغيظ تمساحي أيضاً . ما كان شأن زوجك بتمساحي حتى يغيظه ؟ لسوف تدفعين لي ثمن كارل اذا هو انفجر ! لقد كان ابني ، كان ابني الوحيد .

أعترف للقارىء أن أنانية هذا الألماني العابر وقسوة قلب أمه قد ساءتاني كثيراً . ومع ذلك فان الصرخات المتصلة التي كانت تطلقها ايلينا ايفانوفنا قائلة : « اقتلوه » اقتلوه ! » قد أقلقتني أكثر من ذلك ، وأصبحت تستأثر آخر الأمر بكل انتباهي . لقد ذُعرت حقاً !.

ذلك أنني قد أسأت تأويل هذه الصيحات . فقد خيّل اليّ أن ايلينا ايفانوفتش قد فقدت صوابها الى حين ، ولكنها تريد أن تثأر لعزيزها ايفان ماتفئتش ، فهي تطالب بحقها في ترضية ، وتنادي بأن يعاقب التمساح جلداً بالسياط . على حين أنها كانت تقصد غير هذا تماماً .

نظرت الى الباب خلسةً وأنا أشعر بشيء من الخجل والاضطراب ، ثم توسلت الى ايلينا ايفانوفنا أن تهدىء روعها ، وأن لا تستعمل ، خاصةً ، تلك الكلمة الفاضحة : « اقتلوه » ، لأن الافصاح عن رغبة رجعية الى هذا الحد ، في مكان كهذا المكان ، وسط « الممر » ، بين أناس مثقفين ، على بعد خطوتين من القاعة التي يلقي فيها السيد لافروف * محاضرته العامة في هذه اللحظة نفسها ، ان الافصاح عن مثل هذه الرغبة الرجعية في ظروف كهذه الظروف ليس أمراً غير معقول فحسب ، بل هو أمر غير مقبول أيضاً . ان من الممكن أن يجلب لنا الافصاح عن هذه الرغبة الرجعية سياط النقد اللاذعة يلهب بها السيد ستيبانوف * ظهورنا .

وسرعان ما صدقت مخاوفي من سوء الحظ . فها هو ذا الباب الذي

يُغلق الغرفة التي يُعرض فيها التمساح ، ها هو ذا يُشق ، فيظهر على العتبة شخص له لحية وشاربان ، ويحمل قبعته بيده ؟ وها هو ذا يميل نحونا بالنصف الأعلى من جسمه ، محتفظاً بنصفه الأسفل في الدهليز ، متحاشياً بذلك ضرورة أن يدفع ثمن بطاقة الدخول ؟ وها هو ذا يقول وهو يبذل جهوداً عظيمة في سبيل المحافظة على توازنه ، لابقاء جذعه في الغرفة التي نحن فيها مع ابقاء قدميه في الدهليز :

ـ يا سيدتي ، ان هذه الرغبة الرجعية التي تجيش في نفسك لا تشرّف عقلك وذكاءك ، ولا يمكن أن تكون الا ثمرة نقص في فوسفور دماغك . لسوف تظلين مزدراة محتقرة في مجلة « وقائع التقدم » ، وكذلك في صحائفنا الهجائية النقدية ...

ولكن الرجل لم يستطع أن يكمل كلامه . فان صاحب المحل قد ثاب الى رشده بسرعة ، فلاحظ مرتاعاً وجود هذا الشخص في قاعة التمساح بالمجان ، فهجم على هذا التقدمي المجهول حانقاً ، وطرده بضربات من قبضة يده . وغاب الرجلان وراء الباب ، وأدركت فجأة أن هذه الجلبة كلها لا محلّ لها ولا داعي اليها ، فان ايلينا ايفانوفنا بريئة كل البراءة من تلك النية التي ظُنَّت فيها ونُسبت اليها ، أعني أن تكون راغبةً في اذلال التمساح بمعاقبته ضرباً بالسياط ؟ وكل ما كانت تطالب به هو أن يفتح بطن التمساح لا نقاذ ايفان ماتفئتش .

أسرع صاحب المحل يقول قائلاً :

ـ أنت تريدين اذن موت تمساحي ! ألا انني لأوثر مائة مرة موت زوجك على موت تمساحي ... ان أبي قد عرض هذا التمساح . وان جدي قد عرضه أيضاً . وأنا أعرضه . وسوف يعرضه ابني . سيرى

جميع الناس هذا التمســاح ! أنا معــروف فى كل أوروبا التى تجهلك أنت ، وسوف تدفعين لى غرامة •

وقالت الألمانية وقد جُنَّت غضباً :

ـ نعم ! نعم ! لن ندعك تنصرفين قبل أن تدفعى لنا تعويضاً ، لأن عزيزنا كارل سوف ينفجر !

وأضفت أقول بهدوء كبير وأنا أحاول أن أقود ايلينــا ايفانوفنا الى مسكنها :

ـ ثم ان قتل التمســاح لا جدوى منه ، لأن عزيزنا ايفان ماتفئتش لا بد أن يكون الآن محلقاً فى العالم الآخر •

فما كان أشــد دهشتى حين ســمعت صوت ايفــان ماتفئتش يقول فجأة :

ـ فى رأيى أن الأفضل أن تستعينوا بالشرطة ، لأن تدخل القــوة الحكومية يستطيع وحده اقناع هذا الألمانى •

ان هذه الكلمات التى نطق بها ايفان ماتفئتش بقوة وصلابة والتى تدل على أن له بديهة حاضرة خارقة ، قد بلغت من ادهاشنا واذهالنا أننا لم نشأ فى اللحظة الأولى أن نصدق آذاننا • ومع ذلك أسرعنا نقترب من الحوض الذى كان يرقد فيه التمساح ، وأخذنا نصغى الى كلام السجين المسكين بانتباه شديد وان كان يخالطه شىء من شك وريب •

كان فى صوته تحول ، كأنه آت من مكان بعيد جداً ، أو كأنه صوت رجل ممازح تربص فى الغرفة المجاورة ووضع فمه على وســادة وأخذ يصيح مقلداً حديث اثنين من الفلاحين يتخاطبــان عبر وادٍ من الوديان

ليخدع بذلك جمهوراً موجوداً في الغرفة الأخرى ، وتلك لعبة أتيح لى أن أشهدها ذات مرة أثناء عيد الميلاد عند أناس من أصدقائى •

تمتمت ايلينا ايفانوفنا تسأله :

ـ ايفان ماتفئتش ، صديقى ، أأنت حى اذن ؟

فأجابها ايفان ماتفئتش :

ـ نعم ، أنا حى ، وعلى أحسن حال من الصحة والعافية ؛ فبفضل رعاية الله وحمايته ، بلعنى التمساح دون أن يلحق بى أى خراب • شىء واحد يقلقني : كيف سينظر رؤسائى الى هذا الأمر ، وكيف عساهم يواجهونه ؟ ذلك أننى حصلت على جواز سفر الى الخارج ، وهأنا ذا الآن في جوف تمساح ، دون أن يكون ذلك منى مكراً أو خديعة •••

قاطعته ايلينا ايفانوفنا قائلة :

ـ ولكن يا صديقى ليس مهماً أن يكون في ذلك مكر أو أن لا يكون فيه مكر ، وانما المهم اخراجك ا•••

فصاح صاحب التمساح يقول :

ـ اخراجه ؟ لن أسمح لأحد بأن يمس تمساحى • سوف يتكاثر الجمهور هنا بعد الآن تكاثراً عظيماً ، حتى ليسحق الناس بعضهم بعضاً من شدة الزحام • سأجعل ثمن تذكرة الدخول خمسين كوبكاً ، ولن يكون كارل في حاجة الى طعام •

قالت الأم :

ـ شكراً لله وحمداً !

قال ايفان ماتفئتش :

ـ هما على حق ، فانما ينبغى أن ننظر الى الأمور نظرةً اقتصادية قبل كل شيء •

صرخت أقول :

ـ يا صديقى ، سأذهب الى رؤسائنا فوراً لتقديم شكوى ، ذلك أننى أرى أننا لن نستطيع أن نحل هذه القضية وحدنا •

أجاب ايفان ماتفئتش :

ـ هذا رأيى أنا أيضاً ، ولكن من الصعب فى هذه الفترة التى استحكمت فيها أزمة اقتصادية ، أن يُفتح بطن تمساح دون دفع تعويض• ولهذا السبب هناك سؤال لا يمكن تفادى طرحه : كم يطلب صاحب التمساح هذا ثمناً لتمساحه ؟ وهناك سؤال آخر ملحق بالسؤال الأول : من ذا الذى سيدفع المبلغ ؟ ذلك أنك تعرف أننى لا أملك ثروة •••

جمجمت أقول خجلاً :

ـ الا أن نأخذ سلفةً على رواتبك •••

ولكن سرعان ما قاطعنى صاحب التمساح قائلاً :

ـ لن أبيع تمساحى • لن أبيعه بثلاثة آلاف روبل ••• سوف يكثر الجمهور الآن • يجب أن تدفعوا لى خمسة آلاف روبل •

كان صاحب التمساح يقول هذا الكلام فرحاً كل الفرح • وكان الطمع الشديد والبخل الوقح يُقرءان فى وجهه •

صرخت أقول مستاءً :

ـ كفى ! أنا ذاهب !

فقالت ايلينا ايفانوفنا باكيةً :

ـ وأنا أيضاً ، وأنا أيضاً !... سوف أذهب الى آندره أوسيبتش بنفسى ، فأؤثر فيه بدموعى !...

فقاطعها ايفان ماتفئتش قائلاً بقوة :

ـ لا ... لا هذا يا عزيزتى !

ذلك أن ايفان ماتفئتش كان يغار على امرأته من هذا الرجل غيرة شديدة منذ زمن طويل . كان ايفان ماتفئتش يعرف أن زوجته تحب كثيراً أن تذهب الى رجل مثقف فتأخذ تبكى أمامه ، لأن الدموع تناسبها كثيراً .

واصل ايفان ماتفئتش كلامه مخاطباً اياى :

ـ لا ولا أنصحك أنت أيضاً بهذا ! لا يدرى أحد ما الذى يمكن أن ينتج عن مسعى كهذا المسعى . ولكن اذهب اليوم الى تيموتى سيميونتش ، فهو رجل متخلف العادات ، شديد الغباء ، والأهم من ذلك أنه على جانب عظيم من الاستقامة . أبلغه سلامى واقصص عليه هذا الحادث بكل تفاصيله ، وأعطه فى الوقت نفسه سبعة روبلات كان قد ربحها منى حين لعبنا بالورق آخر مرة معاً . ان هذه البادرة لا يمكن الا أن تحدث أثراً حسناً فى قلب هذا الشيخ . فقد يسدى الينا عندئذ بنصيحة حسنة . وبانتظار ذلك ، أعد ايلينا ماتفئنا الى البيت .

ثم أضاف ايفان ماتفئتش مخاطباً امرأته :

ـ هدئى روعك يا عزيزتى ! ان هذه الصرخات التى تطلقها النساء تتعبنى ، وأنا أحب أن أرتاح قليلاً . يضاف الى ذلك أن الجو هنا لطيف حلو ، رغم أننى لم أستطع حتى الآن أن أعرف نفسى فى هذا المأوى الذى وجدتنى فيه على حين فجأة .

ـ تعرف نفسك ؟ أأنت ترى شيئاً فى هذا المكان ؟

كذلك سألته ايلينا ايفانوفنا صائحة بفرح شديد •

فأجابها الأمير الشقى :

ـ ظلمات كثيفة تحيط بى ، ولكنى أستطيع أن أتلمس ، أستطيع أن أرى بواسطة يدىّ ان صح التعبير • الى اللقاء • كونى هادئة ، ولا تحرمى نفسك من التسلية • الى الغد ! أما أنت يا سيميون سيميونتش فتعال الىّ هذا المساء • ومن أجل أن لا تنسى ذلك ، لأنك شديد الذهول كثير النسيان ، فاربط اصبعك بخيط •

أعترف لكم بأننى لم يسؤنى أن أستطيع الانصراف ، لأننى كنت أشعر بتعب ، ولأن الأمر أخذ يضجرنى • فسارعت أقود ايلينا ايفانوفنا الى خارج المحل •

صاح صاحب التمساح يقول لنا :

ـ سيكلفك الدخول فى هذا المساء خمسة وعشرين روبلاً أيضاً•

قالت ايلينا ايفانوفنا وهى تنظر الى وجهها فى جميع مرايا «الممر» ، فتلاحظ بسرور واضح أن هذه الهزة انما زادتها جمالاً :

ـ يا الهى ! ما أشد طمع هؤلاء الناس !

فأجبتها وأنا أشعر بشىء من الانفعال وكثير من الاعتزاز بسيدتى :

ـ هذه وجهة النظر الاقتصادية •

فقالت وهى تجر صوتها اللطيف الحلو جراً :

ـ وجهة النظر الاقتصادية ؟ اننى لم أفهم شيئاً مما قاله ايفان ماتفئتش منذ قليل فى موضوع وجهة النظر الاقتصادية الكريهة هذه !

قلت لها :

ـ سأشرح لك الأمر •

وأخذت أفيض في الكلام على النتائج المفيدة التي تنتج عن تجمع رءوس الأموال الأجنبية في بلادنا ، لا سيما وأنني كنت قد قرأت في ذلك الصباح نفسه مقالات في هذا الموضوع في جريدة « أنباء سان بطرسبرج » وفي جريدة « الشعرة » * •

فأصغت الى كلامي بعض الوقت ، ثم قاطعتني قائلة :

ـ ما أغرب هذا كله ! هلاّ كففت حالاً ، أيها الشقي ، عن قص هذه السخافات كلها ! قل لي : أأنا محمرة الوجه كثيراً ؟

فانتهزت هذه الفرصة لأطري جمالها فقلت :

ـ لست محمرة الوجه ، بل أنت رائعة فاتنة !

فدمدمتْ تقول مفتتنة :

ـ يا لك من رجل خالع العذار !

ثم أضافت تقول بعد صمت وهي تحني رأسها على كتفها برقة ورشاقة :

ـ شدّ ما أرثي لحاله ، صديقي المسكين •

ثم قالت بغتةً :

ـ ولكن رباه ! قل لي : كيف عساه يأكل هناك ••• و ••• و •• هبه احتاج الى شيء ما ••• فما عساه يفعل ؟

فأجبتها مرتبكاً بعض الارتباك :

ـ سؤالك يأخذني على حين غرة •

والحق أن هذا الأمر لم يكن قد خطر لي ببال • ألا ان النساء ليتفوقن على الرجال تفوقاً كبيراً في الروح العملية اذن حين يكون الأمر أمر مسائل الحياة !

وأضافت السيدة تقول :

ـ مسكين ! ثم ما الذي حمله على أن يندس هناك ! لا شك أنه محروم من جميع التسليات فى وسط تلك الظلمات ! وما قولك فى اننى لا أملك صورة فوتوغرافية له ! آه ... هأنا ذا أرملة أو شبه أرملة !

قالت ذلك وابتسمت ابتسامة ساحرة تدل على مدى ما تبدو لها حالتها الجديدة شائقة .

وأردفت :

ـ هِمْ ... اننى لأرثى لحاله كثيراً مع ذلك ...

هكذا كانت تعبّر عن ذلك القلق الطبيعى جداً الذى تشعر به امرأة شابة شائقة زال زوجها منذ قليل . مضيت بها الى بيتها ، فسألتنى أن أمكث معها لتناول العشاء . واستطعت أخيراً ، بعد احتساء فنجان قهوة طيبة ، أن أهدّئها ، وانصرفت فى الساعة السادسة لأذهب الى تيمونى سيميوفتش مقتنعاً بأن جميع الرجال الذين لهم أسرة ولهم فى الوقت نفسه مركز محترم لا بد أن يكونوا فى منازلهم فى تلك الساعة .

كتبت هذا الفصل الأول بالأسلوب الذى يناسب قصتى . ولكننى قررت أن استعمل فيما سيلى لهجة أقل رفعةً ، ولكنها طبيعية أكثر ، وانى لأنبّه القارىء الى ذلك على النحو الذى توجبه الاستقامة .

٢

استقبلني تيموتى سيميوتش المحترم بشىء من الاهتمام ، ولـكن مع شىء من الاضـطراب . قـادنى الى غـرفة مكتبـه ، فأغلق بابهـا باحـكام ، « حتى لا يزعجنـا الأولاد » على حـد تعبـيره . قـال ذلك وقد بدا عليه غير قليل من القلق .

أجلسنى على كرسىٍ قرب مكتبـه ، وجلس هو على مقعد ، ولمّ حافات معطف المنزل الذى كان يرتديه ، وهو معطف مبطن بالقطن ذو زنار ، واصطنع هيئة قاسية بل استطيع أن أقول هيئةً رسميةً ، مع أنه لم يكن رئيسى ولا رئيس ايفان ماتفئتش ، وانما كان رفيقنا لا أكثر .

ثم قال :

ـ لاحظ أولاً أننى لست رئيسـاً ، وانما أنا مرءوس مثلك ومثل ايفان ماتفئتش ... ذلك كله لا يعنينى ولا أريد أن أتدخل فى شىء .

ذُهلت . لا شك انه كان اذن على علمٍ بالقصة كلها قبل أن أصل اليه . ومع ذلك حكيت له الحكاية تفصيلاً . وكنت أتكلم بلهجة فيهـا انفعال ، لأننى كنت أقوم بواجب مقـدس نحو صديق حقيقى . فأصغى الىّ بدون دهشة ، ولكن كانت تبدو عليه امارات ارتياب واضحة .

فلما أنهيت كلامى قال لى :

ـ هل تصدّق اذا قلت لك اننى كنت أتنبأ دائمـاً بأن حادثاً كهذا الحادث سيقع لايفان ماتفئتش ؟

فقلت اسأله :

ـ كيف هذا يا تيموتي سيميونتش ؟ يخيَل الىّ مع ذلك أن هذه الحادثة خارقة للعادة جداً ...

قال :

ـ موافق . ولكن قل لى : ألم تكن كل حياة ايفان ماتفئتش تتجه الى نتيجة كهذه النتيجة ؟ لقد كان جسوراً جسارة تشبه أن تكون وقاحة، ولم يكن فى فمه كلمة غير كلمة « التقدم » ، وكانت له أفكار أخرى كثيرة ... فانظر ! الىأين يقودنا ، هذا التقدم !

ـ ولكن يخيَّل الىّ أن هذا الحادث الطارىء ، العرضى تماماً ، لا يمكن اعتباره قاعدة عامة تصدق على جميع التقدميين ...

ـ الأمر كذلك شئت أم أبيت . صدقنى . ليس هذا كله الا نتيجة الافراط فى الثقافة . ان الذين يعرفون أكثر مما يجب أن يعرفوا يحشرون أنفسهم فى كل مكان، ويمضون حتى الى حيث لا يناديهم أحد ولا يطلبهم أحد .

وأضاف يقول كمن يشعر بأنه أسيء اليه أو أهينت كرامته :

ـ من الممكن أن تكون أعلم منى بهذا الأمر مع ذلك ، فلست أبلغ مبلغك من الثقافة ، وأنا امرؤ عجوز ، وما دخلت الجيش منذ خمسين سنة الا بصفتى ابن جندى من الجنود !

ـ ولكنك أسأت فهمى يا تيموتي سيميونتش . بالعكس تماماً ، ان ايفان ماتفئتش يسألك أن تسدى اليه بنصائحك وأن تحميه ، وهو يسألك ذلك والدموع فى عينيه ان صح التعبير !

ـ هِمْ ... والدموع فى عينيه ! ما هذه الدموع الا دموع التماسيح ، فلا ينبغى للمرء أن يثق بها وأن يركن اليها كثيراً . غريب !

ما كانت حاجته الى السفر الى الخارج ؟ وبأى مال يسافر ؟ انه لا يملك حتى المال اللازم للسفر ! ...

قلت بلهجة شاكية :

ـ ادخر بعض المال بالتوفير يا تيموتى سيميونتش . وقد تقاضى مكافأته الأخيرة فكنزها ولم يمسسها . ولم يكن فى نيته أن يغيب الا ثلاثة أشهر ، ليزور سويسرة ، بلاد غليوم تل ...

ـ أى غليوم تل ؟ ... هم ...

ـ كان يريد أن يتمتع بالربيع فى نابولى ، وأن يزور المتاحف ، ويرى العادات والأخلاق ، ويشاهد الحيوانات ...

ـ هم ! ... الحيوانات ؟ فى رأيى أنه كان لا يريد أن يسافر الا زهواً وعُجْباً . الحيوانات ؟ أى حيوانات ؟ أليس فى بلادنا حيوانات كافية ؟ ان عندنا متاحف ، ومعارض حيوانات ، وجمالاً . والدببة تعيش على بعد خطوتين من بطرسبرج . وهو نفسه يسكن الآن فى جوف تمساح ...

ـ تيموتى سيميونتش ! رحماك ! ان هذا الرجل قد ألمت به نازلة ! وهو يناشدك صديقاً ، كما يناشد قريباً له أكبر منه سناً ... أيسألك النصح ثم تأخذ تلومه وتقرّعه ؟ هلاّ رحمت ايلينا ايفانوفنا على الأقل ؟! ...

ـ أعن زوجته تتكلم ؟ انها امرأة رائعة !

كذلك قال تيموتى سيميونتش وقد لان ليناً واضحاً ونشق نفساً من دخان التبغ . وتابع كلامه يقول :

ـ هى انسانة رقيقة جداً ... ما أجمل رأسها حين تميل به على كتفها ! ... وما ألطف تدور جسمها ... انها لذيذة جداً . أمس الأول كان يتكلم عنها آندره أوسيبتش .

ـ كان يتكلم عنها ؟

ـ نعم ، ويطريها اطراءً عظيماً . كان يقول : « يا للصدر الناهد ! يا للنظرة النافذة ! يا للشعر الجميل ! هي حلوى من الحلاوى ، هذه السيدة ! » حتى لقد ضحك ... ان هذا السيد ما يزال شاباً . فانظر كيف يعيش هذا السيد حياته ...

ـ ولكن ليس هذا هو الموضوع يا تيموتي سيميونتش !

ـ طبعاً ، طبعاً !

ـ فما العمل يا تيموتي سيميونتش ؟

ـ ما حيلتي أنا ؟

ـ انصحنا ، وجِّهنا ، من حيث أن لك خبرة ، من حيث أنك قريب . كيف يجب علينا أن نتحرك ؟ الى أية جهة يجب علينا أن نلتفت ؟ أنبلغ الرؤساء ، أم ...

هنا صاح تيموتي سيميونتش بقوة يقول :

ـ تبلغون الرؤساء ؟ أبداً . اذا كنتم تسألونني النصح فأنا أنصحكم بأن تخنقوا هذه القضية ، أن تكتموها ، أن لا تعملوا الا على نحو خاص جداً . ان لهذه الحالة صفة خاصةً ، وان لها طابعاً مريباً . ان هذه الحادثة تقع أول مرة ، ولا يمكن الا أن تسيء الى سمعة الموظف الذى وقعت له . لذلك يجب قبل كل شيء أن لا تتصرفوا فى الأمر الا بكثير من الحيطة والحذر والحكمة . ينبغى له أن لا يتحرك ... ينبغى له أن ينتظر ... أن ينتظر ...

ـ ينتظر ؟ ولكن كيف يا تيموتي سيميونتش ؟ ماذا لو اختنق فى جوف التمساح ؟

ـ لماذا يختنق ؟ ألم تقل لى منذ هنيهة انه استقر هنالك استقراراً مريحاً ؟

عدت أقص الحكاية من جديد • وفكّر تيموتى سيميونتش ملياً • ثم قال وهو يقلب علبة التبغ بين أصابعه :

ـ هم ... يخيل الىّ أنه يحسن صنعاً اذا بقى حيث هو ، بدلاً من أن يسافر الى الخارج • فى وقته متسع للتفكير • طبعاً ... يجب أن لا نتركه يختنق هناك ، ويجب أن تتخذ الاجراءات اللازمة للمحافظة على صحته • يجب عليه مثلاً أن يحاذر التعرض للزكام ... أما فيما يتعلق بالألمانى فأحسب أن الألمانى على حق ، بل وأحسب أنه على حق أكثر من خصمه • ان خصمه هو الذى دخل الى تمساحه بغير اذن منه ، وليس هو الذى دخل الى تمساح ايفان ماتفئتش الذى لا يملك تمساحاً على كل حال اذا صدق ظنى • والألمانى يملك التمساح ، فلا يمكن والحالة هذه فتح بطن التمساح دون دفع تعويض للمالك •

ـ ولكن الأمر أمر انقاذ انسان يا تيموتى سيميونتش !

ـ هذا من شأن الشرطة ، فالى الشرطة انما يجب أن تتجهوا •

ـ ولكن قد يحتاجون اليه فى المكتب فيسألون عنه ويطلبونه •

ـ يحتاجون الى ايفان ماتفئتش ؟ هىء هىء ! أولاً ، هو يُعدّ الآن فى اجازة • المفروض أنه يزور الآن أوروبا ، وفى وسعنا أن نجهل ما الذى يعمله فى الواقع • وسيختلف الأمر حين لا يلتحق بعمله فى الوقت المعيّن • فعندئذ نسجل غيابه رسمياً ، ونفتح تحقيقاً !...

ـ بعد ثلاثة أشهر ! رحماك !...

ـ اذا كانت حالته سيئة ، فالذنب فى ذلك ذنبه • من ذا الذى دفعه الى هناك دفعاً ؟ من ذا الذى حمله على ذلك حملاً ؟ قد يكون من الواجب أن نعيّن له حارساً على نفقة الدولة ، وذلك مخالف للأنظمة • ولكن الأمر الذى يجب أن ننظر فيه قبل كل شىء آخر هو أن التمساح ملكٌ

لصاحبه ، وأن المبدأ الاقتصادى هو موضع البحث تبعاً لذلك . ان المبدأ الاقتصادى يعلو كل شىء . أمس ، كان اجناتى بروكوفتش يتحدث فى هذا الموضوع عند لوكاس آندرتش . هل تعرف اجناتى بروكوفتش ؟ انه رأسمالى كبير يتعاطى أعمالاً ضخمة ويجيد التعبير عن آرائه . كان يقول : « نحن فى حاجة الى صناعة . فلا وجود للصناعة عندنا ان صح التعبير . فيجب علينا اذن أن نخلق الصناعة ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف يجب أن نخلق طبقة بورجوازية . ولما كنا لا نملك رءوس أموال ، فيجب الاتيان برءوس الأموال من الخارج . فعلينا اذن ، قبل كل شىء ، أن نتيح للشركات الأجنبية أن تشترى أراضينا أجزاء أجزاء، كما يحدث هذا فى كل مكان فى البلاد الأجنبية . ان التملك الجماعى * هو السم القاتل ، هو الآفة الكبرى ، هو خراب روسيا ! » . وكان يتكلم بحماسة شديدة. ذلك يناسب هؤلاء الناس الذين هم أغنياء ، ولا يعملون فى وظائف الدولة ... هو يقول انه لا الصناعة ولا الزراعة يمكن أن تزدهرا ما بقى شيوع التملك هنا . هو يريد أن تشترى الشركات أرضنا كلها أقساماً ، بغية أن تجزئها حصصاً صغيرة جداً تبيعها بعد ذلك فتتألف منها ملكيات فردية . وكان يستعمل لهجة حاسمة قاطعة جازمة وهو ينطق بكلمة : « تق ... سيم » . واذا لم نعمد الى البيع ففى امكاننا الاكتفاء بالتأجير . وأضاف يقول : « متى أصبحت أرضنا كلها فى أيدى شركات أجنبية ، سهل تحديد نصيب الفلاح ، وبذلك يكون على الفلاح أن يعمل ليجنى رزقه ، ويكون من الممكن طرده من هذه الأرض أو من تلك عند الضرورة . فاذا شعر بهذا الخطر ، أصبح أكثر احتراماً وأكثر طاعة ، وأنتج من العمل ثلاثة أضعاف ما ينتجه منه الآن بسبب كونه جزءاً من جماعة فيستطيع لذلك أن يستخف بكل شىء . هو يعلم الآن أنه لن يموت جوعاً ، لذلك نراه يتكاسل وينصرف الى السكر .

أما بالأسلوب الجديد فان المال سيعود الينا ، وستجيء البورجوازية برءوس أموالها . ثم ان « التايمز » ، الجريدة الأدبية والسياسية التى تصدر فى لندن ، قد أعلنت ، فى دراسة نشرتها عن صحفنا ، أنه اذا كانت رءوس أموالنا لا تزداد ، فلأننا تصوزنا الثروات الضخمة والبروليتاريا المتنجة ... » . ان اجناتى بروكوفتش يحسن الكلام جداً . انه خطيب حقاً . فى نيته أن يقدم مذكرةً الى السلطات العليا ، مذكرة سينشرها بعد ذلك فى جريدة « الأنباء » . نحن بعيدون عن مشكلات ايفان ماتفئتش الشعرية ...

قاطعته أقول :

ـ طيب . فماذا نحن فاعلون من أجل ايفان ماتفئتش ؟

لقد تركت الرجل العجوز يثرثر ، لعلمى بأن هذه آفة من آفاته ، وبأنه لا يسوؤه أن يظهر أنه ليس متخلفاً ، وأنه مطلع على كل شيء .

قال :

ـ ماذا نحن فاعلون من أجل ايفان ماتفئتش ؟ ولكن كل ما قلته يرتبط به ويدور عليه . اننا نبذل جميع جهودنا لاحضار رءوس الأموال الأجنبية الى بلادنا ، فما كادت تتضاعف ثروة مالك التمساح بسبب ايفان ماتفئتش حتى أصبحنا نطمع فى أن نفتح بطن هذا التمساح ! فهل هذا معقول ؟ فى رأيى ، من حيث أنا ابن صالح من ابناء الوطن ، أن على ايفان ماتفئتش أن يغتبط وأن يعتز بأنه استطاع أن يضاعف قيمة تمساح أجنبى ضعفين اثنين بدخوله فيه . ضعفين اثنين ؟ بل ثلاثة أضعاف ! واذا نجح صاحب هذا التمساح ، فسيأتى رجل ثانٍ بتمساح آخر ، ثم يجيء ثالث بتمساحين أو ثلاثة ، فتتجمع حولهم رءوس الأموال ، فاذا بنا نرى بداية نشوء طبقة بورجوازية . وليس يملك المرء الا أن يشجع هذه الحركة ، بل ليس يفيها المرء حقها من التشجيع مهما شجعها .

صحت أقول :

ــ ولكن هذه التضحية التى تطلبها من هذا المسكين ايفان ماتفئتش تكاد تكون فوق طاقة البشر يا تيموتى سيميونتش •

ــ أنا لا أطلب شيئاً ، وأرجوك أن تتذكر أننى لست رئيساً ، وهذا ما قلته لك من قليل • ويترتب على ذلك أننى لا أطلب شيئاً البتة • وانما أنا أتكلم كلام ابن من ابناء الوطن ، لا كلام جريدة « ابن الوطن » * ، بل كلام ابن أبناء الوطن فحسب • ثم اننى أعود فأسألك : ما الذى أمره بأن يحشر نفسه فى جوف ذلك التمساح ؟ هل يجوز لرجل جاد ، لرجل ذى رتبة ، لرجل متزوج زواجاً شرعياً ، أن يقوم بمغامرة كهذه المغامرة ؟ ما هذا الذى فعله ؟

ــ ولكن الأمر مستقل عن ارادته استقلالاً تاماً !

ــ من يدرى ؟ ثم بأى حال يمكن دفع التعويض لمالك التمساح ؟

ــ من مرتبات ايفان ماتفئتش •••

ــ أهى تكفى ؟

قلت بحزن :

ــ لا تكفى وا أسفاه يا تيموتى سيميونتش ! فى أول الأمر كان صاحب التمساح يخشى على حيوانه أن ينفجر ، حتى اذا تأكد من أن كل شىء يجرى على ما يرام ، أخذ يتجبر ويتغطرس ، وراح يتلذذ بالمطالبة بمضاعفة الثمن الذى طلبه فى أول الأمر •

ــ فى وسعه أن يضاعفه ثلاثة أضعاف أو أربعة ! ان الناس سيتدفقون أفواجاً كبيرة ، وأصحاب التماسيح هؤلاء أناس بارعون • ثم اننا فى موسم الكرنفال ، والناس ينشدون التسلية ، فلهذا السبب نفسه يجب على ايفان ماتفئتش أن يظل أمره مجهولاً وأن لا يتعجل • فليعرف

ـ كيف يمكن أن يكون هناك سابقة وهذا أول تمساح حي يؤتى به الى بطرسبرج يا تيموتى سيميونتش ؟

قال :

ـ هِمْ ... حقاً ؟

واسترسل فى التفكير من جديد . ثم واصل :

ـ بمعنى من المعانى يمكن أن تعد ملاحظتك صحيحة ، ويمكن أن تتخذ أساساً لمتابعة القضية . ولكن عليك أن تلاحظ من ناحية أخرى أنه اذا كان ظهور هذه التماسيح الحية سيورث الموظفين ميلاً الى الاعتكاف فى جوفها ، فاذا هم يطلبون ، بحجة أن الحياة فيها ممتعة ، أن يوفَدوا اليها بمهمات بغية أن يقضوا هنالك وقتهم راقدين على جنوبهم ، فسيكون هذا قدوة سيئة. اعترف بهذه الحقيقة . سيمضى جميع الناس بعدئذ الى أجواف التماسيح يقبضون مالاً ولا يقومون بعمل .

ـ افعل كل ما تستطيع أن تفعله يا تيموتى سيميونتش ! وبالمناسبة : لقد رجانى ايفان ماتفئتش بأن أدفع لك سبعة روبلات يدين لك بها من ربحك فى لعبه معك .

ـ آ ... نعم ... لقد خسرها منذ مدة عند نيكيفور نيكيفورتش ... أتذكر هذا . ما كان أشد مرحه فى ذلك المساء ... وما أكثر ما أضحكنا ! والآن ...

وتأثر العجوز تأثراً صادقاً .

ـ عِدْنى بأن تهتم بالأمر يا تيموتى سيميونتش .

ـ سأهتم . سأتكلم باسمى أنا . سأعرف كيف أتصرَّف .

سأتظاهر بأنني أستعلم وأستفهم • بالمناسبة : اسأل عن الثمن الذى يطلبه صاحب التمساح •

لقد رقّ تيموتى سيميونتش رقة ملحوظة •

قلت له :

ـ لن يفوتنى أن أسأل صاحب التمساح عن الثمن الذى يطلبه ، ثم أجىء اليك فوراً لأطلعك على ما سيقوله لى •

ـ وزوجته ••• ها هى اذن أصبحت وحيدة !••• أهى تشعر بضجر ؟

ـ فى وسعك أن تزورها يا تيموتى سيميونتش •

ـ لِمَ لا ؟ وقد فكرت فى هذا فعلاً ، وأرى أن المناسبة حسنة••• ولكن ما هذه الفكرة ، ما هذه الفكرة التى راودتهم فذهبوا يرون التمساح ؟ على أننى أنوى أن أذهب أنا أيضاً لرؤيته •

ـ نعم يا تيموتى سيميونتش • اذهب الى هناك •

ـ سأذهب • ولكننى لا أريد أن يساور ايفان ماتفئتش أى أمل فى هذا المسعى • اننى لا أقوم به الا من حيث أنا فرد • هيَّا ، الى اللقاء• انا ذاهب الى نيكيفور نيكيفورتش • هل تكون هنالك ؟

ـ لا بل سأكون فى زيارة السجين •

ـ نعم ، السجين ، آه من الخفة والطيش !

ودّعت العجوز • كانت خواطر كثيرة تزدحم فى رأسى • ان تيموتى سيميونتش رجل طيب ، ولكن هذا لا ينفى أننى حين تركته

أبهجني أن أتذكر أنه قد تجاوز الخمسين من عمره ، وأن أمثال تيموتي سيميونتش ليسوا كُثُراً بيننا .

وطبيعي أنني أسرعت أذهب الى « الممر » ، لأحمل الأنباء الى المسكين ايفان ماتفئتش . يضاف الى ذلك أنني كنت احترق شوقاً الى أن أعرف كيف استقر له المقام في جوف التمساح ، وهل الحياة هنالك محتملة . الحياة في جوف تمساح ! وكان يخيل في بعض اللحظات أنني لعبة في يد حلم شيطاني ! وا أسفاه ! ان الأمر أمر شيطاني حقاً ...

٣

ولكن لم يكن حلماً ، بل كان واقعاً لا سبيل الى تفاديه. والا فهل كان يمكن أن أشرع فى شرد قصته ؟

حين وصلت الى «المعرِ» كان الوقت متأخراً يقارب الساعة الثامنة . ومن أجل أن أبلغ الحجرة التى يُعرض فيها التمساح ، اضطررت أن أمرّ بسلم الخدمة ، لأن الألمانى قد أغلق المحل قبل موعد الاغلاق .

كان الألمانى ، وقد ارتدى ردنجوتاً عتيقاً متسخاً ، يسير طولاً وعرضاً ، ويبدو راضياً مرتاحاً أكثر مما كان يبدو كذلك فى الصباح . ان المرء يحس أنه مطمئن . لا بد أن ناساً كثيرين قد جاءوا . ثم دخلت الأم ، وكان واضحاً أنها انما دخلت لتراقبنى . وأخذت تتهامس مع ابنها الذى حملنى فعلاً على أن أدفع له خمسة وعشرين كوبكاً رغم أن المحل كان قد أغلق . ان هذا الرجل مبالغ فى حب النظام . قال لى :

ـ ستدفع كلما جئت . ولكنك لن تدفع الا خمسة وعشرين كوبكاً ، رغم أن كل فرد من أفراد الجمهور العادى سوف يدفع روبلاً كاملاً ، وذلك لأنك تبدو صديقاً وفياً لصاحبك ، وأنا أقدر فيك هذا الوفاء .

صرخت أقول وأنا أدنو من حوض التمساح ، آملاً أن تصل كلماتي الى مسامع ايفان ماتفئتش وأن ترضى غروره •

ـ هل أنت حي ؟ أأنت على قيد الحياة يا صديقي العزيز العالم ؟

فأجابني بصوت مختنق كأنه صوت آتٍ من تحت سرير ، رغم انني كنت قريباً منه كل القرب :

ـ أنا حي ، وصحتي جيدة • حي وصحتي جيدة • ولكننا سنتكلم على هذا فيما بعد • قل لي قبل كل شيء : كيف تسير أمورنا ؟

تظاهرت بأنني لم أسمع ، وأسرعت أسأله ، بلهجة فيها روح التعاطف والاشفاق : كيف حاله في جوف التمساح ؟ وماذا يوجد هنالك ؟ والحق أن سؤاله عن هذه الأمور لم يكن الا واجباً من واجبات الصداقة ، بل ولم يكن الا تقيداً بقاعدة من قواعد الأدب والكياسة • ولكنه قاطعني نافدَ الصبر مستاءً ، ليصرخ قائلاً لي بلهجة الأمر المعهودة فيه ، المألوفة عنده :

ـ كيف تسير الأمور ؟ الأمور ؟

وبدا لي صوته النحيل مزعجاً جداً •

فحكيت له ، بأدق التفاصيل ، الحديث الذي جرى بيني وبين تيموتي سيميونتش ، محاولاً في الوقت نفسه أن أسبغ على لهجتي شيئاً من التعبير عن الاستياء والامتعاض •

قال ايفان ماتفئتش يختم الكلام بلهجة فيها ذلك الجفاء نفسه الذي كان يستعمله دائماً في مخاطبتي :

ـ العجوز على حق ••• انني أحب الناس العمليين ، ولا أطيق احتمال الضعفاء • على أنني اعترف لك طائعاً بأن فكرتك عن ايفادي بمهمة ليست سخيفةً الى الحد الذي يتراءى للمرء من أول وهلة • ذلك

أننى أستطيع هنا فعلاً أن أقوم بملاحظات هامة جداً شائقة جداً ، سواء من الناحية العلمية ومن الناحية الأخلاقية ... ولكن هذه القضية تجرى الآن مجرى لم يكن فى الحسبان ، وليست الرواتب وحدها هى ما يجب أن نشغل بالنا به . أصغ الىّ منتبهاً انتباهاً شديداً . أأنت جالس ؟

ـ بل واقف .

ـ اجلس فى أى مكان ، ولو على الأرض وأصغ الىّ بانتباه شديد.

زخرت نفسى بغضب قوى ، فتناولت كرسياً ، ووضعته على أرض الحجرة محدثاً قرقعةً صاخبة .

استأنف ايفان ماتفئتش كلامه مستمراً على اصطناع لهجة رئيس :

ـ لقد وفد اليوم جمهور كبير جداً . ورأى صاحب التمساح أن من الضرورى اغلاق المحل فى الساعة الثامنة ، أى قبل موعد اغلاقه عادةً ، وذلك ليستطيع أن يحصى الخزنة ، وأن يتخذ الاجراءات اللازمة ليوم الغد . علينا أن نفترض أن علماء الرجال ، وسيدات المجتمع الراقى، والسفراء ، والمحامين ، وغيرهم ، سيجيئون غداً . وليس هذا كل شىء . ان سكان مختلف المقاطعات والأقاليم من امبراطوريتنا الواسعة الرائعة أخذوا يزحفون نحو العاصمة . وسأصبح محل أنظار الجميع رغم اختبائى . سيكون لى دور كبير من الطراز الأول . سوف أكون ، وقد علمتنى التجربة ، مثالاً لعظمة النفس ، وقدوة فى الاذعان للقدر . سوف أكون أشبه بمنبر عالٍ تهبط منه على الانسانية أقوال عظيمة . اذا لم تحسب الا المعارف العلمية التى جنيتها حتى الآن عن هذا المخلوق العجيب الذى أسكن فى جوفه ، لكانت هذه المعارف وحدها ثمينة الى غير نهاية . ذلك هو السبب فى أننى غير آسفٍ للحادث الذى وقع لى ، وأنا أتنبأ بأن يكون له أثر عظيم فى حياتى وعملى .

قلت له فى خبث ومكر ، لأنه أحنقنى بكلامه عن نفســه وحـده وباعتزازه هذا الاعتزاز كله :

ـ أفلن تشعر بضجر ؟

كنت قد تحيرت فعلاً • ساءلت نفسى وأنا أصرف بأسنانى : « لماذا يتصنع الأحمق كل هذا التصنع ؟ ألا ان الأَوْلى به أن يبكى بدلاً من أن يتباهى ويتفاخر ! » •

أجاب عن سؤالى بقسوة :

ـ لن أشعر بضجر • اننى ، وقد أصبح فى وقتى متسع ، أنصرف الآن انصرافاً كاملاً الى الأفكار العظيمة الكبرى ، واهتم بمصير الانسانيه جملةً • من هذا التمساح انما ستخرج الحقيقـة وسيخرج الضـياء بعد اليوم • لا شك فى أننى سأكتشف نظرية جديدة شخصية ، وسأكشف علاقات اقتصادية جديدة ، وسيكون من حقى أن اعتز بذلك • لم أستطع قبل الآن أن انصرف الى هذه المســائل وأن أعكف عليهــا ، وذلك لقلة أوقات الفراغ التى يدعها لى عملى فى الوظيفة ، ولانشـغالى بالتسـليات الاجتمـاعية التـافهة • أما الآن فسـوف أحدث ثورة فى كل شىء • سـأكون « فورييه » * جـديداً ••• بالمناسـبة : هل أعطيت تيمـوتى سيميونتش السبعة روبلات ؟ •

قلت وأنا أحـاول أن أُدخل فى صـوتى كل التعبير عما لمثل هذه التضحية من خطورة :

ـ نعم أعطيته اياها من جيبى •

فأجابنى بغطرسة :

ـ ستحاسب • اننى أتوقع زيادات فى رواتبى • لمن عساهم يزيدون الرواتب ان لم يزيدوها لى أنا ؟ يخيَّل الىَّ أنهم يجنون منى الآن فائدة عظمى • ولكن قل لى : والمرأة ؟

ـ أتقصد ايلينا ايفانوفنا ؟

فصرخ :

ـ المرأة !

لا حيلة للانسان مع هذا الشيطان ! وهأنا ذا أقص عليه ، بمذلة ، صارفاً بأسنانى ، كيف تركت زوجته • ولكنه لم يرض حتى أن يصغى الى كلامى كاملاً ، بل قاطعنى نافدً الصبر قائلاً :

ـ ان لى آمالاً خاصةً بشأنها • اذا أصبحت أنا « هنا » شهيراً ، فاننى أريد أن تصبح هنالك شهيرة أيضاً • ان العلماء ، والشعراء ، والفلاسفة ، وعلماء المناجم الذين يمرون بمدينتنا ، ورجال الدولة ، الذين سيجيئون الىَّ ليتحدثوا معى فى الصباح ، سوف يترددون الى صالونها فى المساء • يجب أن تبدأ باستقبال هؤلاء الناس منذ الأسبوع القادم • وستفى رواتبى بالنفقات ما دامت رواتبى ستتضاعف ، لا سيما وأن كل ما ستحتاج اليه هو شيء من الشاى وعدد من الخدم • لا داعى الى المزيد ••• لطالما انتظرت فرصة أن أجعل الناس يتحدثون عنى ، وأن يذيع صيتى وتطير شهرتى • ولكن كيف كان يمكن تحقيق ذلك وأنا فى ذلك المركز المتواضع والرتبة التافهة ؟ فما هى الا لقمة واحدة يبلعها التمساح ، فاذا بالأمور تعود الى نصابها • سوف يسجلون كل كلمة من كلماتى • ان أيسر تعبير من تعابيرى سيحمل الناس على التفكير ، وسيجعلهم يكررونه ويرددونه • وسوف تُطبع أقوالى وتنشر • سوف أكون معروفاً مشهوراً • سوف يدركون أخيراً كفاءات هذا الرجل الذى تركوا للتمساح أن يبتلعه ! بعضهم سيقول : « هذا رجل لو كان فى بلد اجنبى لعُيِّن وزيراً ، ولاستطاع أن يحكم مملكة بأسرها » ، وسيقول آخرون نادبين متحسرين : « كيف لم يُعهد اليه بمملكة يحكمها ؟ » • بصراحة : فى أى شيء يمكن ألا أُعدَّ أقلَّ قيمة من رجل مثل جارنيه

باجيس * أو غيره ؟ • وسوف تكون زوجتى نداً لى : أنا أملك الذكاء ، وهى تملك الجمال والفتنة • سيقول بعضهم : « لانها جميلة انما كانت زوجته » ، ولكن الآخرين سيصيحون قائلين : « بل هى جميلة لأنها زوجته » • الخلاصة : يجب على ايلينا ايفانوفنا أن تشترى منذ الغد « المعجم الأنسيكلوبيدى » الذى نُشر باشراف آندره كرايفسكى * ، من أجل أن تستطيع التحدث فى جميع المواضيع ، ويجب أن تعنى عناية خاصة ً بأن تقرأ فى كل يوم المقالة الافتتاحية من جريدة « أنباء سان بطرسبرج » وأن تقارن بينها وبين افتتاحية جريدة « الشعرة » • أظن أن صاحب التمساح هذا لن يرفض أن يأخذنى مع تمساحه بين الفينة والفينة الى الصالون المتألق الذى تتربع على عرشه زوجتى ، فأقول هنالك أشياء ذكية جداً أكون قد هيأتها وأعددتها هنا منذ الصباح • لرجل الدولة سأذكر آرائى الحكومية ؛ وللشاعر سأنشد قصائد ؛ ومع السيدات سأكون مرحاً فكهاً رقيقاً دون أن أوقظ فى نفوس أزواجهن أى قلق • ولكننى سأكون للجميع مثالاً ً عظيماً على الخضوع للقدر ، وقدوة كبيرة فى الاذعان لمشيئة الله • سأجعل من زوجتى أديبة مرموقة • سأطريها أعظم الاطراء ، وسأثنى عليها أكبر الثناء ، فأحمل الجمهور على أن يفهمها حق فهمها • ذلك أننى أعتقد أن زوجتى تملك مزايا عليا وكفاءات فذة ؛ فاذا كان من حق الناس أن يقولوا ان آندره الكسندروفتش يضارع فى بلادنا ألفرد دو فينى ، فان من حقهم أن يقولوا ان زوجتى تضارع أوجينى تور *•

أعترف للقارىء بأننى ، رغم أن هذا الجنون مألوف فى ايفان ماتفئتش معهود فيه ، لم أملك أن أمتنع عن الاعتقاد بأنه يعانى من حمى شديدة ، وأنه يهذى • هو الآن ايفان ماتفئتش نفسه يُرى من خلال نظارة مكبِّرة تضخِّمه عشرين مرة فى أقل تقدير •

قلت أسأله :

ـ صديقي ، هل تأمل أن تعيش على هذه الحال مدة طويلة ؟ قل لى : أأنت فى صحة حسنة ؟ كيف تأكل ؟ كيف تنام ؟ كيف تتنفس ؟ لا تؤاخذنى على هذا الفضول ، فأنا صديقك ، وحالتك خارقة تثير الفضول حقاً .

أجاب يقول بفخامة :

ـ فضول باطل لا طائل تحته ، ولكننى أرضى أن أطفىء أواره فى نفسك . تسألنى كيف دبرت أمرى ورتبت شأنى فى أعماق هذا التمساح العجيب ؟ فاعلم أولاً أن جوف هذا التمساح خالٍ كل الخلو فارغ كل الفراغ ، وما كان أشد دهشتى حين لاحظت ذلك ! يخيل الىّ أننى أقيم فى كيس ضخم من المطاط شبيه بتلك الأكياس التى يبيعها تجار شارع جوروخوفايا ، وكذلك تجار مورسكايا اذا لم يخطىء ظنى ، وتجار شارع فوزنيسنسكى . وما عليك الا أن تفكر فى الأمر قليلاً : هل كان يمكن أن أدخل جوف التمساح لو لم يكن خالياً كل الخلو على هذا النحو الذى وضحته لك ؟

صحت أقول مدهوشاً دهشةً لها ما يسوّغها طبعاً :

ـ أهذا ممكن ؟ أمن الممكن أن يكون جوف التمساح خالياً كل الخلو ؟

قال ايفان ماتفئتش مؤكداً بوقار شديد ورصانة عظيمة :

ـ كلّ الخلو . ومن الجائز أن تكون قوانين الطبيعة نفسها هى التى شاءت ذلك . ان كل ما يتألف منه التمساح لا يعدو بوزاً ضخماً ذا أنياب قاطعة جداً ، وذيلاً طويلاً . أما الجوف ، المكان الذى يقع بين هذين الطرفين ، فليس فيه الا فراغ مفروش بشىء يشبه المطاط ولعله من مطاط .

قاطعته خارجاً عن طورى :

ـ والرئتان ، والبطن ، والأمعاء ، والكبد ، والقلب ؟*

ـ لا وجود لشيء من هذا كله ، ولعل شيئاً من هذا كله لم يوجد في وقت من الأوقات • ليست هذه الأوهام الا ثمرة الحكايات الخيالية التي يرويها مسافرون طائشون • فكما تُنفخ وسادةٌ بهواء ، كذلك ينتفخ بشخصي فراغٌ هذا التمساح الذي يبلغ من مرونة الانمطاط حداً لا يصدقه العقل • وعلى هذا النحو يكون في امكانك أنت ، بصفتك صديقَ الأسرة ، أن تأتي فتجلس الى جانبي متى شاء لك كرمك ذلك، ان في المكان متسعاً لك هنا • وأنا أفكر في استدعاء ايلينا ايفانوفنا الىّ متى دعت الحاجة الى هذا • ثم ان هذا الاكتشاف يتفق كل الاتفاق مع تعاليم العلوم الطبيعية، واليك البرهان على ذلك: لنفرض أنك قد أتيح لك أن تخلق تمساحاً جديداً : ان هناك سؤالاً ما يلبث أن ينتصب أمامك قبل كل شيء ، وهذا السؤال هو : ما هي الوظيفة الرئيسية للتمساح ؟ وما يلبث الجواب عن هذا السؤال أن يفرض نفسه ، وهو أن الوظيفة الرئيسية للتمساح هي أن يبتلع بشراً • فكيف يجب أن يكون تشكيل التمساح ليقوم بمهمة الابتلاع هذه على أحسن وجه ؟ الجواب محتوم لا مناص منه ، وهو أن جوف التمساح يجب أن يكون فيه متسع لمن سيبتلعهم التمساح ، أي أن جوف التمساح يجب أن يكون فارغاً ، يجب أن يكون خالياً • ولكن الفيزياء قد علمتنا منذ زمن طويل أن الطبيعة تكره الخلاء • فلا بد اذن أن يكون جوف التمساح خالياً في البداية ، على أن لا يظل خالياً هذا الخلو ، ويجب عليه اذن أن يبتلع كل ما قد يجده بغية أن يمتلىء • ذلك هو التعليل الوحيد الممكن لتلك الظاهرة التي تراها عند التماسيح ، أعني ميلها الى الابتلاع • وهناك فروق في البنية والتركيب بين الكائنات الحية • فالانسان كلما كان فراغ رأسه أكبر ، كان شعوره بالحاجة الى ملئه أقل • غير أن هذا هو الاستثناء الوحيد

من القاعدة العامة الآنف ذكرها • هذا كله يبدو لى الآن واضحاً وضوح النهار • لقد أدركت هذا كله بقوة فكرى وقوة تجربتى ، اذ غصت الى أغوار الطبيعة ان صح التعبير ، اذ غصت الى البوتقة التى تتهيأ فيها أسرارها ، واذ سمعت نبضاتها • لاحظ ان علم الاشتقاق اللغوى نفسه يتفق وما انتهيت اليه ، فان اسم التمساح (الكروكوديل) يعبِّر عما يتصف به هذا الحيوان من شراهة • ان كلمة كروكوديل كلمة ايطالية أغلب الظن أنها من عهد فراعنة مصر القدماء ، وهى مشتقة حتماً من الكلمة الفرنسية croquer بمعنى « قضم » ، أى أكل ، تغذّى ••• ان فى نيتى أن أشرح هذا كله للجمهور عند القائى محاضرتى القادمة فى صالون ايلينا ايفانوفنا متى نُقلتُ اليه فى قاربى •

صحت أقول رغم ارادتى ، بغير قليل من الرعب ، لاعتقادى بأن صاحبى مصاب بحمى وأنه لذلك يهذى ، صحت أقول :

ـ يا صديقى ، أنت فى حاجة الى أن تتجرع مُسْهلاً !

ـ سخافة ! أهذا لائق فى وضعى الراهن ؟ ومع ذلك كنت على يقين من أنك ستتكلم عن ضرورة شُرب مُسْهل !

ـ ولكن قل لى يا صديقى : كيف تقيم أودك الآن ؟ هل تعشيت اليوم مثلاً ؟

ـ لا ، ولكننى لست جائعاً ، ومن الجائز جداً أن لا أطعم بعد اليوم أبداً • وهذا أمر مفهوم جداً هو أيضاً • فما دمت أشغل كل جوف هذا التمساح ، فسوف أشبعه مدى الحياة ، وسوف يكون فى الامكان أن يبقى سنين كثيرة دون أن يتناول أى طعام • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فانه لا بد له ، أثناء اشباعى اياه ، أن ينقل الىّ ويبثّ فىّ جميع أنساغ الحياة التى فى جسمه • وأنت تعلم أن هذه الطريقة هى التى تطبقها « المتقنعرات » من النساء حين تضع فى الليل شرائح نيئة من اللحم على

الوجه ، بمثابة كمادات ، لتبدو نضرة مرنة فتانة بعد حمام الصباح . انني أغذّي التمساح من جسمي ، ولكنني أتلقى منه في مقابل ذلك غذائي . وهكذا يتغذى كل منا بالاخر . ولكن لما كان أمراً صعباً ، حتى على تمساح ، أن يهضم رجلاً مثلي ، فلا بد أن يشعر بشيء من الثقل في معدته ـ رغم أنه ليس بذي معدة . لذلك تراني اتحاشى ، في سبيل أن لا أزعجه ، أتحاشى أن أستدير ما وسعني ذلك . ان في امكاني أن أتحرك مستديراً ، ولكني أمتنع عن ذلك بدافع الروح الانسانية . تلك هي المضايقة الوحيدة التي أعاني منها في وضعي الراهن ، وبهذا يكون تيموتي سيميونتش على صواب ، بالمعنى المجازي ، حين ينعتني بالكسل . ولكنني سأبرهن على أن في وسع المرء أن يغير مصير الانسانية وان يكن راقداً على جنبه ، بل وأنه لا يستطيع تحقيق هذا الهدف والوصول الى هذه الغاية الا وهو راقد على هذا الوضع . ان الكسالى هم الذين يُنضجون جميع الأفكار الكبرى وجميع التطورات الفكرية التي تؤيدها جرائدنا وتحبذها مجلاتنا . وذلك هو السبب فيما يقال بحق من أن هذه المنشورات انما هي مختبرات . ومهما يكن من أمر ، فلسوف أنشيء من هنا ومن هناك مذهباً اجتماعياً كاملاً ، ولن تستطيع أن تصدّق مدى سهولة هذا العمل . حسبُ المرء ، ليحقق هذا المشروع ، أن ينزوي في ركن ناء ، كجوف تمساح مثلاً ، وأن يغمض عينيه . فسرعان ما تتكشف له جنة الانسانية . منذ قليل ، بعد أن انصرفتما ، أخذت أبحث عن مذاهب ، فلم ألبث أن وجدت منها ثلاثة . وأنا بسبيل تحضير مذهب رابع . صحيح أنه لا بد للمرء ، من أجل ذلك ، أن يبدأ بقلب كل شيء رأساً على عقب ، ولكن أليس هذا سهلاً حين يكون المرء في جوف تمساح ؟ وليس هذا كل شيء . فمن غياهب تمساح ، يبدو أن الانسان يرى العالم رؤية واضحة وضوحاً عظيماً ... صحيح أن في

وضعى الراهن بعض المضايقات ، وان تكن يسيرة تافهة ٠ فان جوف هذا التمساح بارد ولزج ، عدا أن رائحته تشبه رائحة القطران ٠ يخيّل الىّ دائماً أننى أشم رائحة خفّى المطاط العتيقين اللذين كنت انتعلهما فى السنة الماضية ٠ ولكن هذا كل شىء ٠ فليس فى امكانى أن أشكو من أى مضايقة أخرى ٠

قلت له :

ـ ايفان ماتفئتش ، هذه معجزات لا أكاد أستطيع أن أصدّقها ٠ هل فى نيتك اذن أن لا تتعشى بعد اليوم طول حياتك ؟

فأجابنى قائلاً :

ـ ماهذه السفاسف التى تهتم بها ياذا الرأس التافه السخيف؟ أأكون بسبيل أن أشرح لك أفكاراً عظيمة وأن أعرض عليك آراء كبرى ، فاذا أنت ... ألا فاعلم اذن أن هذه الأفكار العظيمة التى جاءت تنير الليل الذى غصت فيه تُشبعنى أكثر مما يشبعنى أى طعام آخر ٠ أضف الى ذلك أن صاحبنا الممتاز ، مالكَ التمساح ، قد اهتم بهذا الأمر مع أمه الطيبة ، فقررا أن يُدخلا من بوز التمساح ، فى كل صباح ، أنبوباً أستطيع بواسطته أن أرشف قهوتى أو أن أصيب شيئاً من حساء الخضار ٠ وقد أمرا باعداد الأنبوب . ولكننى أرى أن هذا الأنبوب زائد لا حاجة اليه ٠ اننى آمل أن أعيش ألف سنة على الأقل ، اذا صدق مايقال من أن التماسيح تبلغ هذا المبلغ من طول العمر. حاول منذ الغد أن تعرف هذا من أحد كتب التاريخ الطبيعى ، فمن الجائز أن أكون مخطئاً ، ومن الجائز أن أكون قد التبس علىّ الأمر فخلطت بين التمساح وبين حيوان آخر ٠ هناك شىء واحد يقلقنى : لما كنت أرتدى جوخاً وانتعل حذاءين ، فمن المؤكد أن التمساح لا يستطيع أن يهضمنى ٠ يضاف الى ذلك أننى حى وأننى أعارض بكل

ما أملك من قوى ارادتى أن أُهضم هذا الهضم ، لأننى لا أريد بحال من الأحوال أن يطرأ علىّ مايطرأ على الأطعمة عادةً من تحول، فان فى ذلك ذلاً لا تطيق نفسى احتماله • ولكن المصيبة أن قماش ملابسى من صنع روسى ، وأنا أخشى لذلك أن لا يصمد لاقامته ألف عام فى جوف هذا الحيوان ، فقد يتحلل آخر الأمر ، فأصبح بلا درع يحمينى ، فيهضمنى التمساح مهما أبذل من مقاومة • لن أسمح له بأن يهضمنى أثناء النهار ، ولكن ما حيلتى فى الليـل ••• حين ينـام المرء فتبـارحه ارادته ؟ أفلا أتعرَّض عندئذ لذلك المصير المذل وهو أن أُهضم كما تُهضم قطعة من البطاطس أو من الحلوى أو من لحم العجل ! اننى أشعر بغضب شديد متى تصورت هذا • فمن أجل تحاشى مثل هذه الاحتمالات على الأقل ، يجب تغيير الرسوم الجمركية ، وحمـاية اسـتيراد الأصـواف الانجليزية التى تستطيع لمتانتها أن تحمى من قوى الطبيعة التخريبية مدةً أطول ، أولئك الذين يلبسونها حين يضطرون الى الدخول فى جوف تمساح • لسوف أنقـل هذا الرأى الى أحد رجال الدولـة عند أول مناسـبة ، وسـوف أنقله كذلك الى رؤساء تحرير كبريات صحفنا اليومية ، من أجل أن أثير حركةً فى الرأى • وآمل أن أخدم أموراً أخرى كثيرة أيضاً • ولست أشك فى أننى سأرى جمهرة كبيرة من المستطلعين يهرعون الىّ فى كل صباح ، راضين أن يدفعوا خمسة وعشرين كوبكاً فى سـبيل أن يعرفوا آرائى فى آخر برقيات الليلة البارحة • وأقول باختصـار اننى أرى أن المستقبل يعرض لى فى أن أزهى أشكاله وأسطع ألوانه •

قلت لنفسى : « هى الحمى ! » ، وتابعت أقول بصـوت عالٍ حتى يسمعه سماعاً أوضح :

ـ ولكن ما عساك صانعاً بالحرية يا صديقى ؟ أنت الآن كمن يقيم فى سجن • أفليست الحرية أكبر الخيرات للانسان ؟

أجابني قائلاً :

ـ ما أغباك ! صحيح أن المتوحشين يحبون الاستقلال ، ولكن الحكماء الحقيقين يحبون النظام قبل كل شيء * ، فما لم يوجد النظام ...

ـ رحماك يا ايفان ماتفتش !

زأر يقول غاضباً أشد الغضب من مقاطعته :

ـ أسكت وأصغ . انني لم أشعر بقوتي في يوم من الأيام كشعوري بها الآن . أنا في ملجئي الضيق هذا لا أخاف كثيراً الا من النقد الثقيل الذي تكيله الصحف الكبرى والا من الصفير الذي تطلقه جرائد الهجاء اللاذع . وأنا أخشى أن يتخذ مني الهازلون من الناس ، والأغبياء ، والحاسدون ، والمدميون عامةً ، أضحوكة يتندرون عليها . ولكنني سأتخذ اجراءاتي . انني أنتظر بفارغ الصبر الحكم الذي سيصدره علىَّ الرأي العام وستصدره علىَّ الصحافة خاصةً منذ الغد . فكن على اطلاع كامل على هذا كله .

ـ سآتيك غداً بكدسة من الجرائد .

ـ قد يكون استباقاً للأمور أن تنتظر شيئاً من الصحف في الغد ، فان الأنباء قلَّما تظهر في الصحف الا بعد ثلاثة أيام . ومع ذلك عليك منذ هذا اليوم أن تأتي اليَّ كل مساء من مدخل الخدم . لقد قررت أن أتخذك سكرتيراً . ستقرأ علىَّ الجرائد والمجلات ، ثم أملي عليك آرائي وأعهد اليك بالمهمات التي يجب أن تقوم بها . لا تنس أن تجيئني كل يوم بجميع برقيات أوروبا . ولكن كفى هذا الآن . لا شك أنك نعست . فارجع الى بيتك ولا تفكر فيما قلته لك في موضوع النقد . انني لا أخاف من النقد ، لأن النقد نفسه يقف الآن في وضع حرج جداً . حسب المرء أن يبقى عاقلاً وفاضلاً ليكون كمن يقف على قاعدة وطيدة

لا تتزعزع • لئن لم أكن سقراط ، فسوف أكون ديوجين ، اللهم الا أن أكون الاثنين كليهما فى آن واحد ، تلك هى رسالتى المقبلة بين الانسانية•

هكذا كان يتكلم ايفان ماتفئتش ، مبرهناً على أن عقله خفيف عنيد معاً (صحيح أنه كان تحت تأثير الحمى) ، وعلى أنه شبيه بتلك النساء الضعيفات الطبع اللواتى لا يستطعن أن يكتمن سراً • ان جميع تلك الملاحظات التى قالها عن التمساح بدت لى جديرة ً بالشك • هل من الممكن حقاً أن يكون جوف التمساح فارغاً خالياً ؟ اننى لأراهن على أن كلامه كله لم يكن الا حذلقات مغرور ، وعلى أنه كان يسعى خاصة ً الى اذلالى •

أنا أعرف أنه كان مريضاً ، وأن على المرء أن يدارى المرض ، ولكننى أعترف صراحة ً بأننى لم أستطع أن أطيق ايفان ماتفئتش فى يوم من الأيام • لقد جعلنى خاضعاً لوصايته طول حياتى ومنذ طفولتى • حاولت ألف مرة أن أنهى ذلك الوضع ، غير أن شيئاً ما كان يردنى اليه فى كل مرة ، كما لو كنت آمل أن أقنعه بشىء لا أدرى ما هو ، وأن انتقم لنفسى أخيراً • هى صداقة عجيبة أستطيع أن أقول ان تسعة أعشارها كانت كرهاً لا أكثر • ومع ذلك افترقنا فى هذه المرة على شعور طيب•

قال لى الألمانى بصوت خافت وهو يشيّعنى :

ـ صاحبك من أذكى الرجال •

ذلك أن الألمانى كان قد سمع الحديث الذى جرى بيننا من أوله الى آخره •

قلت له مخافة أن أنسى :

ـ بالمناسبة : ما هو المبلغ الذى قد تطلبه ثمناً لتمساحك اذا عُرض عليك شراؤه ؟

وقد سمع ايفان ماتفئتش السؤال ، فانتظر الجواب بكثير من الاهتمام • وتراءى لى بوضوح أنه كان سيستاء أشد الاستياء لو طلب الألماني مبلغاً ضئيلاً • وقد سعل سعالاً خاصاً على كل حال •

لم يشأ الألماني في أول الأمر أن يسمع شيئاً حتى لقد مضى الى حد الزعل والغضب ، ثم صاح يقول حانقاً حنقاً شديداً وقد احمر لونه احمراراً قوياً :

ـ لا أسمح أن يتجرأ أحد فيطلب منى أن أبيع تمساحى • لا أريد أن أفارق تمساحى • لن أقبل بمليون دينار ذهبى ثمناً لهذا التمساح • لقد كان ايرادى منه فى هذا اليوم وحده مائة وثلاثين ديناراً • وسيدر عليّ عشرة آلاف بل ومائة ألف !

كان ايفان ماتفئتش يضحك لهذا الكلام سروراً ولذة • وسيطرت أنا على نفسى وملكت شجاعتى فعرضت على هذا الألماني المجنون كل ما فى حساباته من خطأ ، محافظاً على الهدوء والعقل اللازمين لانسان يقوم بواجب الصداقة • قلت للألماني : لو صدق أنه سيجمع مائة ألف دينار ذهبى فى اليوم ، فلن يحتاج الا الى أربعة أيام من أجل أن يكون سكان بطرسبرج جميعاً قد زاروا محله ، ثم ينتهى بعد ذلك كل شيء • وليس يدرى المرء من ذا يعيش ومن ذا يموت • فمن الجائز أن ينفجر التمساح ، ومن الجائز أن يمرض ايفان ماتفئتش وأن يتوفى ، الخ ، الخ •

ففكر الألماني ثم أجابنى يقول :

ـ فى هذه الحالة سأطلب من الصيدلى قطرات دواء فلا يموت صاحبك •

قلت :

ـقطرات الدواء شيء حسن • ولكن تذكر أن من الممكن أن تُرفع قضـية • فما عسـاك تقول اذا ارتأت زوجـة ايفـان ماتفئتش أن تطالب بزوجها الشرعى ؟ أنت تريد أن تغتنى ، ولـكن هل أنت مسـتعد لأن تدفع لايلينا ايفانوفنا نفقة اعالتها ؟

أجابنى بصوت وقور حازم قاطع :

ـ ليست هذه نيتى !

وأضافت الأم قائلة بغضب :

ـ لا ، ليس لدينا هذه النية !

ـ فلننتظر اذن فى الأمر ملياً : أليس الأفضل لكما أن تقبلا منذ الآن مبلغاً معقولاً هو ربح محقق بدلاً من التعويل على فائدة غير مؤكدة • ثم اننى أحرص على أن ألفت انتباهكما الى أننى لا ألقى هذا السؤال الا من باب حب الاطلاع وحده •

اعتقد الألمانى أن من المفيد أن يشاور أمه ، فمضى بها الى ركن من الشرفة كانت توجد فيه خزانة تضم القرد الذى هو أكبر مجموعة القرود ضخامة وأبشعها صورة •

قال لى ايفان ماتفئتش :

ـ سترى !

شعرت ، من جهتى ، برغبة قوية عنيفة فى أن أهوى على هؤلاء الناس جميعاً ، فأشبعهم ضرباً موجعاً أليماً ، أعنى الألمانى وأمه ، وخاصةً ايفان ماتفئتش هذا الذى كان طموحه الجامح الذى لا حدود له يزعجنى أكبر أزعاج • ولكن ماذا كان جواب الألمانى الماكر ؟

انه ، عملاً بمشورة أمه ، قد طلب ، ثمناً لتمساحه ، خمسين ألف روبل سندات من آخر قرض داخلى ، ومنزلاً مبنياً بالحجر فى شـارع

جوروخوفايا ، مع صيدلية مجهزة كل التجهيز في ذلك المنزل نفسه ، بالاضافة الى رتبة كولونيل .

صاح ايفان ماتفئتش يقول بلهجة المنتصر :

ـ أرأيت ؟ ألم أقل لك ؟ انه ، باستثناء هذا المطلب الأخير ـ أعنى باستثناء تسميته كولونيلاً ، وذلك مطلب جنونى ـ أقول انه باستثناء ذلك على حق ، لأنه يجيد تقدير القيمة الحالية لحيوانه . ان وجهة النظر الاقتصادية تفوق كل شيء !

صرخت أقول لهذا الألمانى حانقاً :

ـ عجيب ! كيف تجسر أن تطالب برتبة الكولونيل هذه ؟ ما هو العمل البطولى الذى قمت به حتى تستحق هذه الرتبة ؟ ما هى الخدمات التى قدمتها ؟ ما هو المجد العسكرى الذى تجللت به ؟ أأنت مجنون ؟

قال الألمانى مستاءً من الاهانة :

ـ مجنون ؟ بل انا انسان عاقل جداً ، وما أنتم الا حمقى أغبياء ! كيف لا يستحق المرء أن يسمَّى كولونيلاً وهو يستطيع أن يعرض تمساحاً فى جوفه موظف حى من كبار موظفى الدولة !... هات لى ، ان استطعت ، روسياً فى امكانه أن يريكم تمساحاً فى بطنه موظف حى من كبار موظفى الدولة !... أنا انسان فذ ، ولست أفهم لماذا لا يمكن أن أسمَّى كولونيلاً !

صحت أقول وأنا أرتعش من الغضب :

ـ الى اللقاء اذن يا ايفان ماتفئتش !

ومضيت مسرعاً حتى لأكاد أركض ركضاً . فلو قد بقيت دقيقة

واحدة أخرى لفقدت سيطرتي على نفسي ، ولأصبحت غير مسئول عن تصرفاتي . ان الطموح العجيب الشاذ لدى هذين المخلوقين الأبلهين أمرٌ لا يُطاق .

واستطاعت طراوة الهواء أن تهدىء غضبي بعض التهدئة. واخيراً ، بعد أن بصقت خمس عشرة مرةً ، يسرةً ويمنة ، استوقفت عربة ، وعدت الى بيتي فخلعت ثيابي ، وارتميت على سريري .

ان ما كان يغيظني ويخرجني عن طوري أكثر من أي شيء آخر هو أنني أصبحت سكرتيراً لايفان ماتفئتش . معنى ذلك أنني ، بعد الآن ، سيكون عليَّ ، حتى أقوم بما يجب على صديق حقيقي أن يقوم به من واجبات نحو صديقه ، سيكون عليَّ أن أجُنَّ في كل مساء !

وشبَّت في نفسي رغبة قوية في أن أضرب أحداً ، فلما ان أطفأت شمعتي حتى أخذت أضرب رأسي وأجزاء شتى من جسمي بقبضة يدي ضربات متلاحقة . خفَّف عني هذا الضرب بعض التخفيف ، ونمت آخر الأمر نوماً عميقاً ، لأنني كنت محطماً . وقضيت الليل أحلم بقرود ، ولكنني في الصباح حلمت بايلينا ايفانوفنا ...

٤

لم يصـــعب عليّ أن أفهم أنني اذا حلمت بقرود فانما يرجع ذلك الى أنني قد رأيت قروداً في القفص، أما حلمي بايلينا ايفانوفنا فهذا أمر آخر .

ولأذكر الحقيقة على الفور : لقد كنت أحب هذه السـيدة . ولكنني أسـارع فأضيف أنني كنت أحبها كمـا يحب أبٌ بنته ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ! ... والشيء الذى يقودني الى استخلاص هذه النتيجة هو انني اشتهيت مراراً أن أقبّلها على جبينها الناعم أو على خديها الورديين ؟ ولكن يجب أن أعترف أنني ما كنت لأرفض أن أقبّلها على شفتيها ، رغم أنني لم أفعل ذلك في يوم من الأيام ... لا على شفتيها فحسب ، بل أيضاً على أسنانها اللطيفة التي كانت تبدو أشبه بصف من لؤلؤات صـغيرة جميلـة متى ضـحكت ... وما أكثر ما كانت تضحك ! ...

كان ايفان ماتفئتش ، في لحظات انشراحه ، يناديها « يا سخفي اللطيف » ، وهو لقب صادق كل الصدق ، صحيح كل الصحة ، يميّزها الى أبعـد الحدود . كانت في أكثر تقدير « امرأة سـكّرة » . لذلك لم أستطع أن أفهم على أي شيء كان ايفان ما تفئتش يعوّل ويعتمد من أجل أن يجعلها في روسيا سيدةً مثل أوجيني تور .

مهما يكن من أمر ، فان أحلامي ، اذا صرفنا النظر عن القرود ،

قد أحدثت في نفسي مشاعر لذيذة الى أقصى حد • وفي الصباح أمام فنجان الشاي الذي كنت أحتسيه ، أخذت أستعرض ذكريات الليلة البارحة ، فاذا أنا أقرر أن أصعد الى ايلينا ايفانوفنا في طريق ذهابي الى مكتبي • وكان هذا ، على كل حال ، واجباً يقع على عاتقي من حيث أنني صديق للأسرة •

في غرفة صغيرة كانت تجاور غرفة النوم وكان صاحباي يسميانها الصالون الصغير ، رغم أن الصالون الكبير كان ضيقاً شديد الضيق أيضاً ، رأيت ايلينا ايفانوفنا جالسةً على أريكة صغيرة جميلة ، أمام مائدة صغيرة للشاي • انها تلبس غلالة رقيقة ، وتشرب قهوتها في فنجان صغير بعد أن تبلل بالقهوة قطعاً صغيرة من البسكويت • كانت مشرقةالجمال ، ولكن كان يبدو عليها شيء من انشغال البال • فلما رأتني هتفت تقول وهي تبتسم ابتسامة ذاهلة :

ـ ها ••• أهذا أنت أيها المتسكع ! اجلس أيها الطائش الذي لا عقل له ، واشرب معي قليلاً من القهوة ! هيه ••• ماذا فعلت أمس ؟ هل ذهبت الى حفلة الرقص التنكرية ؟

ـ أذهبت أنت اذن اليها ؟ هل تظنين أنني أستطيع السعي الى الاحتفالات ؟ ••• لقد ذهبت أزور السجين •••

قلت ذلك وتنهدت ، واصطنعت هيئة الانسان المكدود المرهق وأنا أرشف جرعة من القهوة •

قالت :

ـ ذهبتَ تزور من ؟ السجين ؟ أي سجين ؟ آ ••• نعم ••• الفتى المسكين ! أهو يشعر بضجر شديد ؟ ••• اسمع ••• كنت أريد أن أسألك ••• يخيَّل اليَّ أنني أستطيع أن أطلب الطلاق الآن ، أليس كذلك ؟

ـ الطلاق ؟

كذلك صحت أقول وقد بلغت من الاستياء أنني أوشكت أن أقلب فنجان القهوة ، لأنني قلت لنفسي غاضباً : « انه الأسمر » .

ذلك أن هناك رجلاً أسمر ذا شاربين هو موظف في مصلحة المباني ، كان يزور الأسرة ويعرف كيف يضحك ايلينا ايفانوفنا . كنت أنا أكره هذا الرجل وأمقته ، وقدرت أنه قد اتسع وقته في الليلة البارحة اتساعاً كاملاً لأن يراها في حفلة الرقص التنكرية ، ولأن يقول لها سخافات كثيرة .

قالت المرأة الجميلة متدفقة في كلامها متعجلة ، كأنما هي قد كررت درساً تحفظه :

ـ سوف يبقى في التمساح الى الأبد ، ولن يرجع يوماً ، فهل يكون علي أنا أن أنتظره ؟ يخيل الي أن من واجب الزوج أن يقيم في بيته لا في بطن التمساح .

قلت بانفعال له ما يسوغه :

ـ ولكن هذا حادث مستقل عن ارادته كل الاستقلال ...

فصرخت تقول غاضبة :

ـ آ ... لا ... لا أريد سماع حكاياتك هذه ، لا أريد سماعها ! انك تعارضني دائماً أيها الشرير ! لا حيلة للمرء معك . لا أريد نصائحك . لقد قال لي غرباء ان في وسعي أن أحصل على الطلاق لمجرد أن ايفان ماتفئتش لن يقبض بعد اليوم رواتب .

صحت أقول بلهجة التأثر :

ـ ايلينا ايفانوفنا ! أأنت حقاً من أسمعها تقول هذا الكلام ، وتتحدث

على هذا النحو ؟ من ذلك الرجل الخبيث الذى وضع فى رأسك أفكاراً كهذه الأفكار ؟ انه لمن المستحيل أن تحصل امرأة على الطلاق من زوجها لسبب تافه هذه التفاهة وهو أن زوجها أصبح بلا راتب • وماذنب ذلك المسكين ايفان ماتفئتش الذى ما يزال يحترق قلبه حباً بك وشوقاً اليك وهو فى أعماق تمساحه ؟ انه يذوب من هذا الحب وهذا الشوق كما تذوب قطعة سكر • أمس مساءً ، بينما كنت أنت تسلين فى حفلة الرقص التنكرية ، كان هو يقول انه سيقرر فى آخر الأمر ، عند الضرورة ، أن يستدعيك اليه لأنك زوجته الشرعية ، لتقيمى بقربه فى قرارة التمساح ، لا سيما وأن فى المكان متسعاً لشخصين اثنين وحتى لثلاثة أشخاص •••

ولم ألبث أن قصصت عليها كل ذلك الجزء الشائق من الحديث الذى جرى بينى وبين زوجها فى الليلة البارحة •

فقالت مذهولة :

ـ كيف ؟ كيف ؟ أتريد أيضاً أن ألحق بايفان ماتفئتش فى جوف التمساح ؟ يا لها من فكرة ! كيف تريد أن أدخل الى هنالك بقبعتى وتنورتى ذات الأسلاك ؟ رباه ! ألا ان هذا لسخف مستحيل ! بأى وجه أدخل الى هنالك اذا رآنى أحد ؟ هذا مضحك ! وكيف عسانى أغتذى ، وما الذى يمكن أن أصيبه من طعام ؟ وما عسانى أفعل اذا أنا ••• يا له من اختراع ! وما هى التسليات التى يمكن أن أجدها هنالك فأفرّج بها عن نفسى ؟ وأنت تقول لى ان الجو هنالك تفوح فيه رائحة المطاط ! وسيكون علىّ أن أبقى راقدة بقربه حين نختصم أو نشتجر ! هه ! يا للهول !•••

قاطعتها قائلاً بحرارة طبيعية جداً لدى رجل يعرف كيف يقاتل فى سبيل الحقيقة :

ـ أنا أفهم ، أنا أفهم جميع هذه الحجج الرائعة أيتها العـزيزة ايلينا ايفانوفنا ، ولكنك لا تحسبين حساب ذلك الأمر الهام ، وهو أنه لا يستطيع أن يعيش بدونك ما دام يطلبك • هذا دليل على ما يحمله لك من حب ، من حب حارٍ وفيٍ أمين ••• انك لم تقدرى قيمـة حبه أيتها العـزيزة ايلينا ايفانوفنا !

صرخت تقول وهى تحرّك يدها الصغيرة الجميلة جداً ذات الأصابع الوردية اللامعة :

ـ لا أريد ، لا أريد ، لا أريدِ أن أسمع شيئاً ! انك تُبكينى أيها الخبيث ! اذهب أنت الى جوف ذلك التمســاح اذا طاب لك هذا • أنت صديقه • فاذهب اليه اذن ، وارقد الى جانبه حباً بالصداقة ، واقض حياتك هنالك فى مناقشات معه حول موضوعات سخيفة !

قلت بوقار ورصانة أقاطع تلك المرأة المسرفة فى الخفة والطيش :

ـ انك لتخطئين حين تنظرين الى هذا الاحتمـال نظرة اسـتهزاء وسخرية • لقد دعانى ايفان ماتفئتش الى اللحـاق به • وليس من شـك فى أن واجبـك يلزمك أنت بهـذا ، أما أنا فان ذهبت فانما أذهب كرماً وجوداً وسماحة • أمس ، حين كان ايفان ماتفئتش يشرح لى ما تتصف به جدران جوف التمساح من مرونة وقدرة على الانمطاط ، أشار صراحةً الى أن فى جوف التمساح متسـعاً لا لكما فحسب ، بل ولى أنا أيضـاً ، بصفتى صديق الأسرة ، وأشار صراحة الى أن فى وسعنا أن نستقر نحن الثلاثة هنالك ، اذا أنا أردت ؟ ولهذا الغرض •••

هتفت ايلينا ايفانوفنا تقول وهى تنظر الىَّ بغير قليل من الدهشة :

ـ نحن الثلاثة ؟ كيف ؟ أنقيم نحن الثلاثة اذن هناك ؟ هاً هاً هاً !••

ما أغباكما كليكما ! لسوف أظل أقرصك هنالك طول الوقت أيها الخبيث ! ها ها ها ! ها ها ها !...

وارتمت بظهرها على مسند الكرسي وطفقت تضحك حتى سالت الدموع من عينيها . وبلغ ضحكها وبلغت دموعها وبلغ المشهد كله من الروعة والفتنة واللذة أنني لم أطق صبراً فأخذت أقبّل يدها ، فلم تعارض ولم تقاوم ، وانما راحت تشد أذنيّ علامةَ المصالحة .

عندئذ عاد الينا المرح والفرح ، فقصصت عليها بالتفصيل كل خطط ايفان ماتفئتش ومشاريعه ، فسُرّت سروراً عظيماً بفكرة سهرات الاستقبال في صالونها . ولكنها لفتت انتباهي قائلة :

ـ غير أنني سأكون والحالة هذه في حاجة الى عدة أثواب جديدة ، ولا بد أن يرسل اليّ ايفان ماتفئتش مبلغاً كبيراً من المال بأقصى سرعة .

ثم أضافت تقول مطرقة :

ـ ولكن كيف يعملون من أجل أن يأتوني به في قاربه ؟ هذا شيء مضحك جداً . انني لا أريد أن ينقلوا زوجي وهو في هذا الحوض . سأشعر من ذلك بخجل أمام ضيوفي ... لا ، لا أريد ، لا أريد ...

قلت لها :

ـ بالمناسبة ، قبل أن أنسى : هل زارك تيموتي سيميونتش مساءَ أمس ؟

ـ نعم . وحاول أن يواسيني ويسليني . هل تتصور أننا قضينا السهرة كلها نلعب بالورق ؟ كان اذا خسر يعطيني حلوى ، واذا خسرتُ أنا يقبّل يديّ . يا للفاجر ! وتصور أنه كاد يجيء معي الى حفلة الرقص التنكرية ! هذا ما حدث فعلاً !...

قلت أجيبها :

ـ هي الحماسة ! ومن الذى لا تستثار حماسته معك أيتها الساحرة الفاتنة !

ـ هأنت ذا عدت الى ملاطفاتك وأماديحك ! توقع اذن أن أقرصك حين تهم أن تنصرف ••• انني أجيد القرص الآن ، ما رأيك ؟ آه ••• هل كلمك ايفان ماتفتش كثيراً عني ؟

ـ ل ••• ل ••• لا ••• لا كثيراً ••• أعترف لك أن أكثر اهتمامه منصرف الآن الى مصائر الانسانية عامة ، وأنه يريد أن •••

ـ طيب ، طيب ، لا تكمل كلامك ، لا بد أن يكون هذا باعثاً على الضجر والملل • سأزوره في يوم قريب ••• غداً في أغلب الظن ، ولكن لا اليوم ••• انني أشعر اليوم بصداع ، وسيكون هناك ناس كثير ••• وسيتهامسون قائلين : هذه زوجته !••• استودعك الله ••• هل تذهب في هذا المساء الى هناك ؟•••

ـ سأذهب اليه • لقد طلب مني أن أجيء وأن آتيه بجرائد •

ـ حسن جداً • اذهب اليه اذن ، واقرأ له • ولا داعي الى عودتك اليوم الي ، لأنني أحس بتعب واعياء ••• وربما قمت ببعض الزيارات ••• استودعك الله أيها الفاجر !

قلت لنفسي : « طيب • لا داعي الى ان أسألها هل يجيء الرجل الأسمر في هذا المساء ! » •

وفي المكتب ، لم أظهر شيئاً من الهموم التي كانت تقضم نفسي • ذلك ما يجب أن يكون طبعاً • ولكنني لم ألبث أن لاحظت أن عدة من جرائدنا التقدمية كانت تتناقلها الأيدي ، وأن الزملاء كانوا يعكفون على قراءتها بانتباه شديد • وكانت أولى هذه الجرائد التي وصلت الى يدي

«الصحيفة» *، وهي جريدة ليس لها اتجاه سياسي شديد الوضوح ، غير أنها ذات ميول انسانية ، وذلك ما كان يجعل الموظفين في مكتبنا يشعرون نحوها بشيء من الاحتقار ، ولكنهم يقرأونها مع ذلك . واليكم ما وجدته فيها ، وهو أمر أدهشني :

« هناك شائعات غريبة سرت أمس في عاصمتنا الكبرى المزدانة بمبانيها الفخمة الرائعة . ومفاد هذه الشائعات أن رجلاً اسمه ن ... ، وهو امرؤ يحب الأطعمة الفاخرة ، قد سئم في أغلب الظن من مطعم بوريل * ، كما سئم من نادي «... سكي» ، فدخل الى «الممر» ، واتجه الى المكان الذي يُعرض فيه تمساح ضخم ، فطلب أن يُحضَّر هذا الحيوان عشاءً له . فبعد أن اتفق مع صاحب التمساح ، أسرع يجلس الى المائدة ، وراح يلتهمه ـ لا يلتهم صاحب التمساح وهو ألماني متواضع منظّم بل يلتهم التمساح ـ راح يلتهم التمساح حياً ، فهو يقتطع من لحم التمساح بسكينه لقماً ضخمةً يسيل منها الدهن ، فيحملها الى فمه ويزدردها بشراهة .

« وشيئاً فشيئاً غاب التمساح كله في تلك الهاوية التي لا قرار لها . وحين فرغ صاحبنا المحب للأطعمة الفاخرة من التهام التمساح أظهر رغبته في أن يأكل النمس ، وهو الحيوان الذي يرافق التمساح عادةً ، اعتقاداً منه بأن النمس لا يقل عن التمساح طيب مذاق ودسامة لحم .

« اننا لا نرى أي بأس في الاقبال على تناول هذا الطعام الجديد الذي عرفه محبو الأطعمة الفاخرة الأجانب منذ زمن طويل ، حتى لقد تنبأنا برواجه في الماضي . ان اللوردات والسواح الانجليز قد أسروا في مصر عدداً كبيراً من التماسيح ، وذاقوا ظهورها شرائح مشوية (بفتيك) مبتلةً بالخردل والبصل مع شيء من البطاطس .

« والفرنسيون الذين جاءوا الى مصر مع فرديناند دي‌ليسبس يؤثرون

قوائم التماسيح على ظهورها ، ويشوون هذه القوائم في الرماد الساخن اغاظة للانجليز الذين يسخرون منهم ويتهكمـون عليهم • ومن الجائز جداً أن يتعلم الناس عندنا أن يخبوا اكل الظهور والقوائم جميعاً بدرجة واحدة ، وانه ليسرنا أن نرى نشوء هذا الفرع الجديد من فروع الصناعة الغذائية لاغناء وطننا الذى يبلغ هذا المبلغ من القوة والتنوع •

« وفى وسعنا أن نتبأ ، بعد هذا الهضم البطرسبرجى لأول تمساح ، فى وسعنا أن نتبأ بأنه لن تمر سـنة واحدة الا وتسـتورد بلادنا من هذه التماسيح مئات ومئات • فلماذا لا نحاول أن نؤقلم التمساح فى روسيا ؟ اذا كان نهر نيفا باردا مسرفاً فى البرودة على هذه الحيوانات الهـامة التى تنتجها البلاد الأجنبية ، فان فى العاصمة مياها أخـرى كثيرة ، عـدا أن الأنهار والبحيرات فى خارج العاصمة لا تعوزنا البتة •

« ألا نسـتطيع مثلاً أن نتعاطى تربيـة التماسيح فى بارجولوفو أو فى بافلوفسك أو فى موسكو ، فى غدران بريسنيا وفى ساموتيوكا ؟ * ان التماسيح التى قد نربيـها فى هذه المواطن سوف تكون طعاما لذيذاً وصحياً لأفواه محبى المآكل الفاخرة من جهة ، وسوف تكون من جهـة أخـرى بهجة كبيرة وتسلية عظيمة للسيدات اللواتى يتنزهن فى تلك الأماكن ، وسوف تكون فى الوقت نفسه أمثلةً عمليـة للتلاميذ فى دروس التاريخ الطبيعى •

« ومن جلودها سنصنع علبـاً وحقـائب ومحافظ للسجائر ومحافظ للأوراق ؟ ان ملايين من الروبلات ، ان ملايين من تلك الأوراق الماليـة المتسخة التى يحبها التجار حبـاً عظيماً ، يمكن أن تكون كامنةً فى جلد تمسـاح • وفى نيتنا ، على كل حال ، أن نعـود الى معالجة هذه القضـية الهامة ، مراراً وتكراراً » •

ان ما تشتمل عليه هذه المقالة من بعد عن الصحة ومخالفـة للواقع

قد ساءني كثيراً ، رغم أنني توقعت أن أقع فيها على شيء من ذلك . واذ لم أعرف من ذا الذي يمكنني أن أعبِّر له عن مشاعري، فقد التفت ببصري نحو بروخور سافتش الجالس أمامي ، وفي تلك اللحظة انما أدركت أنه كان ينظر اليَّ منذ مدة طويلة ولا شك ، ممسكاً بيده نسخةً من جريدة « الشعرة » وكأنه يهم أن يناولني اياها .

وبدون أن يقول كلمة واحدة تناول جريدة « الورقة » التي مددتها اليه ، وأعطاني جريدة « الشعرة » وهو يدلني بظِفْره على المقالة التي كان يريد أن يلفت اليها انتباهي . ان بروخور سافتش هذا انسان غريب عجيب . هو رجل متقدم في السن لم يتزوج ، وليس بينه وبين أي واحد منا علاقات ، ولا يكاد يكلم أحداً من موظفي الدائرة . وان له دائماً ، في أي أمر الأمور ، رأياً خاصاً ، ولكنه لا يطيق أن يفضي بهذا الرأي الى أي انسان . وهو يعيش وحيداً ، حتى لأكاد أقطع بأن أحداً منا لم يدخل بيته في يوم من الأيام .

اليكم ما قرأته في جريدة « الشعرة » ، في الموضع الذي عينه لي باشارة من ظِفْره :

« يعلم الناس جميعاً أننا تقدميون وانسانيون ، وأننا من هذه الناحية نستطيع أن ندَّعي بأننا نعادل أوروبا . ولكن مهما تكن جهود شعبنا ومهما تكن جهود جريدتنا ، فلا بد لنا من الاعتراف بأننا ما زلنا بعيدين عن أن نصبح « ناضجين » ، اذا جاز أن نقطع برأي في هذا الموضوع على أساس حادثة مثيرة للحنق كان « الممر » مسرحها بالأمس ، وكنا قد تنبأنا بها دائماً .

« وصل الى بلادنا رجل أجنبي يملك تمساحاً ، وأخذ يعرض حيوانه في « الممر » . نسارع فنقول على الفور اننا نبارك هذا الفرع الجديد من

فروع صناعة مفيـدة ، وهو فرع ما يزال ينقص جـذع وطننا القوى المتنوع .

« ولكن اليكم ما حدث : أمس ، فى الساعة الرابعة والنصف ، وصل الى محل ذلك الرجل الأجنبى ، على حين فجأة ، رجل سمين جداً قد أخذ السكر منه كل مأخذ ، فما ان دفع ثمن تذكرة الدخول ، حتى مضى يقتحم فم التمساح دون أن ينبّه أحداً ، فلم يملك التمساح الا أن يبتلعه ، ولو بدافع غريزة البقاء وحدها تحاشياً للاختناق. وما كاد الرجل المجهول يهوى فى جوف التمساح حتى نام نوماً عميقاً .

« ولم تنفع لا صرخات صاحب التمساح ولا دموع أسرته المروّعة. وعبثاً حاولوا تهديد السكران باستدعاء الشرطة ، فما من شىء أحدث فى السكران أى أثر ، وكان السكران لا يزيد على أن يضحك مقهقهاً بوقاحة وهو فى قرارة التمســـاح ، وعلى أن يحتج قائلاً انه سيعاقب التمســـاح جَلْداً بالسياط (هكذا) ، بينما كان الحيوان اللبون المسكين الذى اضطر الى بلع لقمة ضخمة كهذه اللقمة يذرف دموعاً غزيرة . وأصرّ الدخيل على أن لا يخرج .

« اننـا لا نعرف كيف نُعلل وقائع تبلغ هـذا المبلغ من التوحش والهمجية ، وتدل على أننا مانزال بعيدين عن النضج بعداً كبيراً *، وتحط من قدرنا فى نظر الأجانب . ان هذا الميل الى الجنون ، وهو جوهر خلقنا الروسى ، قد تجلى فى هذه الواقعة على أوضح نحو .

« ومن حق المرء أن يتساءل : ماذا يمكن أن تكون نية هذا الرجل المزعج ؟ أتراه كان ينشد مأوى دافئـاً مريحـاً ؟ ولكن أليست العاصمة ملأى بالمنازل التى تضم مســاكن مريحة بخســة الأجـور ، مع ماء وغاز فى السلالم ، وحرّاسُها سويسريون ؟ ثم اننا نلفت نظر قرائنا الى القسوة

الشديدة التى تشتمل عليها معاملة كهذه المعاملة لحيوان منزلى • ان القراء يعلمون أن من الصعب على هذا التمساح أن يهضم كتلة تبلغ هذا المبلغ من الضخامة • فالحيوان المسكين العاثر الحظ قابع الآن فى مكانه مهدم القوى منتفخ البطن ينتظر الموت وسط آلام مبرحة لا تطاق • ان المحاكم فى أوروبا قد بدأت ، منذ زمان طويل ، بمحاكمة أولئك الذين يعاملون الحيوانات المنزلية معاملة خالية من الروح الانسانية • أما فى بلادنا ، فرغم شيوع الاضاءة على الطريقة الأوروبية ، ورغم رصف الطرق على الطريقة الأوروبية ، ورغم بناء المنازل على الطريقة الأوروبية ، سينقضى وقت طويل قبل أن نقتص من الأشخاص الذين يرتكبون مثل هذه الأعمال الاجرامية •

« أصبحت المنازل جديدة ، ولكن أوهام العقول ما تزال عتيقة ! *

« بل هل المنازل جديدة حقاً ؟ اننا لا نستطيع أن نقول هذا دائماً عن سلالمها ؟ فكم من مرة أشرنا فى أعمدة هذه الجريدة الى القذارة المؤسفة الموجودة منذ أشهر على درجات السلم الخشبى من عمارة التاجر لوكيانوف الواقع على شارع بطرسبرجسكايا ، هذا السلم الذى هو هيكل متداع كان يشكل خطراً جدياً على الخادمة آفيميا سكابيداروفا ، التى تضطرها ضرورات عملها الى صعوده دائماً لنقل الماء والحطب الى فوق • وقد حدث ما تنبأنا به بالفعل ، حدث أمس ، فى الساعة الثامنة والنصف من المساء ، حين سقطت آفيميا سكابيداروفا وهى تحمل صحفة الحساء ، فانكسرت ساقها •

« ونحن نتساءل مع ذلك هل سيكون من شأن هذا الحادث أن يدفع لوكيانوف أخيراً الى أن يعزم أمره على اصلاح سلم منزله ••• نتساءل هذا التساؤل لعلمنا بأن الروسى رجل عنيد •

« وبانتظار ما سيحدث ، فاننا نُعلم القارىء أن الخادمة التى كانت ضحية هذا الاهمال الروسى قد نُقلت الى المستشفى .

« ولن نملّ كذلك من أن نكرر ما سبق أن قلناه مراراً من أن على البوابين ، حين يزيحون الثلج عن أرصفة شارع فيبورجسكايا ، أن يتخذوا بعض الاحتياطات تحاشياً لتلويث أحذية المارة بالطين . لماذا لا يكوّمون الثلج أكداساً صغيرة ، كما يفعل الناس فى أوروبا ؟... الخ ، الخ ... » .

نظرت الى بروخور سافتش مندهشاً بعض الاندهاش وسألته :

ـ ما هذا الكلام ؟

ـ أى كلام ؟

ـ عجيب ! يشفقون على التمساح بدلاً من أن يرثوا لحال ايفان ماتفئتش !

ـ سيان أن تكون الشفقة على هذا « الحيوان اللبون » أو على ذاك ! فانما المهم أن يشفقوا ! أليس هذا على الطريقة الأوروبية ؟ ان الناس فى أوروبا يشفقون على التماسيح أيضاً ! هىء هىء هىء !...

قال بروخور سافتش العجيب هذا الكلام ، ثم استغرق فى أوراقه ولم ينطق بعد ذلك بكلمة .

وضعت جريدة « الشعرة » فى جيبى ، وجمعت مئونة من الجرائد لصاحبى المسكين ايفان ماتفئتش ، ثم خرجت من الدائرة رغم أن موعد الخروج ما يزال بعيداً ، وذهبت الى « الممر » لأعرف ما يجرى فيه ولو من بعيد ، ولأجمع مختلف الآراء .

واذ كنت أتنبأ أن يكون الزحام هنالك شـديداً حتى ليكاد النـاس يدوس بعضهم بعضـاً ، فقـد رفعت ياقة معطفى من قبيل التخفى ، لأننى كنت أشعر بشىء من الخجل لا أدرى لماذا ، فنحن أناس لمَّا نألف كثرة الكلام عنا ٠

ولكننى أشعر أننى ليس من حقى أن أذكر احسـاساتى الخاصة ، المبتـذلة ، الخالية من الشـعر ، تجـاه حادث يبلغ هذا المبلغ من البروز والتفرد ٠

حواش

صفحة

٥ ★ لا بد من الاشـــارة الى أن كلمة «القبو» هنا يجب أن تفهم على المجاز لا على الحقيقة ، فان بطل هذه القصة لا يسكن قبوا ، وانما هو يسكن غرفة نائية في أقصى المدينة ، كمـا يتضح ذلك من سياق القصة : هـذا الى أن كلمة podpolié الروسية لا تعني طابق القبو في العمارات المتعددة الطوابق في أيامنا هذه ، وانما تعني المكان الذي يقع تحت الارض الخشبية في بيت مبني من خشب ، وفي ذلك المكان انما تختبيء الفئران في العادة متخذة فيه أوكارها او جحورها ، وفي هذا تفسير لما يعمد اليه بطل القصة من تشبيه نفسه بالفأر ٠ ومهما يكن من أمر فان كلمة القبو هنا بمعناها المجازي انما ترمز الى الخفاء الذي تعتصم به النفس مع أفكارها المستسرة وخواطرها المختبئة ٠

٢٨ ★ «كل ما هو جميل ورائع» : تعبير مستمد من الفيلسوف الالماني الشهير «كانت» الذي كان يستشهد به الفلاسفة المثاليون الروس كثيرا ٠

٣٢ ★ « رجل الطبيعة والحقيقة » : الاشارة هنا الى جان جاك روسو٠

٣٥ ★ « فاذا برهن لكم مثلا على أنكم من سـلالة القرود » : في عام ١٨٦٤ نفسه انما ترجم الى اللغة الروسية كتاب تشارلس داروين «أصل الأنواع بالاصطفاء الطبيعي» الذي صدر سـنة ١٨٥٩ ؛ وقد تناولت الصحافة الروسية هذا الكتاب بتعليقات حادة ٠

٣٧ ★ « فاجنهايم » : كان يوجد في بطرسبرج في ذلك الوقت طبيبان من أطباء الاسنان يسميان كلاهما فاجنهايم ٠

٤٥ ★ « لوحة جديرة بالرسام جي » : يتذكر المؤلف هنا لوحة الرسام الروسي الشهير نيكولا جي ، « القديسة سيتا » ، وهي لوحة

صفحة

تنتمى الى المدرسة الواقعية عرضت سنة ١٨٦٣ ، وسيتحدث عنها المؤلف فى « يوميات كاتب » .

٤٥ ★ « كما يروق لكل انسان » : الاشارة هنا الى مقالة كتبها تشرنيشفسكي بهذا العنوان ونشرتها مجلة «المعاصر» ، العدد ٧ من سنة ١٨٦٣ .

٤٦ ★ « سيجد فى الخير منفعته » : عرض تشرنيشفسكى هذه النظرية التى تنتمى الى المذهب النفعى فى مقالة بعنوان « المذهب الأنتربولوجى فى الفلسفة » ، وقد نشرت المقالة سنة ١٨٦٠ .

٤٩ ★ هو هنرى توماس باكل (١٨٢١ ــ ١٨٦٢) الذى عرض هذه النظرية عن التقدم فى كتابه الشهير « تاريخ الحضارة فى انجلتره » الذى ترجم الى الروسية بين عامى ١٨٦٤ و ١٨٦٦ .

٤٩ ★ الاشارة هنا الى حرب الانفصال .

٤٩ ★ الاشارة هنا الى الحرب التى شنتها بروسيا والنمسا على الدانمارك سنة ١٨٦٤ للاستيلاء على هذه الدوقيات الصغيرة .

٥٠ ★ « ستنكا (ستيبان) رازين » : رئيس العصيان الكبير الذى قام به القوقازيون والفلاحون بين ١٦٦٩ ــ ١٦٧١ ؛ وهو رجل جسور قاس .

٥١ ★ « قصر كبير من الكريستال » : يشير دوستويفسكى الى رواية تشرنيشفسكى « ما العمل ؟ » (١٨٦٤) . ففى الحلم الذى تراه بطلة الرواية تبدو الاشتراكية عصرا يسوده « ربيع دائم » و «فرح دائم» ، ويبنى فيه «قصر من حديد وكريستال» .

٥٧ ★ هو آ. اى. آنايفسكى ، كاتب عجيب الخيال مهووس الطبع ضئيل الموهبة كان النقاد يسخرون منه ويتهكمون عليه .

٦٢ ★ « للحيوانات الداجنة » : بالفرنسية فى الأصل .

٧٤ ★ هذه الأبيات هى بداية قصيدة من نظم نكراسوف (١٨٤٦) يخاطب بها الشاعر فتاة سقطت ثم بعثها هو بحبه .

صفحة

٧٩ ★ « كونستا نجوجلو » : شخصية تتحلى بالفضيلة ، تظهر فى الجزء الثانى من كتاب جوجول «النفوس الميتة» .
«بطرس ايفانوفتش» : شخصية تتحلى بالفضيلة أيضا من شخصيات كتاب جونتشاروف « قصة بسيطة » .

٨٠ ★ « ملك اسبانيا » : ان بطل قصة جوجول « يوميات مجنون » يعتقد انه ملك أسبانيا .

١٣٦ ★ « سيلفيو » : بطل قصة بوشكين «طلقة الرصاص» (١٨٣٠) .
و « الحفلة التنكرية » : مسرحية للشاعر ليرمونتوف (١٨٣٥) .
والحوادث فى هذين العملين الادبين تدور على مبارزة .

١٤٣ ★ « ميدان سيينايا » : يقع هذا الميدان فى حى فقير من العاصمة؛ وكانت تحيط به فنادق ومنازل سيئة السمعة .

١٤٤ ★ تقع مقبرة فولكوفو فى جنوب سان بطرسبرج بمنطقة مليئة بالمستنقعات .

١٧٤ ★ آخر بيت من قصيدة نكراسوف التى أورد المؤلف مطلعها فى الصفحة ٨٧

١٩٤ ★ « بطرسبورجسكايا ستورونا » (حى بطرسبرج) : يقع هذا الحى على الضفة اليمنى من نهر نيفا وراء قلعة بطرس وبولس . وهنا انشأ بطرس الأكبر عاصمته التى انتقل مركزها بعد ذلك الى الضفة اليسرى ، وظل هذا الحى أكثر تواضعا وأقل سكانا .

٢١٠ ★ « الخمر الجديدة فى زقاق جديدة » : جاء فى انجيل مرقص من أقوال المسيح (الاصحاح الثانى ، ٢٢) : « وليس أحد يجعل خمرا جديدة فى زقاق عتيقة ، لئلا تشق الخمر الجديدة الزقاق فالخمر تنصب والزقاق تتلف . بل يجعلون خمرا جديدة فى زقاق جديدة » .

٢١٧ ★ « بسلدونيموف ، ماميفروف » : فى القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر كان يسمى أبناء الكهنة ، منذ دخولهم

صفحة

الكهنوت ، باسماء جديدة مشتقة من كلمات يونانية أو لاتينية، كقولهم آنفيتياتروف • وقد صنع المؤلف على هذا القياس اسمى بسودونيموف و ماميفروف •

٢٢٠ ★ من أجل أن يصف دوستويفسكى الاضطراب الشديد لشامل، فانه يستعير اسم اللوحة التى رسمها الرسام برولوف « آخر أيام بومبئى » •

٢٤٣ ★ « كاستنكينتش » : النطق العامى لاسم كونستانتينتش •

٢٤٣ ★ « مفتاح الأحلام » : كتـــاب تهكمى مؤلفه ن•ف• شتربينا ، كانت تتناقله الأيدى فى ذلك الوقت مخطوطا •

٢٤٣ ★ ايفان بانايف (١٨١٢ـ ١٨٦٢) : مؤلف روائى ورجل من رجال المجتمع كان منذ ١٨٤٧ مديرا لمجلة « المعاصر » •

٢٤٤ ★ آندره كرايفسكى (١٨١٠ ـ ١٨٨٩) : ناشر بارع كان يصدر مجلات شتى ، ولكنه ضئيل الحظ من الثقافة ؛ وقد شرع سنة ١٨٦١ فى نشر « المعجم الموسوعى » بمعاونة الحكومة ، فأثار ذلك احتجاج الأدباء • وأما الفراكى فهو تاجر كبير كان عضوا فى هيئة تحرير مجلة « المزارع » سنة ١٨٥٩ •

٢٤٤ ★ جريدة « جولوفشكا » : اسم تهكمى يطلقه دوستويفسكى على جريدة ساخرة راديكالية اسمها « الشرارة » •

٣٠٠ ★ مسز آن رادكليف (١٧٦٤ ـ ١٨٢٣) ، كاتبة روائية انجليزية راجت رواياتهـا المرعبة رواجا كبيرا فى أوروبا كلهـا • وقـد ترجمت كتبها الى الروسـية ، فى عهد الكسندر الاول ، أكثر مما ترجمت مؤلفات أى كاتب آخر •

٣٠٠ ★ « بلاد العجائب المقدسة » : مطلع قصـيدة تدعو الى السلافية للشاعر الكسى ستيبانوفتش خومياكوف (١٨٠٤ ـ ١٨٦٠) ، عنوانها « أحلام » (١٨٤٣) ، وفيها يقول :

صفحة

لشد ما يحزنني ان أرى الظلمات
تلف الغرب البعيد
« بلاد العجائب المقدسة » ٠

٣٠١ ★ « شارع أشجار الزيزفون » : شارع رئيسى فى برلين ٠

٣٠١ ★ ان صور الجدران فى متحف برلين ، للرسام فلهلم فون كاولباخ (١٨٠٥ ـ ١٨٧٨) ، كانت تجتذب الاهتمام بجدتها وطرافتها ٠

٣٠٢ ★ فزيفولود فلاديميروفتش كرستوفسكى (١٨٤٠ ـ ١٨٩٥) : ان هذا الشاعر الذى سيتخصص فى الروايات الخفيفة كان قد بدأ حياته الادبية بقصائد غزلية جنسية جمعت فى ديوان سنة ١٨٦٢ ٠

٣٠٢ ★ يعرف القارىء أن دوستويفسكى قد تخرج مهندسا معماريا من « المدرسة العسكرية للهندسة » ٠

٣٠٢ ★ نيكولا ميخائيلوفتش كارامازين (١٧٦٦ ـ ١٨٢٦) : شاعر وروائى ومؤرخ ، هو الذى أدخل «العاطفية» الى روسيا ٠ ويعد كتابه «رسائل مسافر» أثرا أدبيا جميلا ٠ ويشير دوستويفسكى هنا الى فقرة وردت فى رسالة مؤرخة من ايجليزو فى ١٤ آب (أغسطس) ١٧٨٩ ، وفيها يقول كارامازين : «ابتهجت ابتهاجا عظيما وكدت أركع مستغفرا نهر الراين أننى تكلمت أمس عن شلاله بقليل جدا من الاحترام »

٣٠٧ ★ هو دينيس ايفانوفتش فونفيزين (١٧٤٤ ـ ١٧٩٢) ، الخالق الحقيقى للكوميديا الروسية الحديثة ٠ أحسن آثاره مسرحية « البريجادير » التى لقيت نجاحا عظيما ٠ وقد قام سنة ١٧٧٨ برحلة الى فرنسا لاستشارة الأطباء بمدينة مونبلييه ، فأرسل الى أصدقائه من ليون ومونبلييه وباريس رسائل تشتمل على تفاصيل شائقة ، ولكنها تدل فى الوقت نفسه على كره شديد للفرنسيين ، مع أنه قد ظل طول حياته يترجم أو يقلد (كما يقول بعضهم) هؤلاء الفرنسيين الذين شهر بهم ذلك التشهير٠

والجمـــلة التى يوردها دوســتويفسكى توجد فى الرســالة الرابعة والستين الذى أرسلها من ايكس لاشابيل فىشهر ايلول (سبتمبر) ١٧٧٨ الى الجنرال الكونت بطرس ايفانوفتش بانين، وهذا نصها الدقيق : « الفرنسى محروم من العقل ، ولو وتى عقلا لعد ذلك أكبر شقاء ، لأن العقـل سيضطره الى التفكير ، بينما هو يستطيع أن يتسلى » ·

٣٠٧ ★ بيساريون جريجوريفتش بيلنسكى (١٨١١ ـ ١٨٤٨) : ناقد شهير ، كان يمجد الغرب ويدعو الى الاقتداء بالغرب ، ولا سيما فى أواخر حياته ·

٣٠٨ ★ بطرس ياكوفلفتش تشادايف (١٧٩٤ ـ ١٨٥٦) : كتب باللغة الفرنسية كتابا بعنوان « رسائل فلسفية » ، وفيه بلغ من التهكم على « الفكرة الروسية » أن نيكولا الأول اعتقد أن من المستحسن أن يعد مصابا بلوثة عقلية · والحق أن دعاة «النزعة الغربية» قد بالغوا مبالغات لعلهم لم يؤمنوا بها فى يوم من الايام ، ولعل خصومهم لم يقلوا عنهم غلوا كذلك ·

٣٠٨ ★ آيدتكونن محطة حدود بروسية على خط برلين ـ بطرسبرج ·

٣٠٩ ★ ان بيلوبياتكين هو بطل قصة كتبها ابان شبابه الشاعر نيكولا الكسيفتش نكراســوف (١٨٢١ ـ ١٨٧٨) ، وعنــوانها : « الثرثار ، يوميات آ· اى· بيلوبياتكين ، مواطن بطرسبرج» ، وهى نوع من السرد لوقائع كتبها المؤلف شعرا مقفى · وهذا هو المقطع الذى يشير اليه دوستويفسكى :

ما دمت اشعر بحماسة شعرية
تشب فى نفسى
فدعونى ارسم لكم صورتى
مستمدة من حياتى ·
كنت فى الماضى شديد الحماقة
احلم مثلكم تماما ،
واحلق فى الأثير

صفحة

و « احب ان اهرب الى سويسرا »
ولكن صانع قدرى
ضربنى بعصاه ضربات كبيرة
فاسقطنى من الأثير
واجلسنى وراء مكتب ٠

٣١٠ ★ ان مربية بوشكين هذه قد أطلعته على الفولكلور الروسى ، فساهمت كثيرا فى تنمية عاطفته القومية الشعبية ٠ فبفضل هذا الاتصال الاول بأرض الوطن انما استطاع بوشكين الذى ربى على الطريقة الفرنسية والذى يعترف بأنه يجيد استعمال اللغة الفرنسية أكثر من اللغة الروسية ، أن يتحرر شيئا فشيئا من التأثيرات الاجنبية حتى أصبح أكثر الشعراء الروس تمثيلا للقومية الروسية ٠

٣١٠ ★ اشارة الى قصة الشاعر بوشكين «بنت الضابط» (١٨٣٦) ، التى كان بطلها المتمرد القوزاقى الشهير بوجاتشيف ٠

٣١٠ ★ اشارة الى كتاب بوشكين « أقاصيص المرحوم ايفان بتروفتش بيلكين » (١٨٣١) التى نسبها بوشكين الى رجل من صغار مالكى الاطيان ٠

٣١٠ ★ اشارة الى رواية بوشكين « أوجين أوجنين » (١٨٢٤ ـ ١٨٢٨)، وهى رواية كتبها بوشكين شعرا وفيها يصف الشاعر تقاليد الارستقراطية الروسية وصفا ساخرا ٠

٣١٠ ★ سيعدد دوستويفسكى فى الفصل التالى بعض هذه الغرائب التى تعلق بها أهل مؤسكو ، ولا سيما طريقة قص الذقن ، وكذلك ما زعم بعضهم أنه «لباس قومى» ٠ فان هذه الغرائب قد أساء بها «دعاة السلافية» الى عقيدتهم مهما يكن حسن نياتهم ٠

٣١٢ ★ دام « المعرض العام » بلندن من أول أيار (مايو) الى أول تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٨٦٢ ٠

٣١٤ ★ « كوكوشنيك » : قماش مطرز مزدان بلآلىء يوضع على الرأس جزءا من اللباس القومى القديم الذى كانت تلبسه النساء

٣١٤ ★ لعــل دوستويفسكى يشير هنـا الى كونستانتان سيرجيفتش آكساكوف (١٨١٧ ــ ١٨٦٠) الذى كان من غلاة «السلافية» ، وقد أخذ عليه تورجنيف هـذا الشذوذ فى كتابه « مذكرات صياد » ٠

٣١٥ ★ كان ميشيل افجرافوفتش سالتيكوف (١٨٢٦ ــ ١٨٨٩) ، وهو روائى روسى ساخر ، قد نشر فى سنتى ١٨٥٦ و ١٨٥٧ كتابه « صور من الأرياف » ، باسم مستعار هو اسم شتدرين الذى أصبح اسما شهيرا ٠

٣١٦ ★ جريجورى الكسندروفتش بوتيومكين، امير توريد ، أثير كاترين الثانية الشهير (١٧٣٥ ــ ١٧٩١) ٠ ولعل العبارة التى يوردها دوستويفسكى هنا « مت يا دنيس ، فلن تكتب شيئا خيرا من هذا » قد افلتت منه أثناء العرض الاول لمسرحية « لبريجادير»٠

٣١٧ ★ يروى دوستويفسكى هنا عن الذاكرة بيتين من قصيدة مشهورة للشــاعر جابرييل رومانوفتش دريافين (١٧٤٣ ــ ١٨١٦) بعنـــوان « الاستيلاء على فارصوفيا » (١٧٩٤) ٠ وفى تلك القصيدة يقول الشاعر عن سوفوروف :

يقف على الجبال فتنشق الجبال
ويقف على المياه فتغلى المياه ٠
اذا لمس مدينة تهدمت المدينة ٠
وبيده يقذف الأبراج فتخترق الأبراج السحاب ٠
الطبيعة ترتعش وتصفر خوفا منه ٠
اعواد القصب وحدها يرأف بها ٠

٣١٨ ★ « كوزما بروتكوف » : نموذج موظف من ابتكار الشاعر الكسى كونستانتينوفتش تولســتوى (١٨١٧ ــ ١٨٧٥) وقريبيه الكسى وفلاديمير يمتشوينيكوف ٠ لقـد نشروا بهـذا الاسم المستعار تقليدات هزلية لشعراء معاصرين ٠ أما «دفتر جدى» الذى دســوه فى مجلة « المعاصر » التى يصـــدرها بانايف ونكراسوف ، فقد نســبوه الى جد كوزما بروتكوف ، الميجر

فيدوت كوزمتش بروتكوف · وقد ضم هذا « الدفتر » سبع عشرة حكاية أو نادرة · والنادرة التى يرويهـا دوستويفسكى هى الثالثة فى المجموعة ·

٣٢٠ ★ بيت من قصيدة للشاعر ليرمونتوف (١٨١٤ ـ ١٨٤١) عنوانها « تأمل » (١٨٤٠) ·

٣٢٠ ★ من مسرحية للشـــاعر جريبويدوف عنوانها « كثير من الذكاء ضرر » ، الفصل الثانى ، المشهد الثانى ·

٣٢٣ ★ الكابتن كوبثكين الذى يتحدث عنه جوجول فى كتابه «النفوس الميتة » ، الجزء الأول ، الفصل العاشر ·

٣٢٥ ★ بازاروف ، كوكشينا: شخصيتان من شخصيات كتاب تورجنيف « الآباء والأبناء » الذى صدر ســـنة ١٨٦١ وأثار مساجلات عنيفة ·

٣٢٩ ★ تشاتسكى : الشخصية الرئيسية فى المسرحية الهزلية الشهيرة التى كتبها الكسندر سيرجيفتش جريبويدوف (١٧٩٥ـ١٨٢٩) وعنوانها «كثير من الذكاء ضرر» (نشرت سنة ١٨٣٣) · وجميع الأسماء التى سيجىء ذكرها بعد ذلك هى أسماء شخصيات فى هذه المسرحية · وان شخصية مولتشالين هى نموذج الموظف الوصولى · والشعر المذكور : «ملاذا للعاطفة الجريحة المهانة» ، مستمد من المشهد الختامى لهذه المسرحية (الفصل الخامس ، المشهد الرابع عشر) ·

٣٢٩ ★ « السامودور » : تعنى هذه الكلمة شخصا مزهواً بنفسه رغم أنه محدود العقل غبى العناد · وقد راجت هذه الكلمة بفضل المؤلف المسرحى ألكسندر نيكولايفتش أوستروفسكى (١٨٢٣ـ ١٨٨٦) الذى تزخر مسرحياته بنماذج « للسامودور » آسرة أخاذة ·

٣٣٠ ★ ريبتلوف ، سكالوزوبوف ، فاموسوف ، خلستوفا، مولتشالين: شخصيات من مسرحية جريبويدوف الآنف ذكرها ·

صفحة

٣٣١ ★ كلمة المؤرخ والناقد نيكولا الكسيفتش بولفوى (١٧٩٦ـ١٨٤٦)، ونصها الدقيق ما يلي : « أنا أعرف روسيا واحب روسيا ، وروسيا تعرفني وتحبني » ، وقد جلبت هذه الكلمة لقائلها سخريات معاصريه ، ولا سيما بيلنسكى .

٣٤٨ ★ من نصين في رؤيا يوحنا (الاصحاح السابع ، ٩ ؛ والاصحاح السادس ، ١٠) ، وقد كان دوستويفسكى يكثر من قراءة هذا السفر .

٣٥٧ ★ «الزوجة والزوج وعشيق الزوجة»، رواية من تاليف بول دوكوك ترجمت الى الروسية سنة ١٨٣٣ .

٣٦٦ ★ انجيل متى (الاصحاح السادس ، ٣٣) .

٣٦٧ ★ « كل واحد للجميع ، والجميع لكل واحد » : هذا هو الشعار الذى زين به اتيين كابيه كتابه الشهير « رحلة الى ايكاريا » (١٨٤٠) . وفي عام ١٨٤٩ أنشأ كابيه في تكساس وحدة انتاجية اشتراكية على مبادىء فورييه ، ثم انتزعت اداوتها منه بعد منازعات كثيرة ودعوى مدوية .

والكومونة الثانية التى قامت على مبادىء فورييه أنشاها سنة ١٨٥٣ في تكساس فكتور كونسيدران .

٣٦٨ ★ «أيام حزيران» : اشارة الى ثورة العمال من ٢٣ الى ٢٦ حزيران (يولية) سنة ١٨٤٨ ، وهى الثورة التى سحقها جافينياك .

٣٧٠ ★ بعد اخفاق حملة غاريبالدى على روما ، هزمه الجيش الملكى فى آسبرومونت فى التاسع والعشرين من شهر آب (أغسطس) ١٨٦٢ (ان هـذا التـاريخ يسمح لنا بتحديد فترة رحلة دوستويفسكى) .

٣٧١ ★ ترأس غاريبالدى الحكومة الثورية في نابولى منذ السابع من شهر ايلول (سبتمبر) حتى الثانى من شهر تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٨٦٠ .

٣٧٦ ★ الاشارة هنا الى الثورة الفرنسية .

صفحة

٣٧٧ ★ الأمير جيروم نابوليون بونابرت (١٨٢٢ ـ ١٨٩١) ، قريب نابوليون الثالث ، كان عضوا بمجلس الشيوخ ٠

٣٧٩ ★ « جول فافر » (١٨٠٩ ـ ١٨٨٠) : محام وسياسى ، عضو فى الهيئة التشريعية منذ سنة ١٨٥٨

٣٨٠ ★ « رجل الطبيعة والحقيقة » : استشهاد غير دقيق بعبارة واردة فى كتاب روسو «الاعترافات» ، وفيها يقول جان جاك : « أريد أن أرى أقرانى البشر رجلا تظهر فيه كل حقيقة الطبيعة ٠ وهذا الرجل هو أنا » ٠

٣٩٥ ★ يستوحى دوستويفسكى كلامه فى هذه الصفحـــات من ملهاة ألفها اميل أوجييه بعنوان « السيد جيران » ٠

٤٠٣ ★ كان « الممر » بمدينة بطرسبرج يضم متــاجر ، ويضم كذلك قاعات للموسيقى والمحاضرات والمعارض ٠

٤١٠ ★ « بطرس لافروف » (١٨٢٣ ـ ١٩٠٠) : ناقد وضعى ألقى سنة ١٨٦٠ ثلاث محاضرات عن « أهمية الفلسفة الحديثة » ٠

٤١٠ ★ نيكولا ستيبانوف (١٨٠٧ ـ ١٨٧٧) : هو رسام كاريكاتورى، ومحرر فى جرائد هجـائية مثل جريدة « الشرارة » وجريدة « اليقظة » ٠

٤١٧ ★ يستهدف دوستويفسكى هنا جريدة « رسول سان بطرسبرج» التى كان يصدرها ف٠ف٠ كورش ؛ وجريدة «الصوت» التى كان يصـــدرها كرايفسكى ، مستفيدا من التشابه اللفظى بين الكلمتين الروسيتين Golos (ومعناها الصوت) و Volos (ومعناها الشعرة) ٠

٤٢٤ ★ « التملك الجماعى » : أوجب قانون الاصـــلاح الزراعى الصادر سنة ١٨٦١ أن لا تكون الارض التى يفلحها الأقنان ملكا لهم ، وانما تقسمها بينهم الجماعة الفلاحية التى تتصرف فيها تصرف المالك ٠ وهذا النظام البدائى من التملك الجماعى قد تحمس له أنصار السلافية وتحمس له جزء من الاشـــتراكيين ، وهاجمها الاقتصاديون الليبراليون مهاجمة عنيفة ٠

صفحة

٤٣٦ ★ « ابن الوطن » : جريدة لبرالية ظهرت منذ ١٨٦٤

٤٣٦ ★ « جارنييه باجيس » : (١٨٠٨ ـ ١٨٧٨) : جمهورى ، عضو في الحكومة المؤقتة سنة ١٨٤٨ ، عضو فى الهيئة التشريعية منذ عام ١٨٦٤ ٠

٤٣٦ ★ « آندره كرايفسكى » (١٨١٠ ـ ١٨٨٩) : ناشر بارع كان يصـدر عدة مجلات ، ولكنه ليس على حظ كبير من الثقافة ؛ شرع سنة ١٨٦١ فى اصدار « معجم موسوعى » بمعاونة الحكومة ، فأثار ذلك احتجاج الادباء ٠

٤٣٦ ★ « آندره الكسندروفتش » : هو آندره كرايفسكى نفسه الذى تحدثنا عنه في الحاشية السابقة ، والذى كان قليل الحظ من الثقافة ، ولا يمكن أن يشبه بالكاتب والشاعر الفرنسى ألفرد دو موسيه ، بوجه من الوجوه ٠

٤٣٦ ★ « أوجينى تور » : هو الاسم الأدبى المستعار للكونتيسة سالياس دو تورنمير ، التى كان اسمها سوخوفو ـ كوبيلين (١٨١٥ ـ ١٨٩٢) ، وهي أديبة روسية ، روائية وناقدة ٠

٤٤٣ ★ « ان المتوحشين يحبون الاستقلال ، ولكن الحكماء الحقيقيين يحبـون النظام قبل كل شيء » : استشهاد غير دقيق بجملة وردت فى قصة لكارامازين عنوانها «مارتا الحاكمة» نشرت سنة ١٨٠٢ ، وهى تصف زوال استقلال فوفوجورود على يد المستبد حنا الثالث ، وأصل الجملة ما يلى : « الشعوب المتوحشة تحب الاستقلال ، أما الشعوب الحكيمة فانها تحب النظام ، ولا نظام بدون سلطة مستبدة » ٠

٤٥٦ ★ « الصحيفة » : اشارة الى «صحيفة سان بطرسبرج» ٠

٤٥٦ ★ « مطعم بوريل » : مطعم من أشهر مطاعم سان بطرسبرج ، وكان صاحبه رجلا سويسريا ٠

٤٥٧ ★ « بارجولوفو ، بافلوفسك » : من أماكن الاصطياف قرب سان بطرسبرج ٠ أما «غدران برييسنا» فهى توجد فى ضاحية تقـع فى الجنوب الغربى من موسكو ؛ وأما «ساموتيوكا» ،

صفحة

فجدول ماء بمدينة موسكو يجرى فى أنبوب ويغطيه بلاط . ان سخرية ها هنا واضحة .

٤٥٩ ★ « ما نزال بعيدين عن النضج بعدا كبيرا » : جملة للاقتصادى لامانسكى فى خطاب القاه سنة ١٨٥٩ ، وقد راجت هذه الجملة وجرت بها ألسن الناس كثيرا .

٤٦٠ ★ « أصبحت المنازل جديدة ولكن أوهام العقول ما تزال عتيقة» : جواب تشاتسكى فى مسرحية جريبويدف الشـهيرة « كثير من الذكاء ضرر » .

فهرس

تقديم ٥

فى قبوى ١٩

بمناسبة الثلج الذائب ٧٤

قصة اليمة ١٩٩

ذكريات شتاء عن مشاعر صيف ٢٩٧

الفصل الأول ـ بمثابة مقدمة ٢٩٩

الفصل الثانى ـ فى القطار ٣٠٧

الفصل الثالث ـ أمور نافلة تماما ٣١٣

الفصل الرابع ـ أمور غير نافلة بالنسبة الى مسافرين ٣٣٤

الفصل الخامس ـ « بعل » ٣٤٣

الفصل السادس ـ بحث فى البورجوازى ٣٥٥

الفصل السابع ـ تتمة ما سبق ٣٧٠

الفصل الثامن ـ «حبيبى» و «غزالتى» ٣٨٦

التمساح ٤٠١

حواش ٤٦٥

الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الأول

الفقراء
المثل
قلب ضعيف

المجلد الثاني

نيتوتشكا نزفانوفنا
الليالي البيضاء
بروخارتشين
الجارة
المهرج
السارق الشريف
البطل الصغير
قصة في تسع رسائل
شجرة عيد الميلاد والزواج
زوجة آخر، ورجل تحت السرير

المجلد الثالث

قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها
حلم العم

المجلد الرابع

مذلون مهانون

المجلد الخامس

ذكريات من منزل الأموات

المجلد السادس

في قبوي
قصة اليمة
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف
التمساح

المجلد السابع

المقامر
الزوج الابدي

المجلد الثامن

الجريمة والعقاب -١-

المجلد التاسع

الجريمة والعقاب -٢-

المجلد العاشر

الأبله -١-

المجلد الحادي عشر

الأبله -٢-

المجلد الثاني عشر

الشياطين -١-

المجلد الثالث عشر

الشياطين -٢-

المجلد الرابع عشر

المراهق -١-

المجلد الخامس عشر

المراهق -٢-
قصص

المجلد السادس عشر

الاخوة كارامازوف -١-

المجلد السابع عشر

الاخوة كارامازوف -٢-

المجلد الثامن عشر

الاخوة كارامازوف -٢-

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتبًا اجتماعيا يدافع عن "الفقراء" والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقًا أخذ بعضهم يشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائدًا سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف